كفاحي

MEIN KAMPF

أدولف

هتلر



بيسان

كفاحي

أدولف هتلر

كفاحي

ترجمة

لويس الحاج

الطبعة الاولى : 1963
الطبعة الثانية : 1995

مقدّمة

لم يكن أدولف هتلر رجلاً عادياً كي تلفّه عجلة الزّمن ، وتنثره وراءها غباراً تضيع آثاره في أرجاء الكون الفسيح . وليس أدولف هتلر مُلكاً للشعب الألماني وحده ، إنّه واحد من العظماء القلائل الذين كادوا يوقفون سير التاريخ ويبدّلون اتّجاهه ويغيرون شكل العالم ، فهو إذنْ مُلك التاريخ . ولئن يكن هتلر الجندي لم يخلف وراءه سوى أسطورة يشوبها واقع هو المأساة بعينها : مأساة دولة انهارت أحلامها ونظام حكم تقوّضت دعائمه وحزب تفرق أركانه أيدي سبأ ، فهتلر رجل العقيدة قد خلّف تراثاً فكرياً هيهات أن يبلى ، وهذا التراث الفكري يشمل السياسة والاجتماع والعلم والفن والحرب كعلم وفنّ .

والاشتراكيّة الوطنيّة التي بشّر بها أدولف هتلر والتي بسط معالمها في كتابه «كفاحي» وشرح مبادئها في خطبه قبل تسلّمه زمام الحكم ، وفي غضون الأعوام الثلاثة عشر التي قضاها على رأس الأمّة الألمانيّة ، هذه الاشتراكية الوطنيّة لم تمتْ بموت من بشّر بها ، بل نمت بذورها تحت كلّ كوكب واتخذ منها دعاة القوميّات المتطرّفة سلاحاً يشهرونه في وجه الدولية الثالثة ومبادىء كارل ماركس . وحتّى الذين حاربوا الاشتراكيّة الوطنيّة وذهبوا إلى حدّ التعاون والشيوعيّة على سحق النازية ، بدأوا يدركون أهمية المبادىء التي وضعها هتلر وهو بَعْدُ مناضل سياسيّ رخص العود ، كعامل فعّال في وقف تيّار المبادىء اليساريّة المتطرّفة ، وإن ترتّب على تطبيق هذه

المبادىء قيام دكتاتوريّة الحزب الواحد وتوسل هذا الحزب الحاكم بالقوّة والعنف والمكيافيليّة لبلوغ أهدافه .

من يتتبّع اليوم تطوّر الصراع بين المعسكرين الشيوعي والديموقراطي يلمس حيرة المعسكر الثاني وارتباكه في محاولته صدّ تيّار مبادىء كارل ماركس التي ازدادت انتشاراً بعد الحرب العالميّة الثانية . فهو يتوسل إلى ذلك تارة بالمساعدات الماليّة والاقتصادية والفنيّة يقدّمها إلى الشعوب ، وطوراً بتطوير نظمه بحيث توازي النظام الشيوعي دون أن تحاكيه . وبديهي أن تذكرنا جهود المعسكر الديموقراطي هذه بما فعله هتلر لمواجهة التيّار الشيوعي في بلاده ، ولكننا لا نستطيع فهم جهود الرجل على حقيقتها ما لم نطّلع على المبادىء التي ارتكزت عليها في كتاب « كفاحي » الذي جعل منه النازيون « إنجيل الاشتراكية الوطنيّة » .

والترجمة التي نضعها بين يدي القارىء لكتاب « كفاحي » لم يسبق أن قدمت إلى الناطقين بالضاد بأمانة ، لأنّها مأخوذة من النسخة الأصليّة لمؤلّف أدولف هتلر ، أي النسخة التي لم تمتدّ إليها يد الرقابة بالحذف والتعديل . وقد حرصنا على نقل آراء هتلر ونظريّاته في القوميّة وأنظمة الحكم والأعراق دون أدنى تصرّف لأنّ هذه القضايا لا تبلى جدّتها ولأنّنا في دنيا العرب لا نزال نخبط في الحقول الثلاثة خبط عشواء .

لويس الحاج

هتلر واليهود

الفصل الأول

١

طفولتي

شاء حسن الطالع أن أبصر النور في برونو ، المدينة الصغيرة الواقعة على الحدود الفاصلة بين ألمانيا والنمسا الدولتين الألمانيتين اللتين يجب أن يكون اتّحادهما مجدّداً في رأس الأهداف التي نعمل لها في الحياة .

فالنمسا الألمانية يجب أن تعود إلى حضن الوطن الألماني الأكبر ، لأن الدم الواحد هو ملك الوطن الواحد . ولن يكون الشعب الألماني ذا حقّ في أي نشاط استعماري ما لم يجمع أبناءه في دولة واحدة ، ومتى احتوى الرّيخ أبناءه جميعاً يمسي عاجزاً عن إعالتهم ، ومن العوز ينشأ حقّ هذا الشعب في الاستيلاء على أراض أجنبيّة . عندئذ تتخلى السكة عن مكانها للسيف وتعدّ دموع الحرب حصاد عالم الغد .



أدولف هتلر في عامه الأول

أبصرت النور في العام ١٨٩٠ وكان والدي موظّفاً جمركيّاً ذا مسلك مثالي ، وبعد إحالته إلى التقاعد عاد بعائلته إلى مدينة لانز مسقط رأسه ثم انتقل بنا إلى قرية « لامباخ » حيث انصرف إلى استغلال أرض كان يملكها . وفي

لامباخ ومدرستها وفي علاقاتي مع رفاقي بدأتْ أفكاري الشخصيّة تطبع تصرّفاتي بطابع خاصّ ؛ وبالرغم من حداثة سنّي رحت أفكر في المستقبل ، فما استهوتني مهنةٌ ولا حرفة وما راودني قطّ ميل إلى النسج على منوال والدي ، فقد بدت لي الوظيفة وكأنها حبلٌ يشدّ بالمرء دائماً إلى أسفل . وخُيّل إليّ وأنا أمتحن موهبتي الخطابيّة في كلّ مرّة كنت أحاول إقناع رفاقي بما يبدو لي صواباً أني خُلقت محرِّضاً وقائداً .

وفي أوقات الفراغ كنت أغزو مكتبة والدي وأنكبّ على تصفّح كتب التاريخ والمجلاّت المصوّرة ، فوقعت ذات يوم على مجلّة كانت تصدر في



والدة أدولف هتلر



والد أدولف هتلر

العام ١٨٧٠ ، وفيها وصف أخّاذ للحرب بين بروسيا وفرنسا . وقد تساءلت وأنا أتتبّع خطى الجيش البروسيّ المظفّر : أين كان ألمان النمسا يومئذ ؟ ولمَ تخلّف والدي وسائر النمسويين عن السير في موكب النصر ؟ وهل ثمّة فرق

بين الألمان الذين هزموا جيش نابوليون الثالث وبين ألمان النمسا ؟

• • •

لم يفُتْ والدي أنّ الدّروس الكلاسيكيّة لا تستهويني وكان هو يُؤثر أن يراني رجلاً عمليّاً فحاول صرفي عن العلوم النظريّة بنقلي من المدرسة العاديّة إلى إحدى مدارس الفنون ، ووضع نصب عينيه أن يجعل مني موظفاً . ولم يَدُرْ في خلده قطّ أني سأقاوم إرادته ، لهذا كان وقع رفضي شديداً على نفسه ، وعبثاً حاول أن يبهرني بمغريات الوظيفة التي ذاق هو حلوها ومرّها، وقد آلمه وحزّ في نفسه أن أصارحه ، وأنا في الحادية عشرة،بأني لن أصير ما كان هو : موظّفاً سجين مكتبه، ولكنّي وافقت على الانتقال من المدرسة إلى معهد الفنون الجميلة ، وسرعان ما اكتشفت أني ذو موهبة في الرسم ، فلمّا فاتحني والدي مجدّداً برغبته في أن يراني موظّفاً ، كان جوابي أني سأكون مصوّراً أو رسّاماً ، فأغضبه جوابي واستعان بوالدتي على إقناعي بفساد هذا الاتجاه ، فتشبّثت برأيي وتشبّث هو برأيه ، وأخرجني من معهد الفنون ليعيدني إلى المدرسة العادية ، فكانت له الغلبة ، ولكني ثابرت على إنماء موهبتي وأهملت دروسي الأخرى باستثناء الجغرافيا والتاريخ اللذين برزت فيهما أقراني جميعاً .

واليوم إذ أستعيد ذكريات ذلك العهد أشعر بأني مدين له بصيرورتي وطنيّاً متطرّفاً ، فقد انطبع في ذهني وأنا أدرس التاريخ وأدوّن ملاحظات أستاذي الدكتور ليوبولد بوتش ، أن النمسا جزء من ألمانيا لا يتجزأ ، وأنّ زوالها كدولة مستقلة أمر حيوي بالنسبة إلى الأمّة الألمانيّة .

وقد شاءت الأقدار أن تطلق يدي في أمر مستقبلي ، فتوفّي والدي فجأة وأنا بعد في الثالثة عشرة ، فأخذت والدتي على عاتقها تحقيق ما كان والدي يودّ تحقيقه ، أي إلحاقي بإحدى الوظائف الحكوميّة حالما أتمّ ربيعي الثامن عشر ، ولم أشأ أنا أن أجبهها بما جبهت به عزيزنا الراحل من رفض وإصرار

على الرفض ، ولكن القدر تدخّل لمصلحتي فأصبت بنزلة شعبية ما لبث أن تطوّرت وأشار الطبيب المعالج بأن أنقطع عاماً كاملاً عن الدرس والتحصيل . وفي غضون هذه المدة كاشفت والدتي بميلي إلى الرسم والتصوير ، واستنجدت بالطبيب لإقناعها بأن التحاقي بمعهد الفنون لا يتطلّب مني أي مجهود دراسي مُضنٍ ، فاقتنعتْ .

بعد عامين من عودتي إلى معهد الفنون توفّيت والدتي فقصم هذا المصاب ظهري لأني كنت أحبّ أمّي حتى العبادة ، ولأني وجدتني وحيداً في المعترك وأنا فتى مراهق ، لا يملك ما يقيه شرّ الفاقة بعد أن تبخّر المال الذي خلّفه والدي في غضون الأشهر الأربعة التي قضتها والدتي تتقلّب على فراش المرض !

كان عليّ أن أعمل لأعيش ، فانتقلت إلى فيانا وعدّتي إرادة حديدية وتصميم على مواجهة مصيري . لقد شقّ والدي طريقه وبلغ الذروة التي وضع نصب عينيه بلوغها ، وسأشقّ أنا طريقي ولكن طموحي يأبى عليّ أن أجعل الوظيفة الذروة التي يجب أن أقف عندها .

٢

سنوات الامتحان القاسي

خلال الفترة التي قضتها والدتي تتقلب على فراش المرض سافرت إلى فيانا لأؤدّي امتحاناً يؤهّلني نجاحي فيه للالتحاق بأكاديمية الفنون الجميلة ، قسم التصوير بالزيت والألوان . وقد أدّيت الامتحان مطمئناً إلى النتيجة ، ولكن شدّ ما كانت خيبتي مريرة عندما لم أجد اسمي في عداد الناجحين ، ولدى سؤالي عميد الأكاديمية عن سبب رسوبي أكّد لي أنّ الرسوم التي قدّمتها تشفّ عن ميل واضح إلى هندسة البناء لا إلى التصوير بالزيت والألوان ،

وشجّعني على الالتحاق بقسم الهندسة .

ولكن الرسم والتصوير شيء وهندسة البناء شيء آخر . ومع أنّني قد اكتشفتني مراراً ذا موهبة في الرسم الهندسي ، فقد أهملت ، مع الأسف ، الدروس النظريّة التي تؤهّلني لإنماء هذه الموهبة ، فوجدتني بعد رسوبي مضطراً للعودة إلى المدرسة الثانويّة لإكمال تحصيلي فيها .

• • •

هبطت فيانا بعد وفاة والدتي خالي الوفاض ، ولكن قلبي كان عامراً بالإيمان ، فما تركت لليأس سبيلاً إلى نفسي ، وصممت وأنا أدخل المدينة الكبيرة على الالتحاق بقسم هندسة العمار مهما يكن الثمن . وما كنت لأجهل أنّه ينبغي لي أن أعمل لأعيش إلى جانب انكبابي على الدرس والتحصيل ، وإني لأحمد اليوم العناية التي وضعتني وجهاً لوجه أمام قسوة القدر وأنا بَعدُ طريّ العود ، وجعلتني أذوق مرارة العوز بعد أن قذفت بي إلى عالم المحرومين متيحة لي أنا البورجوازي النشأة أن أعايش الذين وجدتني فيما بعد مناضلاً في سبيلهم ومن أجل رفع مستواهم .

• • •

لقد فتحت فيانا عيني على خطرين كنت أجهل مدى تآمرهما على كيان الشعب الألماني ، وهذان الخطران هما الماركسيّة واليهوديّة .

وفي فيانا ، مدينة اللهو واللامبالاة ، قضيت أنا أشقى أيّام حياتي : خمس سنوات لم أذق خلالها طعم الراحة ، بدأت العمل كمعاون بناء ثمّ كدهان لأحصل كفافي ولآمن غائلة الجوع ، هذا الرفيق الذي كان يأبى عني انفكاكاً ويشاطرني كلّ شيء . فإذا اشتريت كتاباً وقف الجوع ببابي يوماً كاملاً ، وإذا حضرت حفلة موسيقيّة أو شاهدت مسرحيّة ما لازمني الجوع يومين ، وكان الكتاب سميري الوحيد ، وبفضل المطالعة خزنت معلومات وآراء تبلورت مع الزمن . ورُحتُ من ثمّ أتمخّض بنظريّات

اتخذت منها فيما بعد أساساً للعمل .

كانت فيانا في مطلع هذا القرن (القرن العشرين) مدينة تتأكّلها حمّى المشاكل الاجتماعيّة ، فيها يتجاور الثّراء والفاقة ، العظمة والضّعة ، المعرفة والجهل . ولم يكن في ألمانيا كلّها مدينة توفّر للمراقب إمكان دراسة المسألة الاجتماعية مثل فيانا . بيد أن هذه الدراسة لا يمكن أن يقوم بها الإنسان من علُ ، من البرج العاجي ، بل يجب أن ينغمس في البؤس ويذوق مرارة الحرمان كي يتاح له أن يقيس مدى التفاوت بين الطبقات .

وككلّ مغترب يسعى في طلب الرزق ويحرص على كسب ما يقوم بأوده بعرق الجبين ، تحررت من الاعتبارات التي تقعد ببعض الناس عن العمل : الكبرياء ومركب النقص والخوف من شماتة الشامتين ، يقيناً مني بأن العمل الجدّي ، وإن كان وضيعاً ، يشرّف العامل . وسرعان ما أدركت أن العثور على عمل أيسر من الاحتفاظ به . وأن الخيبة المريرة تنتظر الذين يهجرون الحقل في القرية النائية ويهبطون العاصمة في طلب الرزق من طريق العمل الهيّن .

يهجر القرويّ مسقط رأسه إلى المدينة ، هذا العالم المجهول ، وليس في جيبه من المال غير النزر اليسير ، فإذا وجد عملاً ثم فقده أمكنه أن يعتمد على معونة صندوق النقابة بضعة أيّام أو بضعة أسابيع ، ومتى قبض صندوق النقابة يده ، لا يبقى أمامه إلاّ مزاحمة الذين يعملون وقبول أجر أدنى ، أو العودة إلى قريته يجرّ أذيال الخيبة ، فإذا أبت عليه كبرياؤه العودة وسدّت أبواب العمل في وجهه ، لا يلبث أن يألف البطالة ليصبح آلة طيّعة بين أيدي المحرضين ، المشاغبين ، الداعين إلى الإضراب والعمل على تقويض دعائم الاقتصاد القومي ومعالم الدولة والمجتمع والحضارة .

• • •

لست أدري أيّهما روّعني أكثر من الآخر : بؤس سواد الشعب المادي

أم انخفاض مستواه الخلقي ؟

فقد لاحظت انعدام الشعور بالواجب في أوساط العمّال والصنّاع ، فربّ العائلة يهمل شؤون بيته ولا يعنى بتربية أولاده ، لأن تحصيل الكفاف أو ما هو دون الكفاف يستأثر باهتمامه . وانعدام التربية البيتية في مجتمع متفسّخ كالمجتمع النمسوي ، يؤدي حتماً إلى استرخاء الوشائج التي تشدّ الأبناء إلى الآباء وتشدّ ، بالتالي ، العائلة إلى الدولة ، مع العلم أن الفقر هو صنو الجهل وصنو المرض ، ومتى اجتمع الثلاثة كفر الشعب بالدولة ومات في النفوس كلّ شعور وطنيّ .

إن تحويل الشعب إلى أمّة خلاّقة يفترض قيام وسط اجتماعي سليم يعمل على تنشئة المواطن تنشئة وطنيّة ، فليس يستشعر الاعتزاز بالانتماء إلى بلد ما إلاّ من يتعلّم في البيت والمدرسة حبّ الوطن ويقدّر أمجاده في ميادين الفكر والسياسة والاقتصاد . إنّ الانسان لا يناضل إلاّ من أجل ما يحبّ ، ولا يحبّ إلاّ ما هو حريّ بالتقدير والاحترام ، فكيف يُطلب من مواطن أن يحبّ وطنه ويقدّره وهو يجهل تاريخه ولا يشعر ، في كنفه ، بأنّه ينعم بما تؤمّنه الدول الأخرى لرعاياها من طمأنينة وهناءة ؟

• • •

في العام ١٩٠٩ طرأ على وضعي بعض التحسّن ، فلم أبقَ معاون بناء بل صرت أعمل لحسابي الخاصّ كرسام هندسي ، وأتوفر في أوقات الفراغ على الدرس والمطالعة ، منكبّاً بصورة خاصّة على دراسة الوضع السياسي في البلاد وتأثير التيّارات الفكريّة والعقائديّة في مقدّرات الدولة النمسوية المهددة بالانهيار .

٣

الحزب الاشتراكي الديموقراطي

لم يكن لديّ ، قبل أن أدرس الحركة الاشتراكيّة الديموقراطيّة ، سوى فكرة غامضة عن هذه الحركة ومنشئها وأهدافها وأساليبها . وكنت أتتبّع بعطف كفاحها في سبيل الدستور والتصويت العام يقيناً مني بأن تسليم السلطة بهذين الأمرين من شأنه إضعاف نظام آل هابسبورغ ، هذا النظام الذي أمقته مقتاً شديداً لأنّه يحاول خنق النزعة الجرمانيّة في صدور عشرة ملايين من رعايا النمسا ، وبزواله يتحرّر الشعب النمسوي وتزول العقبات الرئيسية التي تعترض تحقيق الانشلوس وانتماء الشعب الواحد إلى الوطن الواحد .

وقد زادني عطفاً على الاشتراكية الديموقراطية توهّمي أنّها تعمل في سبيل الطبقة الكادحة واضعة نصب عينيها رفع مستوى العمال والفلاحين ، وظلّ هذا شأني إلى أن بلغت ربيعي السابع عشر ، وبدأت أعي أهميّة الحركة النقابيّة في البلاد ، على ضوء التظاهرات الشعبيّة والإضرابات ، وقد شهدت أكثر من اجتماع واستمعت إلى قادة الحركة يخطبون في الجماهير ، وكان في نيّتي الانضمام إلى الحزب الاشتراكي الديموقراطي ، ولكن ما رأيت وسمعت قد فتح عيني على حقيقة الاشتراكيّة الديموقراطيّة ، وكشف لي عن مراميها البعيدة ، فهي ضدّ الأمّة لأنها « من صنع الطبقات الرأسماليّة » ، وضدّ الوطن لأنها « أداة البورجوازية لاستغلال الطبقة الكادحة » ، وضد الشرائع لأنّها « أداة بيد الطبقة الحاكمة تستخدمها في إرهاب البروليتاريا » ، وضدّ المدرسة « المعدّة لتنشئة الأرقّاء وضحايا الحروب التي تشنّها الرأسمالية » ، وضدّ الدين « لأنّه وسيلة لتخدير الشعب وإضعافه ليتسنّى لمستغلّي جهوده أن يستعبدوه إلى النهاية . . . »

في أوّل عهدي بهذه الاجتماعات كنت أروّض نفسي على الصمت ، ولكنّ استرسال المحرّضين في تهديم كلّ ما هو نبيل وسام أخرجني من صمتي ، فدخلت معهم في نقاش كنتُ فيه من المجلّين ، ولكن صدورهم لم تتّسع للنقاش الطويل النفس فسرعان ما تبرّموا بي وبآرائي وأغروا بالاعتداء عليّ نفراً من المتعصبين ، فآثرت الانقطاع عن حضور اجتماعاتهم وأنا أرثي لحال الجماهير التي يتلاعبون بعواطفها ويتصرّفون بمقدّراتها ويوجهونها بما يتّفق ومصالحهم .

لقد أدركت وأنا أتتبّع الحركة الاشتراكيّة الديموقراطيّة أن السواد هو في متناول القويّ ، يفضّل الانقياد إلى من يسوده على التعاون مع من يمدّ يده إليه ، ويطمئن إلى عقيدة لا يتّسع صدرها لقيام عقيدة أخرى حيالها ، وتنسيه المظاهر الخارجيّة الفارغة أنّه مستعبَد عقليّاً وروحيّاً وجسديّاً وأن حريّته الانسانيّة تعبث بها أيدي الذين يسودونه .

وأدركت كذلك أن العنف والإرهاب هما سلاح الاشتراكيّة الديموقراطيّة ، تشهره في وجوه الذين لا يجارونها ، وأن تكتيكها في محاربة خصومها يقوم على تشويه سمعتهم بحملة من التشنيع تحطّم أعصابهم . وقد تساءلت أكثر من مرّة : لِمَ لا يقوم في البلاد حزب أو حركة تقطع الطريق على الاشتراكية الديموقراطية باعتمادها التكتيك نفسه جاعلة العنف والإرهاب وسيلة لفرض عقيدتها وتخويف خصومها ؟

لقد كان على البورجوازيّة أن تتكتّل وتواجه الاشتراكيّة الديموقراطيّة بتدابير عمليّة توقفها عند حدّها . ولكن البورجوازية لم تفعل بل وقفت من مطالب العمال ، حتّى ما كان منها معقولاً ومشروعاً ، موقف اللامبالاة ، ولمّا أدركت خطأها كان التنظيم النقابيّ قد استغلّ نقمة البروليتاريا على الأوضاع الراهنة ووضع في يد الاشتراكيّة الديموقراطيّة سلاحاً ماضياً تشهره في وجه خصومها .

كانت الحركة النقابيّة في البدء تهدف إلى تنظيم جهود العمال في سعيهم إلى صون حقوقهم ورفع مستواهم ، وظلّت بعيدة عن السياسة والأحزاب إلى أن دفعت بها البورجوازية إلى المعترك السياسي برفضها إجابة العمّال إلى مطالبهم الحقّة ، وكانت الاشتراكيّة الديموقراطيّة تتحيّن الفرص للانقضاض على الفريسة ، فتبنّت الحركة النقابيّة وتعهّدتها بالرعاية اللازمة ، بينما كانت البورجوازية تعمل جاهدة في سبيل حمل السلطات على حلّ النقابات بحجّة عدم شرعيتها وتنافيها مع فكرة الوطن .

هل من خطإ أفدح من الخطإ الذي وقعت فيه البورجوازية عندما اعتبرت الحركة النقابية منافية لفكرة الوطن ؟ وهل يعقل أن تكون كذلك حركة كانت ترمي في الأصل ، وقبل أن تفسدها السياسة ، إلى رفع مستوى البروليتاريا الاجتماعي ؟ إن حركة نقابية هذه أهدافها لا تعمل ضدّ الوطن ولا يمكن أن تكون إلاّ حركة وطنيّة حريّة بالتشجيع والمؤازرة ، وما دام في البلاد أرباب عمل غير متحلّين بروح العدل والإنصاف فلا يجوز لنا أن ننكر على عمّالهم ومستخدميهم حقّ الدفاع عن مصالحهم وحقوقهم ، ولا ننسى أن العامل لا يستطيع ، منفرداً ، الوقوف في وجه ربّ العمل . فالنقابة التي ينخرط تحت لوائها هي التي تتولّى الدفاع عن حقوقه وترعى مصالحه .

• • •

بدأت الحركة النقابيّة تتحوّل عن أهدافها الأساسيّة في أواخر القرن الماضي ، فاستدرجتها الاشتراكية الديموقراطية إلى فلكها السياسي لتستخدمها كأداة ضغط في النضال الطبقي ، حتّى إذا تمّ لها تقويض دعائم الاقتصاد سهل عليها تقويض دعائم الدولة . ولما أضحت النقابات في قبضة الاشتراكيّين تبخّر اهتمامهم بتحسين مستوى البروليتاريا ، لأنّهم اكتشفوا ذات يوم أن انتهاء بؤس الطبقة الكادحة ليس في مصلحتهم ، لأن زوال بواعث النقمة والتذمّر يبعد السواد عن السياسة ، فيفقد الاشتراكيون بذلك قطيعاً من المناضلين تعودوا الخضوع لمشيئتهم خضوعاً أعمى .

٤

مفتاح الاشتراكية

بعد أن تبيّنت حقيقة الاشتراكية الديموقراطيّة على ضوء الحوادث ، انكببت على دراسة نظريات أئمة هذه الحركة ، فاستحوذ عليّ قلق شديد إذ وجدتني أمام عقيدة مستوحاة من الأنانيّة والحقد ، عقيدة يعني انتصارها تسديد ضربة قاضية إلى البشرية . وما لبثت أن اكتشفت قيام صلة بل صلات وثيقة بين هذه العقيدة الخطرة وبين المبادىء التي يروّج لها اليهود . وأدركت ، مع الأيّام ، أن المرامي البعيدة للحركة الاشتراكية الديموقراطيّة هي نفسها المرامي التي لليهود كشعب ، ولليهوديّة كدين ، وللصهيونيّة كحركة سياسيّة ــ قوميّة .

في حداثتي كنت أعتبر يهود بلادي مواطنين . ولا أقيم كبير وزن لاختلاف الدين والعادات . وفي « لانز » وبّخت صديقاً لي لأنّه أهان تلميذاً يهوديّاً لأنه يهوديّ ، وظلّت هذه نظرتي إلى اليهود إلى أن انتقلت إلى فيانا ، وتوفّرت بعد لأي على دراسة هذا العالم الجديد فبرزت أمامي المسألة اليهوديّة في زحمة المسائل التي كانت تواجه النمسا ، حكومة وشعباً . وقد تبيّنت هذه المسألة بادىء ذي بدء من خلال حملات الصحف المعادية للسامية ، ولكني رددت هذه الحملات إلى التعصّب الأعمى ، ولاحظت أنّ الصحف التي تهاجم اليهود ضعيفة الرّواج ، وأن الصحف الكبرى تردّ عليها بأسلوب رصين ، أو تتجاهل حملاتها . وقد كان لهذه الرصانة وقعها الحسن في نفسي ، فقاطعت الصحف الثانويّة لأطالع تلك التي اصطلح على تسميتها « الصحف العالميّة » أو الكبرى ، ولكن سرعان ما أمضّني منها تزلّفها إلى السلطة وحملاتها العنيفة على الرّيخ والامبراطور غليوم الثاني الذي كنت معجباً به لمهره ألمانيا

بأسطول بحري من الطراز الأوّل . وأمضّني من الصحافة الكبرى كذلك عطفها على فرنسا وإعجابها بها ونعتها إيّاها « بالأمّة المتمدّنة » . وقد تساءلت وأنا ألمس هذه الاتجاهات غير الألمانيّة : لمصلحة من تعمل هذه الصحف ومن هو موجّهها ؟ فجاءني الجواب في الوقت الذي بدت لي اليهودية على حقيقتها .

كنت أعتبر اليهود مواطنين لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولكن اختلاطي بأعداء السامية من مفكرين وساسة جعلني أشدّ تحفّظاً في الحكم على أعداء اليهود ، وما لبثت أن وجدتني في عداد المعنيّين بالمسألة اليهوديّة بعد أن لمست بنفسي تكتّل الاسرائيليّين وتجمّعهم في حيّ واحد من أحياء فيانا ، ومحافظتهم الشديدة على تقاليدهم وعاداتهم وطقوسهم . وقد زاد في اهتمامي بمسألتهم ظهور الحركة الصهيونيّة وانقسام يهود فيانا إلى فئتين : فئة تحبّذ الحركة الجديدة وتدعو لها، وفئة تشجبها . وقد أطلق خصوم الصهيونيّة على أنفسهم اسم « اليهود الأحرار » ، إلا أن انقسامهم هذا لم يؤثّر في التضامن القائم بينهم ممّا حملني على الاعتقاد أن انقسامهم مصطنع وأنّهم يلعبون لعبتهم ، لا في النمسا فحسب ، بل في العالم كلّه . وهي لعبة سداها ولحمتها الكذب والرياء ممّا يتنافى والطّهارة الخلقيّة ، طهارة الذّيل التي يدّعيها اليهود .

وطهارة الذّيل هذه، وكلّ طهارة أخرى يدّعيها اليهود، هي ذات طابع خاص ، فبعدهم عن النظافة البعد كلّه أمر يصدم النظر منذ أن تقع العين على يهودي ، وقد اضطررت لسدّ أنفي في كلّ مرّة ألتقي أحد لابسي القفطان ، لأن الرائحة التي تنبعث من أردانهم تنمّ عن العداء المستحكم بينهم وبين الماء والصابون .

ولكن قذارتهم المادّية ليست شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى قذارة نفوسهم ، فقد اكتشفت مع الأيام أن ما من فعل مغاير للأخلاق وما من جريمة بحق المجتمع إلاّ ولليهود فيها يد . واستطعت أن أقيس مدى تأثير « الشعب المختار » في تسميم أفكار الشعب وتخديره وشلّ حيويته ، بتتبّعي نشاطه في الصحف

وفي ميادين الفنون والآداب والتمثيل . فقد امتدّ الأخطبوط اليهودي إلى هذه الميادين جميعاً وفرض سيطرته عليها ووسمها بطابعه . فمعظم المؤلّفين يهود ومثلهم الناشرون والفنانون الخ . . . وهذا التغلغل في كلّ ميدان من ميادين النشاط التوجيهي يشكّل طاعوناً خلقيّاً أدهى من الطاعون الأسود وأشدّ فتكاً، ذلك أن تسعة أعشار المؤلّفات والنشرات والمسرحيات واللوحات الفنية التي تروّج للإباحيّة المطلقة وللماركسية هي من صنع اليهود . أمّا الصحافة « الكبرى » التي استثارت إعجابي برصانتها وترفّعها عن الردّ على حملات الصحف المعادية للساميّة ، أمّا هذه الصحافة فمعظم محرّريها وموجهيها من أبناء « الشعب المختار » . وبعد اكتشافي هذه الحقيقة أدركت مدى تأثير اليهود في توجيه الرأي العام الوجهة التي تتلاءم ومصالحهم كشعب له مميزاته وكطائفة دينيّة ذات أهداف بعيدة . فالنقد المسرحي في الصحف التي يحرّرها أو يشترك في تحريرها يهود يرفع من شأن أبنـاء جنسهم من محترفي التمثيل والمؤلّفين المسرحيين ويحطّ من قيمة زملائهم الألمان . والمقالات السياسيّة إذ تمجّد آل هابسبورغ لغاية في النفس وتكيل المديح لفرنسا دون ما حساب ، تهاجم دون ما هوادة غليوم الثاني وحكومته .

وعجّل في بلورة موقفي من اليهود تكالبهم على جمـع المال وسلوك معظمهم السبل الملتوية لبلوغ هذه الغاية ، وقد طالعني الشارع بحقائق لم تخطر لي ببال ، منها الدور الذي يمثله « الشعب المختار » في ترويج سوق الدعارة وفي الاتجار بالرقيق الأبيض ، وهذا الدور الذي يؤديه « أبطاله » بمهارة لم ينتبه إلى خطورته الشعب الألماني إلا في الحرب العالميّة الكبرى . أمّا أنا فقد سرَت القشعريرة في جسدي عندما اكتشفت أن اليهودي ، هذا المخلوق الوديع ، هو الذي يستثمر البغاء السري والعلني ويجعل منه تجارة رابحة .

انصرفت مذ ذاك إلى جمع المعلومات التي توفّر الأدلّة على إجرام اليهود بحقّ الوطن والمجتمع . ورحتُ أتتبّع خُطاهم في ميادين النشاط المختلفة ،

وإذا بي أصطدم بهم حيث لم يَدُر في خلدي أنّي واجدهم ، فقد تبيّن لي أنّ اليهود يتزعّمون الحركة الاشتراكيّة الديموقراطيّة ، ويسيطرون على صحفها ، ويوجهون النقابات المنضوية تحت لوائها ، فمعظم النواب الاشتراكيين الديموقراطيين يهود ورؤساء النقابات جميعهم يهود ، ومنهم كذلك قادة التظاهرات ومدبّرو أعمال الشغب ، ومنهم رؤساء تحرير صحف الحزب ومحرّروها البارزون .

إذن فالحزب الكبير الذي يتلاعب بمقدرات البلاد هو ألعوبة بين يدي شعب أجنبي ، لأن اليهودي، وهو من هو ، لا يمكن أن يكون ألمانيّاً بحال من الأحوال .

وهكذا اكتشفت أخيراً الروح الشرير الذي يقعد بشعبنا عن مسايرة ركب التقدم .

• • •

سنة واحدة في فيانا كانت كافية لإقناعي بأن ما من عامل استبدّت به الأوهام وضلّلته الدّعاوة المغرضة إلاّ ويلقي سلاحه إذا قيّض له رجل مخلص أوسع منه أفقاً وأبعد نظراً . وقد أخذت على عاتقي تحرير العمال من سيطرة مستثمريهم فوفّقت في مهمّتي إلى حدّ كبير ، ولكني لم أوفّق قطّ إلى إقناع يهودي واحد بأنّه على خطإ . وقد كنت من السذاجة بحيث رحت أجهد نفسي في محاولات عقيمة لإقناع بني صهيون بسخف المبادىء الماركسيّة . وسرعان ما أدركت أنّ أسلوبهم في الجدل يقوم على قواعد خاصّة هي قواعد الديالكتيك اليهودي . وقد استوقفني من هذا الأسلوب اعتماد اليهود بادىء ذي بدء على بلاهة مُناظرهم ، فإذا أخطأت فراستهم وضيّق عليهم الخصم الخناق تظاهروا هم بالبله واستحال عليه هو أن ينتزع منهم جواباً واضحاً . أمّا إذا اضطرّ أحدهم إلى التسليم بوجهة نظر الخصم بحضور بعض الشهود فإنّه يتجاهل في اليوم التالي ما كان من أمره ويتظاهر بالعجب والدهش إذا جبهه الشهود

بالحقيقة ويسترسل بالكذب ويذهب إلى حدّ الزعم أنّه أفحم خصمه بالحجّة الدامغة في اليوم السابق .

حقّاً إن اليهود هم أسياد الكلام وأسياد الكذب .

ولكن كان لهذه الاكتشافات المتتابعة وجهها الحسن : لقد زادتني معرفتي رؤساء الاشتراكية الديموقراطية على حقيقتهم تعلّقاً بشعب بلادي وغيرة على مصالحه ، كما زادني احتكاكي باليهود عطفاً على العمال الذين ضللتهم الدعاوة اليهوديّة المبطّنة بالاشتراكيّة الديموقراطيّة .

• • •

ليس العمال بمسؤولين عما تعانيه البلاد من مشاكل ، فالمسؤولون هم أولئك الذين لم يحملوا أنفسهم عناء الاهتمام بحالة الشعب والعمل على إنصافه ووضع حدّ لتضليل المضلّلين وفساد المفسدين .

وبعد قيام هذا الاقتناع في ذهني عكفت على درس العقيدة الماركسيّة والتنقيب عن مصادرها وجذورها ، وتتبّع تطوّراتها ومدى ما وصلت إليه وما يمكن أن تبلغ إليه إذا لم يعترض سبيلها حاجز منيع . وقد تساءلت مراراً وأنا أسجّل لها النجاح تلو النّجاح : هل كان أصحاب هذه العقيدة يتوقّعون لها هذا القدر من الذيوع والانتشار ؟ وهل كانت لديهم فكرة عمّا سوف يترتّب على نجاح الماركسيّة من نتائج بعيدة المدى ؟ أم أنّهم كانوا ضحيّة الخطإ في التقدير ؟ فإذا كان الأمر الثاني فإنّه يتعيّن على كل رجل جدير بهذا الاسم أن يقف في وجه هذه الحركة المخيفة لمنع تطوّرها . وإذا كان الأمر الأوّل فلا بدّ أن يكون المسؤولون عن هذا الوباء الذي يهدّد الشعوب أبالسة حقيقيّين ؛ لأن الدماغ الذي استطاع أن يتخيّل تصميم منظّمة لا بدّ أن يؤدي نشاطها في النهاية إلى انهيار الحضارة وتحويل العالم إلى قفر ، هذا الدماغ ليس دماغ إنسان ولكنه دماغ مسخ .

وفي هذه الحالة لا بدّ من الكفاح ، الكفاح المرير بجميع الأسلحة التي

يضعها في متناول اليد العقل البشري والذكاء والإرادة . وقد توصلتُ بفضل تعمقي في درس المسألة اليهوديّة إلى تفهّم الحركة الماركسيّة دون كبير عناء . ذلك أن اليهود هم الذين وضعوا مبادئها وتولوا الترويج لها ، وعرفوا كيف يستغلّون جهود الذين بهرتهم هذه المبادىء فتاهوا في دياجير الضّلال .

وعندما أدركت هذه الحقيقة رجعت إلى التاريخ أتتبّع مراحل تطوّر الشعب اليهودي عبر الأجيال وما كان من تأثيره في توجيه الموكب البشري ، فهالني عمق هذا التأثير وتساءلت بقلق : تُرى أيقضي القدر ، لأسباب لا يدرك البشر كنهها ، بأن يكون لليهود النصر النهائي ؟

إنّ العقيدة اليهوديّة المعبّر عنها بالتعاليم الماركسيّة لا تعترف بالمبدإ الأرستقراطي ، وتحلّ التفوّق العددي محلّ مزية القوّة والقدرة ، وتنكر قيمة الإنسان الفرديّة كما تنكر أهميّة الكيان القومي والعنصري ، مجرّدة البشريّة بذلك من العناصر التي لابدّ من توفّرها لاستمرارها ولبقاء حضارتها . فإذا اعتُمدت هذه العقيدة أساساً للحياة الكونيّة فإنها لا تلبث أن تقوّض كلّ نظام وأن تعود بنا إلى عهد الفوضى واختلاط العناصر ممّا يؤدي حتماً إلى انقراض الجنس البشري .

وإذا قيّض لليهودي ، بإيمانه الماركسيّ ، أن يتغلّب على شعوب هذا العالم ، فسيكون تاجه إكليل جنازة البشرية . وعندها يستأنف كوكبنا السيار طوافه في الأثير كما فعل منذ ملايين السنين ، ولا يبقى بشريّ على سطح الأرض .

إنّ الطبيعة الأبديّة لتنتقم دون ما شفقة من الذين يخالفون أحكامها .

لهذا أعتقد أني متصرّف حسبما يشاء العليّ القدير ، خالقنا ، لأني بدفاعي عن نفسي ضدّ اليهودي إنّما أناضل في سبيل الدفاع عن عمل الخالق .

الفصل الثاني

١

ملاحظات سياسية عامة

علّمتني الأيّام والتجارب التي مرّت بي أنّه يحسن بالمرء ، إلاّ إذا كان ذا مواهب خارقة ، ألاّ يخوض معترك السياسة العمليّة قبل بلوغه الثلاثين . وحتى هذه السنّ يكون قد جهّز نفسه بالعدّة اللازمة للانطلاق وغربلة القضايا والمبادىء والنظريات قبل أن يتّخذ منها موقفاً معيّناً . ومتى تمّ له تكوين رأي شخصيّ في كلّ من القضايا التي تشغل الرأي العام، يمكنه أن ينزل إلى المعترك السياسي مسلّحاً بالمعرفة والاختبار . أمّا إذا لم يفعل وعجّل بالنزول إلى المعترك فإنّه واجد نفسه بعد حين مضطراً إمّا إلى تعديل الموقف الذي كان قد اتخذه من بعض المسائل الجوهريّة أو إلى الاستمرار في هذا الموقف مع اقتناعه بأنّه موقف غير سليم . ففي الحالة الأولى يكون عليه أن يدفع ثمن تسرّعه ثم تذبذبه خسارة فريق من أنصاره الذين يقفون حيارى حيال هذا التحوّل ولا يجدون له تعليلاً مقبولاً .

وفي الحالة الثانية ، وهي شائعة في أيامنا : كلّما ضعف إيمان الزعيم بما بشّر به بدت عقيدته من خلال أقواله جوفاء ، ليس فيها ما يستهوي الناس ، وكلّما استرسل في التمويه على أنصاره ازدادت مطالبه منهم إلى أن ينتهي به الأمر إلى التضحية بآخر ما بقي له من مقوّمات الزعامة لينقلب سياسيّاً محترفاً ، هذا الصنف من الناس الذي له عقيدة واحدة هي انعدام العقيدة مع وقاحة مزعجة وتفنّن في الكذب .

إذا قضى سوء طالع الناس بوصول رجل هذا شأنه إلى البرلمان فإن عمله السياسي الوحيد يكون نضالاً «بطولياً» في سبيل إبقاء «البقرة الحلوب» لنفسه ولعياله، ويصبح عدوّه الشخصيّ كلّ مواطن يتّجه نحو العمل السياسي، ويشتدّ به القلق كلّما قامت حركة سياسيّة جديدة أو برزت شخصيّة جديدة على المسرح، إذ يخشى أن يكون في ذلك بداية نهايته هو.

سأبسط وجهة نظري في البرلمان والنظام البرلماني فيما بعد، وأعود الآن إلى النقطة التي استهللت بها هذا الفصل.

لا ريب أنّ المرء يتعلم كثيراً بعد بلوغه الثلاثين ولكن ما يتعلّمه يأتي مكملاً لما اكتنزه من معلومات، ولن يترتّب عليه بحال من الأحوال زعزعة الدعائم المبدئيّة التي يقوم عليها تفكيره السياسي. وهكذا لا يضطرّ أنصاره لكبت شعورهم الأليم بأنّهم تلقّوا منه في الماضي دروساً بعيدة عن الصواب، فنموّ معارف رئيسهم واتّساع أفقه يقدمان إليهم ضمانة تشيع الطمأنينة في نفوسهم، يقيناً منهم بأن معلوماته الجديدة هي كسب له ولهم.

إنّ زعيماً يجد نفسه مضطراً إلى التخلي عن نظرياته العامة اقتناعاً منه بأنّها غير صائبة، لا يأتي تصرّفه في حدود الكرامة والشرف ما لم يكن مستعدّاً لتحمّل عواقب تصرّفه. وفي هذه الحالة ينبغي له أن يمتنع عن القيام بأي عمل سياسي لاحق، لأنّه، وقد وقع في الخطإ في نظرته إلى جوهر الأمور، قد يقع في الخطإ مرة أخرى، ولا يجوز له بأيّ حال أن يطمع بكسب ثقة مواطنيه أو أن يفكر بقبول هذه الثقة.

ولكنّ الناس في أيامنا قلّما يلزمون أنفسهم بهذه الخطة الحميدة.

• • •

كانت فيانا في ذلك العهد دماغ الامبراطورية وإرادتها الفاعلة، تبدو وكأنّها ملكة مستوية على عرشها، وهذا المظهر كان كافياً لتخويلها السلطة التي تجمع ذلك العدد الكبير من الشعوب المتنافرة، كما كان جمالها الرائع يموّه

الآثار التي يمكن أن تفضح هرم الامبراطورية .

ولئن تكن المنازعات الدامية بين مختلف الأقوام قد هزّت البلاد هزّاً ، فقد ظلّ وجه فيانا الجميل هو كلّ ما يراه من النمسا العالم الخارجي عموماً وألمانيا على الأخص. وقد قُيّض للعاصمة محافظ (عمدة) عبقريّ جدّد شبابها، هو الدكتور لوجر ، هذا الألماني العظيم الذي أنجبه شعب عرف كيف يبعث الحياة حيثما وجد .

لم يكن الدكتور لوجر معدوداً ، رسمياً، من رجال الدولة العظام، ومع هذا فقد استطاع أن يجترح العجائب في أكثر من حقل : في الاقتصاد والسياسة والفن الخ . . . وأثبت أنه رجل دولة أكثر من أي « دبلوماسي » يدّعي هذه الصفة .

ولئن تكن شبه الأمّة التي يسمّونها النمسا قد انهار فلا يعني ذلك أن العنصر الألماني فيها غير كفؤ سياسيّاً ، إذ كيف يمكن عشرة ملايين ألماني أن يحولوا دون تداعي دولة تضمّ خمسين مليوناً ؟

لقد كان للنمسوي الألماني آراء جدّ واسعة ، فهو قد ألف العيش ضمن إطار امبراطورية كبيرة ولم يفته قطّ أن هذا الوضع يلقي على عاتقه واجبات معيّنة ، وما انفكّ لحظة واحدة يتطلّع إلى حدود هذه الامبراطورية بالرغم من انسلاخه نهائيّاً عن الوطن الأم ، وعرف كيف يحافظ على ألمانية ما انتزعه الأجداد من الشرق بعد كفاح مرير . بيد أن جهود النمسويين الألمان لم تقف عند هذا الحدّ ، فالنخبة بينهم ظلّت تتّجه دائماً بأفكارها وقلوبها إلى الوطن الألماني الأكبر .

والنمسوي الألماني أوسع أفقاً من سائر المواطنين ، فنشاطه الاقتصادي كان يشمل الامبراطوريّة كلّها . وكان يستأثر بالمشروعات الضخمة ويقدم إلى ميادين النشاط المختلفة مديري العمل وأرباب الاختصاص والمستخدمين ، ومثّل في وقت ما الدور الأوّل في التعامل تجاريّاً مع الخارج ، وكانت الدولة

كلّها ، سياسيّاً ، في قبضة النمسوي الألماني ، تبعده خدمة العَلَم عن منطقته فيوّدي واجبه كمجنّد في البوسنه والهرسك أو في غاليسيا تحت إمرة ضباط من الألمان لأن الملاك كان ، في معظمه ، ألمانيّاً ، ومثله ملاك كبار موظفي الإدارة . وظلّ النمسويون الألمان مدّة طويلة المجلّين في ميادين الفنّ : الموسيقى والرسم والتصوير والهندسة والنحت.

وكان العنصر الألماني محور السياسة الخارجيّة ، إذا استثنينا عدداً محدوداً من الهنغاريّين .

ومع هذا كانت كلّ محاولة لإنقاذ الأمبراطورية مكتوباً لها الإخفاق لعدم توفّر الشرط الأساسي للنجاح .

كان ثمة طريقة واحدة للتغلب على النزعة الاستقلاليّة لمختلف الشعوب التي توّلف الدولة النمسوية ، وهذه الطريقة هي تنظيم البلاد وحكمها على أساس المركزيّة . وقد جالت هذه الفكرة في روّوس المسوّولين أكثر من مرة خلال فترات الهدوء والصفاء ، ولكنهم كانوا في كل مرّة يستبعدونها بحجّة أنّها مستحيلة التحقيق . وساعد على تردّد المسوّولين المعطيات الداخلية للدولة ، هذه المعطيات التي تختلف اختلافاً جوهريّاً عما كانت عليه معطيات الريخ الألماني عندما حققه بسمارك . ففي ألمانيا كان على صانعي الوحدة أن يتغلّبوا على التقاليد السياسيّة ، ولم يكن هناك عقبات من نوع آخر ، لأن الريخ يضمّ شعباً واحداً باستثناء جماعات صغيرة من الأجانب . وكان الأمر عكس ذلك تماماً في النمسا حيث تلاشى في الأقطار التي توّلف المملكة – باستثناء هنغاريا – الحنين إلى أمجاد الماضي الخاصة بكلّ منها ، أو محته إسفنجة الزمن أو موهته فبات غير مرئي . بيد أن إثارة مبدإ القوميات قد كشفت في الأقطار المذكورة عن نزعة قوميّة سريعة وجدت مشجّعاً لها في الدول القوميّة التي قامت حول النمسا ، والتي تنتمي شعوبها إلى العنصر أو العناصر التي ينتمي إليها العديد من النمسويّين ممّا جعل انجذاب هوّلاء إلى جيرانهم يخضع لعوامل غير متوفّرة

في ما يقوم بينهم وبين مواطنيهم النمسويّين الألمان من وشائج وصلات .

وحتّى فيانا قد تأثّرت بالنزعة الجديدة وعجزت مع الأيام عن مواصلة الكفاح من أجل الحفاظ على ميزاتها .

ذلك أنه بعد أن أضحت بودابست مدينة كبيرة ألفت فيانا نفسها أمام مزاحمة ليست مهمتها الحفاظ على اللحمة بين النمسا وهنغاريا ، بل مهمتها تكريس الانفصال . وما لبثت براغ ولامبرغ ولايباخ أن حذت حذو بودابست ، فأضحت عواصم لبلدان لها نهجها الخاص ومراكز فكريّة لأقوام وشعوب لها طابعها المميّز . وكان لا بدّ من أن يأتي يوم تطغى فيه النزعة الاستقلاليّة الانفصاليّة عند شعوب المملكة على اللحمة التي توفّرها المصالح المشتركة فتكون بذلك نهاية النمسا .

لقد بدا هذا التطوّر واضحاً بعد وفاة فرنسوا جوزيف الثاني ، وكان نتيجة عوامل شتّى عددنا بعضها ، ويمكن ردّ البعض الآخر إلى موقف الملكيّة نفسها وإلى تطوّرات الموقف الدولي . ولو كان في نية من يعنيهم الأمر مواجهة هذا التطوّر والنضال من أجل الإبقاء على الدولة لما وجدوا أجدى من المركزيّة الحازمة سبيلاً إلى ذلك . بيد أن اعتماد هذا النظام لا بدّ أن تسبقه تدابير ممهّدة له : فرض مبدإ اللغة الوحيدة للدولة الواحدة ، وتنشيط الشعور الوطني ، وتجهيز الإدارة الحكوميّة بالوسائل التكنيكيّة التي لا يمكن استمرار دولة موحدة بدونها . ولا ننسى أن خلق شعور وطني مشترك لا يمكن أن يرتجل في أيّام ، فلا بدّ لخلقه من عشرات السنين إن لم نقل بضعة أجيال ، وذلك بواسطة المدارس والدعاوة المنظمة .

إن بقاء النمسا الهرمة كان ، أكثر من بقاء أيّة دولة أخرى ، مرتبطاً بمناعة مركز حاكميها ، فقد كانت تفتقر إلى الدعامة التي تقوم عليها الدولة : أعني القوّة المنبعثة من منشئها القومي لتوفّر لها عناصر البقاء والنموّ . ذلك أنّ الدولة القوميّة تظلّ ، بفضل مناعتها الطبيعية ، قادرة مدّة طويلة على تحمّل

مساوىء الحكم غير الصالح وعواقب الإدارة غير الحكيمة ؛ إنّها أشبه ما تكون بمن تتلاشى منه معالم الحياة ويبدو للعيان وكأنّه جثة هامدة إلى أن تعود الحياة فتدبّ فيه بغتة فينفض عنه أكفان الموت ويدهش الناس بمظاهر حيويّته الدافقة .

ولكن هذا لا يكون ، بحال من الأحوال . شأن دولة مؤلّفة من شعوب شتّى ، لا تشدّها بعضها إلى بعض وحدة الدم، إنّما تشدّها القبضة الواحدة . فإذا تراخت هذه القبضة فلا يكون لتراخيها في الدولة التأثير الذي يكون للبرد الشديد في بعض الحيوانات ، فهو بدلاً من أن يخدّر الشعوب المحكومة ويجمّدها، يكون باعثاً على ظهور النزعات الخصوصيّة الكامنة في كل عنصر .

وهذا الخطر الكامن يمكن الحدّ منه بالتربية المشتركة والتقاليد المشتركة والمصالح المشتركة الخ . . . التي يعايش بعضها بعضاً مدّة طويلة ، والدول الفتيّة تظلّ عرضة لخطر الزوال ما دام استمرارها رهناً ببقاء نظام الحكم فيها قويّاً ، متماسكاً ، وقد رأينا أمبراطوريّات تنهار عقيب موت مؤسّسيها ، فلا بدّ إذاً من أن يكون للدولة من طبيعة تكوينها ما يوفّر لها عنصر البقاء .

وقد كانت غلطة آل هابسبورغ أنّهم لم يدركوا هذه الحقيقة التاريخيّة وشذّ منهم فرنسوا جوزيف الثاني الذي فتح القدر عينيه على ما يتهدّد أمبراطوريّته من أخطار فأدرك أن النمسا قد تضيع في فوضى بابل الجديدة إذا لم يعمل هو على إصلاح ما أفسد السلف ، وبذل في غضون عشر سنين جهوداً طيّبة في هذا السبيل ، ولكنّ المنيّة عاجلته وهو بعد في مستهلّ عمله العظيم . ولو قيّض له أن يملك أربعين عاماً وأن يكمل خلفه ما بدأه هو لتمّت المعجزة ، ولكن عمله رافقه إلى القبر حيث ووري الثرى وإيّاه .

. . .

عندما هبّت على أوروبا ريح الثورة بدأت النمسا تضطرم . ولكن الثورة التي نشبت فيها لم يضرم أوارها الوضع الاجتماعي أو تطاحن الطبقات بقدر

ما أضرمتها النزعات القوميّة المتعارضة .

أجل كانت ثورة ١٨٤٨ نضالاً بين الطبقات في كلّ بلد امتدّت إليه ألسنة اللهيب ، ما عدا النمسا حيث كانت الثورة بدء نضال بين القوميّات . أمّا النمسوي الألماني الذي نسي مصدر الثورة أو جهله فقد ساهم في الحركة بكلّ ما يملك من إمكانات ، وساعد على إيقاظ الديموقراطيّة الغربيّة التي ما عتمت أن انتزعت منه أسس كيانه .

وقد جاء نظام التمثيل البرلماني قبل إيجاد لغة مشتركة للدولة يسدد الضربة الأولى إلى النفوذ الألماني في المملكة ، وبدأت الدولة نفسها مذ ذاك تتفكّك وتنهار . ولكنّ الكثرة الساحقة من النمسويّين تعامت عن رؤية أمارات التصدّع .

لن أدخل في تفاصيل خارجة عن نطاق هذا الكتاب ، ولكنّي سأعرض الحوادث التي كانت ولا تزال وستبقى من العوامل الفاعلة في انهيار الدول وانقراض الشعوب والتي يبقى لها بالتالي صفة الجدّة .

٢

النظام البرلماني

في رأس المؤسّسات التي عجّلت بتفكّك المملكة النمسوية البرلمان أو ما يسمّونه في النمسا « الرّيخسترات » .

لقد اقتبس النمسويون هذا النظام من إنكلترا بلاد الديموقراطيّة الكلاسيكيّة ، دون أن يدخلوا عليه تعديلات جوهريّة . فقام في فيانا مجلسا البرلمان : مجلس النواب ومجلس الأعيان ، على غرار مجلسي البرلمان الانكليزي : مجلس العموم ومجلس اللوردات ، وتجلّى الفرق بين المؤسّستين في طريقة

تزيين القاعات . ففي إنكلترا زين باري دار البرلمان بزخارف ناطقة بعظمة الأمبراطورية البريطانيّة ، أمّا المهندس الدانمركي هانسن فقد عمد إلى الآثار يزخرف بها دار البرلمان النمسوي ، وزين القاعة الرئيسيّة بتماثيل رجال الدولة والفلاسفة من إغريق ورومان .

عندما دخلتُ لأول مرة قصر فرانز نسرغ (دار البرلمان) لأحضر الجلسة النيابيّة كان عمري تسع عشرة سنة ، وقد تملّكني وأنا أتتبّع المناقشات شعور غريب أدركت معه أن النظام البرلماني في النمسا فاشل حتماً .

لم أكن ضدّ النظام البرلماني كمؤسّسة ، فقد اقتنعت منذ اللحظة الأولى أنّه أفضل الأنظمة لبلاد كالنمسا لم تجن من الملكيّة المطلقة غير المصائب والويلات ، وكنت أرى في قيام دكتاتوريّة إلى جانب عرش آل هابسبورغ جريمة ضدّ الحريّة وضدّ المنطق .

ولست أجد غضاضة في القول إن اقتناعي بأفضليّة النظام البرلماني يعود إلى إعجابي بالبرلمان الانكليزي هذا الإعجاب الذي ترسّخ في ذهني وأنا أطالع مناقشات مجلس العموم في الصحف ، ولكن حضوري جلسات البرلمان النمسوي ما لبث أن زعزع إيماني بهذه المؤسّسة وأبرز التباين الواضح بين عقليّة الانكليز وعقليّة النمسويّين كما أبرز مضارّ التقليد الأعمى .

وقد زادني نفوراً من البرلمان تضاؤل نفوذ العنصر الألماني في ظلّ النظام الجديد . فحتّى الأخذ بنظام الانتخاب السرّي العام كان في البرلمان أكثريّة ألمانيّة متواضعة . ولكن الانتخاب العامّ بخّر هذه الأكثريّة ، ممّا أدّى إلى إفقاد النمسا طابعها الجرماني .

وبعد اكتشافي هذا الواقع الأليم أبغضت مجلساً نيابيّاً يضمر العداء لكلّ ما هو ألماني ، وبهذا الشعور صرت أغشى دار البرلمان ، فلا أرى ولا أسمع ، في كلّ مرّة ، إلا ما يثير نقمتي ويستفزّ شعوري .

عندما شهدت جلسة نيابيّة لأوّل مرّة ، كان بضع مئات من ممثّلي

الشعب يتدارسون مسألة اقتصادية ذات شأن ، فلاحظت أن الخطب التي ألقيت لا قيمة فكرية لها ، مع العلم أني لم أفهم شيئاً من أقوال عدد كبير من الخطباء لأنّهم كانوا يتكلّمون بالسلافيّة وبلهجات مختلفة . ثم رأيت مشهداً عجباً استخفّني للضحك . فقد أعقب الخطب مناقشات حادّة ، ورأيت العديد من النواب يضربون الطاولات بقبضاتهم أو يلوحون بهذه القبضات مهدّدين ، وتعالى الصراخ والضّجيج وراح الرئيس يقرع الجرس بعصبيّة مناشداً النواب التقيّد بالنظام حرصاً على سمعة الحياة البرلمانيّة .

وشهدت جلسة ثانية بعد بضعة أسابيع ، فإذا القاعة لا تضمّ أكثر من ثلاثين بالمئة من ممثّلي الشعب ، نصفهم يغطّ في نومه ، ونصفهم الآخر يستمع إلى بعض الأعضاء وهو يتمطّى ويتثاءب ، والرئيس يجيل في أرجاء القاعة نظراً يفضح سأمه .

وتكرّرت زياراتي للبرلمان ، وكنت أخرج منه في كلّ مرة بآراء شخصيّة تبلورت مع الأيّام وانتهيت إلى تغيير رأيي في البرلمان كمؤسّسة ، ولم تنصبّ نقمتي على النظام البرلماني النمسوي وحده ، بل انصبّت على هذا النظام إطلاقاً . وبعد أن كنت أردّ سوء الحالة إلى خلوّ البرلمان النمسوي من أكثريّة ألمانيّة صرت أبحث عن أصل الداء في شكل المؤسّسة وطبيعتها .

وهكذا أخذت ، شيئاً فشيئاً ، أكوّن فكرة صحيحة عن النظام البرلماني « أنبل » مثال للحكم في العصر الحديث ، واتخذ هذا النظام في ذهني شكلاً لم يطرأ عليه ، فيما بعد ، تبدّل جوهريّ .

لقد أدركت أن الديموقراطيّة في أوروبا الغربيّة بحالتها الراهنة هي طليعة الماركسيّة ، التي لا يمكن تصوّرها بدون النظام البرلماني . أجل إنّ الديموقراطية هي التربة التي تنمو فيها جرثومة الماركسيّة هذا الطاعون العالمي ، وعليها ينتشر الوباء . وهي تجد حليفاً أميناً في النظام البرلماني ، هذا الطرح الذي لا أثر في معدنه الترابي لنفحة من نفحات الله .

حمدت للقدر تمكينه إياي من درس هذه المسألة وأنا في فيانا ، لأني لو وُجدت في ألمانيا وقتئذ لما كنتُ واجهتُ صعوبة تذكر في اتخاذ موقف منها . أي أنني لو اكتشفت عيوب النظام البرلماني في برلين قبل فيانا لكنت ركبت متن الشطط في اعتماد الاتجاه المعاكس أي الأخذ بالرأي القائل : إن مصير شعب الريخ رهن بتقوية مركز الامبراطور .

لم يكن ثمة خطر من أخذي بهذه النظريّة في النمسا ، لأني كنت مقتنعاً بأن آل هابسبورغ ليسوا أفضل من البرلمان، فإذا كان هذا لا يساوي شيئاً ، فالبيت المالك موازٍ له إن لم يكن أسوأ حالاً . وما كنت لأجهل أن إلغاء النظام البرلماني يعني إطلاق يد آل هابسبورغ في حكم البلاد ، وهو ما أعتبره كارثة وطنيّة ما بعدها كارثة .

ومع أني كنتُ فتيّاً فقد انصرفت إلى درس هذه المسألة محاولاً أن أجد لها حلاً ، وقد جعلني أفكّر وأطيل التفكير صعوبة تحديد المسؤوليّة كلّما اقتضى الأمر تعيين المسؤول عن تصرّف أو عن تدبير غير متلائم والمصلحة العامّة . فالبرلمان يتّخذ قراراً ما ومهما يترتّب على قراره من نتائج سيّئة فإنّك لا تجد من يتحمّل مسؤولية هذا القرار ولا يمكنك بالتالي أن تحاسب أحداً عليه . وهل يعتبر تحمّل مسؤوليّة عمل ما استقالة الوزارة التي قامت به أو حلّ البرلمان ؟ وهل يجوز أن تعتبر الأكثريّة المذبذبة مسؤولة عن قرار تتّخذه ؟

وأيّ معنى يبقى للمسؤوليّة إذا لم يتحملها شخص معين؟ وكيف يجوز عمليّاً اعتبار رئيس حكومة مسؤولاً عن أعمال فرضتها مشيئة أو اتجاه عدّة أشخاص؟

ألا تبدو لنا مهمة الموجّه قائمة على فنّ إقناع قطيع من الغنم ، رؤوسهم خاوية ، بفائدة مشروعه ليعود فيستجدي موافقتهم عليه ، أكثر ممّا تقوم على وضع المشروعات النافعة بعد درسها دراسة وافية ؟

وإذا أخفق رجل الدولة في استمالة الأكثرية ، هذا الورم الخبيث الذي

اجتاح المؤسّسة البرلمانيّة ، فهل يعدّ ذلك دليلاً على انعدام أهليّته للحكم ؟

أوَليست العبقريّة الخلاّقة بمثابة هجوم على جمود السواد ؟ فأيّ السبل ينبغي للسياسيّ أن يسلك متى أخفق في استمالة الجمهور إلى مشروعاته ؟

أينبغي له أن يؤجلها ؟ أم تراه ، أمام غباء مواطنيه ، يفضل صرف النظر عن قيامه بمهام يعتبرها ذات ضرورة حيويّة ؟ أيعتزل أم يبقى ؟

وكيف يستطيع رجل ذو سجيّة أن يوفق بين هذا الوضع الشاذ وبين ما يراه واجباً بل عملاً شريفاً ؟

وأين هي الحدود الفاصلة بين ما نسمّيه الواجب نحو الجماعة وبين ما نسمّيه موجبات الشرف والكرامة ؟

أليس من واجب الزعيم الحقيقي أن يترفّع عن أساليب الحكّام التي تنزل به إلى درك محترفي السياسة ؟

ومتى نزل إلى هذا الدرك يصبح ألعوبة تتقاذفها أيدي فريق من الرجال ، فينفذ مشيئتهم ويساير مصالحهم ، ألا يترتّب على مبدإ الأكثريّة في نظامها البرلماني القضاء على فكرة انحصار المسؤوليّة برئيس؟ وهل ثمّة من لا يزال يعتقد أن تقدّم البشريّة يمكن أن يكون نتاج دماغ الأكثريّة لا نتاج دماغ رجل واحد ؟

عندما يقدم المبدأ البرلماني سلطة الأكثريّة على سلطة الفرد ، ويستعيض عن الرئيس بالعدد ، فإنّه يتنكّر للمبدإ الأرستقراطي الطبيعي الذي يكل الأمور إلى النخبة . أما الكوارث التي تجرّها هذه المؤسّسة العصريّة ، مؤسسة السيادة البرلمانيّة ، فإن قارىء الصحف اليهوديّة يلقى صعوبة في تكوين فكرة عنها ، إلاّ إذا كان قد روّض نفسه على التفكير والحكم وهو غير متأثر بآراء سواه.

إنّ النظام البرلماني يخلق مناسبة تتيح لمحترفي السياسة أن يغرقوا الحياة السياسيّة في خضمّ حوادث صغيرة ، تافهة . ولئن تكن هذه الحالة تهيب بأكثر من زعيم إلى اعتزال النشاط السياسي لأن السياسة أضحت مساومات

ومتاجرات بين الحاكم والأكثرية أكثر منها عملاً منتجاً ، فإن طبيعة هذا النشاط السياسي تلائم الساسة المحترفين أصحاب الرؤوس الجوفاء ، فتستهويهم وتأسرهم .

وفي أيّامنا كلما تضاءلت مؤهّلات تجّار السياسة العقليّة والعلميّة ، وكلّما وعوا ضؤولة قيمة نشاطهم في الحقل العام ، أبدوا نظاماً للحكم لا يتطلّب منهم أن يكونوا متحلّين بما يجعل منهم أنداداً لبريكليس .

إنّ سياسيّاً منكوباً بهذا القدر من الغباء ليس لــه أن يتهيّب عبء المسؤوليات وأن يحسب كبير حساب لما يترتّب على أعماله وتصرّفاته ، لأنّه يدرك دون كبير عناء أن نجمه آفل عاجلاً أو آجلاً .

والملاحظ بوجه عام أن الأكثريّة البرلمانيّة التي تمثل الثرثرة الفارغة تكره ، أكثر ما تكره ، الرجل اللامع . وأن مجلساً نيابيّاً خلواً من الكفاءات يجد العزاء كلّ العزاء في أن يتولّى توجيهه زعيم عادي بحيث لا يفضح تفوق هذا الزعيم تدنّي مستوى المجلس ، وبحيث يغذّي كلّ نائب الأمل بالوصول ذات يوم إلى المركز الذي يتيح له الاضطلاع بالمهام الكبرى .

وثمّة ظاهرة أخرى ترافق الحياة البرلمانيّة بشكل فاضح ، وهذه الظاهرة هي الجبن الذي تنمّ عنه تصرّفات فريق كبير من « زعمائنا » المزعومين . إنّ « الزعيم » ليعدّ نفسه سعيداً ومحظوظاً إذ يدعى إلى اتّخاذ قرارات هامّة فيجد الأكثريّة مستعدّة لتغطيته . ويكفي للحكم بفساد النظام البرلماني ، أن تقع العين مرّة واحدة على أحد لصوص السياسة وهو يستجدي بقلق ، وقبل أن يتخذ قراره ، موافقة الأكثرية على هذا القرار ، مؤمّناً بذلك العدد اللازم من « الشركاء » حتّى إذا قام من يناقشه الحساب تنصّل من كل مسؤوليّة .

إنّ رجلاً يتهرّب من تحمّل مسؤولية عمل ويبحث دائماً عمّن يغطّيه ليس له من الرجولة أكثر من الاسم ، إنّه جبان بل حقير . والأمّة التي يكون زعماؤها من هذا الطراز لا تلبث أن تعاني أوخم النتائج . إذ ليس في البلاد

كلّها من يتقدّم الصفوف ليضحي بنفسه في سبيل إنقاذ الأمّة بخطوة جريئة .

ولا ينتظرن أحد هذه الخطوة من جانب الأكثرية ، فالأكثريّة لا تمثّل إلاّ البُلْه والجبناء ، وإذا صحّ أنّ مئة دماغ أجوف لا يمكن أن تعادل عقلاً واحداً ، فمئة جبان لا يمكن أن يصدر عنهم قرار بطولي . هذا مع العلم أنّ إحجام رئيس الحكومة عن مواجهة مسؤولياته يشجع العديد من النواب ، حتى من كان منهم ضئيل الشأن ، على التطلّع إلى مركز الصّدارة ، وتراهم ينتظرون دورهم بفروغ صبر ، ويعدون الساعات التي تباعد بينهم وبين الهدف . وإذا قيّض لواحد منهم الوصول وتشبّث بالكرسي يتنكّر له رفاق الأمس ويقلبون له ظهر المجن . أمّا إذا استلّ الكرسيّ من تحته فإنهم يرحبون به ويفسحون له مكاناً في صفوفهم ، صفوف المنتظرين ، المترقبين .

وهكذا لا تقع العين إلا على تعاقب الطامحين إلى المناصب والوظائف المرموقة في الدولة ، تعاقباً خاطفاً ، وإذا قيّض للبلاد رئيس ذو سجيّة وأراد أن يصلح الحال ، قام في طريقه سدّ منيع من الوصوليين والانتهازيين الذين يوجسون خيفة من كل إصلاح ، لأنّه يقصيهم ويضع حدّاً لمفاسدهم .

أجل كان المتربّع على العرش يعين رؤساء الوزارات ، ولكنّه كان يتقيّد عند تعيينهم ، بنتائج الاستشارات ، أي أنّه كان ينفّذ رغبات الأكثرية البرلمانيّة . أمّا سوق المساومات عند تسمية الوزراء وتوزيع الحقائب فحدّث عنها ولا حرج ، إنّها مظهر ملازم للديموقراطيّة الغربيّة ، أمّا النتائج فما كانت قيمتها لتختلف عن قيمة المبادىء نفسها .

عند تشكيل الوزارة كان المسؤولون يحرصون على تسمية رديف لكلّ وزير بحيث يذهب هذا ويحلّ محلّه رديفه في أقرب فرصة ، وهكذا يرضى جميع الطامحين ، ويخرس المشاغبون والمناورون ممّن يتعمّدون وضع العصيّ في عجلات الآلة الحاكمة ، لأنّهم ليسوا في عداد الحاكمين ، أو لأن الحكومة لا تساير مصالحهم الخصوصيّة .

٣

الرأي العام

لن أتوقّف عند الطريقة الّتي يجري بها انتخاب السادة ممثلي الشعب ، أو الطريقة الّتي يحرزون بها مقاعدهم الغالية على قلوبهم . فالسواد الذي لا يتحلّى بالوعي السياسيّ لا ينتظر منه أن يحسن اختيار من ينيبهم عنه لتمثيله والتعبير عن آرائه والإفصاح عن رغباته وأمانيه .

وما نسمّيه « الرأي العام » لا يرتكز دائماً على الخبرة الشخصية ومعرفة الأفراد معرفة حقيقيّة ، فهو في الغالب خاضع لتأثير الدعاوة الّتي توجهه يوماً فيوماً وتنفث سمومها في دمه دون أن يشعر . إنّ الصحافة هي الّتي تتولّى تنشئة الجمهور سياسيّاً بما تنشر من أخبار وتبثّ من آراء ، وليس للدولة يد في توجيه الدعاوة الصحفية ؛ هذه المدرسة الّتي يتلقى فيها الجمهور دروسه اليوميّة فالصّحافة هي في قبضة قوى بواكبها الشؤم . وقد أتيح لي وأنا في فيانا أن أخالط « صانعي » الآراء وناشريها . فأدهشتني السهولة الّتي يستطيع بها هؤلاء أن يخلقوا تيّاراً معيّناً وأن يوجّهوا الجمهور وجهة تتعارض في بعض الأحيان مع مصلحة الجماعة . ففي بضعة أيام يمكن الصحف أن تجعل من حادث تافه بحدّ ذاته قضيّة خطيرة تهزّ الدولة ، ويمكنها كذلك أن تسدل ستار النسيان على القضايا الحيويّة فلا يلبث الجمهور أن ينساها .

وهكذا كانت الدعاوة تخرج من العدم أسماء أشخاص لا وزن لهم ، وتقدّمهم إلى الرأي العام على أنّهم أمل الأمّة وتوفّر لهم شعبيّة لا يحلم بمثلها من يستحقّها . وإذا كانت سمعة أحدهم قد لوّثت في الماضي فالدعاوة الصحفيّة لا تلقى صعوبة في دفن هذا الماضي . أمّا إذا كان المقصود محاربة رجل شريف ، فإنّ اليهود ، بسفالتهم المعهودة ، لا يتورّعون عن رميه بكل

نقيصة ، جاعلين من الصحافة التي يوجهون منبراً للتحامل على الرجل ، حتى إنّهم يذهبون إلى حدّ انتقاد حياته الخاصّة ونشر فضائح أفراد عائلته إذا كان ثمّة من فضائح . أمّا إذا لم يوفّقوا إلى شيء يخدم أغراضهم ، سواء في حياته العامّة وحياته الخاصّة ، فإنّهم يلجأون إلى الافتراء ويواصلون الحملة مسخّرين في ذلك عشرات الصحف ، على أمل أن يعلق شيء في أذهان الناس ممّا يفترون به على الضحية .

تلك هي العصابة التي « تفبرك » الرأي العام ، وتوجهه ، ومن هذا « الرأي العام » ينبثق البرلمانيون كما انبثقت فينوس من زبد الأمواج .

لا ريب في أنّ وصف الآلة البرلمانيّة وصفاً كاملاً وفضح الأسس الوهميّة التي تقوم عليها لا تكفيه بضعة مجلدات . ولكن يكفي للحكم بعقم هذا النظام وبانتفاء الحاجة إليه أن ننظر إلى ثمار نشاطه وحاصل جهوده نظرة موضوعيّة مجرّدة .

ماذا يجري في كنف النظام البرلماني ؟

ينتخب المواطنون عدداً معيناً من الرجال (والنساء في بعض البلدان) ، وقل خمسمئة . ويعود إلى هؤلاء بعد انتخابهم اتّخاذ القرارات الحاسمة في كلّ شأن من الشؤون ممّا يجعل منهم في الواقع الحكام الحقيقيين ، لأنّهم يسمون الحكومة التي تتولى ، في الظاهر ، تصريف شؤون الدولة ، ولكنّها في الواقع لا تخطو خطوة قبل أن تستجدي سلفاً موافقة المجلس . فكيف يجوز ، والحالة هذه ، أن تحمل هذه الحكومة المزعومة مسؤولية عمل من الأعمال ما دام القرار النهائي من شأن البرلمان وليس من شأنها هي ؟

إنّ الحكومة هي المنفّذ الأمين لمقررات الأكثرية البرلمانية. ولا يمكن أن ننظر إلى كفاءتها السياسيّة نظرة عادلة مجردة إلا على ضوء قدرتها على توقيع خطاها على خطى الأكثرية ، أو قدرتها على استمالة هذه الأكثرية إلى رأيها هي . ومهما يكن من أمر فمجرّد كونها مضطرّة لاستجداء موافقة الأكثريّة ينزل بها

من مستوى الحكومة الحقيقية ، أمّا إذا جعلت شفيعها لدى الأكثريّة العمل الصالح وحده فإنّ الخذلان يتربّص بها ولن يقوى المنطق السليم على إنقاذها .

وهكـذا تبدو لنا واضحة مساوىء هذا النظام : فالنواب الخمسمئة يؤلّفون مجموعة متنافرة الاتجاهات ، متضاربة النزعات ، تسوقهم العواطف والأهواء ، ويستوحون مصالحهم ومصالح القوى التي تحركهم في كلّ ما يفعلون ، ولكنّهم لا يتحمّلون مسؤوليّة عملهم لأن النظام البرلماني يلقي عبء المسؤولية على كاهل سواهم .

ولا يعني كون النواب الخمسمئة ممثلي الأمّة ومبعوثيها إلى المجلس أنّهم صفوة الأمّة وخيرة أبنائها . ولست إخال مواطناً واحداً يزعم أن مئات من رجال الدولة يمكن ارتجالهم بين ليلة وضحاها بإلقاء أوراق الاقتراع في الصناديق ، مع العلم أن الناخبين قد يكونون كلّ شيء قبل أن يكونوا أذكياء .

إنّ الأمم لا تنجب رجل دولة إلا في الأيام المباركة ، وما أقلّها ، ولا ننسى أن الجمهور يبتعد ، بفطرته ، عن كلّ رجل متفوّق له قماشة العباقرة ، فقد يكون مرور الجمل في ثقب الإبرة أيسر من اكتشاف رجـل عظيم بواسطة الانتخابات . ولا ننسى كذلك أن كلّ ما حقّقته عبقرية الإنسانيّة منذ أن كان عالمنا هذا عالماً ، كان من صنع الأفراد . ومع هذا فالنظام البرلماني يجعل من خمسمئة مواطن عادي قيّمين على مقدّرات الأمّة يصدرون القرارات الحاسمة في قضاياها الحيويّة ويقيمون الحكومات التي يتعيّن عليها أن تستجدي موافقة المجلس على كلّ خطوة تنوي القيام بها .

فزمام السياسة لا تقبض عليه يد واحدة بل خمسمئة يد .

ليس في نيّتي الحطّ من قدر ممثّلي الشعب . ولكن لنتصوّر خمسمئة مواطن يقولون الكلمة الفصل في قضايا لا يدرك معظمهم كنهها ولا يقدّر خطورتها ومداها ، فكيف يطمئنّ شعب واعٍ إلى وضع مقدّراته الاقتصاديّة مثلاً بين يدي مجلس لا يضمّ سوى أفراد قلائل يحملون شهادة جامعيّة في

الاقتصاد السياسي ؟ إن الأمر لكذلك في سائر القضايا التي يدعى المجلس إلى درسها واتخاذ قرارات بشأنها . والأكثريّة المؤلّفة من الجهلة هي التي ترجح الكفة مع العلم أنّ هذه الأكثريّة تظلّ هي إيّاها ما دام المجلس قائماً في حين تشمل القضايا المعروضة شتى الحقول والميادين . أليس من سخرية القدر أن يفصل الجهلة في القضايا السياسيّة الخطيرة مثلاً لتضيع آراء الصفوة في زحمة الثرثرة والصراخ ؟ أليس من العار أن تُترك مقدّرات أمّة تحت رحمة مواطنين يتصرّفون بهذه المقدّرات بخفّة ومجون كما لو كانوا يلعبون الورق ؟

قد يقول قائل : إذا استحال على كلّ نائب بالذات فهم جميع القضايا المعروضة ، فهو عند التصويت يتقيّد بتوجيه الحزب الذي ينتمي إليه ، مع العلم أن لكلّ حزب برلماني لجاناً تضمّ خبراء من أرباب العلم والاختصاص .

تبدو هذه الملاحظة وجيهة للوهلة الأولى . ولكني أسأل بدوري : ما الفائدة من انتخاب خمسمئة ما دام بضعة عشر نائباً فقط متحلّين بالمعرفة وبعد النظر يملون على سائر زملائهم الموقف الذي ينبغي لهم أن يقفوه من مختلف القضايا ؟

إن نظامنا البرلماني بحالته الراهنة لا يهمّه قيام مجلس تحتشد فيه الكفاءات بقدر ما يهمّه حشد قطيع من الأصفار يسهل توجيهه ، بحيث يظلّ الممسك بالخيط من وراء الستار بعيداً عن كلّ مسؤوليّة .

وفي كنف هذا النظام العجيب تنتفي كلّ مسؤولية حقيقيّة ، لأنّه يستحيل تحميلها شخصاً معيّناً ، وعندي أن هذا النظام لا يعجب إلاّ المرائين الذين يخشون العمل في وضح النهار ، ولا يمكن أن يطمئنّ إليه كلّ رجل حرّ ، مستقيم ، يقدّر المسؤوليات ولا يجبن عن مواجهتها .

فلا غرابة إذاً في أن يصبح هذا النظام الديموقراطي غالياً على قلب شعب ما فتىء يرسم الخطط السريّة ويضع المشروعات البعيدة المدى ، في الزوايا التي لا ينفذ إليها النور .

فمن نراه يقدّر ، حقّ قدرها ، مؤسّسة لا تقلّ عنه قذارة وخبثاً غير اليهوديّ العامل في الظلام ؟

• • •

ما أعظم الفرق بين البرلمانيّة الديموقراطيّة في النمسا وبين الديموقراطيّة الألمانيّة .

ففي ألمانيا يتحمّل الرئيس مسؤولية أعماله وتصرفاته ، والديموقراطيّة الألمانيّة لا تسمح للأكثريّة بالبتّ في المسائل ، بل تسلم الزمام إلى رجل واحد فيقرّر وينفّذ ويتحمّل وحده مسؤوليّة الخطى التي يخطوها .

وإذا قيل إنّه قد يستحيل العثور على رجل يكرّس نفسه لمهمّة تلقي على عاتقه هذه التبعات الجسام ، فالجواب على ذلك أن الديموقراطيّة الألمانيّة تأبى على الوصوليّ أو السياسيّ المحترف أن يتصرّف بمقدّرات المواطنين ، وقد قطعت الطريق على هذا النفر من السياسيين بتحديدها المسؤوليات ، بحيث لا يبقى في مجال الحكم مكان للضعفاء والمتردّدين وغير الأكفاء .

أمّا إذا استطاع وصوليّ أن يشقّ طريقه إلى الحكم فليس أسهل من نزع القناع عن وجهه وعندها يُصرخ في وجهه : اخرج أيّها الصعلوك الجبان ، فقد لوّثت قدماك المكان . ذلك أنّه لا يدخل بانتيون التاريخ إلا الأبطال ، أمّا الدسّاسون فيبقون خارجاً .

• • •

هذه هي النتيجة التي خرجت بها بعد عامين دأبت خلالهما على حضور جلسات برلمان فيانا .

وانقطعت من ثمّ عن غشيان قصر الريخسترات .

لقد كان النظام البرلماني أحد العوامل الرئيسيّة التي عجلت بانهيار الدولة الهابسبورغية الهرمة . وهو بإضعافه مركز العنصر الألماني ، قد شجّع على بروز التطاحن بين مختلف القوميّات . ولكن هذا التطاحن كان ينقلب في

البرلمان صراعاً بين النمسويّين الألمان وبين سائر العناصر الّتي تتحالف ضدّه . ممّا يوازي تحالفها ضدّ الأمبراطورية نفسها ، لأن الملكيّة لم تكن قادرة ، بدون النمسويّين الألمان ، على مجابهة النزعات الانفصالية في البلاد .

في ذلك الحين ، أي في مطلع القرن الحالي ، لم يبق ضعف الدولة خافياً على أحد . وبدا على الولايات السلافيّة : كما بدا على هنغاريا : أن هذه الظاهرة تفرحها لأنّها تقرّبها من أهدافها القوميّة . ولم يفت البرلمان أن الحالة بلغت من الخطورة حدّاً لا يجوز تجاهله ، فحاول تأخير النهاية المحتومة بتنازلات مخزية ، متراجعاً أمام حملات « الشانتاج » ، وكان العنصر الألماني هو الذي يدفع الثمن في النهاية ، لأن ترضية العناصر الناقمة كانت تتمّ على حسابه .

وبعد أن سمّي الأرشيدوق فرنسوا فردينان وليّاً للعهد ، وأضحى في مركز يتيح له التدخّل على نطاق واسع ، طرأ على سياسة استرضاء الهنغاريين والسلاف تحوّل خطير ، موجّه في معظمه ضدّ الألمان ، وتبلورت سياسة « إيثار التشيك » ونُسّقت تنسيقاً مدروساً ؛ وما عتّم وليّ العهد أن انغمس في سياسة القضاء على الطابع الجرماني للدولة بإبعاد الألمان عن الوظائف المفاتيح وبإلحاق الدساكر والقرى الألمانية بمناطق تقطنها عناصر مختلطة . وسرعان ما طغى العنصر السلافي في النمسا السفلى وفي فيانا نفسها الّتي بات يعتبرها التشيك مدينتهم الكبرى .

كانت تجول في رأس فرنسوا فردينان فكرة رئيسيّة أوحت بها إليه زوجته (وهي تشيكية تنتسب إلى محيط من تقاليده محاربة النزعة الجرمانيّة) وهذه الفكرة هي إنشاء دولة سلافيّة في أوروبا الوسطى ، تقوم دعائمها على أسس المبادىء الكاثوليكيّة ليتسنّى لها أن تقف في وجه روسيا الأرثوذكسيّة . وهكذا أراد آل هابسبورغ تسخير الدين في خدمة أغراضهم السياسية .

ولكن الفكرة لم تتحقّق ، بل كانت النتيجة أن خسر هابسبورغ عرشه وخسرت الكنيسة الكاثوليكية دولة عظمى . ذلك أنّ التّاج بتسخيره

الاعتبارات الدينيّة في خدمة أهدافه السياسيّة قد حرّك نعرات طالما تجاهل وجودها . وترتّب على المحاولات الرامية إلى القضاء على الطابع الجرماني نموّ الحركة الجرمانيّة في النمسا واشتداد ساعد دعاة الوحدة بين البلدين الألمانيّين .

عندما سحق جيش الريخ الجيش الفرنسي في سيدان (١٨٧٠ – ١٨٧١) بدا على آل هابسبورغ أن هذا الدرس قد أفادهم ، وأن سياستهم لن تتّجه من ثمّ إلاّ في الاتجاه القويم الذي يؤدي بالنتيجة إلى بعث أمجاد العنصر الجرماني . ولكن سرعان ما نسوا أو تناسوا عبرة سيدان ليعودوا سيرتهم الأولى ، بينما ضاعف انتصار سيدان نشاط النمسويّين الألمان وأنعش آمالهم ورسّخ إيمانهم بمستقبل أفضل في ظلّ أمبراطوريّة موحّدة وفي رعاية « تاج الرين » الذي يجب أن يزدان به رأس جدير به .

أجل سرعان ما تناسى آل هابسبورغ عبرة سيدان ، واندفعوا اندفاعاً أعمى في العمل على إبادة العنصر الجرماني في النمسا . ولكن انتفاضة الألمان النمسويّين جاءت قويّة مدهشة زاخرة بالحيويّة .

وهكذا رأينا رجالاً مخلصين لوطنهم يستحيلون عصاة ، ثائرين .

لقد شقّوا عصا الطاعة لا على الأمّة ولا على الدولة نفسها ، بل على أسلوب في الحكم يهدف إلى القضاء عليهم .

وكان من حسنات حركة الوحدة الجرمانيّة في النمسا بين ١٨٩٠ و ١٩٠٠ أنّها أظهرت بجلاء تامّ عمق الهوّة الفاصلة بين الشعب وحكامه ، وأفهمت هؤلاء أنّه لا يحقّ لدولة أن تفرض احترامها على الشعب عندما تعبث بالمصالح العامّة وتتعمّد إلحاق الأذى بهذا الشعب ، وأن سلطة الدولة لا يمكن أن تكون غاية بحدّ ذاتها ، وإلاّ كان كلّ طغيان مكرّساً ومقدّساً .

وعندما تقود الحكومة الشعب إلى الخراب بشتّى الوسائل والإمكانات يصبح عصيان كل فرد من أفراد الشعب حقّاً من حقوقه ، بل واجباً وطنيّاً .

أمّا السؤال كيف يمكن الشعب أن ينصف نفسه بنفسه ، فإنّه لا يجد جوابه في نظريات أساطين القانون وعلماء الاجتماع . إن نزاعاً يقوم بين شعب مضطهد وحكام طغاة يجب أن تفصل فيه القوّة وحدها .

وما دامت كلّ حكومة تعتبر نفسها ، مهما تكن مساوىء حكمها ومهما بلغ استهتارها بالمصالح الوطنيّة ، مسؤولة عن استمرار سلطة الدولة ، فليس من ينكر على غريزة حبّ البقاء لدى عنصر مضطهد حقّها باللجوء إلى الأسلحة نفسها الّتي يلجأ إليها الخصم دفاعاً منه عن سلطته، وذلك في كفاحها المرير ضدّ هذه السلطة ومن أجل حريّتها واستقلالها .

يجب أن يعمل المناضلون في نطاق « الشرعيّة » ما دامت السلطة الآخذ نجمها بالأفول تعمل بدورها في النطاق نفسه . أمّا إذا عمدت السلطة الطاغية إلى الوسائل غير المشروعة تدعم بها سلطانها المتداعي فبقاء النضال الشعبي في نطاق الشرعيّة يكون والحالة هذه بمثابة انتحار .

ولا يعزبن عن بالنا أن البشر في نضالهم من أجل الهدف الأسمى : البقاء ، إنّما يهمّهم بقاء الجنس البشري لا بقاء الدولة . فإذا ألفى شعب أو عنصر نفسه مهدّداً بخطر الزوال ، تقفز قضيّة الشرعيّة إلى المرتبة الثانية ، وسواء أكانت وسائل السلطة القائمة مشروعة ، أم لم تكن ، فإن الدفاع عن النفس ، وعن مقوّمات الوجود ، يصحّ فيه اللجوء إلى كلّ وسيلة ممكنة .

ذلك أنّ حقّ الإنسان يتقدّم على حقّ الدولة .

وإذا غُلب الشعب على أمره وسقط في الحلبة ، يكون ميزان القدر قد وجده أضعف من أن يستحقّ التمتّع بنعمة البقاء في عالمنا الأرضي هذا .

فالعالم ، على سعته ، يضيق بالشعوب الضعيفة .

• • •

إن النمسا لتقدّم إلينا الدليل على استمرار الطغيان ردحاً من الزمن ملتفاً بوشاح من « الشرعيّة » المزعومة .

كانت السلطة « الشرعيّة » تستند إلى الأكثريّة البرلمانيّة المعادية للعنصر الجرماني وإلى البيت المالك المعادي هو الآخر للألمان . وكان من السذاجة بل البلاهة التفكير لحظة واحدة بإمكان إنقاذ الشعب الألماني في النمسا بالاعتماد على هذين العاملين ، أو باعتماد الطرق والأساليب المشروعة ، ولو عمل الألمان بنصائح المعجبين بالوسائل المشروعة لخلت منهم النمسا في بضع سنوات .

إنّ صاحب النظريّة قد يجود بروحه في سبيل عقيدته ولكنّه يضنّ بها إذا كان الأمر يتعلّق بشعبه .

والبشر يشترّعون لأنفسهم القوانين ويعتقدون من ثمّ أنّهم إنّما وجدوا من أجل ما اشترّعوا . وقد كان من حسنات حركة الوحدة الجرمانيّة في النمسا أنّها كنست كلّ هذه النظريّات الجوفاء ووضعت حداً لسفسطة المتفلسفين .

وبينما كان آل هابسبورغ يجهدون أنفسهم في التضييق على الألمان بشتّى الوسائل ، عمد هؤلاء إلى مهاجمة البيت المالك دون ما هوادة ، وكانوا أوّل من وضع المجسّ على موضع الداء في الدولة المهترئة ، كاشفين لآلاف المواطنين عن حقيقة الوضع الراهن ، ويعود الفضل إلى الألمان النمسويين في تحرير حبّ الوطن ، هذا المبدإ الأسمى ، من براثن البيت المالك الذي جعل الإخلاص له مقياساً للوطنية .

اجتذب الحزب الألماني عند ظهوره عشرات الألوف إلى صفوفه ، وبدا في وقت ما وكأنّه عاصفة أو سيل عرم يوشك أن يجرف كلّ شيء ، ولكن نجاحه لم يعمر طويلاً ، ولدى وصولي إلى فيانا كانت حركة الوحدة الجرمانيّة قد أخلت المكان للحزب المسيحي الاشتراكي الذي قبض على زمام الحكم .

وقد كان اتّساع حركة الوحدة الجرمانيّة ثم انكماشها وتألّق نجم المسيحيين الاشتراكيين ذلك التألّق المفاجىء ، أهمّ ما كان يشغل فيانا في ذلك الحين ، ومن تحصيل الحاصل القول إني اتجهت بعقلي وعواطفي نحو الحركة الجرمانيّة ،

وقد تملّكني الشعور بالاعتزاز عندما سمعت في البرلمان أصواتاً تهتف لآل هوهنزولرن معتبراً هتافها دليلاً على اقتناع الناس بعجز الحواجز المصطنعة عن صدّ تيّار الوحدة الجارف ، وإيمانهم بأنّ النمسا جزء من الأمبراطوريّة الألمانيّة لا يتجزّأ وأنّه لا بدّ عائد إلى أحضان الوطن الأمّ .

ولكن لماذا خمدت الحركة الجرمانيّة بعد ذلك الانطلاق المدهش ، وكيف توفّرت للحزب الجديد ، الحزب المسيحي الاشتراكي ، مقوّمات النجاح السريع ؟

بدأت دراستي لهذه المسألة بتحليل شخصيّتي الرجلين اللذين كانا يتزعّمان الحزبين وهما جورج فون شونرر والدكتور كارل لوجر .

كان كلاهما يسمو عن مستوى الوسط البرلماني ، لا تشوب حياتهما شائبة ولا تعلق بسمعتهما لطخة ، يعتبرهما الناس صدّيقين وسط محترفي السياسة المتردّين في حمأة الفساد ، الغارقين في أوحال الرذيلة . وقد وجدتني ، بادىء ذي بدء ، معجباً بزعيم الحركة الجرمانيّة ، ولكن شخصيّة الدكتور لوجر ما لبثت أن فرضت عليّ احترامها . ومن مقارنتي بين مواهب الزعيمين تبين لي أن فون شونرر أعمق تفكيراً ، وأنّه سبق الجميع إلى التنبّؤ بانتهاء الدولة النمسويّة إلى المصير الذي انتهت إليه . ولو أنّهم في الرّيخ أحلّوا إنذاراته بشأن آل هابسبورغ محلّها من الاعتبار ، لما جازفت ألمانيا بحمل السلاح في وجه أوروبا كلّها .

ولكن إذا كان شونرر من الذين يكتنهون المسائل ويتفهّمونها ، فقد أثبتت الحوادث مع الأسف أنّه يجهل طبيعة البشر .

ومعرفة البشر كانت قوّة الدكتور كارل لوجر .

كان لوجر يدقّق في اختيار أصدقائه ، ولا يفرط في حسن الظنّ بالناس ، بحيث لا يراهم أفضل ممّا هم في الواقع ، وبفضل هذا التحفّظ كان يقدر مكانات الحياة تقديراً صائباً ، بعكس شونرر الذي كان يرى ، بعين الخيال

وعلى ضوء المبادىء ، كلّ شيء على ما يرام .

كل ما كان يجول في رأس زعيم الحركة الجرمانيّة من أفكار ، كان صواباً ومعقولاً على الصعيد النظري ، ولكن قوّة الإقناع كانت تعوزه فما استطاع وضع أفكاره في متناول عقول الجماهير ذات المواهب المحدودة . وهكذا لم يقترن بُعد نظره بأيّة فكرة ممكنة التنفيذ عمليّاً .

وجهلُ شونرر طبيعة البشر قد جرّه فيما بعد إلى الوقوع في أخطاء جسيمة عند تقدير قوّة الحركات الجماهيريّة وكذلك عند تقدير قيمة المؤسّسات العريقة في القدم .

ولقد أدرك زعيم الحركة الجرمانيّة في النهاية أنّه ينبغي له أن يجعل تفكيره منسجماً مع المفاهيم العامة ، ولكنّه لم يدرك أن سواد الشعب وحده يمكنه الدفاع عن هذه المفاهيم ، وأن قدرة الطبقة المسماة «بورجوازية» على النضال محدودة جدّاً ، فكلّ بورجوازي يحتفظ لنفسه بخطّ الرجعة ، ولا يذهب بعيداً في الكفاح لئلاّ يؤثّر ذلك في مصالحه الاقتصاديّة تأثيراً سيّئاً.

إن عقيدة أو فكرة أو أي مبدإ من المبادىء لا تُكتب له الغلبة ما لم يعتنقه سواد الشعب ويبدي استعداده للنضال في سبيله . ومن عجز شونرر عن إدراك هذه الحقيقة نجم مفهومه الخاطىء للمشكلة الاجتماعيّة . أمّا الدكتور كارل لوجر فقد أتاحت له معرفته بطبيعة البشر أن يزن مختلف القوى بميزان صحيح وألاّ يقع في الخطإ الذي وقع فيه زعيم الحركة الجرمانيّة من الاستهانة بالمؤسّسات القائمة . وقد رأيناه يتّخذ من هذه المؤسّسات وسيلة للوصول إلى أهدافه .

ولم يفت الدكتور لوجر أن قدرة البورجوازيين على الكفاح السياسي ليست ممّا يعتدّ به ، ولا يمكنها بالتالي أن تضمن نجاح الحركة الجديدة التي وضع هو أسسها . فوقف جهوده السياسي على استمالة الطبقات المهدّدة في موارد رزقها ، وعمل في الوقت نفسه على التقرب من المؤسسات العريقة

طمعاً باستغلال صداقتها واستخدامها في تقوية حركته الجديدة .

وهكذا قامت حركته أول ما قامت على الطبقات المتوسّطة الحال ، فكان لها من هذه الطبقات المهدّدة في موارد رزقها وكيانها أنصار أقوياء مستعدون للبذل ، متأهّبون للنضال . واستطاع بموقفه الحكيم من الكنيسة الكاثوليكيّة أن يستميل إلى حركته الإكليروس الناشيء ، ممّا اضطرّ الحزب الإكليريكي الهرم إمّا للانسحاب من الميدان أو للاندماج في الحزب الجديد.

ولم يكن لوجر رجل تكتيك فحسب ، بل كان رجلاً مصلحاً يتحلّى بصفات العباقرة وسجاياهم ، ولكنّ إصلاحه قد حدّ من نطاقه ضعف الإمكانات ناهيك بانعدام الكفاءات الشخصيّة .

لقد وضع الدكتور لوجر نصب عينيه غزو قلوب سكان العاصمة ، لأن فيانا هي قلب المملكة ، وفيهـا يحسّ المرء النبضات الأخيرة في جسم الأمبراطوريّة المريض . وقد قدّر زعيم المسيحيّين الاشتراكيين أن إنقاذ القلب يعني إنقاذ الجسم كلّه ، ولكنّ حساب الحقل لم ينطبق على حساب البيدر .

إنّ ما حقّقه لوجر بصفة كونه عمدة فيانا سيظلّ خالداً إلى الأبد . ولكن خدماته للعاصمة لم تنقذ المملكة ، لأنّها جاءت بعد فوات الأوان .

وفي هذه الناحية كان شونرر أبعد نظراً من زميله .

لقد نجحت مشروعات لوجر ، من الوجهة العمليّة ، نجاحاً باهراً ، أمّا ما كان يؤمّله من هذا النجاح فلم يتحقّق منه شيء .

أمّا شونرر فقد قصّر عن بلوغ أهدافه ، ولكن ما خشي وقوعه قد وقع .

فكلا الرجلين لم يصل إلى الهدف النهائي ، فلا لوجر استطاع إنقاذ النمسا ولا شونرر استطاع أن يجنب الشعب الألماني الكارثة .

٤
عوامل الاخفاق

لندرس الآن العوامل التي حالت دون نجاح الحركتين ، لأن هذا الدرس لا يخلو من فائدة في وقت تمرّ بنا ظروف كتلك الظروف ، ويخشى أن يقع البعض منّا في الأخطاء التي وقع فيها زعيما الحركتين فكان ذلك مدعاة لإخفاقهما .

يمكنني ردّ إخفاق حركة الوحدة الجرمانيّة التي تزعّمها شونرر إلى العوامل الثلاثة الآتي بيانها :

يأتي بالدرجة الأولى سوء تقدير شونرر لأهمّية القضايا الاجتماعيّة بالنسبة إلى حزب جديد ثوريّ النزعة ، فقد كان الرجل وأعوانه يتوجّهون بصورة خاصة إلى الطبقات البورجوازية أي إلى الناحية التي لا أمل يرجى من انتفاضتها الضعيفة .

إن البورجوازيّة الألمانيّة ، ولا سيما الطبقة العالية منها ، تظلّ مسالمة حتى نكران الذات ، عندما تثار شؤون تتعلّق بقضايا الأمّة الداخليّة ، ولا ريب أنّ هذه الطبقة تسدي إلى الدولة بموقفها هذا خدمات جلّى إذا كانت البلاد تنعم بالهدوء والراحة في ظلّ حكومة صالحة . أما عندما تكون الحكومة في واد والشعب في واد آخر فإن مسالمة الطبقة البورجوازية تبدو وكأنها ممالأة للطغيان وتواطؤ معه .

لقد كان على حركة الوحدة الجرمانيّة ، حرصاً منها على المضي في كفاحها حتى النصر ، كان عليها أن تعمل جاهدة في سبيل استمالة الجماهير ، ولكنها لم تفعل ، فأعوزها من ثمّ الحافز البدائي الذي تحتاج إليه كلّ حركة جديدة تريد الامتداد ، وما لبثت أن اضطرت للانكماش . وإغفال هذه الناحية قد

أبعد الجماهير عن الحزب ، ثم زادها ازوراراً ترحيب الحزب بعدد كبير من البورجوازيين المعتدلين الذين وسموا سياسته الداخليّة بطابعهم الخاص . فقصر همّه مذ ذاك على مقاطعة السلطات وعلى نقدها . وفترت همّته مع الأيّام لانعدام روح التضحية في أنصاره ، فجنح شيئاً فشيئاً نحو التعاون الإيجابي مع الحكام ، على أساس الاعتراف بالحالة الراهنة ووقف النضال تمهيداً لعقد صلح أعرج .

إن إخفاق حركة الوحدة الجرمانيّة مردّه إذنْ إلى إغفال الحزب الألماني شأن الجماهير الشعبية ، مما جعل منه حزباً بورجوازيّاً ، راديكاليّاً معتدلاً . ومن هذه الغلطة تولّد العامل الثاني .

فعند ظهور الحركة كانت حالة الألمان في النمسا تبعث على اليأس ، فقد أضحى البرلمان أداة يستخدمها الحكام في القضاء على العنصر الجرماني . وكلّ محاولة لإنقاذ هذا العنصر لا يكتب لها النجاح ما لم يسبقها زوال البرلمان .

وقد وجدت الحركة الجرمانيّة نفسها حيال مسألة دقيقة :

أينبغي لها أن تدخل البرلمان لتعمل على لغمه من الداخل ، أم يحسن بها أن تظلّ خارجاً لتقود الحركة ضدّه ؟

وفضّلت الحركة الأمر الأول : فدخلت البرلمان ولكنها خرجت من المعركة تجرّ أذيال الهزيمة .

لم تكن الحركة الجرمانيّة مخيّرة ، فقد كانت مضطرّة لدخول البرلمان ، ذلك أنّ محاربة هذه المؤسّسة القويّة من الخارج تتطلب شجاعة ومضاء عزم لا يؤثّر فيهما مؤثّر ، كما تتطلب تضحيات جسيمة . فمن يقبض على قرني الثور لإخضاعه لا بدّ أن يتلقّى ضربات موجعة وأن يقع أرضاً أكثر من مرّة ويقف على قدميه من ثمّ محطّم الأضلاع ، ولا تكون له الغلبة إلاّ بعد كفاح مرير .

إن عظمة التضحيات وحدها هي التي توفّر للقضيّة أبطالاً جدداً لا

يتردّدون في البذل ولا يجبنون مهما يعترض سبيلهم من عقبات .

وهؤلاء الأبطال يجب أن نبحث عنهم في صفوف الشعب ، فأبناء الشعب هم العنصر المناضل ، العنيد ، الذي يستمرّ في المعركة إلى النهاية .

وقد كان هذا العنصر يعوز الحركة الجرمانيّة ، فلم يبق أمامها إلاّ دخول البرلمان للعمل على نسف هذه المؤسّسة من الداخل .

من الخطإ الاعتقاد أن هذا القرار قد اتخذ بعد تردّد ومداولات طويلة . فقد اختار الحزب هذه الطريقة دون أن يحمل نفسه عناء التفكير بسواها ؛ وبنى قراره على مفاهيم غامضة تتعلّق بالدور الذي يمكنه تمثيله في البرلمان ، فقد أجمع أقطاب الحزب على وجوب اقتلاع الداء من جذوره ، وهذا لا يكون بمهاجمته من الخارج . وخيّل إليهم أنّ في وسعهم تنوير الجماهير بما يلقونه في البرلمان من خطب نارية تجعلهم الحصانة غير مسؤولين عمّا تنطوي عليه من نقد للسلطات وحملة على الأوضاع . وخيّل إليهم كذلك أن المجلس سيكون بمثابة حفل عام يتوجّهون من على منبره إلى الأمّة كلّها . وقد فاتهم أن الجمهور الذي أرادوا التوجّه إليه لا يسمعهم مباشرة ، وأن الصحف هي التي تطالعه بما يقول في الندوة البرلمانيّة إمّا محرّفاً أو ممسوخاً .

إن أكبر حفل يمكن أن نخاطبه مباشرة هو آلاف المستمعين الذين تزخر بهم الساحات والميادين العامة أو القاعات الفسيحة المعدّة للاجتماعات العامّة ، أما جلسات البرلمان فلا يحضرها في الغالب إلاّ بضع مئات من الناس ، تحدو معظمهم إلى حضورها الرغبة في قتل الوقت وليس الإفادة مما يلفظه « ممثلو الشعب » من درر .

وإنّه لمن السذاجة الاعتقاد أنّ العقيدة السليمة قمينة باجتذاب النواب كلهم أو بعضهم ، وإذا شذّ نفر منهم واعتنق هذه العقيدة فإنّه يفعل بدافع لا يمتّ إلى الاقتناع بصلة ، كأن يأمل تجديد انتدابه ممثّلاً للأمّة في الانتخابات العتيدة بفضل قيافته الحزبيّة الجديدة . وهذا التحوّل مشاهد كثيراً في الأحزاب

البرلمانيّة ، فما إن يشعر أعضاء حزب ما بنقمة الرأي العام على حزبهم حتى يأخذوا بالتسلّل منه الواحد بعد الآخر : إنّ الجرذان البرلمانيّة تهجر سفينة حزبها المشرفة على الغرق .

إنّ الخطب التي لفظها النواب الألمان في البرلمان النمسوي كانت بمثابة درر ألقيت إلى حيوانات ، وذهب هباء كلّ ما قالوه ، لأن الأكثرية قد وضعت في أذنيها وقراً .

أمّا الصحافة فكثيراً ما كانت تتجاهل أقوال النواب الألمان وخطبهم ، وإذا نشرتها تعمدت تقطيع أوصالها وتشويه معانيها أو أثبتت منها فقرات تلقي ظلاً من الشكّ على نيّات الحزب ومقاصده .

ولكن كان هناك ما هو أدهى وأمرّ .

كان على حركة الوحدة الجرمانيّة أن تدرك ، منذ اللحظة الأولى ، أن قيامها بشكل حزب جديد من شأنه أن يباعد بينها وبين النجاح ، وأن نجاحها يكون مضموناً إن هي استوت على صعيد العقائد الفلسفية ، ذلك أنّ كلّ حركة قوميّة تحتاج إلى قوّة كافية تتيح لها الاندفاع باستمرار ، وهذه القوّة تُستمدّ دائماً من المفاهيم الفلسفيّة للحركة .

والعقيدة الفلسفيّة لا تشقّ طريقها الحافل بالأشواك إلاّ إذا حمل لواءها زعماء شجعان ، قادرون على البذل ، مستعدون للتضحية ، فإذا لم يقيّض لها زعماء من هذا الطراز فلن يتجنّد لخدمتها والذود عنها مناضلون يمشون إلى لقاء الموت غير وجلين .

وقبل وضع العقيدة في متناول الجميع يجب إفهامهم صراحة أن الحركة الجديدة ستحمل للأجيال الطالعة السعادة والازدهار والعظمة ، ولكنها قد لا تعطي شيئاً في الوقت الحاضر ، لأنّ كلّ حركة تلوّح للناس بالوظائف والمراكز السهلة التناول ، لا يلبث أن يجتاحها الوصوليون والانتهازيون . ولا بدّ أن يأتي يوم يتسلّط فيه هؤلاء على الحزب بفضل وفرة عددهم ، فيصبح المناضل

الشريف غريباً عن الحركة التي قامت على ساعده .

وهكذا عندما قصرت حركة الوحدة الجرمانيّة نشاطها على دخول البرلمان والعمل في نطاقه ، توفّر لديها « البرلمانيّـون » عوضاً عن الزعماء والمناضلين، وهبطت هي إلى درك الأحزاب السياسيّة ، ولم تعد تقوى على مجابهة القدر المعادي لها بعظمة الاستشهاد . وبدلاً من أن تناضل تعلمت هي الأخرى إلقاء الخطب وفنّ المساومة ، وما عتّم « البرلمانيون » من رجال الحركة أن « اقتنعوا » بأن دورهم هذا أفضل وأجدى . فهو يتيح لهم أن يدافعوا عن مبادئهم بالأسلحة الفكرية ، ويجنب الحركة النزول إلى معترك السياسة السلبية وساح الصراع الدامي حيث الخطر أكيد أمّا النتائج ففي ضمير الغيب .

علّق أنصار الحزب الألماني على دخول أقطابه البرلمان أطيب الآمال وأزهاها ، وأقاموا يرتقبون حصول المعجزة الكبرى التي لم تحصل طبعاً ، وسرعان ما أخذت الأعصاب تنهار وفعلت الخيبة فعلها في النفوس ، لأن ما وعد به النـواب ناخبيهم لم يتحقق منه شيء ، وعملت الصحافة على توسيع الشقة بإغفالها الإشارة إلى المواقف المشرّفة للنواب الألمان ، وفي الوقت نفسه تراخت الوشائج التي كانت تشدّ أنصار الحزب بعضهم إلى بعض لأن البرلمان ومجالس الولايات قد اجتذبت الخطباء فكفّوا عن عقد الاجتماعات الحزبيّة ومخاطبة الجماهير وجهاً لوجه بما يذكي جذوة الحماسة في نفوسهم ويرسخ الإيمان بقدسيّة القضيّة وعدالتها .

لقد فقدت الحركة الجرمانيّة طابعها الشعبيّ وانقلبت نادياً للجدل والنقاش الأكاديميين منذ اليوم الذي آثر فيه أقطابها نقل النضال من الساحة العامة في المدينة وحانة بائع الخمور في القرية ، إلى قصر الريخستاغ ، وإذا كانت الصحافة قد تعمّدت تشويه مواقف النواب الألمان ومسخ أقوالهم فغياب هؤلاء عن ساحة النضال الحقيقي وانقطاعهم عن الاتصال المباشر بناخبيهم ، كانا من العوامل التي وفّرت لتكتيك الصحافة أسباب النجاح وقربتها من الهدف :

استعداء الشعب على الحركة الجرمانيّة .

ليعلم فرسان القلم في أيامنا أن ما من ثورة كبرى يمكن أن تقوم تحت شعار ريشة الإوز ، فدور القلم مقصور على إعطاء كلّ حركة مبرراتها النظرية . أمّا القوّة التي استحثّت بمهمازها السحري حركات الانقلاب التاريخيّة في الحقلين السياسي والديني فقد كانت دائماً وستبقى قوة الكلمة تتحرّك بها الشفاه .

ليعلم فرسان القلم أن الجماهير تخضع دائماً لقوة الكلمة ، وأن الحركات الكبرى هي حركات شعبية بل انتفاضات بركانيّة لما يعتلج في نفوس البشر : يثيرها تارة إله البؤس الذي لا يرحم وطوراً تثيرها مشاعل الكلمة إذا ألقيت وسط الجماهير . . . ولكنها ليست بحال من الأحوال وليدة الأسلوب الإنشائي المنمّق أو من صنع أبطال الصالونات .

لا يغير مصير شعب من الشعوب إلا عاصفة من الأهواء والمشاعر الجامحة المحرقة . ولا يثير هذه ولا تلك إلا من يعاني اعتلاجها في قرارة نفسه لأنها وحدها تقذف إلى الشفاه بالكلم الذي يفتح أبواب القلوب .

فليبق إذن كلّ كويتب أمام دواته يداعب « النظريات » إذا كان يكفي لذلك المعرفة وحدّة الذهن . فهو لم يخلق ليكون زعيماً وقائداً .

قلت وأكرّر القول إن حركة تتطلّع إلى أهداف بعيدة ينبغي لها أن تحرص أشدّ الحرص على استمرار التماسّ بينها وبين الجمهور ، وأن تدرس كلّ قضية على ضوء هذه الحقيقة وتوجّه قراراتها وفق هذا الاتّجاه ، وأن تتجنّب من ثمّ كلّ ما من شأنه إضعاف تأثيرها في الجماهير الشعبية ، يحدوها إلى ذلك اقتناعها التامّ بأن ما من مشروع عظيم يمكن أن يتحقّق بدون مساهمة هذه الجماهير .

لقد اختارت الحركة الجرمانيّة أهون السبل عندما قرّرت سلوك السبيل المؤدي إلى البرلمان ، وقد فاتها أن من يتجنّب الطرق الوعرة يقصر في الغالب

عن بلوغ الهدف . وهي بدخولها البرلمان قد ضحّت بالمستقبل طمعاً بإحراز انتصارات موقوتة .

* * *

أمّا العامل الثالث الذي سبّب إخفاق حركة الوحدة الجرمانيّة فقد كان جهل أقطاب الحركة بنفسية الشعب . وقد تجلى هذا الجهل بمحاربة الحزب للكنيسة الكاثوليكية .

أمّا الأسباب التي حدت الحزب للوقوف من الكنيسة موقفاً عدائيّاً فقد كانت التالية :

ما إن حزم آل هابسبورغ أمرهم وشرعوا في إعداد العدّة لوسم النمسا بطابع سلافيّ غلاّب ، حتى عمدوا إلى توريط المؤسّسات الدينية في ما زجّوا أنفسهم فيه . وقد جارت هذه المؤسسات البيت المالك دون ما تردّد ، وكانت الأبرشيات التشيكية والكهنة التشيك إحدى الوسائل التي استخدمت في عملية إلباس النمسا رداءها الجديد . وقضت السياسة الجديدة بتعيين كهنة الرعايا في المناطق الألمانيّة من العنصر التشيكيّ ، وأطلقت أيدي عملاء الكنيسة في محاربة النزعة الجرمانيّة والدعوة للفكرة الجديدة .

أما الإكليروس الألماني فقد وقف من هذا النشاط موقف اللامبالاة لأن عجزه عن مواجهة موجة العداء للعنصر الجرماني كان واضحاً . وقد آلم فون شونرر أن تبدي الكنيسة الكاثوليكية مثل هذا التحيّز الفاضح وأن تدع آل هابسبورغ يستخدمونها في محاربة مصالح الشعب الألماني ، فأعلن الحرب عليها وقاد حملة « الانفصال عن روما » معلناً أن أصل البلاء هو في كون رأس الكنيسة مقيماً خارج ألمانيا ، فعلى الألمان ، كهنة وعلمانيين ، أن يعملوا على أن تكون لهم كنيسة وطنيّة .

ولكن حملة شونرر لم يكتب لها النجاح لأنّها بنيت على مقاييس خاطئة . فقد كان جلّ اعتمادها على إخلاص الإكليروس الألماني للفكرة الجرمانية .

ولكن هذا الاكليروس كان يدين بالولاء المطلق للكنيسة أما إخلاصه للوطن فكان إخلاصاً موضوعياً .

ولم يكن هذا شأن الإكليروس الكاثوليكي وحده . فالبروتستنت أنفسهم لم يذهبوا في تأييد حركة الوحدة الجرمانيّة إلى حدّ التسليم بوجوب إنقاذ الأمّة من براثن الّذين يحاولون كتم أنفاسها ، وكانت حجتهم أن تحقيق أهداف الحركة يجب أن يتمّ بالوسائل السلميّة المشروعة وفي نطاق الأوضاع الراهنة .

لنعد إلى حملة شونرر على الكنيسة الكاثوليكية .

كان على الحركة الجرمانيّة قبل أن تناصب الكنيسة العداء أن تسائل نفسها : أيتمشى بقاء العنصر الألماني في النمسا مع مصلحة الكنيسة الكاثوليكية أم لا ؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب تعين على الحزب الألماني أن يترفع عن التدخل في القضايا الدينيّة والطائفيّة ، أما إذا كان الجواب بالنفي فالمطلوب في هذه الحالة تحقيق وجه من وجوه الإصلاح (الإصلاح الديني) وليس قيام حزب سياسي .

ومن يحسب نفسه قادراً على تحقيق الإصلاح الديني من طريق حزب أو منظمة سياسيّة فهو إمّا مهووس أو جاهل لا يعرف شيئاً عن تطوّر الدّيانات والعقائد . وعندي أن تأسيس دين من الأديان أو تقويض دعائمه هو عمل أعظم شأناً من تأسيس دولة أو تقويض دعائمها .

قد يقول قائل إن حملة الحركة الجرمانيّة على الكنيسة الكاثوليكية كانت بمثابة هجوم مضادّ يهدف إلى صدّ الهجمات المعادية أو الحدّ منها . ولكن لا يفوتنا أنّ الدين نفسه براء مما تشكو منه الحركة الجرمانيّة . وأنّه لا يجوز بحال من الأحوال أن نحمّل الدين أو المذهب أو الطائفة تبعة أعمال قام بها نفر لم يتورّع عن استخدام هذه المؤسّسات في أغراضه السياسيّة . والحزب الألماني عندما أعلنها حرباً شعواء على الكنيسة قد وضع ، مع الأسف ، سلاحاً ماضياً في يد خصومه ، ولا سيما النواب الذين جعلت منهم الحملة حماة الكنيسة

وأبطال الذود عن حياض الدين والإيمان، في بلاد اشتهر سكّانها بالتّديّن ، وطغت عصبيّتهم الدينيّة على عصبيّتهم العنصريّة .

وهكذا ابتعد عن الحركة كلّ كاثوليكي يدين لروما بالولاء التام ، فكان ذلك مدعاة لتضاؤل شأنها في الأوساط كافّة .

وثمة خطأ آخر وقع فيه شونرر ورفاقه فترتّب عليه إضعاف حركتهم ، ذلك أنهم بعثروا قواهم عندما أرادوا محاربة أكثر من خصم . ولو أنهم استنطقوا التاريخ لعلّمهم أنّ فنّ الزعامة يقوم ، بالدرجة الأولى ، على تركيز اهتمام الشعب وحصره بخصم واحد . وإذا كان ثمة عدة خصوم فإنّ الزعامة الحقّة تستطيع أن تدخل في روع الشعب أنّ أعداءه يصدرون عن رأي واحد ويعملون لهدف مشترك ، أمّا إذا توهّم الشعب أنّه مواجه أكثر من عدوّ وأنّه مدعوّ للقتال في أكثر من ساحة فإنّه لا يلبث أن يعتوره مركب النقص وقد يرتاب في عدالة قضيّته .

والحركة الجرمانيّة بإعلانها الحرب على أكثر من عدوّ قد بعثرت قواها ودفعت بأنصارها إلى التساؤل : أيكون خصومنا جميعاً على خطإ ونحن وحدنا على صواب ؟

خلاصة القول إن الحزب الألماني في النمسا قد أحسن اختيار الهدف ولكن الطريق الذي سلكه لبلوغ هدفه السامي لم يكن الطريق السوي . لقد كان شأنه شأن رجل صمم على بلوغ قمة الجبل ، واندفع نحو الهدف بعزم صادق دون أن يدقّق في اختيار الطريق ، ولكن تسرّعه سبّب بالنتيجة إخفاق محاولته .

• • •

لم يقع الحزب المسيحي الاشتراكي في الأخطاء التي وقع فيها حزب الحركة الجرمانيّة .

فهو قد دقّق في اختيار الطريق قبل أن يمضي قدماً نحو الهدف ولكن هذا الهدف لم يكن واضحاً .

أدرك الحزب المسيحي الاشتراكي أهمية الحركات الشعبية ، ودلّل على ذلك بالسياسة الاجتماعيّة التي اعتمدها منذ اليوم الأول لظهوره على المسرح ، وقد اجتذب إلى صفوفه أنصاراً أوفياء ومستعدين للبذل عندما جعل محور نشاطه العمل على رفع مستوى الصنّاع اليدويين . أما المؤسسات الدينيّة فقد تجنّب الاصطدام بها مما ضمن له تأييد الكنيسة . هذه المنظمة القوية ذات النفوذ الواسع والإمكانات التي لا حدّ لها .

ولئن يكن هذا الحزب قد قصّر عن بلوغ الهدف : إنقاذ النمسا ، فمردّ تقصيره إلى غموض هذا الهدف فضلاً عن التواء السبيل الذي سلكه ، بعد أن دقّق طويلاً في اختياره .

ذلك أنّ الحركة المعادية للساميّة التي تزعّمها الحزب قد قامت على أساس ديني ، لا على أساس مبادىء عرقية وعنصرية . وكانت حجة مؤسسي الحزب أنّ المبادىء العرقيّة لا تصلح أساساً للعمل على إنقاذ البلاد لأن إثارة هذا الموضوع من شأنها أن تعجل في انهيار الدولة .

كانت فيانّا في ذلك العهد قد اجتذبت العديد من سكان الولايات ذات الطابع القومي الخاص ، فأسس كل فريق تكتلاً على أساس سياسي ، وخوفاً من اتجاه هذه التكتلات اتجاهاً معادياً للألمان جعل حزب الدكتور لوجر شعاره « إنقاذ النمسا من المفسدين اليهود » ودعا جميع المواطنين المسيحيين من ألمان وسلاف ومجريين إلى الوقوف في وجه المبادىء التي يروّج لها اليهود ، لا بصفة كون هؤلاء عنصراً غريباً بل بصفة كونهم طائفة دينيّة .

وواضح أن حملة تشنّ ضدّ اليهود على أساس ديني بحت لا يمكن أن تلحق بهم أذًى كبيراً ، ففي أسوإ الحالات تكفي نضحة من ماء العماد لإنقاذ اليهودي وتجارته .

وسرعان ما ابتعد عن الحزب الجديد جميع الذين أدركوا سطحيّة الأسس التي قام عليها العداء للساميّة . وخيّل إلى كثيرين أنّ الغرض من الحملة

هو حمل اليهود في النمسا على اعتناق الدين المسيحي ، وبدت لهم ، بالتالي ، محاولة صبيانيّة غير حريّة بالتشجيع .

لم تكن الحركة في الواقع أكثر من شبه محاولة عرجاء ، فجاءت اللاساميّة أشدّ خطراً من السامية نفسها . وقد نام القائمون بها على الثقة متوهّمين أنهم أمسكوا العدوّ من أذنيه في حين كان هو يجرّهم ممسكاً بأنوفهم . وما عتّم اليهودي أن ألف هذا الضرب من ضروب اللاسامية ، ولعلّ انتهاء هذه الحالة كان أدعى إلى ابتئاسه من قيامها .

لقد ضحى أقطاب الحزب ومن وراءهم بفكرة الدولة القائمة على القوميّة عندما انبروا لمحاربة اليهود على أساس ديني ، وحتى بعد إخفاق الحركة المعادية للسامية ، تجنب الحزب إثارة مبدإ القوميّات آملاً إنقاذ دولة آل هابسبورغ بتجاهل الداء الذي ينهشها ، وقد فاته أن ترك الدمّل على حاله سيعجّل بهلاك هذه الدولة ، وأنّ إثارة مسألة القوميّات والأعراق قمينة بجلاء الحالة وإزالة الغموض الذي يكتنف موقف بعض الولايات .

عندما شيّعت جنازة الدكتور كارل لوجر من دار البلدية إلى « الرنغستراس » كنت في عداد آلاف المشيّعين . وقد أدركت أن عمل الرجل قد دهب سدى لأن القدر يأبَى على الدولة النمسوية أن تستمرّ . ولو عاش لوجر في ألمانيا لكان قد احتلّ مكانه في الصفوف الأولى . ولكن سوء طالعه وطالع الرسالة التي اضطلع بها قضى بأن يعيش في هذه الدولة غير القابلة للإصلاح .

وعند موته كان البلقان قد بدأ يشتعل ، وكان القدر رفيقاً به فما شهد الانهيار الذي عمل دائماً على تفادي حصوله .

• • •

أرى أن أختم هذا الفصل بإجمال الأخطاء التي سبّبت إخفاق الحزب الألماني والحزب المسيحي الاشتراكي :

كان الحزب الألماني (أو حركة الوحدة الجرمانيّة) على حقّ في إيمانه بالبعث الألماني في النمسا، ولكنّه لم يوفّق في اختيار الوسائل. كان حزباً قومياً ولكنه لم يعتمد في القضيّة الاجتماعيّة نهجاً يجذب إلى صفوفه سواد الشعب، أما عداؤه للساميّة فقد كان يرتكز على فهم تام لمسألة الأعراق، بيد أن الحرب التي أعلنها على طائفة دينيّة معيّنة كانت غلطة تكتيكيّة لا تغتفر.

لم يكن للحزب المسيحي الاشتراكي هدف قومي واضح، ولكنه أحسن اختيار وسائله كحزب سياسي، فأدرك أهميّة المسألة الاجتماعيّة. أما حركته ضدّ اليهود فقد جاءت نتائجها مخيّبة للآمال، وكانت كذلك نتائج جهوده الرامية إلى إنقاذ النمسا باستبعاد مسألة القوميّات.

ولو قرن الحزب المسيحي الاشتراكي تفهّمه المسألة الاجتماعيّة بنظرة مجردة إلى قضية الأعراق والقوميّات، لانقلب حزباً قومياً شعاره تغليب الطابع الجرماني في البلاد على كلّ طابع آخر. ولو قرن حزب الحركة الجرمانيّة تفهّمه للمسألة اليهوديّة وقضيّة القوميّات بنظرة جدّيّة إلى المسألة الاجتماعيّة لشهدت النمسا حركة لها شأنها في تقرير مصير الدولة...

لم أجد في أي من الحزبين تجسيداً للفكرة التي بلورتها الأيام والتجارب في أعماق نفسي، لهذا لم أساهم في الحركتين اقتناعاً مني بأنهما عاجزتان عن بعث النزعة الجرمانيّة في دولة أولت التاريخ ظهرها لتمسخ نفسها دولة سلافيّة.

وقد ازدادت كراهيتي لآل هابسبورغ تبعاً لازدياد اهتمامي بالشؤون العامة وبالقضايا السياسيّة، ورسخ في ذهني أن دولتهم المتفسّخة ستكون وبالاً على الألمان، وأن مصير الأمّة الألمانيّة لن يتقرّر في النمسا بل الريخ هو الذي يقرّره لأنه مؤهّل للاضطلاع بهذه المهمّة سياسيّاً واقتصاديّاً وثقافيّاً.

وفي [illegible] نفسه بدأت أكره النمسا نفسها بعد أن استحالت متحفاً [illegible]

غريب الدّار في العاصمة الجميلة بعد أن غزتها جموع البولونيّين والتشيك والهنغاريّين والروتنيّين والصرب والكروات الخ . . .

وبدت لي المدينة الجميلة وكأنّها تجسيد للزّنى بين ذوي القربى . وقد أدركت أن محاولات الدكتور لوجر وحزبه لإنقاذ الدولة لن تؤتي ثمارها عندما جعل تعدّد اللهجات واللغات من فيانّا بابل الثانية ، وأخذ نجم الثقافة الألمانيّة بالأفول .

قلت إن النمسا استحالت متحفاً للقوميّات ، ولكن الملاط الذي يشدّ أجزاء البناء بعضها إلى بعض بات سريع العطب ، فإذا لم يمسّ البناء تراءى للعين ثابت الأركان متين الدعائم ، أمّا إذا سدّدت إليه ضربة فإنّه يتحطّم ويتناثر كالزجاج .

لقد خفق قلبي ولا يزال يحبّ الامبراطورية الألمانيّة ، ولم يخفق قطّ بحبّ المملكة النمسوية . وقام في ذهني دائماً أن انهيار هذه الدولة سيكون بشيراً بتحرّر الأمّة الألمانيّة . وذات يوم وجدتني توّاقاً لمغادرة النمسا إلى ألمانيا الوطن الأم ، مع العلم أن فكرة الانتقال قد راودتني منذ نعومة أظفاري فكنت أهدهدها كحلم لذيذ .

قررت الانتقال إلى ألمانيا وتعاطي حرفتي فيها دون أن يصرفني عملي كمهندس بناء أو رسام عن المساهمة في تحقيق أغلى الأماني القوميّة على قلوب الألمان المخلصين : إلحاق وطني النمسا بالوطن الأكبر المشترك ، الرّيخ الألماني .

ما أكثر الذين لا يقدّرون عظمة هذه الأمنية وقدسيتها ، حتى في أيّامنا هذه . ولكني أتوجّه إلى الذين أبى القدر إلا حرمانهم شرف المساهمة الفعليّة في العمل المشترك ، وإلى أولئك الذين اضطرّوا اضطراراً للتخلّف عن الركب وصار عليهم أن يناضلوا في سبيل الإبقاء على أثمن تراث : لغة الوطن الأم ، وإلى الذين يُلاحَقون ويُضطَهَدون من أجل إخلاصهم لهذا الوطن ، ولكنهم

ثابتون لا يثنيهم الاضطهاد ولا تخيفهم الملاحقة ، إلى هؤلاء جميعاً أتوجه لأنهم يفهمونني .

إن الحنين إلى الوطن الحبيب تتقد جذوته في قلوب جميع الذين يعيشون بعيدين عنه ، ولن يذوق هؤلاء طعم الراحة ولن يعرفوا معنى الاستقرار ما لم تفتح أمامهم أبواب الوطن وينعم الدم المشترك بالسلام والطمأنينة في الأمبراطورية الواحدة .

• • •

كانت فيانا المدرسة الكبرى التي لقنتني دروس الحياة . دخلتها حدثاً وغادرتها رجلاً رصيناً كثير التفكير قليل الكلام . وفيها تكونت نظرتي إلى الحياة والكون ورسمت لنفسي نهجاً في التحليل السياسي لم أتخل عنه فيما بعد ، وفيها كذلك تعلمت دروس الأشياء في المسائل الأساسية التي نعالجها اليوم كحزب بدأ حركة متواضعة منذ خمس سنوات وهو اليوم ينمو نمواً مطرداً يجعل منه حركة شعبية ذات شأن عظيم .

الفصل الثالث

١

ميونيخ

في ربيع ١٩١٢ غادرت فيانّا نهائياً ووجهتي ميونيخ .

لم تكن المدينة بغريبة عنّي . كنت أعرفها كما لو كنت قد أقمت فيها سنوات ؛ ذلك أن دروسي كثيراً ما حملتني إليها لأشاهد فيها روائع الفنّ الألماني .

لم يرَ شيئاً من ألمانيا مَن لم يعرف ميونيخ . ولن يعرف شيئاً عن الفنّ الألماني مَن يزور ألمانيا ولا يرى ميونيخ ، وقد كانت فترة ما قبل الحرب التي قضيتها في هذه المدينة من أسعد أيام حياتي ، نعم ظلّ كسبي من عملي جدّ متواضع ولكنّي ما كنت لأحيا من أجل الرسم والتصوير . كنت أعمل ليتسنّى لي أن أتابع تحصيلي وأنا على مثل اليقين بأني بالغ حتماً الهدف الذي وضعته نصب عيني .

أحببت ميونيخ حبّاً عميقاً منذ اليوم الأول لوصولي إليها . قلت في نفسي وأنا أجيل الطرف حولي : ما أعظم الفرق بين هذه المدينة الألمانيّة وبين فيانّا بابل الشعوب ! وقد زادني تعلّقاً بها ، فضلاً عن لهجة السكّان التي ذكّرتني لهجة أبناء بافاريا السفلى وأيّام طفولتي . ما شاهدته من مظاهر الحيويّة المتدفّقة في كل حقل ومن الروائع الناطقة بعظمة الفنّ الألماني ، ولا ريب في أن بقائي متعلّقاً بميونيخ أكثر من أيّ مكان آخر في العالم مردّه إلى كونها مرتبطة بتطوّري ونموّ مداركي ارتباطاً لا يمكن أن تنفصم عراه . على أنّي

أردّ ارتياحي الفوري إلى الإقامة فيها إلى تأثير جمالها في كلّ رجل مرهف الحسّ محبّ للجمال .

لم يصرفني تمرّسي في حرفتي وانكبابي على الدرس والمطالعة في فترات الراحة والفراغ عن تتبّع الأحداث السياسيّة في الداخل والخارج . وكنت أتطلّع إلى سياسة ألمانيا الخارجيّة من خلال نظام المحالفات الذي أنشأته والذي اعتبرته وأنا بعدُ في فيانّا قائماً على أساس غير سليم . ولكنّي كنت أحسب ساسة برلين وقتئذ غير جاهلين حالة الضعف التي صار إليها حليفهم الهابسبورغي وأنهم يكتمون هذه الحقيقة عن الشعب لئلاّ تثير قلقه ويحرصون في الوقت نفسه على التقيّد بسياسة المحالفات التي وضع أسسها بسمارك .

ولشدّ ما كانت دهشتي إذ تبيّن لي من اتصالي بالشعب أن حسن ظني لم يكن في محلّه وأنّ لدى الألمان ، ولست أستثني البيئات المثقّفة ، فكرة خاطئة عن مملكة آل هابسبورغ وإمكاناتها كحليف . فقد كان الوهم السائد أن النمسا يمكنها أن تعبّىء جيشاً عرمرماً وأنّها لا تزال دولة ألمانيّة . أما أنا فكنت أعرف عن النمسا ومشاكلها ما ظلّت « الدبلوماسيّة » الرسمية تجهله حتى اللّحظة الأخيرة . ولم تكن هذه « الدبلوماسية » لتختلف في نظرتها إلى الحليف النمسوي عن « الرأي العام » الذي كان يتأثّر خطاها في هذا المضمار ، ففي نظرها كانت مملكة آل هابسبورغ عجلاً من ذهب ، وبلغ بها حسن الظنّ بالجارة الحليفة حدّاً باتت معه تصدّق ما تدّعيه فيانّا من أمانة للتّحالف الثلاثي ، هذا التحالف الذي كان مثار تعليقات صحفية ساخرة في عواصم الولايات السلافيّة لا سيما براغ التي كانت تعتبر هذا التحالف مسرحيّة ذات فصول منها المضحك ومنها المبكي ومنها المضحك والمبكي معاً . وكان الرأي السائد ، حتى في أيام السلم وعندما كان الامبراطوران يتبادلان العواطف والقبل الحارة ، أن المواثيق المعقودة ستنقض بعد أول امتحان .

وقد كان ، ورأينا إيطاليا بعد سنوات ، وفي الوقت الذي كان التحالف

الثلاثي يجتاز امتحانه الأول القاسي ، تتنكّو لحليفتيها ألمانيا والنمسا لتقف في صفّ أعدائهما . ولا شكّ في أنّ الّذين شيّدوا العلالي والقصور على قيام الحلف الثلاثي كانوا أكثر من بسطاء ساعة ذهبوا في تفاؤلهم إلى حدّ الاعتقاد بإمكان حمل إيطاليا على دخول الحرب ويدها في يد النمسا .

عندما كنت في فيانّا لاحظت أن البيت المالك وأنصار الوحدة الجرمانيّة متحمسون للحلف الثلاثي ؛ أما سائر العناصر فتسخر منه ولا تقيم له أيّ وزن . أما آل هابسبورغ فلأن تحالفهم مع ألمانيا هو بمثابة تغطية لموقفهم من ألمان النمسا ولمساعيهم الرامية إلى نزع الطابع الجرماني عن البلاد . أمّا ألمان النمسا فقد تحمّسوا للحلف عن حسن نيّة ، اعتقاداً منهم أنّه سيكون دعامة قوية لألمانيا في حرب تنشب ، وكانت حماستهم هذه إحدى الظواهر الدالّة على قصر نظرهم ، لأنّهم أمّلوا أن يؤدّي توثّق العلاقات بين برلين وفيانّا إلى ارتباط مصير النمسا بمصير الريخ . وقد فاتهم أنّ الحلف الذي باركوه سيحمل الريخ عبئاً ثقيلاً ويجرّ الدولتين معاً إلى الهاوية . يضاف إلى هذا أن أقطاب حركة الوحدة الجرمانيّة قد أسرفوا في التفاؤل وحسن الظنّ عندما حسبوا الحلف الثلاثي أحد العوامل القمينة بتحقيق الأماني القوميّة . فقد كان الحلف ، كما أسلفنا ، ستاراً غطّت به فيانّا تدابيرها الرامية إلى إبادة العنصر الألماني في البلاد ، وتعامت برلين عن اللعبة ولعلّها ظلّت تجهلها حتى اللحظة الأخيرة ، فالمهمّ في نظرها أن تخلص فيانّا للحلف . أما سياسة آل هابسبورغ الداخليّة وموقفهم من الحركات العنصرية التي تهدّد كيان الدولة ، فآخر ما تفكّر العاصمة الألمانيّة بأن توليه اهتمامها وعنايتها .

لقد وضعت هذه السياسة ألمان النمسا في موقف لا يحسدون عليه ، لأنهم لو استمروا في نضالهم القومي مع قيام التحالف لاتّهموا بالمروق والخيانة . ولم يفت المدركين منهم أن الحلف الثلاثي قيمته في بقاء العنصر الألمانيّ متفوّقاً في النمسا ، وأنه يصبح غير ذي موضوع يوم يغلب على هذه البلاد الطابع

السلافي . وقد آلم هذا الفريق من ألمان النمسا أن تسقط الدبلوماسيّة الألمانيّة والرأي العام الألماني هذه الاعتبارات من حسابهما وأن يقفا موقفاً مجافياً للحكمة من مسألة القوميّات في البلد الحليف مجازفين بمقدّرات شعب من سبعين مليوناً وذلك بجعل مستقبله وسلامته منوطين بميثاق معقود مع سلطة لا تتورع عن إبادة رعاياها الألمان ، أي الأساس الوحيد الذي يمكن أن يقوم عليه الميثاق .

ولو عادت برلين إلى التاريخ ودرست نفسية الشعوب لما دار في خلدها لحظة واحدة أن الكيرينال والقصر الأمبراطوري في فيانّا يمكن أن يقاتلا جنباً إلى جنب . فالشعب الإيطالي لم ينسَ ولا يمكن أن ينسى موقف آل هابسبورغ من وحدة بلاده واستقلالها . ولن تجرؤ حكومة إيطالية على إرسال جندي واحد إلى القتال ما لم تكن الرصاصة موجّهة إلى الدولة الهابسبورغية . ولئن تكن روما قد انتظمت في الحلف الثلاثي فعن رغبة منها في كسب الوقت وتضليل خصمها التاريخي ، بحيث يركن إلى المواثيق المعقودة بينما تستعدّ هي للحرب .

حقّاً إن سياسة المحالفات التي أخذت بها ألمانيا منذ أن ساءت العلاقات بين النمسا وروسيا ، قد بنيت على الأوهام والافتراضات الخاطئة .

لماذا حرصت ألمانيا في مطلع القرن العشرين على أن يكون لها حلفاء ؟ لقد حداها إلى اعتماد هذا النهج شعورها بالحاجة إلى أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم إذا لم يكن من الحرب بدّ لتوفير رفاهية الشعب الألماني .

لقد كان على المسؤولين الألمان أن يواجهوا ، سنة بعد سنة ، مشكلة تزايد عدد السكّان (٩٠٠ ألف كل سنة) وهذا التزايد المطّرد يهدّد البلاد بكارثة إذا لم يواجه بتدابير فعّالة تقطع الطريق على المجاعة . وكان ثمّة وسائل أربع يمكن الأخذ بها :

أولاً : تحديد النسل منعاً لتضخم عدد السكان ، على نحو ما هو جار

في فرنسا .

إن الطبيعة نفسها تتولّى الحدّ من تضخم عدد السكّان في عهود الفاقة وفي الأقطار والأمصار ذات المناخ الرديء . ولكنها لا تقف حجر عثرة في طريق التناسل نفسه ، بل تقصر تدخّلها على اعتراض سبيل الكائن الجديد وإخضاعه لامتحانات قاسية تعود به إلى العدم . إلاّ إذا كان قوياً وقابلاً للحياة ، فتفسح له في مجال البقاء والتناسل ، وهكذا تزيل الطبيعة بأساليبها الخاصة العناصر الضعيفة غير الجديرة بالبقاء وتبقي على الأصلح . وهكذا يفضي خفض العدد إلى تقوية الفرد وبالتالي النوع .

ويكون الأمر عكس ذلك تماماً إذا تولّى الإنسان بنفسه تحديد نسله ، فالإنسان غير الطبيعة ، إنّه بشر وهو لا يقيم العراقيل في طريق نموّ الفرد الذي ينجب ، ولكنه يقيمها في طريق التناسل نفسه . وتبدو له هذه الطريقة إنسانيّة وعادلة لأنّه لا يرى من الكون الفسيح إلا نفسه ولا يقيم وزناً للعرق الذي ينتمي إليه .

إن طريقة الإنسان هذه هي نقيض أسلوب الطبيعة وعواقبها هي عكس عواقبه . فالطبيعة إذ تدع للبشر حرية التناسل تخضع سلالتهم لامتحان قاس وتختار أصلحهم للحياة فتحتفظ بهم وتكل إليهم مهمّة حفظ النوع . أمّا الإنسان فإنّه يحدّ من نسله بوسائله الخاصة ولكنّه يصرّ على حفظ كلّ كائن بعد مولده ، سواء أكان صالحاً للحياة أم لم يكن . وبهذه الطريقة يمكن الحدّ من العدد ولكن قيمة الفرد تتضاءل كما تتضاءل جودة النوع .

إن الكفاح الطبيعي من أجل الحياة لا يفسح في مجال البقاء إلاّ للأقوى ، أما لجم قوّة التناسل نفسها فإنّه ، وإن أدّى إلى الحدّ من العدد ، لا يستبعد السلالات الضعيفة غير الجديرة بالحياة ، فتؤلّف نواة سلالة جديدة أشدّ ضعفاً ، مما يشكّل تحدّياً للطبيعة التي تغلب على أمرها ولكن إلى حين ، لأنّها لا تعتّم أن تثأر لنفسها من الذين تحدّوها ، فلا تبقي في الأرض مكاناً

لشعب خامل ، إذ تسلّط الأقوياء على الضعفاء وتوصد أبواب فردوسها في وجوه الذين يصلون متأخرين وقد أضناهم السير الطويل .

ليعلم إذن الذين يفكّرون في حلّ مشكلة تزايد عدد السكان في ألمانيا باللجوء إلى الطريقة المتبعة في فرنسا ، أي بتحديد النسل ، أن هذه الطريقة تعني القضاء على مستقبل الشعب الألماني .

ثانياً : الطريقة الثانية هي ما يسمونه « الاستعمار الداخلي » وهو مشروع يقرّظه ويدافع عنه الذين لا يفهمون ولا يقدّرون عواقبه .

ليس من ينكر أن بالإمكان زيادة محصول الأرض بنسبة معيّنة وإلى حدّ محدود . ولكنّ هذه الزيادة ليست أبديّة ، فالاعتماد عليها كوسيلة فعّالة لإنقاذ الشعب الألماني من المجاعة يمكن أن يعطي نتائج مرضية حيناً من الزمن ، ولكن لن يحلّ المشكلة من أساسها حلاً نهائيّاً حاسماً ، لأنّ عدد السكان سيتزايد باطّراد بينا تتضاءل قدرة الأرض على الإنتاج ، ولأن حاجات البشر آخذة بالتنوّع ، فما كان يكفي أجدادنا من مأكل وملبس منذ مائة عام ، يتطلّب جيلنا خمسة أضعافه .

يتوهّم الداعون إلى « الاستعمار الداخلي » أنّ كلّ زيادة في المحصول تجيز زيادة في عدد المواليد ، ويسقطون من حسابهم أن هذا التقدير لا يصحّ إلاّ إذا استمرّت الأرض في البذل بسخاء وقيّد البشر استهلاك المحصول بقيود تحول دون التفريط به على غير طائل . ولكن الأرض لا يمكنها أن تعطي بسخاء إلى ما شاء الله ، ولا بدّ أن يأتي يوم تصبح فيه عاجزة عن الإنتاج ، جزئيّاً أو كلّيّاً ، وعندها تطلّ المجاعة بوجهها الدميم ، وقد لا تطلّ في أول الأمر إلاّ في السنوات العجاف ولكنها تصبح ملازمة مع الأيام ومع استمرار تزايد عدد السكان ، ولا ينقذ الموقف إلا تدخّل الطبيعة بما لها من قدرة على الاستنساب فتختار من يصلحون للبقاء وتدع سائر السكّان لمصيرهم ، فيسقطون تحت غربالها الذي لا يرحم .

قد يعترض معترض بقوله إنّ هذا الاحتمال حاصل حتماً ، عاجلاً أو آجلاً ، وإنّ نتائجه ستطال البشريّة كلّها ، بحيث لا يسلم منها شعب من الشعوب .

يبدو هذا للوهلة الأولى عين الصواب . ولكن هذا لا يمنعنا من النّظر إلى الأمور بحالتها الراهنة ، نعم سيأتي يوم تعجز فيه البشرية عن توفير حاجاتها ، وفي هذه الحالة إمّا أن ندع الطبيعة تقول كلمتها أو تحاول هي إعادة التوازن بوسائلها الخاصة . ولكننا لا نزال بعيدين عن هذا . وواقع الحال يدل على أن ثمّة شعوباً تنعم بالبحبوحة وأخرى تشكو الحرمان لأنّها لا تأنس من نفسها القدرة على امتلاك الأرض التي توفّر لها الغذاء . هذا مع العلم أن في عالمنا مساحات شاسعة لا تزال أرضاً بكراً تنتظر من يستغلّها ، وأن الطبيعة لم تحتفظ بهذه الأرض البكر لعرق من الأعراق ، فامتلاكها هو إذنْ من حقّ الشعب الذي يضع يده عليها .

إنّ الطبيعة لا تتعرّف إلى الحدود السياسيّة . فهي تضع الكائنات الحيّة جنباً إلى جنب على الكرة الأرضيّة ثم تراقب تصارع القوى المختلفة ، ويخفق قلبها للأقوى لأنّه ابنها المختار الجدير بالحياة .

والشعب الذي ينصرف إلى « الاستعمار الداخلي » بينما يمتدّ نشاط الشعوب الأخرى إلى مناطق واسعة من الكرة الأرضية ، سيضطرّ عاجلاً أو آجلاً إلى تحديد عدد مواليده ، والملاحظ أن أفضل الأمم ، الأمم التي تحمل وحدها مشعل الحضارة وتقود حملة التقدّم ، لا تطمح إلى التوسّع مكتفية بـ « الاستعمار الداخلي » ، تاركة التوسّع لأمم هي دونها جدارة ولكنها أمضى منها عزيمة وأوفر حيويّة . وفي الوقت الذي تجد الأمم الأولى نفسها مسوقة إلى تحديد النسل تفادياً لخطر المجاعة ، نجد الثانية تنمو نموّاً مطّرداً وتزداد قوّة تبعاً لازدياد إمكاناتها .

إن تعبير « الاستعمار الداخلي » سيكون شؤماً علينا نحن الألمان ، إذا

تبنّينا المشروع وقنعنا من دنيانا بما قسم الله . فليس أقتل لحيويّة الشعوب من قناعة لا يبرّرها واقع الحال . و « الاستعمار الداخلي » إذا نحن أخذنا به سيقعد بنا عن السعي لاحتلال المركز اللائق بنا تحت الشمس . ومتى أدخل في روع الألماني الوسط أن بلاده تكفي نفسها بنفسها ، فلنقل على ألمانيا السلام .

أليس من سخرية القدر ومن اتّفاقاته العجيبة أن يكون اليهودي هو الذي يحاول توجيه شعبنا هذا التوجيه الخطر مدخلاً في روعه أن في إمكانه توفير حاجاته جميعاً باستدرار عطف الأرض الألمانيّة ؟

قلت وأعيد القول إن « الاستعمار الداخلي » لن ينقذ ألمانيا من المجاعة إلاّ لأمد محدود ، وإن حفظ كيان شعبنا رهن باستيلائنا على أرض جديدة ، فإذا لم نضمن للجيل الطالع مداه الحيوي نكون قد خنّا رسالتنا وأسرعنا الخطى نحو الهاوية .

ولا يفوتنا أن البلاد ذات المساحة الصغيرة تظلّ سياسيّاً وعسكريّاً عرضة للمفاجآت غير السارّة . فالمساحة الكبرى تشكّل بحدّ ذاتها عاملاً أساسيّاً من عوامل السلامة والاستقرار ، فكلّما امتدّت أراضي شعب يسر الدفاع عنه ، وقد رأينا عظماء القادة يحرزون أهمّ انتصاراتهم وأسرعها وأقربها منالاً على أراضي شعوب مجالها الحيويّ ضيّق . وكان الأمر دائماً عكس ذلك في البلدان ذات المساحة الكبيرة ، حيث تنهار قوى المهاجم قبل أن يبلغ هدفه البعيد .

ولئن يكن الموجّهون الألمان قد رفضوا فكرة « الاستعمار الداخلي » فقد رفضوها لغير الأسباب التي أسلفنا ذكرها . أما تحديد النسل فقد أحجموا عنه لاعتبارات دينيّة وعارضوا بشدّة « الاستعمار الداخلي » لأنّهم اعتبروه طليعة هجوم على الإقطاعات الكبيرة عموماً والملكيّة الخاصّة بنوع أخصّ .

ثالثاً : تأمين الخبز والعمل للسكّان الآخذ عددهم بالازدياد بالاستيلاء على أراض جديدة وإسكان ملايين الألمان فيها .

رابعاً : السعي إلى إغراق الأسواق بمنتجاتنا فنؤمن بذلك ربحاً كافياً يقينا خطر المجاعة .

أي أنّه كان على ألمانيا بعد أن رفضت الأخذ بإحدى الطريقتين الأولى والثانية أن تعتمد إمّا سياسة التوسّع أو سياسة استعمارية وتجارية . وقد اختارت الطريقة الثانية بعد تردّد طال أمده، وكان عليها أن تختار الأولى لأنّها الأصلح والأسلم . ذلك أن إحراز أراض إضافية ينتقل إليها الفائض من السكان لتدبير حكيم ذو ميزات لا تحصى ، بالنسبة إلى الحاضر والمستقبل . ولعلّ أهمّ هذه الميزات قيام طبقة سليمة من الفلاّحين كأساس ترتكز عليه الأمّة كلّها . فمعظم ما نشكو منه اليوم ناجم عن انعدام التوازن بين ما تعطيه المدن وبين ما تعطيه الأرياف ، وقد كان وجود طبقة من المزارعين الصغار والمتوسّطي الحال في كل وقت ، واقياً لشعبنا ضدّ المشاكل الاجتماعيّة التي يتخبّط فيها الآن . لأن نشاط هذه الطبقة في نطاق الاقتصاد المقفل يجعل إنتاجها يسير جنباً إلى جنب وباقي حقول النشاط الاقتصادي ، ويؤمّن التوازن المطلوب بين حاجة السكان وحالة الإنتاج .

ولكن سياسة التوسّع هذه لا يمكن أن تستهدف في أيّامنا بلاداً بعيدة كالكامرون مثلاً ، إذ أن مكانها الوحيد هو أوروبا . وعلى الألمان أن يعتنقوا، وهم مرتاحو الضمير ، النظرية القائلة إنّ إرادة الله ما قضت ولا يمكن أن تقضي بأن يكون لشعب من الأرض خمسون ضعف ما لشعب آخر ، وإنّه إذا كانت الأرض التي عليها نعيش قادرة فعلاً على إعالة الجميع ، فليس من العدل أن يحال بيننا وبين إحراز المدى الحيويّ لنموّنا وبقائنا .

إن التسليم بحقّنا في التوسّع لن يكون عفو الخاطر ، وهنا يبرز حقّ كلّ فرد في الكفاح لتأمين ما يكفل له البقاء ، وما عجز اللين عن إحرازه يعود إلى القوة أن تناله . ولو أنّ أجدادنا انجرّوا في الماضي مع العقلية المسالمة التي هي عقلية جيلنا لما كان لنا اليوم ثلث أراضي الوطن الألماني ، ولما ترتّب

على شعبنا أن يهتمّ بمستقبله ! أجل لولا نضال الأجداد وعنادهم الصلب لما قامت للرّيخ قائمة .

وثمّة اعتبارات أخرى تجعل من التوسّع الطريقة الفضلى :

لبعض الدول الأوروبيّة في أيّامنا شكل أهرام مرتكزة على رؤوسها ، ومساحة هذه الدول صغيرة جدّاً بالنسبة إلى مساحة ممتلكاتها خارج القارة ، وإلى تجارتها الخارجيّة المزدهرة الخ. . . ويمكن القول إن قمة هذه الأهرام هي في أوروبا أمّا قاعدتها ففي العالم كلّه ، وهو خلاف المشاهد في الولايات المتحدة الأميركية التي تقوم قاعدتها على أرضها ولا يقوم تماسّ بينها وبين العالم الخارجيّ إلاّ بواسطة القمة، وهذا ما يكفل لهذه البلاد مركزاً داخليّاً منيعاً تحسد عليه ، بينما يسبب عكسه ضعف معظم الدول الاستعمارية في أوروبا .

لا تشكّل إنكلترا دليلاً على عكس ما قلت ، لأن وضع هذه الدولة والوشائج التي تشدّها إلى العالم الانكلوسكسوني عموماً والولايات المتحدة على الأخصّ تجعل منها دولة أوروبيّة ذات مركز خاص ينتفي معه قيام أي شبّه بينها وبين أيّة دولة أوروبيّة أخرى .

أمّا ألمانيا فالخطّة المُثلى التي تتيح لها أن تنهج سياسة توسّع سلميّة إنّما تقوم على إحراز مدى حيويّ لها في أوروبا نفسها لأن المستعمرات لا تصلح هدفاً للتوسّع ما لم تكن قادرة على استيعاب أكبر عدد ممكن من الأوروبيين، مع العلم أنّه لا يمكن الاستيلاء على مستعمرات لها هذه الميزة بالطرق السلمية ، وما دام الأمر يتطلّب حرباً قاسية ، فلتكن المحاولة في أوروبا نفسها بدلاً من المجازفة خارج القارة .

ومتى رسخت هذه الفكرة في الذهن ينبغي لشعبنا أن يكرّس لها جهوده . فليس بأنصاف التدابير وبالإحجام والتردّد يمكن القيام بمهمّة تتطلّب من كلّ منّا أقصى الجهد وأحزم الخطى . ولا بدّ من جعل سياسة الرّيخ منسجمة انسجاماً تامّاً مع هذا الهدف الأسمى ، فيعاد النظر على ضوئه في سياسة

المحالفات وقيمة كلّ ميثاق عقدته ألمانيا ،، ولا يغربنّ عن بال أحد أن توسّع ألمانيا في أوروبا لا يمكن أن يتمّ إلاّ على حساب روسيا . وفي هذه الحالة يتحتّم على الريخ أن ينسج على منوال فرسان «التوتون» ويسلك السبيل الذي سلكوه ، ليتسنّى للسيف الألماني أن يوفّر الأرض للسكّة الألمانيّة ويوفّر من ثمّ الخبز اليومي لأمّتنا .

إن إنكلترا هي الدولة الوحيدة التي كان على ألمانيا أن تحالفها في أوروبا قبل أن تنهج نهجها التوسّعي في القارة .

أجل مع إنكلترا وحدها ، بعد أن نضمن سلامة مؤخّرتنا ، كان يمكننا شنّ الصليبية الجرمانية الجديدة ، فحقّنا في هذه الصليبية واضح وضوح حقّ أجدادنا فيها ، وليس بين دعاة السلم من مواطنينا من يرفض لقمة مصنوعة من حنطة الشرق . فهل نسي دعاة السلم أن السيف هو الذي شقّ الطريق أمام السكّة ؟

كان علينا أن نستميل إنكلترا ونسترضيها مهما غلت التضحيات ، كأن نكفّ عن المطالبة بمستعمرات وأن نتخلى عن مشروعنا القاضي بجعل ألمانيا دولة بحريّة من الدرجة الأولى ، وأن نمتنع أخيراً عن مزاحمة الصناعة البريطانية ، على أن نقصر اهتمامنا على تعزيز جيشنا البري .

ولو تقيّدنا بهذا النهج لترتّب على ذلك الحدّ من طموحنا فترة من الزمن ، مقابل ضمان مستقبل مجيد وزاهر للشعب الألماني .

وقد بدا على إنكلترا في مطلع القرن العشرين أنها مدركة حاجة ألمانيا ، التي تواجه زيادة مطردة في عدد السكان ، إلى منفذ ما في أوروبا نفسها أو في العالم الخارجي ، وكان على برلين أن تستغلّ هذا الإدراك وتمدّ يدها إلى لندن التي سعت فعلاً إلى التقرّب منّا . ولكنّ ساستنا أحجموا وحجّتهم أنهم لا يريدون أن يحرقوا أصابعهم بإخراجهم الكستناء من النار وتقديمها إلى إنكلترا ، أتراهم نسوا ، ولعلهم تناسوا، أن كلّ محالفة تقوم على أساس مصلحة

الطرفين المشتركة ؟

لو اعتمدت ألمانيا في ذلك الحين النهج السياسي الذي اعتمدته اليابان في العام ١٩٠٤ لما كان لها اليوم أن تشكو غدر الزمان بها .

لو فعلت لما كانت الحرب العالميّة ولما منيت أمّتنا بتلك الهزيمة الشنعاء ولكان لنا اليوم في العالم مركز مرموق .

ومهما يكن من أمر ، فتحالفنا مع النمسا كان تدبيراً سخيفاً .

لقد كانت هذه الدولة المومياء حريصة على التعلّق بألمانيا ، لا رغبة منها في التعاون وإيّاها عسكرياً ، بل رغبة في إقرار سلام أبديّ ، يتيح لساسة فيانّا المضي في إبادة العنصر الجرماني . ولو كان ساسة برلين أبعد نظراً لأدركوا أن قيمة النمسا كبلد حليف قائمة على استمرار نفوذ العنصر الجرماني فيها ؛ وأن زوال هذا العنصر أو مجرد إضعافه لمصلحة السلاف وسواهم يجرّد التحالف الألماني – النمسوي من كلّ قيمة .

كانوا في برلين يتهيّبون النضال ، ولمّا جرّوا إلى الحرب كانت الظروف غير مؤاتية لهم .

حاولوا عبثاً تفادي المقدّر ، حلموا بسلم أبديّ واستيقظوا على قصف المدافع .

وهذا التشبّث بأهداب السلام هو الذي أقعد الساسة الألمان عن الأخذ بالطريقة الثالثة : التوسّع في أوروبا . كانوا يعلمون أن في الشرق أراضي يمكن الاستيلاء عليها، وما كانوا بحاجة إلى من يبرز لهم ضرورة هذا الاستيلاء، ولكنّهم أحجموا لأنّهم اتخذوا من السلام، السلام بأيّ ثمن، شعاراً لهم ، بدلاً من أن يضعوا نصب أعينهم توفير أسباب البقاء ومقوّماته للأمة الألمانيّة، مهما يكن الثمن !

وكانت النتيجة حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ .

بقيت الطريقة الرابعة والأخيرة : نهج سياسة استعمارية وتجارية .

إن تطوّراً كهذا كان يجب أن يتحقّق بسرعة وسهولة نسبيّتين ، ولكن استعمار قطر من الأقطار عمليّة طويلة النفس تستغرق أحياناً عدة قرون . ليس الاستعمار قفزة فوريّة ، إنّه دفعة تدريجيّة ، عميقة ومستمرة ، وعندما سلكت ألمانيا هذا السبيل كان على المسؤولين من زعمائها أن يدركوا أن هذه السياسة ستقودهم ، هي الأخرى ، إلى الحرب التي أرادوا تجنبها ، أتراهم كانوا يخدعون أنفسهم عندما راحوا يؤكّدون لمناسبة ولغير مناسبة نيّاتهم السلميّة ويزعمون أنّ ألمانيا تريد فتح الأمصار فتحاً سلمياً ؟

لقد ترتّب على سلوكنا هذا السبيل توتّر العلاقات بيننا وبين إنكلترا التي ما عتّمت أن ناصبتنا العداء ، وكنا نحن بسطاء حقّاً يوم استغربنا وقوفها في طريق نشاطنا « السلمي » . وقد فات برلين ، مع الأسف ، أنّه إذا كان التوسّع في أوروبا يفرض عليها محالفة إنكلترا ضدّ روسيا ، فالتوسّع خارج أوروبا وغزو أسواق العالم بالمنتجات الألمانيّة يفرض عليها محاربة روسيا ضدّ إنكلترا . وفي هذه الحالة لا بدّ من تغيير نظام المحالفات بالتخلي عن النمسا .

ولكن برلين لم تفكّر لحظة واحدة في محالفة روسيا ضدّ إنكلترا ولا في محالفة هذه ضدّ تلك ، لعلمها أنّ خطوة كهذه تجرّ حتماً إلى نشوب نزاع مسلح ، ومن أجل استبعاد هذا النزاع اختارت ألمانيا سياسة الإنتاج كوسيلة « لاستعمار العالم سلمياً » .

لقد خُيّل إلى ساستنا أن « فتح العالم اقتصادياً وسلمياً » سيضع حدّاً لسياسة العنف ، وما إن بدأت إنكلترا تزمجر حتى أيقنوا أن نيّاتهم السلمية وحدها لن تحول دون وقوع المحذور ، فقرّروا إنشاء أسطول لم يكن الغرض من إنشائه مهاجمة إنكلترا وتدميرها ، بل كان الغرض منه الدفاع عن « السلم العالمي » ومواصلة الفتح « السلمي » . وقد حرصت ألمانيا على أن يكون أسطولها متواضعاً حمولة وسلاحاً ، لتدلّل مرة أخرى على رغبتها في السلم .

كان « الفتح الاقتصادي والسلمي » تعبيراً سخيفاً لا يصلح أساساً لتوجيه

سياسة دولة عظمى . وقد بلغ الهوس بأنصار هذا النهج حدّاً جعلهم يتمثلون بإنكلترا زاعمين أنّها سبقت ألمانيا في هذا المضمار وأصابت نجاحاً عظيماً . حقّاً إنّ بعض الناس يقرأون التاريخ ولا يفهمون منه شيئاً .

إن إنكلترا لم تنشىء أمبراطوريتها الواسعة بالفتح السلمي . فما من شعب في العالم مهّد لفتح الأمصار بمثل الوحشية التي اعتمدها الانكليز في التوسّع وفي حماية ممتلكاتهم . أليس من خصائص السياسة الانكليزيّة أنّها تعرف كيف تستخدم قوّتها السياسيّة في تحقيق الفتوحات الاقتصادية ، كما تعرف تحويل نجاحها الاقتصادي إلى قوّة سياسيّة ؟ إنّه لمن السخف الاعتقاد بأن إنكلترا كانت أجبن من أن تهرق دمها في سبيل التوسّع الاقتصادي ، ولم يكن افتقار الانكليز إلى جيش وطني دليلاً على وجاهة هذا الرأي . فالمهمّ ليس وجود الجيش بل العزم الصادق على البذل والتضحية ، وقد كان لإنكلترا دائماً الوسائل اللازمة للكفاح ولإحراز النصر . وكانت ترسل إلى القتال المرتزقة ما دام المرتزقة قادرين على أداء المهام المنوطة بهم ، ولكنها ما أحجمت قطّ عن الجود بدم أبنائها في الحالات التي لم يكن فيها من التضحية بدّ .

ولكننا في ألمانيا كوّنّا عن إنكلترا فكرة خاطئة ونشرناها في المدارس والمعاهد وبواسطة الصحف . لقد تصوّرنا الإنكليزي رجل أعمال وتجارة ، واسع الحيلة ، بليد الذهن ، جباناً ، ولم يخطر لأساتذة المنطق عندنا ببال أن أمبراطوريّة واسعة كالأمبراطوريّة البريطانيّة لا يمكن أن تحرز بالحيلة والخداع . أمّا الألمان القلائل الذين انبروا يحذرون مواطنيهم من الاستهانة بقوّة الانكليز كشعب مقاتل ، فقد اعتُبِروا انهزاميّين ولم يأخذ أحد تحذيرهم بعين الاعتبار .

ما أزال أذكر دهشة رفاقي في جبهة الفلاندر عندما واجهنا الإنكليز في إحدى المعارك القاسية . فقد أدركوا ، وأدركت معهم ، أنّ هؤلاء الاسكتلنديّين محاربون شجعان ، وأنّ الصحف والبلاغات كانت تخدعنا

بتصويرهم لنا جبناء ومتخاذلين .

• • •

قلتُ أكثر من مرّة ولا أرى بأساً من تكرار القول إنّ الحلف الثلاثي كان تدبيراً سخيفاً ، وإنّ تسرّع ألمانيا بمحالفة النمسا قد قعد بها عن التوسّع في أوروبا نفسها معتمدة على صداقة روسيا . ومن تحصيل الحاصل القول إن الإقدام على هذا التوسّع اعتماداً على صداقة دولة مفكّكة الأوصال ، مهترئة كالنمسا ، هو ضرب من الجنون بل الجنون المطبق بعينه .

لقد كان من حسن حظّ ألمانيا أن الحرب العالميّة الكبرى قد اندلعت نيرانها بسبب النمسا ، مما حال بين آل هابسبورغ وبين التهرّب من احترام المواثيق المعقودة . ولو أن الحرب نشبت بسبب ألمانيا لما عدمت فيانّا وسيلة للتهرّب وللوقوف على الحياد ليتسنّى لها تدارك الدولة المترنّحة . ولا ريب في أن رعايا المملكة من السلاف ما كانوا ليسمحوا لآل هابسبورغ بإرسال الجيش النمسوي إلى ميادين القتال إكراماً للدولة التي كان يفرض فيها حماية العنصر الجرماني في النمسا .

ما أقلّ الذين أدركوا في الوقت المناسب المضاعفات التي يمكن أن يسببها لألمانيا تحالفها مع النمسا :

لقد كان لهذه الدولة أعداء كثيرون يطمعون باقتسام التركة . وبديهي أن يناصب هؤلاء ألمانيا العداء لعلمهم أنها تقف حجر عثرة في سبيل تقطيع أوصال مملكة آل هابسبورغ .

ومن أجل النمسا أبغض الإيطاليون ألمانيا ، ولم يكن ثمّة ما يحول دون تفاهم برلين وقيصر روسيا ما دام الألمان قد قرّروا التوسّع اقتصادياً ، ولكن أعداء الدولتين من يهود وماركسيين قد جعلوا الحرب بينهما محتومة .

ولولا قيام الحلف الثلاثي لما استطاع أعداء ألمانيا أن يحملوا أوروبا الشرقيّة وروسيا وإيطاليا على دخول الحرب في صفوف الحلفاء ملوّحين لكلّ

دولة بنصيبها من التّركة النمسوية ! فقد أمل الطامعون بالحصول على مغنم عند تصفية حساب المملكة المهترئة . وزاد بعضهم رغبة في الانضمام إلى معسكر الحلفاء وجود تركيا في عداد حلفاء ألمانيا . إن تركة السلطنة كانت ممّا يسيل له اللّعاب .

وجدير بالذكر أن الرساميل اليهودية في العالم كانت بحاجة إلى هذا الطعم تلوح به للطامعين ، على أمل أن يوصلها إلى الهدف الذي كانت تطمح إليه : القضاء على ألمانيا التي لم تكن بعد قد خضعت لإشراف اليهود ماليّاً واقتصاديّاً.

• • •

لنعد إلى سياسة ألمانيا الاقتصادية خلال السنوات التي سبقت نشوب الحرب الكبرى .

لقد أنسانا نجاح التكنيك والصناعة الألمانيّين وازدهار التجارة الألمانيّة ، أن استمرار هذا الازدهار وذاك النجاح هو رهن بقيام دولة قويّة . وأنكى من هذا أن بعض الأوساط ذهب إلى حدّ الزعم أنّ الدولة نفسها مدينة بوجودها للاقتصاد والتجارة المزدهرين ، وأنّها ، أي الدّولة ، هي قبل كلّ شيء مؤسّسة اقتصاديّة .

ولكن الدولة مؤسّسة لا شأن لها مع حالة اقتصاديّة معيّنة وليست بالتالي متحداً يضم أطرافاً متعاقدين اقتصاديّاً . إنّها مؤسسة تضم جماعة من الناس متجانسين جسديّاً ومعنويّاً ، وقد أقاموها ليتطوّروا في كنفها ، ويؤدّوا الرسالة التي شاءت العناية أن تكل أمرها إليهم . هذا هو معنى الدولة ، أمّا الاقتصاد فوسيلة من الوسائل التي تعتبر ضروريّة لتحقيق الغرض من وجود الدولة ، ولكنّه ليس علّة وجودها ولا يمكن أن يكون الغاية من وجودها إلاّ إذا كانت الدولة تقوم على أساس غير سليم .

إنّ الدولة التي تجعل من الاقتصاد غاية وجودها ليس لها ما للدول من مقوّمات البقاء . إنّها أشبه ما تكون بدولة لا حدود لها .

في تاريخ ألمانيا أكثر من شاهد على أن مستوى ألمانيا الاقتصادي كان يرتفع في كل مرّة يتزايد نفوذها السياسي ويشتدّ ساعدها في المجال الدولي الفسيح ، وإن انصراف أمّتنا إلى الاقتصاد وحده كان يتمّ دائماً على حساب فضائلنا القوميّة ومناقبنا ومثلنا ، ولا يلبث أن يسبّب انهيار الدولة وانهيار الاقتصاد معها .

فما هي القوى التي تنشىء الدولة وتصونها ؟

إنّها العقل الإرادة والمثل العليا والتضحية ، فالإنسان لا يضحي بنفسه من أجل صفقة تجاريّة ، ولكنه يفعل من أجل فكرة أو مثل أعلى .

في الحرب العالمية الكبرى حاربنا نحن من أجل الخبز ، أمّا الانكليز فقد حاربوا من أجل « الحريّة » ، حريتهم هم وحريّة الأمم الصغرى . وقد رأينا الانكليز يحاربون إلى النهاية بعناد وإخلاص ، أمّا نحن فقد استبسلنا في الأشهر الأولى ظنّاً منّا أنّنا نحارب من أجل مثل أعلى ، فلمّا قيل لنا إنّنا نحارب من أجل اللّقمة انهارت معنويّاتنا وتبخّرت حماستنا .

وفي هذا دليل كافٍ على خطل الرأي القائل بأن الاقتصاد هو دعامة الدولة بل علّة وجودها .

لم تقم دولة قطّ على الاقتصاد السلمي ، بل كانت الدول ولا تزال وستبقى وليدة غريزة حبّ البقاء ، بقاء العرق ، سواء تجلّت هذه الغريزة في الحقل البطولي أو في مضمار الحيلة والدسيسة . فإذا تجلّت في الحقل الأول ولدت دولاً آرية يسودها العمل الجدي . أمّا إذا تجلّت في المضمار الثاني فإنّها تولد مستعمرات فضوليّة لليهود .

أليس غريباً أن تصاب ألمانيا في غريزتها السياسيّة ، فتنحرف عن الجادة التي سلكتها من قبل بروسيا التي كانت وليدة الأعمال البطوليّة الخارقة ، لا وليدة المضاربات والصفقات ؟

لقد أدركت على ضوء مشاهداتي في فيانا وما اكتشفته في ألمانيا نفسها

بعد انتقالي إلى ميونيخ ، أنّ الشلل المميت الذي أصاب أمّتنا قد سبّبته الجرثومة الماركسيّة الرهيبة والسموم التي ينفثها اليهود معلمو الماركسيّة وحماتها .

وللمرّة الثانية في حياتي انكببت على دراسة هذه العقيدة الهدّامة على ضوء الأحداث السياسيّة بعد أن كنت أدرسها من وجهة عامّة متأثّراً بمشاهداتي الشخصيّة في بيئة معيّنة . ولم يفتني وأنا أتعمّق في درس نظريات كارل ماركس وتلاميذه وأحاول أن أتنبأ بعواقب انتشار الماركسية ونجاح خططها ، لم يفتني أن أسجّل الخطى التي حققتها نحو النجاح في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافيّة . وقد جرّني هذا العرض العامّ إلى استعراض المحاولات التي قام بها فريق من رجال الدولة للحدّ من خطر هذا الوباء العالمي الفتّاك ، فأعجبني منها محاولة بسمرك والتشريعات التي سنّها ولكني لم أعجب لإخفاقها في القضاء على الماركسيّة يقيناً مني بأنّها قطعت ذنب الأفعى وأبقت على رأسها .

لقد حارب بسمارك ضحايا الماركسيّة ولكنّه لم يتعرّض للماركسيّين أنفسهم. حاول أن يقضي على الوباء بقتل المصاب ولكنه أغفل شأن ناشر الجرثومة.

ومرّة أخرى رحت أدرس علاقة الماركسيّة باليهوديّة ، وقام في ذهني تخطيط كامل للأسس التي بنيت عليها هذه العلاقة ، ووضحت مرامي اليهود وأهدافهم : إشاعة الفوضى والدمار في العالم ليتسنّى للشعب المختار أن يستغلّ هذه الحالة ويفرض مشيئته في كلّ مكان .

ولئن كنت وأنا في فيانا أنظر إلى ألمانيا نظري إلى عملاق جبار ، فقد بدأت بعد انتقالي إلى ميونيخ أرتاب في قدرة هذا العملاق على الصمود في وجه الأعاصير . وكنت لا أدع مناسبة تعرض إلاّ وأنتقد صراحة سياسة ألمانيا الخارجيّة والطريقة التي تعالج بها المشاكل الاجتماعيّة وخطر الماركسيّة الآخذ بالتفاقم يوماً بعد يوم . فقد أذهلني حقّاً أن أرى المسؤولين في بلادي يستهينون بالحركة المدّامة التي يوجهها اليهود ولا يفعلون شيئاً في سبيل إحباط دسائس الذين نصبوا الشباك وألقوا الأحابيل في طريق أبناء شعبنا .

وأنكى من ذلك أن حملة الأقلام قاموا بحملة الغرض منها تخدير نفر من الحكام بدأ يستشعر خطر الماركسيّة ويتبيّن مراميها البعيدة ، فزعموا فيما زعموا أنّ بذور العقيدة الجديدة لن تعيش في التربة الألمانيّة لأن لشعبنا من مناقبه ووطنيّته مناعة طبيعيّة . وقد فات هؤلاء الثرثارين أن هذه العقليّة المريضة قد قوّضت في الماضي أمبراطورية ضخمة .

منذ ١٩١٣ أخذت على عاتقي فتح عيون مواطنيّ على الخطر الذي يتربّص بالوطن ، وأوضحت في أكثر من خطاب وحديث أن مسألة مستقبل الأمّة الألمانيّة هي مسألة القضاء على الماركسيّة قبل أن يشتدّ ساعدها . وقد كان لإيضاحاتي تأثيرها المرغوب في نفوس مواطنين هم اليوم من جنود الحركة القوميّة الاشتراكيّة .

وقد ازددت اقتناعاً مع الأيام أن كلّ خطإ سياسيّ وقع فيه المسؤولون الألمان منذ أواخر القرن الماضي حتى نشوب الحرب العالميّة كان نتيجة تأثّر الحكّام بنصائح خدّام الماركسيّة من يهود ومفكّرين ضعاف النفوس ، عديمي الوطنيّة ، وعندما أقامت ألمانيا اقتصادها على تلك الأسس غير السليمة كان اليهود أوّل المصفّقين ابتهاجاً يقيناً منهم أن الاقتصاد الأعوج واصل بالبلاد حتماً إلى الانهيار الذي تقوم على أنقاضه الدولة التي بها يحلمون : دولة يكون فيها الحكم في الظاهر للبروليتاريا وتخضع في الواقع لقبضة من رجال المال اليهود .

إنّ الانهيار الداخلي في ألمانيا قد بدأ منذ سنوات دون أن يوفق المواطنون إلى اكتشاف موطن الداء وأصل البلاء . أمّا الذين حاولوا مكافحة الداء فقد خلطوا بين شكله الخارجي وأسبابه العميقة .

وقد لاحظت أن الاشتراكيّة الديموقراطيّة في ألمانيا قد جعلت من صحفها منبراً لنشر المبادىء الهدّامة ، ولكنّ محرّريها اليهود يذيلون مقالاتهم المحشوّة بالسموم بتواقيع مستعارة . وهذا الخطر اليهودي لا وجود له في النمسا .

هتلر والشيوعيّة

الفصل الرابع

١

الحرب العالمية

ما آلمني في صباي مثل مجيئي إلى العالم في زمن لا يقيم هياكل المجد لغير التجار والموظفين . وفي تلك الأيام بدا العالم وكأنّه استحقّ نعمة الاستقرار ، وخيّل إلى الناس أنّ تعلّق الشعوب بأهداب السلام قد أحلّ السباق إلى غزو الأسواق واستمالة الزبائن محلّ السباق إلى التسلّح وجمع الأنصار . وعلّق المسرفون في التفاؤل أطيب الآمال على هذا التحوّل الذي يجعل استمراره من عالمنا هذا سوقاً للأخذ والعطاء يتحكّم بها كلّ مضارب مقدام ، ويتصدّر الركن الذي تعقد فيه الصفقات الكبرى أمهر التجار ، أي الإنكليز ، ويواجههم في الركن المقابل أقدر الموظفين ، أي الألمان ، أما اليهود فقد اضطرهم هذا التطوّر إلى التضحية بأنانيّتهم والاكتفاء بتمثيل دور البورجوازيّين الذين يدفعون للتاجر ثمن البضاعة وللموظف بدل الأتعاب .

ليتني أبصرت النور قبل مائة عام ، في عهد الحروب التحرريّة مثلاً أيام كانت قيمة المرء لا تقاس بأهمية تجارته ! أما أن يرسم القدر خطوط مستقبلي تحت شعار « الاستقرار والنظام » فتدبير ظالم يجعل مني مخلوقاً سيء الطالع ، لا يتقن التجارة فيكون له مجاله في صفوف التجار ، ولا ترتاح نفسه إلى الوظيفة فيكون له شأنه كموظف .

ونشبت حرب « البوير » فكانت ، بالنسبة إليّ ، بمثابة وميض ينذر بهبوب عاصفة لا تزال بعيدة .

كنت أتلهّف على مطالعة أخبار هذه الحرب يوماً فيوماً ، وأجد لذّة لا توصف في تتبّع مراحل القتال (كان عمري عند نشوب حرب البوير عشر سنين) . وجاءت الحرب الروسيّة – اليابانيّة تهزّ الحالمين بعالم يسوده الاستقرار ، وقد وجدتني هذه الحرب فتى يخطو نحو الرجولة ، ويتلظّى بنيران الوطنيّة الحقّة ، وسرعان ما اتجهت عواطفي إلى اليابانيّين لأني اعتبرت هزيمة الروس هزيمة للنزعة السلافية في النمسا .

وعلى ضوء هذه الحرب والأحداث الأوروبية والإفريقية من ثم أدركت أن ما بدا لي خمولاً قتّالاً كان من نوع الهدوء الذي يسبق العاصفة . وحتى عندما كنت في فيانا كانت تغشى البلقـان من وقت إلى آخر موجات من الحرارة تنذر بهبوب الإعصار . ونشبت الحرب البلقانيّة فترنّحت أوروبا كلّها ورزحت تحت العبء ، وأقامت ترقب حصول الكارثة الكبرى لعلُمها أن المقدّر لا بدّ واقع يوماً من الأيام . وسرعان ما نسيت المجالس والأندية حديث « السلام العالمي الدائم » لتعيش في حمى انتظار الحرب .

وفي العام ١٩١٤ انقضّت على الأرض الصاعقة العظمى وأصمّ الآذان قصف مدافع الحرب العالميّة .

عندما وصل إلى ميونيخ نبأ مصرع الأرشيدوق فرنسوا – فرديناند (كنت لا أخرج إلاّ نادراً في ذلك الحين ووصلتني عن الحادث أنباء غامضة) استحوذ علي قلق شديد : هل صرع الأرشيدوق برصاص طلبة من الألمان شقّ عليهم أن يتزعّم وليّ العهد العمل على إكساب النمسا طابعاً سلافيّاً ، فقرّروا إنقاذ الشعب الألماني من هذا العدوّ الداخلي ؟ وإذا كان القتلة من الألمان فردّ الفعل المنتظر هو موجة جديدة من الاضطهادات التي يمكن فيانّا أن تجد لها ، هذه المرة ، مبرّراً تجاه العالم كلّه . ولكن عندما عرفت أن المتّهمين بالاعتداء هم من الصرب أذهلتني سخرية القدر وعبثه : فقد سقط أعظم أصدقاء السلاف برصاص المتعصبين للسلاف .

إنّ الذين أتيح لهم تأمّل موقف النمسا من صربيا لم يخامرهم شكّ في أن الصخرة التي بدأت تتدحرج على منحدر لا يمكن أن تستقر إلاّ في قعر الهاوية.

ليس من العدل في شيء مؤاخذة الحكومة النمسوية على لهجة الإنذار الذي وجّهته عقب حادث الاعتداء . لقد كان موقفها في ذلك الظرف سليماً ولا تشوبه شائبة .

كان للنمسا على الحدود الجنوبيّة ـ الشرقيّة عدوّ لدود ، مميت ، ما انفكّ يتحدّى المملكة متحيّناً الفرص للانقضاض عليها وتقويضها . ولكن خصوم المملكة كانوا يعتقدون أن زوالها سيكون نتيجة منطقية لتواري الأمبراطور فرنسوا جوزف ، لأنها تفقد بموته الحافز الوحيد الذي يحدوها إلى المقاومة . وكان الامبراطور يجسّد الأمبراطوريّة في نظر سواد الشعب ، وقد عمل الساسة السلاف على ترسيخ هذا الوهم في النفوس ، مدخلين في روع الناس أن الدولة مدينة بوجودها واستمرارها لعبقرية الأمبراطور وحسن سياسته . وهذا المديح الذي صادف هوى من نفس فرنسوا جوزف ورجال بطانته كان يخفي وراءه الخنجر الذي شحذ ليكون أداة الجريمة . وكان السلاف يرجون أن يستردّ الله وديعته في أقرب فرصة لينقضّوا هم على الفريسة ويمزّقوها إرباً إرباً .

ولكنّ مصرع وليّ العهد أسرع بالأمور نحو نهايتها المحتومة . وقد ظلم الناقدون الحكومة النمسوية عندما اتهموها بأنها دفعت بعجلة الحرب إلى الأمام . لأن الحرب كانت واقعة حتماً ، ولم يكن تجنّبها ممكناً إلاّ لزمن محدود (سنة أو بضعة عشر شهراً) . وإذا كان من مأخذ على حكومتي برلين وفيانا فهو أنّهما عملتا دائماً على تأخير تسوية الحساب إلى أن أُجبرتا إلى تسويته في ظروف غير مؤاتية لهما ، ويمكن القول إنهما لو عملتا على تفادي الواقعة عقيب مقتل الأرشيدوق لأدى إنقاذ السلم إلى تأجيل الكارثة ولكن إلى ظرف ملائم لخصومهما .

لم يكن بدّ من نشوب الحرب ، ولو أنّ النمسا سكتت على مضض لما ظلّ السلام في حرز حريز كما يحلو لبعضهم أن يقول . نعم لم يكن في هذه الحالة ما يبرّر تألّب الدّول ضدّنا ، ولكن تقطيع أوصال النمسا كان أمراً محتوماً، وكان علينا نحن أن نهبّ لمساعدتها أو أن نقف مكتوفي الأيدي نتفرّج على فعل النار في الأراضي المجاورة لنا .

إنّ من يتشدّقون اليوم بلوم الذين استفزّوا إله الحرب ويسدون النصائح الحكيمة يجب أن يحملوا قبل سواهم تبعة جرّنا إلى الحرب . فمنذ عشرات السنين والاشتراكيّة الديموقراطيّة الألمانيّة لا تفتأ تحرّض على الحرب ضدّ روسيا ، أما أحزاب الوسط فقد ساهمت ، لاعتبارات دينية ، في جعل الدولة النمسوية حجر الزاوية في السياسة الألمانيّة . وقد حصدت البلاد ما زرعت الأحزاب السياسيّة ، وتحملت عواقب أخطاء هذه الأحزاب . أما ما حصل فإنّه لم يكن من حصوله بدّ . وكانت غلطة الحكومة الألمانيّة أنّها ، في حرصها على السلام ، تركت الساعات الملائمة للهجوم تمرّ ، وأمست ضحيّة إخلاصها للسلام العالمي ، بل ضحيّة تحالف عالمي واجه مساعيها السلميّة بعزم أكيد على إشعال نار حرب عالميّة .

ولو أنّ حكومة فيانّا أفرغت إنذارها في قالب معتدل لما كان لهذا الاعتدال أي شأن في تغيير مجرى الحوادث الدوليّة ، ولترتّب عليه في الداخل نشوب ثورة شعبية ، لأن الجمهور اعتبر الإنذار ضعيف اللهجة ، وما اعتبره قطّ عنيفاً أو جريئاً ، ومن يزعم العكس هو ولا شكّ إمّا ضعيف الذاكرة أو منافق وقح .

إن حرب ١٩١٤ لم تُفرض على سواد الشعب ، فقد أرادها الشعب كلّه ، وسرعان ما تقدّم لخدمة العلم مليونا ألمانيّ بين رجل وفتى ، متأهّبين للذود عن حياض الوطن والجود بآخر نقطة من دمهم .

أما أنا فقد حررتني الحرب من الانطباعات التي وصمت صباي بالكآبة.

وسرعان ما جرفني التيّار الحماسيّ فجثوت على ركبتي أشكر السماء لأنّها أتاحت لي أن أكون في ذلك العهد في عداد الأحياء .

وبدأ من أجل الحرية نضال شاق ، مرير . ذلك أنّ السواد الأعظم من الشعب قد أدرك منذ اللحظة الأولى أنّه مدعوّ إلى الكفاح والبذل ، وأن المسألة تتعدى ، هذه المرة ، مصير صربيا أو النمسا إلى كيان الأمّة الألمانيّة ذات التاريخ المجيد . وهكذا بدأ الشعب ، بعد سنوات من التعامي ، يتبيّن خطوط مستقبله بوضوح . ومنذ بداية النزاع رافق الحماسة اللاهبة القدر الكافي من الرصانة ، ولكن أحداً من المواطنين لم يفكر في التطورات التي يمكن أن يجرّ إليها النزاع ، وخيّل إليهم أن الغمامة ستنقشع بعد أشهر فيعود كلّ منهم إلى بيته ليستأنف عمله اليومي .

لقد مرّ بخاطري فكرتان بعد صدور البلاغات الرسميّة حول مصرع الأرشيدوق فرنسوا فردينان :

١ ـ إن الحرب باتت محتومة ٢ ـ إن طبيعة الحوادث ستفرض على النمسا احترام المواثيق المعقودة . لأن أخشى ما كنت أخشاه هو أن تضطرّ ألمانيا يوماً إلى دخول الحرب باسم الحلف الثلاثي دون أن تكون النمسا السبب المباشر للنزاع ، وأن تجبن فيانّا ، لاعتبارات سياسيّة ذات علاقة بالموقف الداخلي ، عن القيام بالخطوة التي يفرض في الحليف أن يقوم بها . أمّا وقد وقعت الواقعة بسبب الإنذار النمسوي (في الظاهر على الأقل) فلم يبقَ أمام الامبراطورية الحرمة إلاّ أن تضع يدها في يد ألمانيا لتواجها الموقف معاً وتحملا نتائجه أيّاً كانت .

كان موقفي من النزاع بسيطاً وواضحاً . فقد أدركت منذ اللحظة الأولى أن القضيّة ، بالنسبة إلينا نحن الألمان ، هي أخطر من السعي إلى تأديب صربيا . إنّها كفاح ألمانيا بل الأمّة الألمانيّة في سبيل الوجود ومن أجل حريتها ومستقبلها . أدركت أن ألمانيا التي حقّق وحدتها بسمرك مدعوّة إلى البذل من جديد ، وأن

ما أحرزه أجدادنا ودفعوا ثمنه دماً زكياً في المعارك الرهيبة من فيسمبورغ حتى سيدان وباريس ، يتعيّن على الشباب الألمانيّ أن يحرزه مجدّداً ، فإذا استطعنا المضي في الكفاح إلى النهاية حتى النصر نكون قد عدنا بشعبنا إلى مصفّ الأمم الكبرى، وعندئذ تصبح الأمبراطورية الألمانيّة مجدّداً موئلاً للسلام، دون أن تكون ألمانيا مضطرّة لحرمان أبنائها خبزهم اليومي إكراماً للسلام .

طالما تمنّيت ، يافعاً وفتى ، أن يتاح لي التدليل على أن الحماسة الوطنيّة ليست بالنسبة إليّ شعوراً عارضاً ؛ لهذا ما إن نشبت الحرب حتى وضعت كتبي على الرّفّ وقررت حمل السلاح دفاعاً عن الشعب الألمانيّ ، وفي الثالث من آب ١٩١٤ وجّهت عريضة إلى جلالة الملك لويس الثالث ملتمساً قبولي في إحدى القطعات العسكرية البافاريّة ، وشدّ ما كان سروري إذ فوجئت في اليوم التالي بكتاب يشعرني بقبول تطوّعي ويأمرني بأن أسارع إلى الالتحاق بفيلق بافاري معين .

وهكذا بدأت بالنسبة إليّ وإلى كلّ ألمانيّ فترة من حياتي هيهات أن أنساها، وقد ضاع الماضي في زحمة الحوادث والأحداث ، وأقمت أترقّب بزوغ فجر ذلك اليوم المبارك ، يوم السفر إلى الجبهة ، يقضّ مضجعي هاجس واحد هو وصولي إلى ميدان الشرف متأخّراً ، لأن أخبار الانتصارات كانت تترى وكان ثمّة شبه إجماع على أن الحرب ستكون قصيرة النفس كالحرب السبعينية.

وأخيراً سافرنا إلى الجبهة ، وأبصرت نهر الرين لأول مرة عندما اتّجهت ورفاقي نحو الغرب لنساهم في الدفاع عن النهر الألمانيّ ونصدّ عنه مطامع العدوّ التاريخي . . . وعندما انحسر ذات صباح الضباب الرقيق عن تمثال جرمانيا رمز السيطرة الألمانيّة على رينانيا ، أفلتت صدورنا نشيد « الرين » ، وأضحى صدري أضيق من أن يستوعب شعوري بالاعتزاز والفخار .

بلغنا سهول الفلاندر في ليلة باردة ، وشرعنا في الزحف تحت جنح الظلام دون أن نواجه أيّ ردّ فعل من جانب العدوّ ، ولكن ما إن بزغ الفجر حتى

بدأ الرّصاص يتساقط حولنا ، فتعالى هتاف مائتي مقاتل ترحيباً بطلائع رسل الموت ، وعقب ذلك نشاط مدفعي من الجانبين وشعر كلّ واحد منّا بمهماز داخليّ يستحثّ خطاه وبقوّة تدفعه إلى الأمام ، وإذا بنا نلتحم والأعداء صدراً لصدر وسط حقول اللفوف ، وانتهى إلى مسامعنا في الوقت نفسه هتاف مواطنينا المحاربين في قطاع مجاور ، وما لبثت الأناشيد والهتافات الحماسيّة أن عمّت الصفوف ، وعندما شرع منجل الموت يحصد صفوفنا نحن أفلتت صدورنا الهتاف للوطن، ومشينا إلى لقاء الموت ونحن ننشد « ألمانيا فوق الجميع » .

وبعد أربعة أيام تراجعنا إلى النقطة التي بدأنا منها الهجوم ، وقد طرأ تحوّل أساسيّ على نفسيّتنا ، فالأيام الأربعة كانت كافية لأن تجعل من فتيان في السابعة عشرة رجالاً مجرّبين مكتملي الرجولة .

إن رجال فيلقنا. فيلق «ليست» ، لم يتعلموا فنون القتال المدرسية كما يجب أن يتعلّموها، ولكنهم عرفوا كيف يموتون كما يموت الجنود العريقون في الجنديّة .

تلك كانت البداية . وتعاقبت السنوات ، ولكنّ جوّ القتال الشعري ترك مكانه للرعب ، وانطفأت شيئاً فشيئاً جذوة الحماسة ، وعقل الخوف من الموت ألسنة المنشدين وخنق الهتافات في الصدور . وقام في داخل كلّ منّا صراع عنيف بين حبّ البقاء والواجب .

كان الجبن يرود حولنا متنكّراً بزي العقل ، محاولاً إقناعنا بعقم الجهد المميت الذي نبذل ، مهيباً بنا أن نتمرّد ونثور ، ولكن عنادنا كان يتعاظم ومقاومتنا تشتدّ كلّما ازداد نشاط غريزة حبّ البقاء وضاعف الجبن من مغرياته إلى أن كانت الغلبة في النهاية للشعور بالواجب . وقد انتهى هذا الصراع الداخلي بالنسبة إليّ في شتاء ١٩١٥ — ١٩١٦ . ولئن كنت في الأيام الأولى قد واجهت الخطر وأنا أنشد الأناشيد الحماسيّة وأضحك مع الضاحكين ، فقد وجدتني في معارك ١٩١٥ أقاتل وأنا رابط الجأش ، ثابت الجنان ، ولم يزايلني هذا الشعور مذ ذاك .

لم يقتصر هذا التحوّل عليّ وحدي ، فقد تغلّب الجيش كلّه على ما اعتراه من ضعف وخور ، وجعلت منه المعارك المتواصلة صلب العود ، فولاذي الأعصاب ، وعلى ضوء مآتي هذا الجيش طيلة سنوات ثلاث من الكفاح المرير يمكن المؤرخين أن يقولوا كلمتهم فيه . فقد أثبت الجيش الألمانيّ أنّه فريد عصره بما أظهر من جلد وبما أبدى من عناد في مقارعة خصوم يفوقونه عدداً وعدّة ، بالرغم من معاناته الحرمان ومن مواكبة الجوع والمرض له . وقد تنطوي الحقب قبل أن يجرؤ مؤرّخ على إثارة موضوع البطولة والأبطال دون أن يشيد بمواقف الجيش الألماني في الحرب العالميّة . ولن ينسى ألماني واحد ، ما دام في عالمنا ألمان ، أن إخوانه في حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ قد رفعوا رأس الوطن . ولن ينسى العالم كذلك أن الجيش الألماني ضرب أروع الأمثلة في التفاني ونكران الذات .

كنت جندياً في ذلك الحين ، ولم يكن في نيّتي الاهتمام بالسياسة ، لأن المناسبة لم تكن مناسبتها ، مقتنعاً بأن أحقر خادم لدى أصغر فلاح قد أسدى للوطن خدمات توازي ، إن لم تفضل ، خدمات أبرز البرلمانيين . حقّاً إني لم أحتقر هؤلاء الثرثارين قطّ احتقاري إيّاهم في وقت كان كلّ مواطن مخلص لديه ما يقوله يصرخ بما يعتمل في نفسه في وجه العدوّ ، أو يترك ، على الأقلّ ، عدّته الخطابيّة في بيته ليؤدي واجبه بصمت . أجل كنت أزدري في ذلك الحين طغمة محترفي السياسة ، ولو عاد الأمر إليّ لأنشأت فوجاً خاصّاً وعهدت إليه بتنظيف البرلمان ، فيتاح من ثمّ للساسة الثرثارين أن يثرثروا على هواهم دون أن يثيروا نقمة الرجال الشرفاء ودون أن يلحقوا بهم أذى .

قلت إنّه لم يكن في نيّتي الاهتمام بالسياسة ، إلاّ أنّه ما كان يسعني إلاّ تحديد موقفي من بعض الأمارات والظواهر التي تسيء إلى الأمّة عموماً وإلى الجيش على الأخصّ . ثمّة أمران كانا يثيران أعصابي ويقضّان مضجعي ، فمنذ إحرازنا الانتصارات الأولى شرعت صحف معيّنة في تعكير صفو

الابتهاج العام ولكن بأسلوب بارع استحال معه على كثيرين تبيّن خطر اللعبة وأهدافها الحقيقية . انبرت الصحف المشار إليها تشجب الاحتفالات التي أقيمت في البلاد ابتهاجاً بالانتصارات العسكرية . وكانت حجّتها أن هذه المظاهر لا تليق بأمّة عظيمة كالأمّة الألمانيّة . فالشجاعة والبطولة سجيّتان طبيعيّتان لا تبرّران الإسراف في إظهار السرور على نحو قد يساء فهمه في الخارج ، ولا ننسى أن ألمانيا ما أرادت الحرب وأن تواضعها في النصر يقوم دليلاً جديداً على أنها دولة محبة للسلم ، راغبة في التعاون مع سائر الدول على قدم المساواة .

وبدلاً من أن تجرّ السلطات هؤلاء الثرثارين إلى ساحة الإعدام لتضع حدّاً لفلسفتهم الضارّة ، راحت تتّخذ التدابير الكفيلة بالحدّ من الابتهاج العام « غير اللائق » . وقد فات السلطات القصيرة النظر أن كبت الحماسة من شأنه أن يخنقها ، فلا تقوم لها قائمة من بعد . لقد سكر الشعب بخمرة النصر ، فكان على المسؤولين أن يدعوه وشأنه ، ليواصل النضال وهو ممتلىء نخوة ويواجه برباطة جأش الأحداث الرهيبة التي امتحنت بها معنويّات الأمّة .

من الجنون حقّاً القعود عن إذكاء الحماسة في الصدور بمختلف الوسائل والأساليب ، أما العمل على إطفاء جذوة الحماسة في الصدور فإهمال يقرب من الخيانة .

أما الأمر الثاني الذي أقضّ مضجعي فهو استرسال المسؤولين في التغاضي عن نشاط الماركسيّين ، وحجّتهم أن مصلحة الوطن تتطلب تضافر الأحزاب كافّة واتحادها ، ولا يجوز إبقاء الماركسيين خارج هذا الاتّحاد . وقد فات المتمسكين بهذه الحجّة أنّ الماركسيّة ليست حزباً بمفهوم الكلمة الأصيل ، إنها عقيدة يفضي انتشارها إلى قلب المقاييس التي حفظت توازن الكائنات ، ويترتّب على نجاحها القضاء على البشرية قضاء مبرماً ، وليس أدلّ على جهل المسؤولين وقصر نظرهم من رفضهم ملاحقة الماركسيين « بعد أن عاد حزبهم إلى الحظيرة ودلّل على صدق وطنيّته » على حدّ قول وزير الداخلية . ألا ينمّ

هذا القول عن جهل فاضح ؟ وهل كانت الحكومة تقف هذا الموقف من العقيدة ذات المبادىء الهدّامة لو أنها توفّرت على درس جوهرها ؟

ولم يكن للحكومة وموظفيها ذرّة من الفضل في تحرّر العمال والفلاحين الألمان من براثن الوباء القتّال ومبادرتهم في تموز وآب من العام ١٩١٤ إلى حمل السلاح تأهّباً للذود عن حياض الوطن ، وقد أذهلت هذه الحماسة الوطنية الماركسيين وجعلتهم يحرقون الارم لأن دعاواتهم المضلّلة الرامية إلى قتل الروح الوطني والشعور القومي في صدور الناس قد ذهبت مع الريح بين عشية وضحاها ، وسرعان ما ألفى الموجّهون اليهود أنفسهم في عزلة تامة ، وشهدوا بعيون دامعة تبخّر أحلامهم وتداعي البناء الذي رصفوا حجارته طوال ستين عاماً .

ولكن هذه الصدمة لم تفتّ في عضد زعماء الحركة ولم تثبّط منهم العزائم ، فارتدوا مسوح الأولياء الصالحين وراحوا يلغمون الحماسة القوميّة تحت ستار الحرص على كرامة الوطن ووقاره على نحو ما أسلفنا .

وقد كان على السلطات أن تحزم أمرها هذه المرّة فتتّخذ التدابير اللازمة بحقّ اليهود أعداء الشعب غير عابئة بصراخهم وعويلهم . أجل كان على الحكومة أن تقضي قضاء مبرماً على أعداء ألمانيا في وقت كان الشعور القومي يلهب صدور العمال الألمان ، كان عليها أن تقضي على الحثالة في المؤخّرة بينما كانت النخبة تجود بدمها في ميادين القتال .

كان على الحكومة أن تفعل هذا كلّه ، ولكن جلالة الامبراطور مدّ يده ، مع الأسف ، إلى المجرمين ، وعفا عن أخبث جلاّدي الأمّة فتمالكوا روعهم ، وأتيح بذلك للأفعى أن تواصل عملها بحذر وحكمة ، وأن تمهّد للثورة .

لقد أثار هذا التسامح نقمتي وتساءلت مراراً : ألم يكن من واجب الأمبراطور وحكومته المبادرة إلى اعتقال المحرّضين ومحاكمتهم وإنقاذ الأمّة من شرورهم ؟ لمَ أحجم المسؤولون عن حلّ الأحزاب ووضع حدّ

لزثرة البرلمان بقوة الحراب أو بتعطيل جلساته ؟ بيد أني كنت أسائل نفسي من جهة أخرى : أيمكن القضاء على فكرة أو عقيدة بحدّ السيف ؟ وهل يفيد اللجوء إلى القوّة والعنف في مكافحة الفِكَر الفلسفية ؟ وعدت إلى التاريخ أستفتيه فخرجت من مطالعاتي بالمبدإ الأساسي الآتي :

إن العقائد والمبادىء المرتكزة على فلسفة معينة ومثلها الحركات ذات الدافع الروحي تصبح ، بعد بلوغها مرحلة معيّنة ، أمنع من أن يُقضى عليها بالقوّة المادّيّة اللّهمّ إلاّ في حالة واحدة هي أن تكون هذه القوّة المادّية في خدمة فكرة أو عقيدة فلسفية جديدة تلوح للناس بمشعل جديد .

أما استخدام القوّة المادية وحدها من دون القوة المعنويّة المرتكزة على فكرة أو عقيدة روحية ، فإنّه لا يفضي مطلقاً إلى القضاء عليها أو إلى الحؤول دون رواجها وانتشارها ، إلاّ إذا أبيد أنصارها جميعاً وقضي على آخر تقليد من تقاليدها . وهذا يفضي ، في أغلب الأحيان ، إلى شطب اسم الدولة من قائمة الدول القويّة لمدّة معيّنة وأحياناً إلى الأبد، لأن مذبحة كهذه تطيح بالفريق الأصلح من المواطنين ، ولا ننسى أن كلّ حركة اضطهاد لا تستند إلى أساس روحي أو فكري تبدو وكأنها حركة ظالمة ونهيب بالعناصر الطيبة إلى الإعراب عن احتجاجها بالعطف على الفكرة والعقيدة المضطهَدة ، وهكذا يزداد عدد الأنصار تبعاً لاتّساع حركة الاضطهاد ، مع العلم أنّ هذا الأسلوب في ملاحقة العقائد وأصحابها لا يجدي نفعاً بعد تخطّي هذه العقائد دائرة معيّنة.

ما أعظم الشبه بين العقائد وهي بعدُ محصورة في نطاق ضيّق وبين الكائن الحي وهو بعدُ طفل . فالكائن الحي يتعرّض لأمراض شتّى وهو في طور الطفولة ولكن السنين تكسبه المناعة الكافية . والفكرة أو العقيدة يسهل القضاء عليها قبل انتشارها ورسوخها في الأذهان ، أمّا إذا جاء التدبير بعد فوات الأوان فإن نتائجه تكون مخيبة للآمال ، للأسباب الآتية :

الشرط الأول لنجاح القوة في مكافحة دعوة من الدعوات أو عقيدة من

العقائد هو المواظبة على محاربة الدعوة أو العقيدة دون ما هوادة أو تراخ . أمّا إذا عقب كلّ اضطهاد فترة من التسامح، فالعقيدة المضطهَدة لا تلبث أن تستردّ قواها وقد يشتدّ ساعدها بالجدد من أنصارها .

وهكذا يشترط لنجاح القوة استمرار تدابير المكافحة إلى النهاية . ولكن هذه المواظبة لا يمكن أن تكون إلاّ وليدة عقيدة أو مبدإ . لأنّ كلّ عمليّة قمع غير قائمة على أساس مبدئيّ تظلّ متردّدة ، غير واثقة من نفسها لافتقارها إلى الاستقرار الذي يقوم على مبادىء فلسفية موسومة بطابع التعصّب .

وخلاصة القول إنّ كلّ محاولة للقضاء على دعوة أو عقيدة بالقوّة الماديّة مصيرها حتماً إلى الإخفاق إلا إذا اتخذت المحاولة شكل هجوم يكون في مصلحة دعوة أو عقيدة جديدة ، فالقوة المستخدمة بعناد في صراع يقوم بين عقيدتين هي التي تستطيع أن تؤمّن الغلبة للحزب الذي يلجأ إليها .

لهذا رأينا المحاولات التي بذلت حتّى اليوم للقضاء على الماركسية تمنى بالإخفاق الواحدة تلو الأخرى .

فقد اتّخذ بسمرك ضدّ الاشتراكيين تدابير شديدة ولكن نتائجها لم تكن مرضية لأنها لم ترتكز على أساس مبدئي ولم تواجَه، بالتالي ، بعقيدة مضادّة . وقد اضطرّ بسمرك في النهاية وعندما اشتدّ ساعد الاشتراكيين المتطرّفين وجنحوا نحو الماركسيّة – اضطرّ إلى الاستعانة بالديموقراطية البورجوازيّة ، أي بالاشتراكيين المعتدلين ، في مكافحة الماركسيين . فكان كمن يكل إلى الماعز حراسة الملفوف .

جابه بسمرك الاشتراكية بما كان يسمّيه « سلطة الدولة » لأنّه لم يجد حزباً عقائديّاً يقف في وجه الحزب الاشتراكي . ولم تتبدل الحال في العام ١٩١٤ . فالماركسيون كانوا يؤلّفون الحزب العقائدي الوحيد في البلاد ، أما الاشتراكيون الديموقراطيون فكانوا حزباً برلمانيّاً يدنو بعقائده من الماركسيين أو يبتعد عنهم تبعاً للظروف .



أدولف هتلر (الأول من اليمين) عندما كان جندياً بسيطاً تابعاً لفيلق المتطوعة عام ١٩١٦

الفصل الخامس

الدعاوة في الحرب

ممّا استرعى انتباهي ، وأنا أتتبّع الأحداث السياسيّة ، أهميّة الدعاوة كأداة لتنوير الأذهان أو لتضليل من يُراد تضليلهم ، ولاحظت أن الأحزاب والمنظمات الاشتراكية الماركسية قد ملكت ناصية هذا الفن ، فنّ الدعاوة ، الذي ظلّ مجهولاً لدى الأحزاب المناوئة لها ، باستثناء الحزب المسيحي الاشتراكي الذي كانت له في عهد الدكتور لوجر دعاوة منظمة .

وقد أبرزت الحرب أهميّة الدعاوة وتأثيرها ، وكنت وأنا أتتبّع نشاط العدو في هذا الحقل ، أكاد أتميّز غيظاً لإغفالنا نحن هذا السلاح الفعّال ، والأنكى من ذلك أن قادتنا الذين لمسوا تأثير الدعاوات المعادية في معنويات الجنود والسكان المدنيين ، لم يفكروا يوماً باللجوء إلى السلاح نفسه بادئين بالتتلمذ للمعسكر الآخر الذي أتقن هذا الفنّ إتقاناً مدهشاً ، وكان البعض منهم يكره أن يتلقّى دروساً من الآخرين ، أمّا البعض الآخر فكانت تعوزه الإرادة الحسنة .

أجل لم تكن لنا دعاوة بالمعنى الصحيح . أما ما سمّوه دعاوة فقد قام في الأصل على أساس غير سليم ، وأعطى نتائج معكوسة لأنّه جاء ممسوخاً شكلاً وموضوعاً ، ولأن الذين عهد إليهم بتنظيم الدعاوة الألمانيّة في الحرب لم يحملوا أنفسهم عناء تحديد الغرض منها ومعرفة ما إذا كانت وسيلة أم غاية .

الدعاوة وسيلة ، ما في ذلك ريب . أمّا شكلها فيجب أن تراعى فيه المصلحة أو الغاية المنشودة . وقد كانت الغاية التي من أجلها حملت ألمانيا السلاح أنبل غاية يمكن أن يضعها إنسان نصب عينيه : الدفاع عن حريّة شعبنا واستقلاله

وتوفير خبزه وضمان مستقبله . أجل حارب شعبنا في سبيل أهداف نبيلة ، وقد كان مفروضاً في الدعاوة أن تذكي روح الكفاح في هذا الشعب وأن تهدف إلى ما تهدف إليه جهود جنودنا في الميدان : إحراز النصر .

عندما تناضل الشعوب من أجل كيانها لا يبقى محلّ للاعتبارات الإنسانيّة والجمالية ، لأن هذه الاعتبارات ما كانت لتكون لولا مخيلة الإنسان ، فمتى توارى هو توارت معه ، لأن الطبيعة لا تتعرف عليها ، والشعوب التي تنزل إلى حلبة النضال للدفاع عن كيانها وحقّها في البقاء لا تلبث أن تفقد القدرة على الدفاع عن نفسها إن هي أولت المبادىء الإنسانيّة والاعتبارات الجماليّة من اهتمامها وعنايتها أكثر ممّا تستحقّ .

يقول مولتكه : « في الحرب تكون أساليب القتال العنيفة أكثر الأساليب إنسانيّة لأنّها تعجّل بوضع حدّ للنزاع . والنضال الذي يهدف إلى حفظ كيان شعب من الشعوب ينتفي معه كلّ اعتبار جمالي ، لأنّه ليس في حياة الإنسان أقبح من نير الاستعباد » .

لقد كان مولتكه على حقّ . وقوله هذا ينطبق على الدعاوة انطباقه على القتال . فالشعب الألماني قد حمل السلاح للدفاع عن كيانه ، فالدّعاوة التي تهدف إلى إذكاء الحماسة الوطنيّة يجب أن تتوخّى قبل كلّ شيء بلوغ هذا الهدف بقطع النظر عن الوسائل المؤدية إليه ، فكلّ سلاح ، مهما يكن متعارضاً والمبادىء الإنسانيّة : يصبح وسيلة إنسانيّة ما دام الغرض من استخدامه الذود عن حريّتها .

ولكن إلى مَن توجّه الدّعاوة ؟ أإلى المتعلمين أم إلى سواد الشعب ؟

يجب أن توجّه إلى سواد الشعب ، أما المتعلّمون فيوجّه إليهم التفسير العلمي للدعاوة ، لأن الدعاوة نفسها لا تحوي من العلم أكثر مما يحويه الإعلان أو اللافتة من عناصر الفنّ . ففنّ الإعلان قائم على براعة الرسام في إثارة فضول الجمهور بشكل الإعلان المرسوم وألوانه . لنأخذ مثلاً إعلاناً يقصد به حمل

الجمهور على مشاهدة معرض فني ، فأول ما يهدف إليه الإعلان هو إبراز الفنّ في المعرض المعلن عنه ، وإعطاء الجمهور فكرة عن معنى المعرض ، وأمّا الفنّ نفسه فلا يمكن تكوين فكرة عنه إلاّ بزيارة مكان العرض وتأمّل كلّ لوحة على حدة بعين نقّادة .

إن الدعاوة لا تقوم على تنوير الفرد على أساس علمي ، بل تقوم على لفت السواد إلى وقائع وأحداث وأمارات وضرورات معينة لا يمكن إعطاؤه فكرة عن أهميّتها وخطورتها بغير هذه الوسيلة . لهذا ينبغي للقائمين بالدعاوة أن يتوجّهوا إلى قلوب الناس قبل عقولهم .

يجب أن تكون الدعاوة شعبية وأن يجعل مستواها الفكري في متناول مدارك الفئة الأضيق أفقاً . وكلّما كان عدد الذين توجّه إليهم كبيراً وجب خفض مستواها الفكري ، ليتسنّى للجميع أن يفهموا ما يقال لهم وأن يهضموا ما تريد الدعاوة أن يهضموه .

إنّ الدّعاوة التي توجّه إلى حواسّ الجمهور قبل عقله وجنانه هي الدعاوة التي تؤتي ثمارها ، ولكن يشترط لنجاحها ألاّ تعتمد التضليل وقلب الحقائق تكتيكاً لها .

لقد أجهدت الصحافة النمسوية والألمانيّة نفسها في التهكّم على العدوّ وإظهاره للقرّاء بمظهر الجبان الرعديد . ولكن آثار هذه الدّعاوة المزيلة قد تبخّرت في ميادين القتال ، لأنّ قرّاء الصحف المضلّلة قد اكتشفوا في الأعداء جنوداً شجعاناً ، يمشون إلى لقاء الموت بجنان ثابت . وبديهي أن يترتّب على هذا الاكتشاف التواء القصد على الدعاة ، فبدلاً من أن تقوي الدعاوة في نفوس جنودنا روح المقاومة والعناد ، أضعفت معنوياتهم وأثارت في نفوسهم النقمة على الذين خدعوهم .

أما الدعاوة الانكليزية والأميركيّة فقد كانت منطقية ، نيّرة ، بارعة ، ففي الوقت الذي كانت تدخل في روع الشعب أن الألمان برابرة كقبائل

« الهون » كانت تُعدّ الجندي للثبات بعناد والتأهّب نفسانياً وجسدياً للمفاجآت المزعجة بحيث يكون بمأمن من الأوهام . فلمّا وجد في الألمان مقاتلين شديدي المراس ، وفي سلاحهم أداة فتك رهيبة ، أيقن أن حكومته لم تخدعه واقتنع بأن الألمان برابرة ، لا يقلّون همجية عن قبائل « الهون » .

وهكذا وثق الجندي الإنكليزي بحكومته وقام في ذهنه منذ الأسابيع الأولى للحرب أن رؤساءه لا يمكن أن يخدعوه أو يكتموا عنه الحقائق مهما تكن جارحة . ولم يكن هذا مع الأسف رأي الجندي الألماني في حكومته ، وقد انتهى الأمر بهذا الجندي إلى اعتبار كلّ ما تذكره بلاغات قادته تضليلاً ونفاقاً . أما إخفاق الدعاوة الألمانيّة فمردّه في الدرجة الأولى إلى إغفال القائمين بها شأن البسيكولوجيا والاعتبارات البسيكولوجية وإلى تقصيرهم عن إدراك أهميّة التشديد على إبراز موقف ألمانيا في شتّى الحقول دون إجراء مقارنات بين موقفها ومواقف الدول المعادية . أليس من السذاجة أن يعلن معمل عن صابونه الجيد ويذكر في الإعلان أن صابون المعامل الأخرى جيد هو الآخر !

كانت دعاوتنا تقوم على هذا الأساس . وقد فات القائمين بها أن الغرض منها ليس توزيع الحقوق على الفرقاء بالعدل والقسطاس بل الغرض منها التشديد على حقوق الفريق الذي تعمل الدعاوة لحسابه ولمصلحته . وفاتهم كذلك أن الدعاوة ليس مطلوباً منها أن تتحرّى عن الحقائق المجرّدة ، إذا كان إظهار هذه الحقائق يخدم مصلحة الخصم ، ثم مطالعة الجماهير بها بدافع من الحرص على قول الحق ، إنّما يطلب من الدّعاة أن يبرزوا الحقائق التي يخدم الإعلان عنها مصلحة دولهم .

لقد وقعت دعاوتنا في خطإ جسيم عندما انبرت تؤكّد أنّه لا يجوز تحميل ألمانيا وحدها تبعة جرّ العالم إلى الحرب ، وأن العدوّ يتحمّل قسطه من التبعة . ذلك أن السواد الأعظم من الشعب لا يتألف من الدبلوماسيين وأساتذة الحق العام ، ولا حتّى من الذين يمكنهم إصدار حكم معقول ، فالسواد الأعظم

يتألف من أناس متذبذبين أبرز عيوبهم الشكّ والتردّد . ومتى اعترفت الدعاوة للعدوّ بحقّ أو شبه حقّ تكون قد حملت السواد على الارتياب في قضية بلاده وسلامة موقفها ، فيساوره القلق ويصبح عاجزاً عن تبيّن النقطة التي ينتهي عندها ذنب العدو والنقطة التي يبدأ عندها ذنب بلاده ، ويزيده شكاً وتردّداً دعاوة العدو المنظمة التي ترمي الخصم بكلّ فرية وتحمله جميع التبعات ، وينتهي به الأمر إلى تصديق الدعاوة المعادية والاستخفاف بكلّ ما يقوله قادته في معرض اتهام المعسكر المعادي والدفاع عن معسكرهم .

لقد أدرك الانكليز ، وجهلنا نحن ، أن سواد الشعب في الأزمات تكون له نفسية المرأة بحيث تأتي آراؤه وتصرّفاته وليدة المؤثرات أكثر ممّا تأتي وليدة التفكير المجرّد . والتأثير الذي يتحكّم بحواسّ السواد وعواطفه ليس معقّداً ، وما هو بمنوّع ، إنّه الشعور السلبي أو الإيجابي بالحب أو البغض ، بالصدق أو الكذب ، بالقوة أو الضعف ، وليس هناك شيء اسمه الشعور النصفي أو نصف الشعور .

ليس أدلّ على إحاطة العدوّ بنفسية الجماهير إحاطة تامّة من زعمه المتواصل أن ألمانيا هي المسؤولة عن نشوب الحرب . وهذه الكذبة ما كانت لتؤتي ثمارها او لم يجعل منها الأعداء لازمة يردّدونها كلّ يوم . ذلك أن نجاح الدعاوة رهن بقصرها على مواضيع معيّنة وبالمواظبة على طرق هذه المواضيع . وقد ناط أعداؤنا مهمّة الدعاوة برجال خبروا نفسية الجماهير ، أمّا نحن فقد عهدنا بالمهمة نفسها إلى فرسان المنابر وحملة الأقلام ، ممّن يؤمنون بالتنوّع ويعتقدون أنّ البلاغة هي أقوى وسائل الإقناع ، وبدلاً من أن يقصر هؤلاء الدعاة نشاطهم الكلامي على طرق موضوع أو مواضيع معينة رأيناهم يطلعون كل يوم بموضوع جديد ، وقد فاتهم أنّ الدعاوة إنما يقصد بها الإقناع ، وأن المطلوب إقناعه هو الجمهور الذي لا يمكن فتح مغاليق ذاكرته لإدخال فكرة ما ، ما لم يخاطب باللّغة التي يفهمها وما لم تنتقش الفكرة في ذاكرته

بالتّرداد المستمرّ .

وقد رأينا الأعداء طيلة أربع سنوات ونصف سنة يواظبون على طرق موضوع أساسي واحد إلى جانب عدد محدود من المواضيع الأخرى ، وبدت لنا دعاوتهم في البدء سلسلة أكاذيب فاضحة ، ثم اعتبرناها تضخيماً للحوادث والأشياء بقصد التضليل ، وانتهى بنا الأمر أخيراً إلى تصديقها . فاندلعت في ألمانيا نيران ثورة أخذت شعارها من الدعاوة المعادية .

لقد اعتبر الإنكليز الدعاوة سلاحاً أساسيّاً فجنّدوا لها الرّجال الأكفاء ، وبذلوا المال بسخاء ما بعده سخاء ، فكان التوفيق حليف دعاوتهم .

أما نحن فقد اعتبرناها سلاحاً ثانويّاً وعهدنا بها إلى نفر من الساسة المتعيشين وحملة الأقلام البعيدين عن عقلية الجماهير ، فكانت نتيجة جهودنا في هذا الحقل صفراً . . .

الفصل السادس

الثورة

بدأ العدو حملة الدعاوة في مطلع العام ١٩١٥ ، ووسّع نطاقها بشكل ظاهر في العام التالي ؛ وخلال شتاء ١٩١٨ تدفّق على ألمانيا والجبهة الألمانيّة سيل من الإشاعات والأكاذيب المثبطة للهمم ، وعندها بدا للعيان تأثير الدعاوة في الأعصاب وبدأ الجيش الألمانيّ يتكسّر على النحو الذي أراده العدوّ .

ولم يصدر من الجانب الألماني أيّ ردّ فعلي حريّ بالذكر .

نعم كان الجيش ، بشخص قائده الفطن ، مصمّماً على منازلة العدو في هذا الميدان . ولكن كانت تعوزه الأداة اللازمة ، مع العلم أن تحميل الجيش عبء هذه المهمّة التوجيهيّة يشكّل غلطة بسيكولوجية لا تغتفر ، لأن الدعاوة المجدية هي التي توجّه من داخل البلاد .

ولكن ماذا كان يجري داخل ألمانيا نفسها ؟

في صيف ١٩١٨ وبعد إخلاء الضفّة الجنوبيّة لنهر المارن وقفت الصحافة الألمانيّة موقفاً بعيداً عن اللباقة إن لم يكن موقفاً مجرماً ؛ وقد تساءلتُ وقتئذ بألم وغيظ : ماذا ينتظرون في برلين لوقف هذه الحملات المضعفة لمعنويات أبطالنا؟

ماذا حدث في فرنسا عام ١٩١٤ عندما اجتحنا أراضيها في قفزة مظفرة مدهشة ؟ وماذا فعلت إيطاليا يوم انهارت جبهتها ؟ وأي موقف وقفته فرنسا في العام ١٩١٨ عندما أوشك هجوم الفرق الألمانيّة أن يدكّ المواقع الفرنسية ، وبدأ ساعد البطاريّات البعيدة المدى يدقّ أبواب باريس ؟

انبرت الدعاوة المنظمة تلهب الحماسة في صدور الفيالق المتراجعة وفي صدور المدنيين في المؤخرة ، مدخلة في روع هؤلاء وأولئك أن النصر النهائي

قريب ، وأن الهجوم الألماني هو محاولة يائسة لا فائدة ترجى منها .

لكم تألمت لأن العناية لم تضعني مكان القائمين بالدعاوة الألمانيّة ، وهم إمّا عاجزون ، أو مفتقرون إلى الإرادة الحسنة ، فلو كنت أنا موكلاً بالدعاوة لانتهى النزاع إلى غير ما انتهى إليه .

لقد شاءت الأقدار الماكرة أن أكون حيث يمكن لأيّ زنجيّ أن يصرعني برصاصة، مع أني لو ولّجت بمهمّة أخرى لأسديتُ لبلادي خدمات جُلّى. ولكن ما حيلتي وأنا جندي مغمور بين ثمانية ملايين رجل !

• • •

في صيف ١٩١٥ وقعت أولى نشرات العدو بين أيدينا وكانت كلها تضرب على وتر واحد : المجاعة تتفاقم في ألمانيا يوماً بعد يوم ، الحرب طويلة الأمد ولم يبق لألمانيا أمل بإحراز النصر ، لهذا يتوق الشعب الألماني إلى السلم ، ولكن العسكريين والقيصر يصرون على مواصلة القتال، وإذا كان العالم يشهر سلاحه في وجه ألمانيا فليس معنى هذا أنه يحارب الشعب الألماني ، فغاية الحلفاء الوحيدة من الحرب هي معاقبة المسؤول الوحيد : القيصر غليوم ، ولن ينتهي النزاع ما لم يتمّ إقصاء القيصر عدوّ البشريّة المسالمة ، ومتى وضعت الحرب أوزارها تفتح الأمم الحرة والديموقراطيّة ذراعيها للشعب الألماني وتتعاون وإيّاه في عصبة السلم العالمي الدائم ، هذا السلم الذي لا تقوم دعائمه إلاّ على أنقاض الروح العسكرية البروسيّة .

كان الجنود يسخرون من هذه المحاولات ، وبعد أن يطّلعوا على مضمون النشرات يبعثون بها إلى هيئة الأركان العامّة في المؤخّرة، ولا يعتّمون أن ينسوها ، ولكن العدوّ لم تفتر همّته ، فكان يواظب على إمطارنا بنشراته بواسطة الطائرات ، ولم يطل بنا الوقت حتى لاحظنا أن النشرات التي تُلقى في قطاع يشغله بافاريون تتضمّن هجوماً عنيفاً على بروسيا ، زاعمة أنها هي المسؤولة الوحيدة عن نشوب الحرب وأن الحلفاء لا يريدون ببافاريا شرّاً ولكن

لا يسعهم أن يقدموا إليها مساعدة ما ، ما دامت في خدمة البروسيين ، لا عمل لها إلا إخراج الكستناء من النار وتقديمها إليهم . ولا بدّ من الاعتراف بأنه كان لهذه الدعاوة الخبيثة تأثيرها السريع ، فتفاقمت في صفوف الجيش الألماني النقمة على بروسيا وازداد ضدّها الهياج دون أن تحرّك السلطات العليا ساكناً كأن الأمر لا يعنيها في كثير أو قليل ، ولما حزمت أمرها على التدخّل كان الزمام قد أفلت من يدها ودفع الشعب الألماني كلّه ثمن تهاونها الفاضح .

وقد ساهم في إضعاف معنويات الجنود تلك الرسائل التي كانت تبعث بها النساء إلى أزواجهن أو الأمهات إلى أبنائهن ويضمّنّها الشكاوى المريرة مما يلقين من عنت ويقاسين من حرمان . . . وكان العدوّ يضبط بعض هذه الرسائل مع الأسرى فيستغلّها في دعاوته أبرع استغلال ، ويقوى في الوقت نفسه إيمانه هو بالنصر ، ناهيك بالأثر السيء الذي كانت تتركه الرسائل في نفوس جنودنا الذين كانوا في الجبهة يقاسون الأمرّين وعيالهم في المؤخّرة تشكو الحرمان .

وهكذا بدأ التذمّر يغزو الجبهة منذ أواخر ١٩١٥ ، واتخذ شكل أزمة في شتاء ١٩١٦ وربيعه . ولكنّ معنويّات جنودنا ظلّت طيّبة ، كانوا يدمدمون ويتذمّرون حتى إذا أصدر إليهم قائدهم أمراً بالهجوم نسوا كلّ شيء وأدّوا واجبهم على أكمل وجه ، وتشبّث كلّ منهم بموقعه كما لو كان مصير ألمانيا كلّها رهناً بسلامة هذا الشبر من الأرض .

وقد تيّض لي أن ألمس الفرق بين الجبهة وبين المؤخّرة لمناسبة إصابتي بجرح .

ففي أواخر أيلول ١٩١٦ دعيت فرقتي للالتحاق بالفيالق المقاتلة في قطاع نهر « السوم » حيث اشتركنا لأول مرة في براز رهيب مع العدو ، براز مثّل أهمّ أدواره العتاد الجديد جاعلاً من المعركة جحيماً لا يُطاق. وبالرغم من محاولات العدوّ وكثافة نيرانه صمدت خطوطنا أيّاماً فأسابيع ، وكانت إذا تراجعت بعض الشيء لا تلبث أن تستردّ ما فقدت .

وفي السابع من تشرين الأول أصبت بشظية ، ونقلت إلى المؤخرة حيث أقلني القطار الصحي إلى ألمانيا ، وكان قد انقضى عامان على مغادرتي الوطن ، وهي فترة تبدو طويلة في الظروف التي كنت فيها ، حتى إني لقيت بعض الصعوبة في تكوين فكرة عن مظهر مواطني وهم باللباس المدني بينما كان القطار يقترب من الأراضي الألمانية . وعندما سمعت وأنا في القطار إحدى الممرضات تخاطب رفيقاً لي ، عرتني قشعريرة لسماعي صوت ألمانية بعد عامين لم أسمع خلالهما صوتاً ناعماً بلغة بلادي .

وأخيراً دخل القطار الأراضي الألمانية ، وبدأ يطوي المسافات مجتازاً المدن والدساكر والقرى .

عندما مررنا بمناطق الحدود في تشرين الأول ١٩١٤ كانت الحماسة تغلي في صدورنا ، وكانت أناشيدنا تملأ الأرجاء . أما الآن فالقطار الذي يقلنا يخيم عليه الصمت والتأثر العميق ، لقد كان كل منا سعيداً بأن يرى مرة أخرى ما دعي للذود عنه وقرر أن يفديه بحياته ، وكان في الوقت نفسه يتحاشى نظرات الآخرين لأنه لم يحقق في عامين ما يرجو الوطن تحقيقه على يده .

أدخلت مستشفى بيليتز في إحدى نواحي برلين ، فانتقلت هكذا من مستنقعات نهر « السوم » إلى الفراش الوثير في هذا البناء الضخم . وقد لقيت بعض المشقة قبل أن آلف هذا العالم الجديد ، ويعرف الكرى سبيلاً إلى أجفاني ، وأنا أتقلب على فراشي الطريء .

ولكن هذا العالم كان مع الأسف جديداً ، بالنسبة إلي ، في ناحية أخرى .

فالمعنويات الطيبة التي يمتاز بها الجيش في الجبهة لا أثر لها في المستشفى ، فقد سمعت هنا ما لم أسمع بمثله في ميادين القتال : سمعت جريحاً يتحدث بزهو وفخار عن جبنه وفشله . وسمعت آخر يقول إنه مر بكلتا يديه على الأسلاك الشائكة ليصار إلى نقله إلى المستشفى ، وكان يتحدث عن فعلته هذه بلهجة من أتى عملاً بطولياً ، وقد رأيت الرفاق بعضهم يصغي متململاً والبعض

الآخر يهزّ رأسه علامة الاستحسان . أمّا الإدارة فقد تركت الثرثارين الجبناء وشأنهم مدلّلة بهذا التغاضي على قصر نظر لمْ يكن عيبها وحدها ، بل كان عيب السلطات كافّة .

ما إن صرت قادراً على المشي دون صعوبة حتّى استحصلت على إذن بزيارة برلين .

كانت العاصمة في غليان ، فالمجاعة والأوبئة تفتك بالناس ، والنّقمة تجعل من صدور الناس مرتعاً للأحقاد . ولم تكن اللهجة في الأندية التي يختلف إليها العسكريون لتختلف عن اللهجة المستهجنة التي سمعتها في المستشفى . ولعلّ هؤلاء الجبناء الثرثارين كانوا يغشون الأمكنة المذكورة لينشروا فيها آراءهم السامّة .

وكانت الحالة في ميونيخ أسوأ منها في برلين .

بعد إبلالي إبلالاً تامّاً ألحقت بفوج الاستيداع المعسكر في مدينة الفنّ . وقد أنكرت ميونيخ عندما طالعتني بروحها الانهزامي وتذمّرها وتخاذلها . وكانت معنويات الفوج الذي ألحقت به ممّا يُفرح العدوّ ، ولا شكّ في أن الرؤساء مسؤولون بالدرجة الأولى عن هذه الحالة لأنّهم ناطوا تدريب فوج جنود عائدين من الجبهة بضباط ما ذهبوا إلى الجبهة قطّ ولا يمكنهم بالتالي أن يتفهّموا نفسية الذين قاتلوا وأدّوا ضريبة الدم .

وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات كانت الحالة الروحية غير مرضية بوجه عام . وقد لاحظت أن اليهود يشغلون معظم الوظائف المدنية ، جميع السكرتيرين منهم ، وكل يهودي سكرتير ، فأدهشتني هذه الظاهرة ولم أتمالك من إجراء مقارنة بين ممثلي الشعب المختار في الوظائف وبين ممثليه في الجبهة .

وأدهى من ذلك كانت الحالة الاقتصادية . ففي الحقل الاقتصادي أضحى الشعب اليهودي عنصراً لا غنى عنه ، وبدأت العنكبوت تمتصّ دم الشعب

الألماني ، ولكن برفق وتمهّل . ووجد اليهودي في توحيد مصادر الإنتاج الحربي الأداة اللازمة لتسديد الضربة القاصمة إلى الاقتصاد القومي الحر ، وما وافى شتاء ١٩١٦ ــ ١٩١٧ حتى كان الإنتاج كلّه تقريباً خاضعاً لإشراف الرساميل اليهودية .

وفي هذه الأثناء كان الشعب الألماني يغذي الأحقاد في صدره ولكن ضدّ مَن ؟

ففي الوقت الذي كان اليهودي يعصر جيوب الأمّة ويحاول إخضاعها لسيطرته ، كانت الدعاوة تحرّض الناس على مناصبة البروسيين العداء ، ووقفت المؤخرة من هذه الدعاوة السامّة موقف المتفرج ، وقد فاتها أن انهيار بروسيا لن يدعم مركز بافاريا وأن سقوط إحداهما سيفضي حتماً إلى سقوطهما معاً في الهاوية . أما أنا فقد تبيّنت وراء هذه اللعبة دسائس اليهود الذين شغلوا بافاريا وبروسيا بالخلاف الذي ذرّ قرنه ، وراحوا ينتزعون من الشعب أسباب معيشته ، وبينما كانوا في بافاريا يشتمون بروسيا كان اليهود ينظمون الثورة ويقوضون دعائم بافاريا وبروسيا معاً .

لم أطق صبراً على هذه الحالة فطلبت إعادتي إلى الجبهة ، وكنت أسعد الناس يوم أُجبت إلى طلبي وغادرت ميونيخ .

وفي أوّل آذار ١٩١٧ التحقت مجدداً بفيلقي واستأنفت النضال .

وفي أواخر ١٩١٧ تغلّب الجيش الألماني على عوامل اليأس والقنوط ، فقد أنعش الأملَ في نفسه انهيارُ المقاومة الروسية ، وبات موقناً بأن القتال سينتهي عمّا قريب بانتصار ألمانيا على أعدائها ، وعادت الأفواج سيرتها الأولى من إنشاد الأناشيد الحماسيّة وهي تقاتل في خنادقها أو تمشي إلى الالتحام بالعدو ، وبعث انتعاش المعنويات الإيمان في مقدرات الوطن .

وكانت هزيمة الإيطاليين في خريف ١٩١٧ قد أنعشت الآمال وشدّدت من عزائم جنودنا ، وغمرت قلوبهم بموجة من الثقة ، فقاموا ينتظرون

حلول ربيع ١٩١٨ وكأنّهم على موعد مع النصر . أما العدوّ فقد بدت عليه أمارات تنمّ عن العياء ، وكان شتاء ١٩١٧ – ١٩١٨ شتاء هادئاً حقّاً . ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة !

في ذلك الحين كانت الاستعدادات الألمانيّة قائمة على قدم وساق ، القوات تتدفّق على الجبهة الغربيّة ويتدفّق معها العتاد والذخيرة والمؤن . وكان كل شيء في شتاء ١٩١٧ – ١٩١٨ يدلّ على أن الهجوم الكبير وشيك ، وفي هذا الظرف بالذات فوجئت ألمانيا بحدث داخلي خطير .

قال أعداؤنا لأنفسهم : يجب الحؤول بين ألمانيا وبين إحراز النصر . وفي اللحظة الأخيرة ، وبينما كان كلّ شيء يدلّ على أنّ هذا النصر بات في متناول الجيش الألماني ، لجأ أعداء الأمّة إلى وسيلة بدت لهم قمينة بخنق هجوم الربيع في مهده .

لقد نظموا إضراب عمال مصانع الذخيرة .

قدروا أنّ نجاح الإضراب سيفضي حتماً إلى انهيار الجبهة الألمانيّة ، لأنّه يترتّب على افتقار الجنود إلى الذخيرة شلّ الهجوم وهو في مستهلّه ، فينتقل الحلفاء بدورهم إلى مهاجمة الخطوط الألمانيّة ولا يلبثون أن يفتحوا في الجبهة عدة ثغرات . وبهذا يكون أعداء ألمانيا قد تفادوا الهزيمة ، وتسيطر الرساميل الدولية على ألمانيا وتبلغ الماركسية الخداعة هدفها الرئيسي .

ولكن إضراب مصانع الذخيرة لم يسفر عن النتائج التي قدّرها الأعداء ، لأنّه لم يستمرّ إلاّ وقتاً قصيراً ولم تفتقر الجبهة بالتالي إلى الذخائر اللازمة . إلاّ أنّ الضرر المعنوي الذي سبّبه الإضراب للبلاد كان بالغاً .

لقد تساءل الجيش ، ومن حقّه أن يتساءل : ما معنى الاستمرار في الكفاح ما دامت البلاد زاهدة في النصر ؟ وفي سبيل من يجود الجنود بأرواحهم ويقاسون الحرمان ؟ وهل يجوز أن يقاتل الجندي بينما تضرب البلاد لتمنع عنه الذخيرة ؟

ولكن ما كان وقع الإضراب في البلاد المعادية ؟

في شتاء ١٩١٧–١٩١٨ لم يكن كل شيء على ما يرام في معسكر الحلفاء، فقد حلّ التشاؤم محلّ التفاؤل ، وتبخّرت الأحلام والأوهام . فمنذ أربع سنوات والجيوش المتحالفة تشنّ الهجوم تلو الهجوم على العملاق الألماني ولكن على غير طائل . وكان العملاق طيلة هذه المدة ممسكاً بالترس بيد يتقي بها الهجمات وبالسيف باليد الأخرى ، ليضرب تارة في الشرق وتارة أخرى في الغرب وطوراً في الجنوب ، أما الآن فالعملاق مطمئن إلى مؤخّراته ، وقد جرت الدماء أنهاراً قبل أن يصرع الجيش الألماني أحد أعدائه ليتفرغ لأعدائه الباقين . وهكذا صار بإمكان السيف أن يتعاون والترس ، وبات على الحلفاء الذين عجزوا عن تحطيم الدفاع أن يتوقّعوا انتقال الجيش الألماني إلى الهجوم .

وشدّ ما كان هذا الهجوم يخيف الحلفاء ويقضّ منهم المضاجع . ورأينا المؤتمرات تعقد في باريس ولندن دون انقطاع ، وأسقط في يد الدعاوة المعادية لأنها صارت تلقى مشقّة كبيرة في إيهام الرأي العام بأن النصر الألماني بعيد الاحتمال .

وفي الجبهة ساد صمت مطلق وكف العدو عن ثرثرته الوقحة لأن حدسه لم يصدق ، فالجندي الألماني الذي حسبه مجنوناً لأنه يخوض غمار معركة خاسرة، قد ربح نصف المعركة بقضائه على الحليف الروسي. وبعد أن كان الأعداء يسخرون من هجماتنا المتواصلة في الشرق ومن اكتفائنا بالدفاع عن أنفسنا في الغرب ، بدا لهم هجومنا المظفر تكتيكاً موفقاً .

لقد قضى جنودنا ثلاث سنوات في مقارعة العملاق الروسي على غير طائل . وكان الرأي السائد في باريس ولندن وروما أن الغلبة ستكون في النهاية للجبار الروسي الذي له التفوق العددي الساحق .

منذ خريف ١٩١٤ ، وبعد موقعة تاننبرغ ، بدأت قوافل الأسرى الروس

تتدفّق على ألمانيا ، ولم ينقطع سيلها مذ ذاك ، ولكن موارد روسيا بالرجال لم تنفد ، فكل جيش يُسحق أو يُباد يحلّ محله في طرفة عين جيش جديد. وكيف لا يكون ذلك وأمبراطورية القيصر نقولا المترامية الأطراف تعجّ بالرجال الذين يمكن تقديمهم ضحايا لمارس إله الحرب ؟ وكان من حقّ ألمانيا أن تتساءل بقلق: حتّام يستمرّ هذا السباق؟ وهل في وسع الجيش الألماني الثبات إلى النهاية؟ من يدري فقد يأتي يوم يعقب فيه آخر انتصار ألماني بروز جيوش روسية ، لن تكون الأخيرة ، للتدخل في المعركة الحاسمة ! أما الحلفاء فقد كانوا على مثل اليقين بأن الانتصار الروسي قد يتأخر بعض الوقت ولكن لا بدّ من حصوله في النهاية . أما وقد سقط الجبار الروسي بعد أن بذل في سبيل القضيّة المشتركة أغلى التضحيات ، فلم يبق أمام حلفائه إلا انتظار دورهم . وقد شعروا بالاستعدادات الألمانية لهجوم الربيع ، وأدركوا ان الجيش الذي لم يتقهقر أمام جحافلهم وهو منقسم شطرين لن يعجز عن إلحاق أشنع الهزائم بهذه الجحافل بعد أن احتشد بشطريه في الجبهة الغربيّة استعداداً للقيام بالهجوم الحاسم .

أجل كان الحلفاء في موقف لا يحسدون عليه في شتاء ١٩١٧ – ١٩١٨ ، ولكن بينما كان قادتهم يضربون أخماساً لأسداس ، ويخيّل إليهم – وقد استبدّ بهم القلق وركبهم الخوف – كلّما لمع البرق وقصف الرعد أن الهجوم الألماني قد بدأ ، بينما كان الحلفاء في همّهم المقيم هذا ، وفي اللحظة التي أصدرت القيادة الألمانيّة إلى الفرق تعليماتها الأخيرة بشأن الهجوم ، أعلن الإضراب العام في ألمانيا .

وجم العالم بادىء ذي بدء ، ولكن سرعان ما تنفّس العدوّ الصعداء ، وبادرت دعوته إلى استغلال هذا العون يهبط عليها من السماء في اللحظة الأخيرة وعرفت كيف تتخذ منه وسيلة لرفع معنويات جنود الحلفاء بعد أن عانقت الحضيض : فالنصر الذي كفّت الدعاوة منذ خريف ١٩١٧ عن

التحدّث عنه : عادت إلى تأكيد حصوله في غضون أشهر معدودة ، وعملت في الوقت نفسه على إحلال الطمأنينة والثقة في النفوس محل القلق والتشاؤم . ولم تلق الدعاوة المعادية كبير عناء في إقناع الجيوش المتحالفة بأن مصير الحرب لن يقرّره الهجوم الألماني ، بل تقرّره مقاومة هذا الهجوم بعناد واستمرار ، فليحرز الألمان من الانتصارات ما يحلو لهم ، فالكلمة الفصل ستكون لمن يثبت في اللحظة الأخيرة .

هذا ما عملت الصحافة في فرنسا وإنكلترا وأميركا على ترسيخه في أذهان قرائها ، بينما كانت الدعاوة النيّرة تعمل على رفع معنويّات الجيوش في الجبهة .

« ألمانيا تتمخّض بثورة ، انتصار الحلفاء مؤكّد ! » بهذا الدواء الفعّال استطاعت الدعاوة المعادية أن تتدارك جنودها المترنّحين من فرنسيين وإنكليز ، فوقفوا على أرجلهم وزايلت الرعشة أيديهم ، واشتدّت منهم المقاومة بعد أن كاد اليأس يشلّ منهم كلّ نشاط .

لقد ترتّب على نتيجة إضراب عمال مصانع الذخيرة في ألمانيا انتعاش أمل الحلفاء بالنصر وتقلّص ظلّ اليأس المثبّط للعزائم من صفوف المقاتلين ، ولئن يكن الجانب الألماني قد وفق إلى الخروج من هذه النكسة سليماً ، ولو في الظاهر على الأقلّ ، فقد كانت فائدة العدوّ من الحوادث التي كانت بلادنا مسرحاً لها أعظم من أن تقدّر ، وساد في أذهان المراقبين أن صمود الحلفاء بضعة أشهر أخرى من شأنه أن يقلب الحظوظ ويضمن لهم النصر .

• • •

كان لي شرف الاشتراك في الهجومين الأولين وفي الهجوم الأخير . ولن يمكنني نسيان التظاهرات الحماسيّة التي رافقت انتقالنا من الدفاع إلى الهجوم بعد أن سلخنا أكثر من ثلاث سنوات في جحيم الانتظار : انتظار يوم الحساب . وقد عاد بنا هجوم ربيع ١٩١٨ إلى جو خريف ١٩١٤ ، فانطلقت كتائبنا المظفرة

تهزّ ألويتها وتنشد أناشيدها ، وهي موقنة بأنّ الغلبة ستكون لها في الغرب كما كانت لها في الشرق .

ولكن القدر كان يلعب لعبته ويعدّ مفاجأته لشعبنا .

• • •

في صيف ١٩١٨ بدت على الجبهة أمارات العياء ، ودبّ الشقاق في صفوف المواطنين المتخلّفين ، فعلامَ الخلاف ؟

لم يصل إلى الجبهة أخبار راهنة عما كان يجري في البلاد ، فمن قائل إن الشعب يرفض مواصلة القتال لأن الحرب استنزفت قواه ، ومن قائل إن زمام النصر قد أفلت من يد ألمانيا إلى الأبد ، فمن الجنون مواصلة الكفاح ، وإن الرأسماليّين والقيصر غليوم هم أصحاب المصلحة المباشرة في استمرار المجزرة .

وتدفّق على الجبهة سيل من الشائعات عن الموقف الداخلي ، وعن الإصلاحات الدستورية التي يطالب بها بعض محترفي السياسة . ولكن هذه الشائعات لم تحدث أيّ ردّ فعل في صفوف الجنود ، فهم لم يقاتلوا طيلة أربع سنوات من أجل الحصول على الانتخاب المباشر ، ولم يندفعوا إلى لقاء الموت وهم يهتفون : « ليحيَ الانتخاب العام المباشر ! » لقد جادوا بأرواحهم في سهول الفلاندر وهم ينشدون نشيد « ألمانيا فوق الجميع » .

إنّ الذين يطالبون بحقّ التصويت المباشر لم يتعدّ جهادهم حدّ النشاط الكلامي ، فالجبهة تكاد تكون خلواً من سفلة الناس : رجال الأحزاب البرلمانيّة التي تتنازع الحكم . ويمكن القول إنّ الجيش الألماني لم يكن مستعداً للتخلي عن هدفه الأسمى : النصر ، ليتبنّى أهداف السادة شيدمان وإيبرت وبارت وليبكنت وأضرابهم ، ولم يكن ليطيق بالتالي أن يرى هؤلاء المتخلفين يطمحون إلى تسلّم مقاليد الحكم في البلاد مسقطين الجيش من حسابهم .

أما أنا فقد كنت أمقت محترفي السياسة هؤلاء لأنهم يخدعون الشعب ،

ولأن لعبتهم لم تجز عليّ . فتظاهرهم بالحرص على المصلحة العامة كان ستاراً لإخفاء مطمحهم الحقيقي : حشو جيوبهم الفارغة وتشييد صرح مجدهم على أنقاض الوطن .

كان معظم رفاقي في الجبهة ينظرون إلى محترفي السياسة النظرة نفسها ، ولكن العناصر الجديدة التي كانت تتدفق على الجبهة لم تكن كلها عناصر صالحة ، ويمكن القول إنّ تدخّلها قد قضى على معالم اللحمة في صفوف المقاتلين وأوجد في بعض هـذه الصفوف تيارات جديدة من نوع التيارات التي كانت تتجاذب المؤخرة في ذلك الحين .

في أواخر أيلول ١٩١٨ احتلّت فرقتنا ، للمرّة الثالثة ، المواقع التي انتزعتها سابقاً من العدوّ فيالق المتطوّعة ومنها الفيلق الذي أُلحقت به في صيف ١٩١٤ .

في هذا المكان عُـمّدت ورفاقي بالنار خلال تشرين الأول من العام ١٩١٤ ، وانطلق فيلقنا إلى لقاء العدوّ كمن ينطلق إلى عرس : وقد عمر قلب كلّ منّا بحبّ الوطن ، وبذل في ساح القتال دون ما حساب ، يقيناً منه بأن تضحياته لن تذهب هباء ، وأن استقلال الوطن وحريته سيكونان نعم العوض .

وفي تموز ١٩١٧ وطئت أقدامنا المكان نفسه للمرة الثانية ، ولكنه قد أضحى أرضاً مقدّسة بالنسبة إلينا ، لأن تربته تضم بقايا رفاق لنا سقطوا في ساحة الشرف وفي عيونهم بريق الزهو والحماسة . لقد انتزعنا هذا المكان منذ ثلاث سنوات بهجوم عنيف ، أما الآن فعلينا أن ندافع عنه دفاع المستميت .

وكان الانكليز قد مهّدوا لهجومهم في الفلاندر بقصف مدفعي استمرّ ثلاثة أيام ، وخيّل إلينا ونحن نستعدّ لليوم العصيب أن أرواح شهدائنا تراقب ما نفعل ، فكان ذلك حافزاً لنا على الاستبسال فتشبّثنا بكلّ نتوء ولم نتخلّ عن شبر واحد من الأرض الموحلة ، ولكن صفوفنا قد رقّت ، ولما ضيّق الإنكليز علينا الخناق في ٣١ تموز سحبتنا القيادة من القطاع فإذا الفيلق قد تضاءل حتى

أضحى بضعة أفواج تتّجه نحو المؤخرة وهي تترنّح ذات اليمين وذات اليسار لفرط ما نال منها التعب .

وها نحن أولاء نعود في خريف ١٩١٨ إلى المكان الذي بدأنا منه هجومنا الأول . أما قرية « كومين » التي كنّا نلجأ إليها لأخذ قسط من الراحة ، فقد تحوّلت إلى ساحة من ساحات القتال . ولئن يكن ميدان القتال قد ظلّ هو إيّاه ، فالرجال أنفسهم قد تبدّلوا : باتت السياسة شغلهم الشاغل ؛ لأن السموم التي حملها المجندون الجدد بدأت تفعل فعلها .

في ليل ١٣ – ١٤ تشرين الأول بدأت المدافع الانكليزية تمطر خطوطنا بوابل من قنابل الغاز المعروف باسم « الغاز ذي الصليب الأصفر » ومن خصائصه أن المرء لا يشعر بوجوده كي يتفاداه . وقد كانت فرقتنا تعمل على جبهة ممتدّة إلى الجنوب من نهر « الايبر » عندما فوجئنا بالغاز ، وعند منتصف الليل بدأ نقل المصابين ، وما أكثرهم ، إلى المؤخرة ، وقد توفي فريق منهم في الطريق ، وعند الفجر انتابتني أعراض أدركت معها أنني قد أصبت بدوري وأخذت آلامي تتفاقم شيئاً فشيئاً . وفي الساعة السابعة صباحاً سلكت طريق المؤخّرة وأنا أترنّح ترنّح السكارى وكأنّ في عينيّ نيراناً تتّقد ، وما هي إلاّ بضع ساعات حتّى لفّني الظلام بردائه فلم أعد أرى شيئاً ،وقد نقلت وأنا على هذه الحال إلى مستشفى « باسفلك » حيث شاء سوء طالعي أن أشهد الثورة .

° ° °

لم تكن الثورة مفاجأة لكثيرين ؛ ولكنها كانت مفاجأة لي مع أن الجوّ لم يكن طبيعيّاً منذ أن أعلن عمّال مصانع الذخيرة إضرابهم ، ومع أني فاجأت رفاقي أكثر من مرّة يتهامسون بأن الترتيبات قد تمّت وأن شيئاً هامّاً سيحدث بعد أسابيع ، ولكن الثورة لم تخطر لي ببال ، وحسبت « الشيء الهام » الذي به يلغطون إضراباً كإضراب الربيع .

وبعد دخولي المستشفى سمعت من حولي يتحدّثون عن حركة تمرّد في

البحرية ؛ وعن قرب انتهاء النزاع . فحملت ذلك منهم على محمل التكهّن والرجم بالغيب واستبعدت مروق الأسطول .

وفي تشرين الثاني من العام ١٩١٨ تفاقم التوتر العام ، وذات صباح وصل جمهور من رجال البحرية على سيارات كميون وشرعوا يحرضون الناس على الثورة ؛ وكان يتزعّم هذه الحركة « من أجل حرية شعبنا وكرامته » شبان يهود لم يسبق لواحد منهم أن حمل السلاح .

وكانت حالتي قد تحسنت بعض الشيء وصرت قادراً على تبيّن الأشياء بوضوح نسبي ؛ وقال لي الأطباء : إن تأثير الغاز على البؤبؤ قد يزول مع الأيام ، ولكنهم لم يجزموا بإمكان عودة كل شيء إلى حالته الطبيعية .

ورافق تحسن حالتي نشوب الثورة ، ولكني حسبتها حركة محلية وحاولت إقناع رفاقي في المستشفى بأن رجال البحرية لا يقلّون إخلاصاً للوطن عن الجيش ، بيد أنّ الحوادث خيّبت فألي ؛ فالثورة قد خطت خطى واسعة في بضعة أيام ، ووصلت العدوى إلى ميونيخ حيث تغلّبت إرادة قبضة من اليهود على ولاء السكان لآل فيتلباخ . إلاّ أن هذه التطوّرات لم تحملني على التحوّل عن رأيي : إنها ثورة ضيّقة النطاق ، بل محاولة عصيان يقوم بها الأسطول وحده ولن يعتّم الجيش أن يحبطها في بضعة أيام .

وحملت لي الأيام التالية أنباء مزعجة حقّاً . فالثورة قد عمّت البلاد ، وفي الجبهة يتحدّثون عن إلقاء السلاح .

وفي العاشر من تشرين الثاني ١٩١٨ جاء إلى المستشفى العسكري أحد القسس ليلقي فينا كلمة . ومن فم هذا القسيس عرفنا كلّ شيء .

أصغيت إليه وأنا بالغ التأثّر والانفعال . وكان هو يتكلّم بصوت متهدّج وخالطت صوته بحّة عندما قال لنا إن آل هوهنزولرن قد فقدوا حقهم بالعرش والتاج وإن ألمانيا قد استبدلت من النظام الملكي نظاماً جمهوريّاً . ودعانا للابتهال إلى الله متوسّلين إليه ألا يحبس بركته عن النظام الجديد وألاّ يتخلّى

عن شعبنا في مستقبل الأيام .

ولم يسع القسيس إلاّ أن يخصّ البيت المالك بكلمة ، فأشاد بالخدمات التي أسداها آل هوهنزولرن لبوميرانيا وبروسيا وللوطن الألمانيّ كلّه . وقد خنقت العبرات صوت الرجل الشيخ فما بقي رجل في القاعة إلاّ وبكى . ولكن عندما شرع القسيس يشرح الأسباب والعوامل التي ألجأت ألمانيا إلى إلقاء السلاح ، وبدأ بقوله إن بلادنا قد خسرت الحرب وإنّنا الآن تحت رحمة العدوّ المنتصر وعلينا أن نقبل الهدنة التي فرضها دون أن نقنط من تسامحه وسخائه – عندما وصل القسيس إلى هذا الحدّ فقدت السيطرة على أعصابي فأظلمت الدنيا في عيني ولم أعد أقوى على سماع المزيد ، فغادرت القاعة أتلمّس طريقي إلى ردهة المنامة حيث تهالكت على سريري ودفنت رأسي الملتهب تحت المخدّة والغطاء .

لم أنتحب ولم أنشج مرة واحدة منذ أن ووريت والدتي الثرى . فقد روّضت نفسي على التذرّع بالصبر واحتمال المكاره بجنان ثابت . وخلال سنوات الحرب الأربع رأيت الموت يحصد المئات من رفاقي وأصدقائي الأعزّاء ، فما ذرفت دمعة واحدة معتبراً البكاء تجديفاً على بطولة الذين سقطوا في ساحة الشرف في سبيل ألمانيا . وعندما أصبت بالغاز كاد اليأس يستولي عليّ لأن بعض المصابين مثلي فقدوا حاسة النظر إلى الأبد ، ولكن هاتفاً هتف بي : « أيها الجبان الشقيّ ، أتبكي ومحنتك ليست شيئاً بالنسبة إلى محنة الآلاف من إخوانك ؟ » فتجلدت وصبرت . أما الآن وقد ضاع كل شيء ، فقد أيقنت أنّ كل ألم شخصي يزول عندما تنزل بالوطن نازلة .

كانت باطلة ، إذن ، كل تلك التضحيات ، وهباء ضاعت كل تلك الجهود ، ومن أجل لا شيء ذقنا مرارة الجوع والظمإ طيلة أشهر وأشهر . وعلى غير طائل صرفنا الساعات ، يشدّنا بعضاً إلى بعض الرغبة في الاستشهاد معاً أو الشعور بالرهبة حيال الموت ، عبثاً صرفنا الساعات في أداء الواجب !

وعبثاً لاقى مليونا ألماني حتفهم في ساحات الشرف !

ترى أتفتح يوماً أبواب قبور مئات الألوف من الرجال الذين خرجوا ذات يوم من خنادقهم فتلقفهم منجل الموت ؟ ترى أتفتح أبواب هذه القبور يوماً لترسل ، بشكل أشباح منتقمة ، الأبطال البكم ، إلى وطن ضيع عليهم وعلى نفسه ثمرة أسمى تضحية يمكن الإنسان أن يقدمها في سبيل وطنه ؟ أمن أجل أن يضع نفر من المجرمين يده على مقدرات البلاد سقط جنودنا في معارك آب وأيلول ١٩١٤ ولحق بهم في خريف العام نفسه فيالق المتطوعة ؟ أمن أجل هذا عانق أولئك الفتيان تراب الفلاندر ولما يتجاوزوا ربيعهم السابع عشر ؟ أمن أجل هذا ضحّت الأمّة الألمانيّة بأعزّ ما لديها عندما كانت تقدم أولادها إلى الوطن مع علمها أنهم قد لا يعودون إلى أحضانها ؟

كان علينا أن نقيم لهؤلاء الأبطال نصباً متواضعاً حيث يرقدون ينقش عليه :

« أيها المار الذاهب إلى ألمانيا ، بلغ بلادنا أنّنا نرقد هنا وأنّنا مخلصون للوطن وللواجب . »

كيف يكتب غداً تاريخ هذا الحدث ، وما عسانا قائلين للأجيال المقبلة في تبريره ؟

حقّاً إن الذين تسبّبوا في وقوع الكارثة قد جنوا على شعبنا ، وتركوا في تاريخه المجيد لطخة عار .

وكرت الأيام بلياليها تحمل الدليل تلو الدليل على ضياع كل شيء . وقد أيقنت ككلّ ألمانيّ ذي كرامة أن الاعتماد على سخاء العدوّ هو الجنون بعينه بل هو الخيانة بالذات . وكنت ، كلما فكّرت بما انتهت إليه القضية الألمانية ، أشعر بمراجل الحقد تغلي في صدري : الحقد على أولئك الذين سببوا الكارثة .

وما إن انجلى الموقف بعض الشيء حتّى عدت إلى التفكير بأمر مستقبلي فوجدتني مسوقاً إلى الاشتغال بالسياسة ، أما هندسة البناء فقد وضعتها على

الرفّ لأن العمران كان آخر ما يخطر ببال الناس في تلك الفترة العصيبة .

قررت الاشتغال بالسياسة واضعاً نصب عيني إنقاذ ألمانيا من عدوين : الماركسية واليهودية . وقد كان غليوم الثاني أول امبراطور ألماني مدّ يده إلى زعماء الماركسيّة وقد فاته أن المُخادع لا يُركن إليه . لقد صافحوا غليوم بيد بينما كانت الأخرى تتحسّس الخنجر .



بسمرك المستشار الحديدي الذي حقق الوحدة الألمانية

الفصل السابع
بدء نشاطي السياسي

في مطلع تشرين الثاني ١٩١٨ عدت إلى ميونيخ مرة أخرى لألتحق بالعناصر الموضوعة في الاستيداع من أفراد فيلقي ، وقد وجدت الفيلق في عهدة « المجالس العسكرية »، وسرعان ما برمت بهذه المؤسسة وأساليبها وانتقلت إلى « تروتشتين » مصحوباً برفيقي الأمين ارنست شميث. ولم أعد إلى ميونيخ إلاّ في آذار ١٩١٩ .

كانت الحالة في المدينة بعيدة الاستقرار ، فوفاة « إيزنر » عجلت بقيام دكتاتورية السوفييت ، وقل سيطرة اليهود الذين بذروا بذور الثورة . أمّا المشاريع والخطط التي مرت برأسي في ذلك الحين فحدّث عنها ولا حرج ، ولكني لم أخطُ خطوة عمليّة واحدة لعلمي أنّ رجلاً لا اسم له يشفع به لا يستطيع شيئاً في غمرة الحوادث الجارية. إلاّ أنّ هذا لم يمنعني من الجهر بآرائي مما حمل السوفييت المركزي في ميونيخ على درج اسمي في اللائحة السوداء ، لائحة أعداء الثورة . وفي ٢٧ نيسان ١٩١٩ شهرت السلاح في وجوه الذين جاؤوا لاعتقالي ، وكانوا ثلاثة رجال ، فعادوا أدراجهم ، ولم تتكرّر المحاولة.

وبعد إنقاذ ميونيخ عُيِّنتُ عضواً في اللجنة التي كلفت التحقيق في حوادث العصيان والثورة التي شطرت فيلق المشاة الثاني شطرين . ثم تلقيت أمراً بالاستماع إلى دروس في التنشئة الخلقية والوطنية كانت تُلقى على أفراد القوى المسلحة ، وقد أتاحت لي مواظبتي التعرّف إلى رفاق يشاطرونني رأيي في الحالة السياسيّة ويقولون قولي في كثير من الشؤون والقضايا ، وكنّا جميعاً مقتنعين بأن الذين ارتكبوا جريمة تشرين الثاني ليسوا مؤهّلين لإنقاذ ألمانيا من الخراب . أمّا

المنظمات « البورجوازية القومية » فإنها أعجز من أن تصلح ما أفسده المفسدون .

ودرسنا إمكان تأليف حزب جديد ذي مبادىء تقدمية كالتي قام عليها فيما بعد حزب الفلاحين . وقد حرصنا على إعطاء الحزب اسماً يستهوي الجماهير الشعبية فتقبل على الانخراط فيه ، فسميناه « الحزب الاجتماعي الثوري » لأن المبادىء الاجتماعية للحركة الجديدة كانت ذات طابع تقدمي ثوري .

بيد أن ثمة عاملاً أساسياً قد أملى عليّ اختيار هذا الاسم. ذلك أن اهتمامي بالمسألة الاقتصادية لم يتعدّ قطّ دراسة المشاكل الاجتماعية ، فلما وسّعت أفق دراساتي اتضح لي أن سياسة المحالفات الألمانية هي نتيجة تقدير خاطىء لأسس الحياة الاقتصادية ولأهمية توفير الغذاء للشعب الألماني . وأدركت أن نظرة القابضين على الزمام إلى رأس المال هي نظرة رجعية وسطحية .

ما هو رأس المال ؟

إنه ثمرة العمل ، ولا شيء غير ثمرة العمل . وهو ، بالتالي ، غير ثابت ، لأنه يخضع كالعمل نفسه للعوامل المؤاتية للنشاط البشري أو المعرقلة له . وعلى هذا تكون أهمية رأس المال القومية رهناً بعظمة الدولة وقوتها وحريتها . ومتى قلنا الدّولة نكون قد عنينا الأمّة . وتوجيه رأس المال توجيهاً تمليه مصلحة حرية الدولة واستقلالها يجرّه بطبيعة الحال إلى خدمة حرية الأمة وعظمتها وقوتها الخ . . .

وعلى هذا يكون واجب الدولة حيال رأس المال بسيطاً وواضحاً : ينبغي للدولة أن تحرص على بقاء رأس المال خادماً لها بدلاً من أن تدعه يسود الأمّة ، وهذا لا يكون إلاّ إذا كان الاقتصاد القوميّ مستقلاً وقابلاً للحياة ، وكانت حقوق العامل الاجتماعية مؤمّنة .

في الماضي لم أكن لأجد فرقاً كبيراً بين رأس المال الذي هو ثمرة العمل المنتج ، وبين رأس المال الذي يقوم وجوده وطبيعته على المضاربة ولا شيء

غير المضاربة . ويعود الفضل في اكتشافي الفرق بينهما إلى أحد الأساتذة الذين كنت أستمع إلى دروسهم مع رفاقي الجنود ، وهو غوتفريد فيدر . وبعد حضوري أول درس من دروس فيدر أيقنت أني وجدت الأساس الذي يمكن أن يقوم عليه حزب سياسيّ جديد .

* * *

كان فيدر يشدّد على التفريق بين رأس المال الدولي الخاضع للمضاربة وبين رأس المال المرتبط بالاقتصاد الشعبي ، أما الذين حاولوا انتقاده فقد اعترفوا بصحّة نظريّاته ولكنهم أعربوا عن ارتيابهم في إمكان تطبيقها تطبيقاً عمليّاً .

إن ما بدا للناقدين موطن ضعف في محاضرات فيدر يشكل في نظري موطن القوّة : فمهمّة من يضع منهجاً للعمل ليست عرض الوسائل التي تجعل تحقيق مشروع ما ممكناً بل هي عرض المشروع على أنه ممكن التحقيق . أي أن ما ينبغي لصاحب المشروع أن يهتمّ به هو الغاية قبل الواسطة . فإذا أخذ بعين الاعتبار ملاءمة المشروع وجدواه بدلاً من أن يرتكز على الحقيقة المطلقة ، قصر عمله عن أن يكون الكوكب الهادي للبشريّة في تلمّسها سبل التقدّم ولم يزد عن كونه وصفة كباقي الوصفات . ينبغي لمن يضع منهج حركة ما أن يحدّد الغاية منها . أمّا تحقيق هذه الغاية فيتولى أمره رجل السياسة . وتتجلّى عظمة أولهما في صحة نظريّاته وآرائه المستوحاة من الحقيقة المطلقة ، أما عظمة الآخر فإنها تتجلّى في تقديره الأمور على حقيقتها ومعالجته إيّاها واستخدامها على ضوء الغاية أو الهدف الذي حدّده رجل الفكر ، ولكن لا يفوتنا أنّ مشروعات واضعي المناهج قلّما تتحقّق وأن نظريّاتهم قلما تُطبّق بحذافيرها ، لأنّ العقل البشري يمكنه أن يُدرك الحقائق ويحدّد الأهداف تحديداً واضحاً ، أما التنفيذ فإنّه غالباً ما يصطدم بالواقع .

من المسلّم به عموماً أن فكرة مثاليّة من حيث صحتها ، عظيمة بمراميها ،

لا يمكن تحقيقها بالوسائل البشرية المعروفة كما ولدها عقل صاحبها . لهذا لا يجوز أن تقاس عظمة صاحب الفكرة بمقدار ما تحقّق من فكرته أو من الأهداف التي رسمتها ، إنّما تقاس عظمته بصحّة هذه الأهداف وبتأثيرها في نموّ البشريّة وتقدّمها . أما إذا جعلنا نجاح الفكرة نجاحاً تاماً مقياساً لعظمة صاحبها فإنّنا لا نجد مكاناً في مقصورة العظماء لمؤسسي الأديان السماوية لأن تطبيق تعاليمهم الروحية تطبيقاً عمليّاً كاملاً من الأمور المستحيلة . وحتّى دين المحبة ، ليس في حيّز التطبيق ، سوى انعكاس ضعيف لنيات مؤسّسه العظيم . ولكن أهميّته تقوم على التوجيه الذي أراد أن يطبع به تطوّر الثقافة وتجوهر الأخلاق والعادات البشرية .

وهذا الفارق العظيم بين صاحب الفكرة أو المنهاج وبين رجل السياسة يجعل من النادر جدّاً أن يجتمع كلاهما في شخص واحد . وينطبق هذا المبدأ أكثر مما ينطبق على رجال السياسة العاديين الذين مارسوا نشاطهم « في نطاق الممكن » . وقد أشار بسمرك إلى هؤلاء عندما قال في تحديد السياسة إنها « فن العمل في حدود الممكن » .

والواقع أنّ رجل السياسة الذي يبتعد عن الأفكار السامية والمبادىء الواضحة ، يحرز النجاح تلو النجاح بسهولة ويسر وسرعة . ولكن مشاريعه تكون قصيرة العمر ، تموت بموت صاحبها، ولا تعود بأي نفع على الأجيال الآتية ، لأن نجاحها قام على استبعاد المشاريع العظيمة والمسائل البارزة البعيدة الأثر ، ولا ننسى أن ملاحقة هذا النوع من الأهداف السامية قلّما تلقى تشجيعاً من جانب الجماهير التي يهمّها أن يعنى الزعماء بتأمين بطاقات الجعة واللبن وأن يوفروا لها خبزها اليومي قبل أن يفكروا بمشاريع طويلة النفس لا يفيد منها غير الأجيال المقبلة .

أفنعجب بعد هذا إذ نرى معظم السياسيين يصرفون النظر عن كل مشروع حيوي ذي نفع مؤجل، حرصاً منهم على إرضاء السواد بمشاريع ذات نفع عاجل؟

أمّا صاحب المنهاج أو الفكرة فعمله ليس للحاضر ، وإذا أشكل على الناس فهم فكرته أو رسالته قالوا إنّه يتيه في دنيا الأحلام . ذلك أنّه إذا كان فنّ رجل السياسة هو فعلاً فنّ العمل في حدود الممكن ، فصاحب الفكرة أو واضع المنهاج هو من الفئة التي يقال فيها إنها ترضي الآلهة عندما تحاول المستحيل أو تطالب به . فعلى صاحب الفكرة إذن أن يسقط من حسابه تقدير معاصريه لرسالته : فالحكم لهذه الرسالة أو عليها هو من شأن الأجيال الآتية.

وأصحاب الرسائل السامية الذين يسيء معاصروهم فهمهم ، لا يثبط عزيمتهم عقوق الناس ، لعلمهم أن أبناء لاعنيهم اليوم مباركون غداً ما لعنه آباؤهم وأجدادهم ، وأن سيرتهم وتراثهم الفكري سيدرسان بتفهّم وإعجاب ، ويؤلّفان للأمّة زاداً معنوياً تجده في متناولها كلما ادلهمّت الخطوب.

• • •

عندما ألقى « فيدر » درسه الأول عن رأس المال أدركت للتوّ واللحظة أن الرجل يطلع بنظريات جريئة يمكن أن تُتخذ أساساً لبناء الاقتصاد القومي في ألمانيا . فقد دعا فيدر صراحة إلى فصل رأس المال الدولي أو رأس مال البورصة عن الاقتصاد القومي لأن بقاء هذا خاضعاً لذاك يجعل من الاستقلال الاقتصادي اسماً لغير مسمّى . وهذه الدعوة الصريحة تعني التحريض ضدّ أمميّة الاقتصاد الألماني . وقد أدركت ، على ضوء نظريات « فيدر » وضوء دراساتي الشخصيّة ، أن النضال الأشقّ يجب أن يوجّه ضدّ رأس المال الدولي قبل الشعوب المعادية لشعبنا . وجاءت الحوادث مؤيّدة لهذا الرأي ، وحتّى « دهاقنة » ساستنا البورجوازية في هذه الأيام قد أدركوا أن رأس المال الدولي لم يكتف بإثارة الحرب العالميّة ، بل راح ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، يحاول أن يجعل من السلم جحيماً لا يُطاق . ولم يبق في البلاد مخلص إلاّ وأدرك أن محاربة الرساميل الأممية ورأس المال المعدّ للقروض باتت واجباً وطنياً لا محيد للأمّة عن الاضطلاع به إن هي شاءت إنقاذ حريتها واستقلالها الاقتصادي .

أما الذين يتخوّفون من عواقب هذا الاتّجاه القومي فإنّني أقول لهم إنّ تخوّفهم في غير محلّه ، فقد جرّبت ألمانيا حتّى الآن أكثر من «وصفة» اقتصاديّة على غير طائل . ويذكرني تهيب رجال السياسة عندنا الخطى الحاسمة القمينة بحفظ كيان الأمّة الآراء «الخنفشارية» التي طلع بها مؤتمر الأطباء البافاريين عندما طلب إليهم أن يقولوا كلمتهم في مضار السكك الحديدية ، يوم طرحت مسألة إنشائها على بساط البحث . فقد سفّه المؤتمر وقتئذ هذا المشروع الحيوي ، وكانت حجّته أن المسافرين سيصابون حتماً بالدوار ومثلهم السكان الذين سيمر بهم القطار ، وأوصى المؤتمر في حال إنشاء السكك الحديدية بإقامة حاجز من الخشب أو غيره يحول دون رؤية الجمهور للقطر وهي مندفعة تتلوّى كالأفاعي لئلاّ يؤثر هذا المشهد في أعصابه .

إني أنصح للّذين يؤمنون بالتطوّر التدريجي بأن يحتفظوا بآرائهم لأنفسهم ويدعوا لخدّام الأمّة المخلصين أن يؤمنوا لعرقنا وشعبنا أسباب النموّ ، بحيث يتاح له أن يغذّي أبناءه ويحفظ دمه نقيّاً وينهض لأداء الرسالة التي أراده الله على الاضطلاع بها .

في سبيل هذه الغاية ينبغي لكلّ ألماني أن يعمل جاهداً ولخدمتها يجب أن يجند الفكر وعلى ضوئها يتعيّن علينا أن ندرس أوضاعنا ومشاكلنا وأن نضع خططنا ومناهجنا .

عُدتُ إلى التعمّق في درس نظريات اليهودي كارل ماركس فأدركت هذه المرّة مرامي رأس المال كما حدّده هو ، وتبيّنت بوضوح ما تهدف إليه الاشتراكية – الديموقراطية من محاربتها الاقتصاد القومي : جعل مالية البلاد واقتصادها خاضعين لسيطرة الرساميل الدولية أي اليهودية .

كان المحاضرون يسمحون لنا ، من وقت إلى آخر ، بأن نناقش نظرياتهم . وحدث ذات يوم أن اشتركت في النقاش ، فانبرى لي أحدهم مدافعاً عن اليهود ، الماركسية محاربة ، إيمان استلفتنا الأنظار ، ولكنّي رددت عليه رداً

مفحماً حمل أكثرية الحاضرين على تبنّي وجهة نظري ، وبعد أيام ألحقني الرؤساء بثكنة أحد الفيالق المعسكرة في ميونيخ بصفتي مربّياً عسكرياً .

كان الانضباط ضعيفاً في ذلك الحين ، ولم تكن الطاعة واجبة فقد جعلها كورث إيزنر وأضرابه طوعيّة واختياريّة ، وكان عليّ أن أكافح هذه النزعة ولكن بتؤدة وحكمة ، كما كان عليّ أن أروّض الجنود على التفكير قومياً ووطنياً .

بدأت مهمّتي بحماسة وجذل . كيف لا وقد أتاح لي حسن طالعي أن أمتحن موهبتي كخطيب ومحدّث في حفل كبير ، وسرعان ما اكتشفتني محدّثاً بارعاً وخطيباً جهير الصوت ، قوي النبرة . ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إن جهودي كمدرّس أو مربّ قد كلّلت بالنجاح ، فاستطعت أن أعيد إلى حظيرة الوطن والشعب مئات من الجنود كانت الماركسيّة قد لقحتهم بمصلها الفتاك ، كما استطعت أن أعيد الانضباط إلى سابق عهده .

وخلال الفترة التي قضيتها مدرّساً عسكرياً تعرّفت برفاق يشاطرونني الرأي ، وبالاشتراك وإياهم وضعت فيما بعد أسس الحركة الجديدة .

الفصل الثامن
حزب الفلاح الألماني

تلقيت ذات يوم إيعازاً من رؤسائي بالسعي إلى معرفة حقيقة منظمة سياسيّة المظهر أطلقت على نفسها اسم « حزب الفلاح الألماني » وكان الحزب قد قرّر عقد اجتماع يخطب فيه غوتفريد فيدر .

لم يكن اهتمام الجيش بالسياسة والأحزاب السياسيّة في ذلك الحين مدعاة للعجب . فالثورة قد اعترفت للجندي بحقّ الاشتغال بالسياسة ، واستهواه هذا الحقل الجديد وخاض المعترك دون أن يكون مستعداً له . ولكن ما إن شعرت أحزاب الوسط والحزب الاشتراكي الديموقراطي بابتعاد الجيش عن الأحزاب اليساريّة ميمّماً وجهه شطر الحركة القوميّة والإنعاش القومي، حتّى عملوا على إعادته إلى عزلته السابقة وجرّدوه من حقّ الاقتراع وحقّ العمل في الحقل السياسي .

ولو لم يستبعد اليساريون الجيش من المعترك السياسي لما قيّض لهم ولحكومة تشرين الثاني أن يمدوا في أجل الخزي والعار الوطنيين . فالجيش كان قد سلك الطريق المفضي إلى إنقاذ الأمّة من الذين كانوا يمتصّون دمها ويتسابقون إلى خدمة الحلفاء داخل البلاد . وأدهى ما في الأمر أن الأحزاب ذات النزعة القوميّة قد عملت مع العاملين في سبيل إبعاد الجيش عن السياسة مفوتة على حركة الإنعاش القومي الإفادة من أداة للإنعاش قادرة وسليمة .

ويبدو أن هذه البورجوازية المصابة بالعقم العقلي قد جارت الماركسيين وحلفاءهم اقتناعاً منها بأن المطالبين بإعادة الجيش إلى عزلته إنما يريدونه درعاً للوطن مع أن هـــدف الماركسيين كان واضحاً : منع الجيش من شدّ أزر

الأحزاب ذات النزعة القوميّة ، والحؤول بالتالي دون نهوض العسكريين بالبلاد لتستردّ مكانتها تحت الشمس . ولست أذهب في الحكم على تسرّع الأحزاب القوميّة إلى حدّ القول إنها كانت تصدر عن اقتناع تامّ بأن جيشنا لا يصلح للعمل في الحقل القومي .

أثرت هذا الموضوع لمناسبة صدور الإيعاز إليّ بالسعي إلى معرفة حقيقة الحركة الجديدة ، حركة حزب الفلاح الألماني . وقد حرصت على حضور اجتماع الحزب لأسمع وأرى وأدوّن ملاحظات أستعين بها عند وضع تقريري.

لدى وصولي إلى حانة « سترنكر » في ميونيخ لم يكن في ردهة الاجتماع الفسيحة سوى عشرين رجلاً ينتمي معظمهم إلى الطبقة الكادحة في المدينة . أما محاضرة « فيدر » فقد جاءت تكراراً لما سمعته منه في السابق ، لهذا حصرت اهتمامي بمراقبة المستمعين . ولم يخامرني ريب وأنا أدخل المكان أن الحزب لا يختلف في شيء عن الأحزاب والحركات والمنظمات التي أبصرت النور عقيب الكارثة . ولم يتبدّل رأيي بعد انتهاء الاجتماع . فقد كنا في فترة قلق وارتباك ، وكان كلّ ألمانيّ يعدّ نفسه مؤهّلاً لقيادة الأمّة وإنقاذها من الفوضى التي كانت تتخبّط في بحرانها ، فكانت الأحزاب تقوم وتتوارى دون ما ضجّة لأن مؤسّسيها لم يشيّدوا البناء على أساس العقائد ولم يحدّدوا أهداف حركتهم .

هممت بالخروج حالما ترك فيدر المنبر ، ولكن العريف قدم « أستاذاً » لا أذكر اسمه فانبرى هذا يناقش آراء فيدر ويفنّد حججه . ولكنه تراجع في ميدان النظريات لينتقل إلى الحقل العملي ، فأوصى الحزب بأن يضمّن ميثاقه فقرة تشير صراحة إلى وجوب فصل بافاريا عن بروسيا ، وشدّد على أهمية هذه النقطة زاعماً أن النمسا الألمانيّة لن تعتّم أن تنضمّ إلى بافاريا عقيب حصول الانفصال . فاستفزّتني مزاعمه لطلب الكلمة ، ورددت عليه ردّاً أفحمه فانسحب من الردهة يجرّ أذيال الهزيمة قبل أن أنهي كلمتي . أمّا سائر الأعضاء فقد أصغوا إليّ باهتمام زائد ، وصافحني معظمهم مهنّئاً ،

وقبل براحي المكان دسّ أحدهم في يدي كرّاساً صغيراً وأوصاني بحرارة أن أتصفّحه . فتقبّلت الكرّاس بسرور لأنّه يوفّر عليّ مؤونة حضور اجتماعات الحزب لمعرفة حقيقته وتبيّن مراميه .

وفي الحجرة التي كنت أشغلها في ثكنة الفيلق الثاني رحت أقلّب صفحات الكرّاس وأنا أحسبه ميثاق الحزب الجديد أو قانون إيمانه ، فإذا هو فعل اعتراف عامل ألماني – لعلّه الرجل الذي دسّ الكراس في يدي – يتحدّث فيه ببساطة عما يسميه « يقظتي السياسيّة » ، وسرعان ما وجدتني منصرفاً بكليّتي إلى القراءة لأن الرجل مرّ بالمراحل التي مررت بها قبل اثني عشر عاماً وتدرجت نفسيته تدرّج نفسيّتي إلى أن بلغت المستقرّ ، فقد انضم الرجل إلى الحركة النقابيّة وضحى في سبيلها دون ما حساب ، ولكنه أدرك أخيراً أنّ الماركسيّة هي حرب على الوطن وعلى الفضائل والقيم ، وأن الألماني الحقيقي هو من يفكّر قومياً ويعمل في الحقل القومي واضعاً مصلحة الأمة فوق كلّ مصلحة .

وبعد أسبوعين انتهت إليّ بالبريد بطاقة تشعرني بأني قُبلت في عداد المنضوين تحت لواء حزب الفلاح الألماني وتدعوني إلى حضور اجتماع لجنة الحزب .

أدهشتني هذه الطريقة في جمع الأنصار ، وقرّرت تجاهل الدعوة والإشعار لأني كنت قد عقدت العزم على إنشاء حركة سياسيّة أكون أنا زعيمها ، فلا يعقل والحالة هذه أن أنضمّ إلى حركة قائمة بصفتي عضواً عادياً . وهممت بالكتابة إلى اللجنة معتذراً ، ولكن الفضول تغلب على ما عداه ، فصمّمت على حضور الاجتماع ومطالعة اللجنة بآرائي ومبادئي .

وفي الموعد المضروب توجّهت إلى نزل روزنباد مكان الاجتماع ، فأدخلت حجرة فسيحة توسّطتها مائدة يجلس إليها أربعة شبّان ، عرفت في أحدهم صاحب الكراس الذي صافحني بحرارة وقدّمني إلى رفاقه مطرياً وطنيّتي وسلامة تفكيري ، ثم دعيت إلى الجلوس ، وأفهمت أن المجتمعين ينتظرون قدوم رئيس الحزب . . . ووصل هذا بعد دقائق فعرفت فيه الرجل

الذي كان يرئس اجتماع الحانة قبل أسبوعين ، وقبل أن يبدأ الاجتماع بصورة رسمية عرفت من خلال الحديث أن الرئيس الأعلى يدعى هاريردان وأن رئيس فرع ميونيخ يدعى أنطون دركسلر .

تلي محضر الاجتماع السابق ، ثمّ تحدّث أمين الصندوق عن مالية الحزب فقال إن مجموع ما يملك هو سبعة ماركات ونصف مارك ، وإن الأمل كبير بمضاعفة هذا الرقم في القريب العاجل . فأعرب المجتمعون عن ثقتهم بأمين الصندوق وسجّلوا ذلك في المحضر .

وقبل الانتقال إلى جدول الأعمال تلا الرئيس ثلاث رسائل أعدّها جواباً على رسائل وردت إلى الحزب من برلين وكيل ودوسلدورف ، ثم تلا ثلاث رسائل جديدة واردة من المدن الثلاث ، فأبدى المجتمعون اغتباطهم الشديد بتبادل الرسائل واعتبروه دليلاً على نموّ الحزب وانتشاره في البلاد .

وأخيراً وصل المجتمعون إلى جدول الأعمال ، وكان في رأس القضايا قضية المرشحين للانضمام إلى الحركة . فسألني الرئيس : هل أنت مصمّم على التعاون معنا في حزب الفلاّح الألماني ؟ فأغفلت الإجابة عن السؤال ورحت أسأل بدوري عن مبادىء الحزب وأهدافه وأسسه الفلسفية ، وأسلوبه في العمل ، فجاءت الأجوبة مبهمة ، مطاطة ، وفهمت بعد لأي أن عدّة الحزب هي إرادته الحسنة ، فهو يعمل وليس له من وسائل الأحزاب المنظمة سوى الرغبة في العمل ، وقد اعترف لي الرئيس والأعضاء بأنهم لم يضعوا بعد منهجاً للحزب ، وأن حالة الصندوق لا تمكنهم من إصدار النشرات وإعداد بطاقات الانتساب وتوجيه الدعوات المطبوعة . أما غاية الحركة الجديدة فهي النهوض بألمانيا وبعث أمجاد السلف .

كانت الإرادة الحسنة العنصر الوحيد الذي يشفع بالحزب الجديد ويبرّر وجوده . فقد أدرك هؤلاء الشبان أن وطنهم الحبيب يقف على شفير الهاوية ، وأن الأحزاب القائمة غير مؤهّلة للقيام بعملية الإنقاذ ، فحزموا أمرهم على

إنشاء حركة منظمة غايتها رأب الصدع في الداخل والسعي إلى تحرير ألمانيا من قيود العبوديّة والذلّ .

وعندما عدت إلى الثكنة في ساعة متأخرة من الليل وجدتني حيال أدقّ مسألة واجهتها في حياتي : أأنضمّ إلى الحركة الجديدة أم أقاطعها ؟ وعشت أياماً نهب الاضطراب الفكري ، فالعاطفة تهيب بي أن أنضمّ إلى حزب الفلاح الألماني والعقل ينصح لي بالابتعاد عنه .

لو كنت من الذين يبدّلون طريقة تفكيرهم واتجاههم السياسي بمثل السهولة التي يبدلون بها ملابسهم لما ترددت طويلاً في الانضواء تحت لواء الحزب ، وعندما قرّرت مجاراة عاطفتي بعد صراع استمرّ أسبوعين ، ما كنت لأجهل أن القرار الذي اتخذته هو قرار نهائي ، وأن الحركة الجديدة هي بالنسبة إليّ خطوة نهائيّة وحاسمة . وقد كان في رأس العوامل التي أملت عليّ قراري اقتناعي بأنّ «حزب الفلاح الألماني» لفي حاجة ماسّة إلى من يرسم له طريق العمل ويقوده نحو أهدافه السامية ، وأن انضمامي إليه وهو بعد يتلمّس طريقه إلى النّور من شأنه أن يتيح لي تلقيح الحركة بالمبادىء التي أدين بها وتوجيهها التوجيه القومي الصحيح . ولكن أمؤهّل أنا لأداء هذه الرسالة ؟

لم يكن فقر الحال يشكل في نظري نقطة ضعف في كياني ولكن كيف السبيل إلى الخروج من دائرة المواطنين المغمورين ؟ ألست فرداً متواضعاً بين ملايين المواطنين ؟ ومتى كان الذين لا اسم لهم يتصدّون لقيادة الحركات السياسيّة في بلاد تغصّ بالقادة والزعماء ؟

لست ممن يعميهم الغرور . ومع هذا لم أجد في افتقاري إلى الشهرة حاجزاً يحول دون تقدمي الصفوف . أما درجة تحصيلي ، المتواضعة هي الأخرى ، فقد وضعت نصب عيني رفعها بانكبابي على الدرس والمطالعة ، دون ما حاجة إلى إحراز الشهادات العالية .

وهكذا انضويت تحت لواء حزب الفلاح الألماني كعضو موقت رقمه ٧ .

الفصل التاسع

أسباب الانهيار

عندما يسقط جسم ما فعمق السقطة يقاس بالمسافة بين وضعه الجديد والوضع الذي كان له قبل سقوطه . وهذه القاعدة يمكن تطبيقها على سقوط الشعوب والدول .

لقد كان انهيار الامبراطورية هائلاً حقاً لأنها سقطت من ارتفاع شاهق . والأمبراطورية التي سقطت لم تكن ثمرة ثرثرات البرلمانيين ودسائس رجال السياسة ، فقد قامت على سواعد الجنود وكانت ثمرة سلسلة من الانتصارات المجيدة والأعمال البطولية الخالدة .

أجل لم تكن الأمبراطورية وليدة المشاحنات والمبارزات الكلاميّة في البرلمان وخارجه . فقد مرت الفكرة في الرؤوس بينما كانت المدفعية تقصف باريس في الحرب السبعينية ، واختمرت من ثم ، فقرّر الألمان ، أمراء وشعباً ، تأسيس امبراطورية وجعل التاج الامبراطوري ، مجدّداً ، رمزاً للوحدة المقدسة .

لم تكن دولة بسمرك وليدة الاغتيالات ، ولم يكن لمحترفي السياسة يد في تحقيق هذا الحلم القومي الجميل . فقد حقّقته جحافلنا في ساحات القتال .

لقد أحاط هذا المنشأ مولد الأمبراطورية بهالة من المجد التاريخي ، وعندما بدأت ترقى معارج التقدّم والازدهار أيقن العالم ، وهو يرى إلى خطاها الثابتة ، أنها بالغة الذروة لتشرف على الدنيا من عل .

وفي كنف الامبراطورية نعم الشعب بالحرية والطمأنينة ورتع في البحبوحة . وتوفّر لألمانيا من معالم القوة والنفوذ جيش جبّار وحكّام أذكياء وشعب مؤمن بمقدّرات وطنه ومستقبل أمّته .

ومن القمة العالية سقطت الأمبراطورية الضخمة ، وانتاب الألمان ذهول شديد لهول الصدمة ، وباتوا عاجزين حتى عن تكوين فكرة عما كانت عليه بلادهم قبل الانهيار من قوّة وجمال وحسن تنظيم ، فكيف يرجى منهم أن يتبيّنوا بعد الانهيار العوامل والأسباب التي أدّت إليه ، والتي كانت تفعل فعلها البطيء في الصرح المتين الدعائم الراسخ الأركان ؟

ما أقلّ الألمان الذين لاحظوا في الوقت المناسب أعراض الانحلال . وأقلّ منهم الذين اكتشفوا موطن الداء وحاولوا مكافحته . لقد عجز المخلصون عن تدارك الصرح المنيف لأنهم خلطوا بين أعراض المرض وبين علّته . واليوم يجنح معظمنا إلى اعتبار الهزيمة وما جاء في أعقابها نتيجة منطقية لضعف جهاز البلاد الاقتصادي ، وهذا التفكير الأعرج لا تجده فقط في أوساط الفئات المحرومة التي تنظر إلى الأمور من خلال قضاياها المصلحية ، كالعمال مثلاً ، بل تجده في أوساط المتنوّرين الذين يعتقدون أن الهزيمة كانت هزيمة اقتصادية قبل أن تكون هزيمة عسكرية ، ويحاولون إقامة البنـاء الجديد على أساس اقتصادي سليم .

إن العامل الاقتصادي يجب أن يأتي في المرتبة الثانية أو الثالثة ، ففي رأس الأسباب التي أدّت إلى الانهيار نجد العوامل السياسية والمعنوية وعامل « الدم » . وعلى إدراكنا هذه الحقيقة يتوقف نجاحنا في تشخيص الداء ونجاحنا ، بالتالي ، في إيجاد العلاج الشافي .

وهكذا يبدو لنا التحرّي عن أسباب الانهيار الألماني أمراً عظيم الأهمية ، فينبغي لكلّ حركة سياسيّة أن تبدأ به نشاطها إذا كان هذا النشاط يهدف إلى محو عار الهزيمة بالتغلب على الهزيمة نفسها .

من التفسيرات الرائجة في أيامنا لانهيار الامبراطورية : علينا أن نتحمّل عواقب الحرب التي خسرناها ، فالأزمة التي نعانيها هي نتيجة الحرب الخاسرة . ولا ريب أنّ هناك مواطنين يأخذون بهذا التفسير عن حسن نيّة . ولكن

ما أكثر الذين يتعمدون تضليل الناس بتعليلهم حالة البلاد هذا التعليل العجيب . وإنك لتجد هؤلاء الخبثاء المخادعين في الأوساط الحكوميّة وفي البيئات التي تأكل على مائدة الحكومة .

لم ينسَ المواطنون بعدُ عتب دعاة الثورة من ماركسيين ويهود على الشعب الألماني لأنّه لم يشقّ عصا الطاعة والحرب في إبانها ليفوّت على « الرأسماليين » لذة الانتصار وفوائده . ألم يؤكد أولئك الثوريون الخونة أن القضاء على الروح العسكرية البروسية هو الضمان الوحيد للاستقرار والازدهار والحياة الحرة ؟ وبعد الكارثة رأيناهم يحمّلون الجيش تبعة الانهزام ويجهدون أنفسهم في ردّ ما تعانيه البلاد من متاعب ومشاكل خانقة إلى سبب واحد هو الهزيمة العسكرية .

لست أنكر أنّه كان لخسارتنا الحرب تأثير سيء على مستقبل شعبنا . ولكن هذه الخسارة لم تكن عاملاً مسبباً ، إنّما كانت نتيجة عوامل أخرى لا يجهلها الذين يحلو لهم اليوم أن يتجاهلوها لغرض في النفس . إن هؤلاء العارفين — المتجاهلين هم المسؤولون عن الانهيار لأن الهزيمة كانت ثمرة دسائسهم ولم تكن — كما يزعمون — وليدة سوء تصرف القيادة العسكرية . لقد جابه جيشنا الباسل جيوشاً تفوقه عدداً وعدّة ، واستطاع أن يلحق بها شرّ الهزائم طيلة سنوات أربع بفضل قيادته الحكيمة .

إنّ تداعي الجبهة الألمانيّة لم يسبب المحنة الحالية ، فقد كان وكانت نتيجة جرائم ارتكبها الذين يريدون أن يجعلوا من الجيش كبش المحرقة في وقت ترتفع الأصوات مطالبة بتحديد المسؤوليات ومحاكمة المسؤولين . ومتى كان يترتّب على الهزائم العسكرية مثل هذا الانهيار الكامل للدولة أو الأمّة ؟ ومتى كانت حرب خاسرة تعني هلاك الشعب الذي خسرها ؟

إن الشعب الذي ينتهي إلى هذا المصير هو من كانت هزيمته العسكرية النتيجة المنطقية لفساده وجبنه ونذالته ، أما عندما تكون معنويات الشعب وفضائله

سليمة فالهزيمة العسكرية تكون له بمثابة مقوٍ أو حافز يدفع به إلى الأمام ، وفي التاريخ أكثر من شاهد على صحة ما أقول .

كانت هزيمة شعبنا العسكرية مع الأسف قصاصاً أنزلته به العدالة الإلهية . وهذه الهزيمة تشكّل ظاهرة ملموسة تنمّ عن وجود تفسّخ تعامى المواطنون عن رؤية أعراضه، وقد افتضح أمره وتجلّى للعيان بأبشع صوره في الذهنية التي استقبل بها الشعب الألماني الهزيمة الشنعاء .

ألم يتلقّ الماركسيون والأوساط التي ضللها اليهود المختاتلون نبأ الهزيمة بمظاهر الفرح والابتهاج ؟ ألم يتبجّح بعضنا بأنّه صاحب «الفضل» أولاً وآخراً في انهيار الجبهة الألمانيّة وأن العدو لم يفعل أكثر من الإجهاز عليها ؟ ألم يحمّل فريق منّا ألمانيا تبعة الحرب وما جرّت إليه من ويلات ؟ إن الشعب الألماني قد تلقّى نبأ الهزيمة بعقلية لا تشرّفه ، وعلى هذا يمكن القول إنّه قد استحقّ القصاص الذي أُنزل به ، وإن الهزيمة لم تكن من فعل القدر ، لأنها لو كانت كذلك لواجهنا المحنة رابطي الجأش ولزخرت صدورنا بالحقد على العدو الذي انتصر بفضل غدر الزمن ، ولكانت الأمّة قد زحفت لاستقبال الفيالق لتشكر لها تضحياتها الغالية باسم الوطن ولتدعوها إلى الإيمان مجدّداً بمقدّرات الريخ .

أجل لو كان القدر هو المسؤول عن هزيمتنا لما وجد بيننا من يفرح بالمحنة ويرقص طرباً ، ولما تبجّح متبجّح وتشدّق متشدّق بأنّه ساهم في العمل على إضعاف الجبهة ، ولما راح الماركسيون والذين خدعتهم الماركسية يمجدون الهزيمة ، ويهينون الجيش العائد من الميادين ويدوسون أعلامه وألويته ! ولما كان للضابط الانكليزي ريبنغتون أن يقول : «من كلّ ثلاثة ألمان تجد ألمانياً خائناً» .

قلت وأعيد القول إن الهزيمة لم تكن سوى عرض من أعراض الداء الذي انتاب الأمّة في زمن السلم ، فقضى على مناعتها وأضعف تقاليدها ومعنوياتها

وشلّ منها غريزة حبّ البقاء وما يثيره من مشاعر . ولكن اليهود والماركسية التي تنفذ خططهم وتروج لمشاريعهم شاءوا أن يلقوا تبعة الكارثة على عاتق الرجل الوحيد الذي عمل جاهداً ، بما له من نفوذ وما يتحلّى به من سجايا ، في سبيل تجنيب الأمة الانهيار الكامل ، وهذا الرجل هو لودندورف .

لقد جرّدوا القائد الفذّ ، بهذه التهمة ، من السلاح المعنوي الوحيد الذي كان بإمكان البلاد أن تشهره في وجوه الخونة والمارقين ، لأن لودندورف « المتهم » بتضييع النصر لا يصلح شاهد إثبات يوم يحاسب كل امرىء حساباً عسيراً ، ويصار إلى تحديد المسؤوليات .

والماركسيون وأساتذتهم اليهود عندما أطلقوا كذبتهم الكبيرة كانوا يعلمون أن الشعب الألماني المضعضع الحواسّ لن يتبيّن بسهولة ما وراء هذه اللعبة ، وأن شيئاً من كذبتهم على الأقلّ سيظلّ عالقاً بالأذهان ، وهذا وحده كاف لبلبلة الأفكار وتحويل نظر الرأي العام عن المسؤولين الحقيقيين . وهذا التقدير الصائب قد بني على معرفة تامّة بنفسيّة الجمهور الذي يؤخذ دائماً بالكذبة الكبيرة لأنه ، وهو الحسن الظن بالناس، لا يصدق أن هناك أناساً يتعمدون قلب الحقائق وتشويه الوقائع بالأراجيف والإشاعات المضللة ، ويمعنون تجريحاً بكفاءة رجل كان ملء الأسماع والأبصار طيلة سنوات الحرب الأربع .

وإتقان الكذب « ميزة » من ميزات « الشعب المختار » . أليس كيان هذا الشعب قائماً على كذبة من العيار الثقيل هي زعم اليهود أنهم جماعة دينية ، مع أنهم في الواقع جنس وأي جنس ؟

لقد قال شوبنهور في وصف اليهود إنهم « أساتذة عظام في فن الكذب » . ولا ريب أن الرجل لم يظلمهم ، وكلّ ألماني في أيامنا ينكر هذا الواقع هو إمّا ساذج ، طيب القلب ، أو مخاتل ، جبان ، يريد التهرّب من المساهمة في إحقاق الحقّ وإعلاء شأن الحقيقة .

شاء حسن طالع شعبنا أن يتخذ الداء الذي كان ينهشه ببطء شكل كارثة

مفاجئة . ولو لم يتخذ هذا الشكل لأودى بحياة الأمة وهي في شاغل عنه .

أجل شاء حسن طالع شعبنا أن ينتابه مرض حادّ وأن تظهر أعراضه دفعة واحدة بدلاً من أن يفعل فعله ببطء في جسم الأمّة شأن الأمراض المزمنة . فتغلب الإنسان بسهولة على الطاعون وعجزه عن مكافحة السلّ لم يكونا وليدي الصدفة . فالطاعون يظهر بشكل وباء مخيف ، أما السلّ فإنّه يزحف ببطء . والطاعون ينشر الذعر والخوف ، أمّا السلّ فإنّه يعمل بصمت ويقابل بقلّة الاكتراث في أدواره الأولى . وقد رأينا الإنسان ينبري لأولهما ولا يضنّ بجهد في سبيل القضاء عليه ، كما رأيناه يتقاعس عن محاربة ثانيهما أو يبذل في هذا السبيل أيسر الجهود . وهكذا قلّم الإنسان أظافر الطاعون ، ولكنه لم يقوَ على الحدّ من خطر السلّ .

والأدواء التي تنتاب الشعوب هي إمّا حادّة أو مزمنة . فالداء الذي لا يتخذ شكل كارثة ينهش جسم الأمّة ببطء ، وتألف هي الآلام التي يسبّبها لها فتتقاعس عن محاربته وتكون نهايتها في آخر الأمر على يده ، أما الداء الحادّ فإنّه يحمل في ذاته ناقوس الإنذار ، فيدرك المصاب خطورة حاله ويبادر إلى الأخذ بأسباب العلاج . ويتوقف نجاحه في مكافحة الدّاء على اهتدائه إلى العوامل التي سبّبته .

ونحن في ألمانيا قد خلطنا ، عند تشخيص الداء ، بين العوامل المسبّبة والاضطرابات الناشئة عن الداء نفسه . فاعتبرنا أو اعتبر قادة الرأي فينا المشكلة الاقتصادية ــ الاجتماعية عاملاً مسبّباً مع أنها لم تكن سوى عرض من أعراض الداء الوبيل .

عندما بدأت ألمانيا تضيق بأبنائها الآخذ عددهم بالازدياد عاماً بعد عام ، استأثرت مسألة تأمين الخبز اليومي للمواطنين باهتمام المسؤولين وباتت الأساس الذي يبنون عليه سياستهم ، ولكنهم ، بدلاً من أن ينشدوا الخبز في أوروبا نفسها ، صرفوا النظر عن سياسة الفتح والتوسع ، ليعتمدوا نهجاً

يهدف إلى غزو العالم اقتصادياً . فترتب على هذا النهج توسّع في الإنتاج الصناعي لا ضابط له ، وكانت أولى عواقب هذا التوسع انخفاض مستوى الفلاحين وتضخّم عدد العمال في المدن الكبرى تضخّماً أدى بالنتيجة إلى اختلال التوازن بين عنصري الأمة المجيدين . وعقب هذه الظاهرة انقسام الأمة فئتين : الأغنياء والفقراء ، وقيام البحبوحة والعوز جنباً إلى جنب . وعرف الماركسيون كيف يستغلون الضائقة والبطالة فنفخوا في البروليتاريا روح التذمّر ، وغذوا صدرها بالحقد ، واستطاعوا أن يوسعوا الهوّة بين الطبقات .

وفي الوقت الذي كان الاقتصاد يقفز إلى مرتبة تجعل منه العمود الفقري للدولة ، كان المال يتربّع على عرش أقامه له عبّاده الأمناء ، بتشجيع من الرجل الذي كان مفروضاً فيه محاربة هذه النزعة والحدّ من خطرها . فقد ارتكب الامبراطور غليوم غلطة لا تُغتفر بتشجيعه النبلاء على الانصراف إلى الشؤون المالية ، ولو أنّه فكّر بالأمر ملياً لأدرك أنّ النبالة الموروثة ، نبالة الدم ، لن تلبث أن تتخلّى عن مكانها لنبالة المال ، لأن الصفقات المالية أقدر على اجتذاب النبلاء من المعارك الحربيّة .

وقد طرأ هذا التحوّل الخطير عندما بدأت الدسائس تحاك والمؤامرات تحبك في داخل البلاد وخارجها ضدّ الأمّة الألمانيّة الآخذة بالنموّ ، وظلّ النبلاء خدام الأمبراطورية بالأمس ، في شاغل عن الأخطار التي تتهدّد هذه الأمبراطورية ، لأن المال قد أخرجهم من ساح النشاط القومي النبيل ليجعل منهم مطايا لليهود في حقل الصفقات المالية .

وكان من مظاهر انحلال الاقتصاد القومي ذوبان الثروة العامة أو الدخل الأهلي بسبب مؤامرات الاحتكارات الدولية ودسائس الماركسيين . وقد حاولت الصناعة الثقيلة مقاومة التيار ولكن الماركسيين وضعوا حدّاً لمقاومتها بعد نجاح ثورتهم التي عقبت الأزمة العسكرية ، وهكذا استطاع أعداء الوطن تدويل الاقتصاد الألماني ، وكان آخر نجاح أصابوه في هذا الحقل انتقال شبكة

الخطوط الحديدية من ماكية الدولة إلى ملكية حملة الأسهم الدولية .

ولمّا تمّ للماركسيين واليهود ما أرادوا من تقويض دعائم الاقتصاد القومي ، انبروا بعد أن وضعت الحرب أوزارها يدعون إلى النهوض بألمانيا زاعمين أن القوى الاقتصادية في البلاد قمينة بإنعاشها ودفعها مجدّداً إلى الأمام . وقد تبنى الذين أداروا دفّة الحكم هذه النظرية العرجاء . بينما رأينا فرنسا المنتصرة تنصرف إلى تعزيز القيم المعنوية والفكرية إلى جانب عنايتها بالاقتصاد ، مع العلم أن وضعها الاقتصادي لم يكن عقيب انتهاء الحرب أفضل من وضعنا نحن.

• • •

من أعراض التفسّخ والانحلال التي ظهرت على الدولة الألمانيّة قبل الحرب انعدام السجايا التي كان يتحلّى بها آباؤنا وأجدادنا ، فقد توارى الحزم والإقدام والشجاعة الأدبيّة وكبر النفس ليحلّ محلّها التراخي والتردّد والجبن والزلفى ، ولا ريب في أن أساليب التربية هي المسؤولة عن هذا التفسّخ الخلقي ، لأنها أغفلت تقوية شخصية الفرد وجوهرتها لتحشو دماغه بالمعرفة .

وكانت عيوبنا الخلقية تتجلّى أكثر ما تتجلّى في مسلك رجالاتنا حيال الأمبراطور . فكلّ ما ينطق به صاحب الجلالة هو قول منزّل لا يقبل الجدل ، وهذه الزلفى هي التي أطاحت بألمانيا ولم توفر العرش ؛ فلو تُيّض للأمبراطور رجل دولة من وزن بسمرك ، يقول له لا ، لما كان لنا اليوم أن نلوم إلاّ القدر على عبثه بمقدّرات أمّتنا ؛ ولجاز لنا أن نحمّل سوء الطالع تبعة ما حلّ بنا .

إن الذين يحيطون بصاحب العرش هم في كلّ عصر ومصر عالة على العرش ، يستأثرون بعطاياه ويذهبون في تظاهرهم بالولاء له إلى حدّ تسمية أنفسهم « الملكيين » تمييزاً لهم عن سائر الرعايا . ولكن ما إن تنزل بولي النعمة نازلة حتى نجدهم في طليعة الناقمين عليه الكافرين بنعمته المحرّضين على الاقتصاص منه . وهل يرجى من المتزلّفين الزاحفين على الركب أن يفتدوا وليّ النعمة بأرواحهم ؟

إنّ المخلص الحقيقي للمتربّع على العرش هو من يبذل لجلالته النصح وينبهه إلى مواطن الزلل ويعمل جاهداً في سبيل إنقاذ الملكية مما قد تتعرّض له من جرّاء تصرّفات الملك أو الأمبراطور ، ذلك أن قيمة هذه المؤسسة لا ترتكز على شخص من يمثلها ، فليس أندر من أرباب التيجان المتحلين بالحكمة ، وبُعد النظر ، والسماء وحدها هي التي تقرّر وضع التّاج على مفرق بطل عبقري كفريدريك الكبير ، أو رجل متزن كغليوم الأول ، ولكن هذه النعمة لا تهبط من السماء إلاّ مرّة في كل مئة عام .

فالذين يصدقون صاحب العرش القول ويخلصون له النصح ويحاربون فيه الخفة والطيش وقصر النظر ، إنما يخدمون الملكيّة نفسها ويجنبونها المزالق الخطرة .

ما أقلّ الملوك الذين أدركوا هذه الحقيقة ،وما أكثر من ذهب منهم ضحية جهله إيّاها !

ومن زلفى الساسة وسوء التّربية المدنية تولّد مركب النقص في أوساط المعنيين بالشؤون العامة ، فصاروا يتهرّبون من المسؤوليّة ويتهيّبون الإقدام حيث يجب الإقدام . وساهم النظام البرلماني في تقوية هذه النزعة ، نزعة التهرّب من المسؤولية ، فقامت في البلاد حكومات تعوزها روح المبادهة ، إن هي عزمت على أمر جاءت تدابيرها عرجاء ، وإن واجهتها مشاكل وضعت لها حلولاً نصفيّة .

وقد كان للصحافة دورها الرئيسي في الابتعاد بالتّربية المدنيّة عن أهدافها السامية ، والصحافة كما هو معلوم هي مدرسة الرأي العام ومهمتها التوجيهية من أخطر المهام .

وقراء الصحف ثلاث فئات :

١ — الذين يصدّقون كلّ ما تطالعهم به الصحف .

٢ — الذين لا يصدّقون شيئاً ممّا تنشره الصحف .

٣ – الذين يمحّصون ما يقرأون .

والفئة الأولى هي أكبر الفئات الثلاث وتضم السواد الأعظم ، أي الفريق غير المتعلم من المواطنين وجميع الذين اعتادوا أن يدعوا للآخرين مهمة التفكير على أن يتلقّفوا هم ثمرة هذا التفكير ، مفترضين أن من يشحذ ذهنه ليطالع الناس بآرائه لا يمكن أن يصدر إلا عن إدراك للأمور وإحاطة تامّة بالمسائل .

ومن تحصيل الحاصل القول إن هذه الفئة التي لم تروّض نفسها على التفكير هي فريسة سهلة للصحافة التي تعتمد التهويل والتضليل سبيلاً إلى « تنوير » الجمهور ، ناهيك بسقوطها السريع في حبائل ناشري المبادىء اللاقوميّة من ماركسيين ويهود .

والفئة الثانية تضم عناصر كانت تنتمي إلى الفئة الأولى ولكنها انتقلت مع الأيام من الإيمان المطلق إلى الشكّ المطلق وأضحت لا تصدّق حرفاً ممّا يقال لها وتنظر إلى الصحف نظرها إلى وريقات لا همّ لناشريها سوى تضليل الناس والتلاعب بعواطفهم ومشاعرهم . وهذا الفريق من الناس لم يبق صالحاً لأي عمل إيجابي .

أما الفئة الثالثة فإنها تضم عدداً محدوداً من المواطنين الأذكياء الذين تؤهلهم مواهبهم لأن يفكّروا تفكيراً صحيحاً وأن يمحّصوا ما يقرأون ويميّزوا الغثّ من السمين . أليس من دواعي الأسف ألا يكون لهذه الفئة المستنيرة من الشأن والتأثير في مقدرات البلاد ما للأكثرية الجاهلة الخاضعة لتوجيه الصحافة ولمؤثرات هي في الغالب بعيدة عن الشعور القومي ؟

في أيّامنا تتحكّم بالبلاد الأكثرية الجاهلة « بفضل » ما يسمّونه نظام الاقتراع العام ، وقبيل الحرب أرسلت هذه الأكثرية إلى البرلمان رجالاً كانوا مغمورين قبل أن تجعل منهم الدعاوات الصحفية كواكب لامعة ، وقد رأينا ممثّلي الأمّة هؤلاء يكيدون لكلّ وطنيّ شريف ويهتمّون بحشو جيوبهم بينما كانت الشبيبة الألمانيّة تجود بالأرواح الغالية في ساحات القتال .

أليس من واجب الدولة ، بل أقدس واجباتها ، أن تحول دون سطو الموجهين المضللين على عقول السواد الأعظم من الشعب ؟ أليس من أقدس واجباتها أن تراقب الصحافة ذات التأثير القوي على الجمهور ؟ إنّ حريّة الصحافة شيء جميل ، ولكن هذه الحرية تصبح عاملاً من عوامل الفساد والإفساد إذا لم تمارس في الحدود التي ترسمها مصلحة الدولة والأمّة .

لم ننسَ بعدُ الموقف المخزي الذي وقفته الصحافة الألمانية قبل الحرب وفي أثنائها وبعد انتهائها . ألم تنشر الصحافة اليسارية — جارّة معها الصحافة كلها — الدعوة إلى إنقاذ السلام بأي ثمن بينما كانت الدول مجدّة في إعداد نفسها للحرب ؟ ألم تمجّد صحافتنا في مطلع القرن العشرين الديموقراطيّة الغربيّة وتدعو صراحة إلى إضعاف الدولة بتقوية شخصية الفرد ؟ ألم تساهم في محاربة تقاليد شعبنا المجيدة مزينة له الانغماس في الشهوات التي أضعفت مناعته الخلقية ؟

ألم تحارب مشروع التجنيد الإجباري وتحرض النواب على رفض الاعتمادات العسكرية في وقت كانت ريح الحرب تهبّ على أوروبا ؟

وهل نسي الذين يتباكون اليوم على مصير ألمانيا أنهم وصحافتهم قد لغموا الدولة من أساسها يوم عملوا على تجريدها من كلّ سلطة ؟

أما الصحافة الماركسية التي كان الكذب ، بالنسبة إليها ، ضرورة حيوية ، أليست مهمتها كسر سلسلة الشعب الفقرية بإضعافه اجتماعياً وقومياً ليسهل إخضاعه للرساميل الدولية ولليهود أسياد الماركسية ؟

ولكن ماذا فعلت الدولة لوقاية الأمّة ودفع خطر هذه السموم عنها ؟

لم تفعل شيئاً يستحقّ الذكر . مع أنها لو عقلت لأدركت في الوقت المناسب أن أعداء ألمانيا الألدّاء هم جماعة الدولية الثانية وأسيادها اليهود ، هم هؤلاء الذين أعملوا معاولهم في صرح الدولة فزعزعوا أسسها وفتنوا أخلاق الأمّة ومناقبها وأضعفوا مناعتها وقضوا على حيويتها وأخضعوا اقتصادها لرقابة غير

ألمانية وعوامل خارجية مصطنعة ، وبعد أن نزلت بها المحنة الكبرى انبروا لمحاربة كلّ نزعة قومية تهدف إلى النهوض بالبلاد وإزالة الوصمة عن جبينها .

أجل لم تفعل الدولة شيئاً مذكوراً يوم كانت الصحافة اليهودية والماركسية تخدر الأعصاب بالدعاوات السلميّة وتشلّ حيويّة الأمّة بالترويج للإباحيّة والرذيلة تحت ستار الدعوة إلى التحرّر . ولم يكن تراخي الدولة ناجماً عن جهلها خطورة هذه الدعاوات ومضارها بقدر ما كان ناجماً عن جبن المسؤولين وإحجامهم عن قطع رأس الأفعى . فقد قصر هؤلاء المسؤولون تدابيرهم الزجرية على وضع بعض الصحافيين الصغار في الإقامة الجبرية بضعة أسابيع ، أما الموجهون الحقيقيون فما تعرّض لهم أحد بسوء، ولعل الدولة كانت ترجو استمالتهم بالحسنى ، أو كانت تخشى التعرُّض للأفعى وهي قابعة في جحرها .

ولا بدّ من القول إنّ اليهود اعتمدوا في تسميم الأفكار تكتيكاً بارعاً أبعد عنهم الشبهات . فبينما كانت صحافتهم الماركسية تمعن تهديماً بكلّ ما هو عزيز ونبيل ، بينما كانت تعمل تجريحاً في الدولة والقومية وتستعدي الطبقات بعضها على بعض ، كانت صحافتهم البورجوازية – الديموقراطية تعالج القضايا معالجة موضوعيّة ، بأسلوب رصين ، بعيد عن العنف . ذلك أن اليهود ما كانوا ليجهلوا أن الرؤوس الفارغة تحكم على المظاهر ، وأن هذه الرؤوس التي اغترت دائماً بنعومة الشعب المختار وجنوحه إلى الهدوء والمسالمة ، لن تأخذ الكلّ بجريرة البعض لعجزها عن اكتشاف اللعبة المزدوجة .

كانت صحيفة « لا غازيت دو فرنكفورت » مثال الرصانة والاعتدال اليهوديين . وكان شعارها اللاعنف واعتماد المنطق وحده سلاحاً للإقناع . حتى إنها ما كانت لتتردّد في شجب الحملات الصحفية العنيفة وفي توجيه النصح إلى زميلاتها الماركسيات كلما اشتطّت هذه في نقد السلطات . ولكنها كانت تنبري للدفاع عن هذه الصحف باسم حرية التعبير عن الرأي كلما

عمدت السلطات إلى استعمال حقها في التعطيل أو في مقاضاة الصحافيين الذين تجاوزوا كلّ حدّ .

وكانت السلطات تعود عن قراراتها الزجرية أو الرادعة حرصاً منها على عدم إغضاب الصحافة « الطيبة » فتعود الصحف النهاشة سيرتها الأولى نافثة سمومها الفتاكة في جسم الدولة الآخذ بالانحلال ، وهكذا كان تنسّخ الأمبراطورية يبدو في تقاعسها عن اتّخاذ التدابير الكفيلة بحماية نفسها ، وكان الانهيار الخارجي نتيجة طبيعية للانحلال الداخلي .

• • •

ليس أكثر من الشواهد على ضعف الحكومات الألمانيّة وتقاعسها وقعودها عن الاضطلاع بالمهام المنوطة بها . فإلى جانب إغضاء حكومات ما قبل الحرب عن نافثي السم في الدسم من ماركسيين ويهود ووصوليين رأيناها تقف مكتوفة الأيدي حيال فتك الزهري والسلّ بالمواطنين ، وقد انتشر أولهما في المدن الكبرى انتشاراً هائلاً ، أمّا السلّ فقد عمّ البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكان سوء التغذية من عوامل ذيوعه وانتشاره .

وقفت ألمانيا حكومة وشعباً من داء الزهري الوبيل ، على الأخصّ ، موقف مَن لا يستطيع شيئاً حيال ما هو مكتوب . أما الجهود التي بذلت لمكافحة المرض فقد انصبّت على الأعراض الظاهرة بدلاً من أن تنصبّ على العوامل نفسها وفي مقدمتها البغاء الذي ما انتشر في بلد إلا كان مصير شعب هذا البلد إلى الفناء .

والبغاء معناه تشويه العلاقات الجنسية ومسخها بجعلها صفقة تجارية ، وانتشاره يعني تراخي العلاقات التي سداها ولحمتها الشعور الطبيعي والحبّ المتبادل لتسود الإباحيّة التي تمهر البلاد بأبناء الزنى أو بمواليد أحياء أموات . يكفي أن نلقي نظرة على أبناء النبلاء والبورجوازيين كي نقيس مدى الخطوة التي خطتها أمّتنا نحو الانهيار . فقد أصيب الآباء خلال ممارستهم العلاقات

الجنسية الحرّة مع المستخدمات اليهوديات في المحالّ التجارية والخانات والأندية – أصيبوا بالداء الوبيل فجاء أولادهم شهادة حيّة تفضح عيوب آبائهم وتبذّلهم واستهتارهم .

ماذا فعلت للدولة لدفع الخطر أو للحدّ منه ؟

لم تفعل أكثر من تشجيع المؤتمرات التي التأمت لدرس هذه الظاهرة الخطيرة من وجهة محض طبية . وقد كان عليها أن تكافح أسباب انتشار الزهري بادئة بالبغاء ، هذه التجارة اليهودية الرابحة ، على أن يرفق هذا التدبير بتجنيد الأقلام للعمل على تنوير الجمهور وفتح عينيه على الخطر الذي تصبح مكافحته واجباً قومياً ما دام يهدّد الأمّة كلها بالفناء .

وفي الوقت نفسه يصار إلى اتخاذ سلسلة من التدابير الأساسيّة الجريئة ضد الأوهام والعادات البالية والنظريات الرجعية التي تعتبر الخوض في موضوع العلاقات الجنسية ضرباً من الإباحية . ويحسن بنا أن نبدأ بتشجيع الزواج في سنّ مبكرة . فالزواج المتأخر هو أحد الأسباب التي يتذرعون بها للإبقاء على البغاء ، هذه المؤسسة التي تصم البشرية بالخزي والعار . ويخطىء من يظنّ أنّه يستطيع مكافحة البغاء بالمحاضرات الأخلاقيّة والعظات الدينيّة والإرادة الحسنة الخ . . .

فالقضاء على هذه الآفة الاجتماعيّة يتطلب خطّى عمليّة في مقدمتها الزواج المبكر الذي يتلاءم والطبيعة البشريّة ولا سيما طبيعة الرجل لأن دور المرأة في العلاقات الجنسية هو دور سلبي .

لقد أغفلت الدولة هذه الناحية كما أغفلت محاربة النزعة الرامية إلى تحديد النسل في بعض البيئات ، وقد فاتها أن الزواج ليس غاية بحدّ ذاته بل يجب أن يهدف إلى غاية سامية : حفظ النوع والجنس . فإذا لم يؤدّ إلى هذه النتيجة لا يبقى أي فرق بينه وبين البغاء .

من حسنات الزواج المبكّر أنّه يمهر الأمّة بذريّة قوية البنية سليمة

ولكن ينبغي للدولة قبل أن تشجّع على هذه الخطوة أن تؤمن للمواطنين المستوى الاجتماعي اللائق . وإنّنا لنلاحظ اليوم جنوح الجمهورية المزعومة « اشتراكية اجتماعيّة » إلى حلّ مشكلة المساكين بإقامة العراقيل في طريق الراغبين في الزواج دافعة بالمواطنين إلى بؤر البغاء حيث يتربّص بهم الزهري .

ويأتي في الدرجة الثانية تعديل مناهج التربية والتعليم .

ففي النظام التربوي الحالي نكاد لا نجد أثراً للرياضة البدنيّة التي أدرك آباؤنا دورها البارز في تنشئة جيل قوي روحيّاً وجسديّاً . وقد مرّت بنا قبل الحرب فترة نسينا خلالها أن العقل السليم لا يمكن أن نجده خارج الجسم السليم ، ورحنا نتعهد العقل بالرعاية اقتناعاً منّا بأن العقل هو الدعامة التي تقوم عليها نهضة الأمة . فلمّا انتشرت البلشفية في البيئات والأوساط التي لا مناعة خلقية لها تبيّن للمراقبين أن المبادىء الهدامة ما كانت لتلقى مثل هذا الرواج لو ألقيت إلى عقول سليمة في أجسام سليمة حقّاً . فالذين اعتنقوا المبادىء المتطرفة هم من المواطنين الذين حشيت أدمغتهم بالنظريات وفرغت بطونهم أو امتلأت ولكن بمواد تكاد تكون خلواً ممّا يساعد على نموّ الأجسام ، وبمهرها بالطاقة على مقاومة المغريات المادية والفكرية ، هذه الطاقة المعبّر عنها بالإرادة .

يضاف إلى هذا أن إغفالنا شأن التربية البدنيّة قد ترتّب عليه طغيان النزوات والغرائز الجنسية . ذلك أن الفتى الذي تجعل منه الرياضة صلب العود يظل أقدر على لجم الغريزة وكبح جماحها من فتى يلازم بيته وينكبّ على المطالعة. فكلّ نظام تربويّ يراد به مهر الأمّة بجيل صالح يجب أن يتعهد العقل والجسد معاً . وأن يعنى في الوقت نفسه بصون المناقب والأخلاق . فمنذ أن وضع اليهود والبلاشفة نصب أعينهم تقويض صرح الدولة الألمانيّة رأينا الرذيلة تنصب شراكها في طريق الشبيبة الألمانيّة كيفما اتّجهت وأنّى وجدت ، ورأينا عرش الإباحية والخلاعة ينتصب في دور العرض السينمائي والمرابع والحانات وحتّى في الساحات العامّة .

ماذا فعلت السلطات – سلطات ما قبل الحرب وسلطات اليوم – لإزالة الشراك المنصوبة ؟ لم تفعل شيئاً تاركة لرجال الدين محاربة الدعارة والفساد بأسلوبهم الخاص ، كأن رجال الدين هم المسؤولون عن سلامة الجيل ومصير الأمّة . فهل نعجب بعد هذا لتفشي التخنّث ولافتقار شبيبة اليوم إلى مقومات الرجولة الكاملة التي تحلّى بها آباؤنا ؟ وكيف يرجى من شبيبة هذا شأنها أن تهبّ للذود عن الوطن وأن تستميت في الدفاع عن مؤسساته وتقاليده وأن تغني تاريخ ألمانيا بأعمال بطوليّة مجيدة يجد فيها الجيل الآني زاداً روحياً وسلاحاً معنوياً ؟

وكيف لا ينتشر داء الزهري ناهشاً أجسام فتياننا وهم يتمرّسون بمباشرة العلاقات الجنسية في المواخير وبيوت الدعارة ؟

على من يتصدى لإلغاء البغاء أن يرفق هذا التدبير بخطوة أوسع نطاقاً هي القضاء على بؤر الفساد ومظاهر الخلاعة التي تثير الغرائز وتطلق النزوات من عقالها . فإذا لم نخرج الشبيبة الألمانيّة من المستنقعات التي تتردّى فيها ، فلن تعتّم هذه الشبيبة أن تغرق وتجرّ الأمّة في أثرها . وعلى المصلحين أن يطهّروا الحضارة الألمانيّة تطهيراً كاملاً يشمل المسرح والفن والآداب والسينما والصحافة ، فصحة شعبنا تتطلّب تدابير جذرية ، وسلامة عرقنا يجب أن تكون أولى برعايتنا من الحرية الفردية التي باسمها يدافع اليهود والماركسيون عن الإباحية والانطلاق .

ولكن التدابير التي ذكرت ليست قمينة ، في حال تنفيذها ، بالقضاء على داء الزهري القضاء المبرم . فلتحقيق الغرض لا بدّ من القيام بخطى حاسمة . أليس إجراماً بحقّ الأمّة والعرق أن ندع المصابين الذين لا يمكن إنقاذهم يمارسون العلاقات الجنسية ناقلين العدوى إلى الأصحاء ؟ ألا يوازي هذا التساهل الشعور الإنساني السخيف الذي يجعلنا نسمح بهلاك مئة إنسان في سبيل دفع الإساءة عن فرد واحد ؟

إن الحؤول بين المصابين الذين لا يرجى شفاؤهم وبين مهر الأمّة بنسل

فاسد ، هو تدبير إنساني حكيم ما دام يهدف إلى التضحية بالبعض في سبيل المجموع وما دام يفضي بالتالي إلى قطع دابر الداء الوبيل .

أجل يجب منع المصابين بالزهري المزمن من ممارسة العلاقات الجنسية ، وهذا لا يكون بسنّ القوانين التي تحظر عليهم هذه الممارسة تحت طائلة العقوبات ، ولا بإخضاع الراغبين في الزواج للمعاينة الطبيّة ، فقد اعتمدت حكوماتنا هذا الأسلوب وقتاً غير قصير ، ولكنه لم يؤت ثماره لأن الاحتيال على القانون من جهة وتواطؤ الأطباء مع المصابين من جهة أخرى ، كان أقوى من الدولة ومن قوانينها . فالمنع المجدي هو الذي يقوم على عزل المصاب بالقضاء على طاقته التناسليّة ، وهذا التدبير الذي يبدو بربريّاً بحقّ جيل قمين بإنقاذ أجيال وصون حيويّة أمّة .

• • •

ومن أعراض التفكّك والانحلال التي ظهرت على الأمبراطورية قبل الحرب انزلاق الثقافة نحو مستوى خفيض وذلك بفعل المؤثرات الدخيلة ولا سيما ما كان منها خاضعاً لتوجيهات اليهود . ومنذ مطلع القرن طرأ على الفنّ تحوّل خطير أبعده عن قواعده المدرسية وأخضعه لأهواء نفر من المصابين بانحرافات فكرية هي ولا شكّ وليدة المؤثّرات التي ألمعت إليها .

ولو اكتفى الفنانون والمفكرون اليهود والبلاشفة بالتجديد والابتكار لهانت المصيبة ، ولكنهم انبروا للحطّ من شأن تراث ألمانيا الفكري وللهزء بكلّ ما أجمعت الأمّة على تقديسه. لقد سخروا من شيلر وغوته وشوبنهور وهيغل وغيرهم ، وتعمدوا تشويه مآثر فريدريك الكبير والاستهانة بعمل بسمرك . لقد أرادوا بهذا أن يقطعوا كلّ صلة بين الماضي والحاضر ، وفي الوقت نفسه جعلوا من الأدب الرخيص والفن الإباحي بضاعة سهلة التناول ، وما لبثت هذه البضاعة أن طردت من السوق الأصناف الجيدة وغصّت واجهات المكاتب وجدران المتاحف بمنتجات لا أثر فيها للفكر والفن .

يقتصر التفسّخ على هذه الناحية ، بل تعدّاها إلى حياة الأمّة الروحيّة .
فقد أدرك البلاشفة وأسيادهم اليهود أنّ أمّة متديّنة عن إدراك أو عن إيمان هي أمنع من أن تسلم قيادها للمغامرين الدوليين . فشنّوا على الدين ورجاله حملة مركزة تحت ستار الدعوة إلى تقديس حرية المعتقد ، وترجموا إلى الألمانيّة مؤلّفات أجنبيّة لا يجوز أن تلقى بين أيدي المثقّفين فكيف بسواد الشعب ، وقد رأينا رجال الكنيستين في شاغل عن هذا العمل التهديمي داخل البلاد بتسابقهم إلى هدي زنوج افريقيا ، هذا التسابق الذي أسفر عن نتائج جدّ متواضعة بالنسبة إلى النجاح الباهر الذي صادفه الإسلام في تلك البقاع .

لقد ترك رجال الكنيستين خرافهم بدون راعٍ يدفع عنها خطر الذئاب ، فكانت النتيجة تزعزع إيمان آلاف المواطنين وتضاؤل شأن الوازع الديني .

ومن تحصيل الحاصل القول إن سواد الشعب لا يتألف من الفلاسفة ، وإن إيمانه هو الرباط الوحيد الذي يشدّه إلى الكنيسة التي ترعى شؤونه الروحيّة . وقد أدرك أعداء الأمّة هذه الحقيقة ولغموا إيمان السواد بما نثروه حول الدين من شكوك ، أمّا غايتهم فقد كانت القضاء على الوازع الديني والمناعة الخلقيّة اللذين يقيان المرء مواطن الزلل ويبقيانه بعيداً عن متناول المبادىء الهدّامة والتيارات الإباحية .

• • •

تجلّى التفكّك والانحلال كذلك في الحقل السياسي . فقد كانت الحكومات ترتجل مشروعاتها في الداخل والخارج دون أن يكون لسياستها هدف معين . ولعلّ المسؤولين قد اتّخذوا من تعريف بسمرك للسياسة دستوراً لهم. ألم يقل المستشار الحديدي إن السياسة هي « فن العمل في حدود الممكن » ؟ ولكن بسمرك لم يفهم السياسة أنّها تخبّط وارتجال . فقد أراد بقوله ذاك أنّه ينبغي للسياسي أن يلجأ إلى شتى الإمكانات في محاولته بلوغ هدف سياسي معين . أمّا مستشارو هذه الأيام فقد اعتبروا قوله تحريراً لهم من قيود المبادىء والأهداف

فتركوا الرياح تتلاعب بالسفينة واكتفوا بمراقبة الاتجاه .

لقد أدرك العقلاء والمخلصون ــ وذلك قبل نشوب الحرب ببضع سنوات ــ أن أضعف نقطة في جهاز الدولة هي المؤسسة التي أريد بها تقوية الصرح : البرلمان أو الريشستاغ . ففي هذه المؤسسة اجتمع الجبن والتهرّب من المسؤوليات وانتصب عرش للثرثرة الفارغة .

ولا يظلم أحد البرلمان إن هو حمّله تبعة انعدام الانسجام في سياسة الدولة وتبعة عدم الاستقرار وارتجال الخطط والمشاريع والتدابير : هذه العوامل التي تُعدّ في طليعة الأسباب التي أدّت إلى انهيار الأمبراطورية .

ففي كلّ خطوة خطتها الحكومات وجاءت ناقصة تبرز للعيان مسؤوليّة البرلمان وإهماله ولا أقول خيانته .

لقد كانت مرتجلة وضعيفة سياسة المحالفات التي نهجتها الأمبراطورية .

مرتجلة وضعيفة كانت سياستنا حيال بولونيا . فقد أثرنا المسألة أكثر من مرّة دون أن نتصدّى لمعالجتها معالجة جدّية وفعّالة . أمّا النتيجة التي أردناها انتصاراً للجرمانيّة أو تفاهماً مع بولونيا فقد جاءت لا هذا ولا ذاك ، جاءت تباعداً بيننا وبين روسيا .

عرجاء كانت الحلول التي وضعناها لمسألة الألزاس واللورين . فبدلاً من أن نسحق الغول الفرنسي بضربة واحدة ونعترف للألزاس بالحقوق الممنوحة لباقي دويلات الريخ ، رحنا نداري الغول وتجاهلنا أماني الألزاسيين ، كلّ هذا لأنّ في صفوف أحزابنا السياسية الكبرى أكبر الخونة وأحتر المارقين .

ولكن هذا كلّه ما كان ليشقّ على النفس لو لم يكن من ضحايا السياسة المتردّدة ، الحائرة ، الأداة الوحيدة التي يتوقّف مصير الأمبراطورية على بقائها سليمة : الجيش .

لقد رأينا الأحزاب البرلمانيّة تجرّد الأمّة من السلاح الذي شحذته للدفاع عن كيانها ، وصون حريتها واستقلالها وتأمين خبزها . ولو فتحت اليوم مقابر

سهول الفلاندر لخرج من الأكفان مئات الألوف من الشبان ليتهموا بالخيانة أعضاء البرلمان الذين دفعوا بهم إلى أشداق الموت جنوداً غير مدربين .

ذلك أنّه بينما كانت اليهوديّة العالميّة تهاجم في الصحافة الماركسيّة والديموقراطيّة ما سمته « الروح العسكرية الألمانيّة » محاولة تحميل ألمانيا سلفاً تبعة الحرب . كانت الأحزاب الماركسيّة والديموقراطيّة عندنا تصوّت في البرلمان ضدّ تدريب القوى الشعبيّة تدريباً كاملاً .

فهزيمة ألمانيا هي إذن نتيجة منطقية لتخاذل المسؤولين في زمن السلم وتردّدهم في حشد قوى الشعب استعداداً لمعركة أرادها العدو حرباً انتقاميّة وأردناها نضالاً في سبيل حرية شعبنا واستقلاله .

لم يقتصر إهمال التدريب والإعداد على جيش البرّ بل تعدّاه إلى الأسطول الذي لم يلقَ من العناية القدرَ الكافي . مع أن ساستنا وقادة أسطولنا قد أدركوا منذ العام ١٩٠٤ أن إنكلترا الدولة البحريّة الأولى ستكون في معسكر خصومنا .

وقد كان على قيادة الأسطول الألماني أن تجعل من القوّة البحرية سلاحاً قوميّاً ذا شأن وخطر بدلاً من أن توصي الترسانات بصنع سفن صغيرة الحجم في وقت كانت الترسانات الانكليزيّة تصنع السفن الكبيرة . ودللت القيادة في الوقت نفسه على قصر نظرها بإغفالها العمل على تقوية سلاح سفنها وزيادة سرعتها ومرونتها ليتاح لها أن تنازل بنجاح عدوّاً يفوقها عدداً وخبرة . وقد رأينا زيادة سرعة السفن الألمانيّة تتمّ على حساب تصفيحها ، كما رأينا المسؤولين يعزّون أنفسهم بكون مدافع السفن الألمانيّة عيار ٢٨ توازي مدافع السفن البريطانيّة عيار ٣٠ ، مع أنّهم لو كانوا أبعد نظراً لجهّزوا السفن بمدافع عيار ٣٠ لأن المهمّ هو التفوّق وليس مجاراة العدوّ .

ودللت القيادة البحرية منذ اللحظة الأولى على رغبتها في ترك المبادرة للعدوّ عندما حرصت على أن تكون سفنها صالحة للأغراض الدفاعيّة . وهكذا تكون قد تنازلت مقدّماً عن النصر النهائي الذي لا يمكن أن يكون إلاّ ثمرة الهجوم .

في معركة سكاجراك البحرية كانت الغلبة للأسطول الإنكليزي . ولو كان لسفننا حمولة سفن العدوّ وسلاحها وسرعتها لتمت لها الغلبة بفضل المدافع عيار ٢٨ . وقد كان على القيادة البحريّة الألمانيّة أن تتأثّر خطى زميلتها اليابانيّة في هذا المضمار . فقد جابهت اليابان كلّ سفينة روسيّة في بور أرثور بسفينة تفوقها سرعة وحمولة وسلاحاً .

• • •

لم ترتكب قيادة الجيش أي خطإ تقديري، لا لأنها كانت تتحلّى بالكفاءة اللازمة فحسب ، بل لأنها لم تتأثّر بآراء البرلمانيين « الخنفشارية » . أما الأسطول فقد أُخضع إنشاؤه وتطوّره من ثمّ لتوجيهات البرلمان، وبلغ من حرص الحكومة والقيادة على التقيّد بهذه التوجيهات أنّهما سمحتا للبرلمانيين بالتدخّل في الشؤون العسكرية البحتة وفي تعيين القوّاد ومعاونيهم وتحديد حمولة السفن وسرعتها .

أمّا الجيش فقد تدارك الأمر في الوقت المناسب وعزل نفسه عن التيارات البرلمانيّة المضادّة لمصلحة الأمّة والوطن . وكان لودندورف ، وهو بعد كولونيل ملحق بأركان الحرب العامّة ، يقود حملة يائسة ضدّ أنصاف الحلول وسياسة التقتير في الإنفاق على التسلّح . ولئن يكن لودندورف قد عجز عن قيادة السفينة حتّى النصر عندما آلت إليه مقاليد القيادة ، فالذنب في هذا الإخفاق ليس ذنبه ، بل يجب أن يُسأل عنه البرلمان والمستشار الضعيف بتمان هولويغ .

بيد أنّ هذا لم يمنع المسؤولين الحقيقيّين عن الهزيمة من اتّهام الجيش وقائده الفذّ بالتقصير والإهمال ، وقد بدأ هجومهم المركز على لودندورف في مطلع ربيع ١٩١٨ ثمّ وسعوا نطاق الهجوم متعمدين إثارة الشكوك حول مسلك الأمبراطور وحكومته ؛ وما إن اشتدّ ضغط الجيوش المتحالفة في الميادين حتّى انبروا ينشرون الفضائح في طول البلاد وعرضها ، ويبرزون أخطاء الحاكمين ، محرّضين السواد على الانتقاض والقوى المسلحة على التمرّد والعصيان ، بينما

كان أعداء ألمانيا يطوون فضائحهم وينكرون حتى مجرّد وجودها .

وقد كان على المسؤولين أن يحبطوا مؤامرة الأعداء الداخليّين ودسائسهم ، وذلك إمّا بمصارحة الأمّة بالحقائق أو بتكذيب الإشاعات تكذيباً قاطعاً . ولكن المسؤولين ما آمنوا قطّ بالدعاوة كي يعتمدوها سلاحاً يحاربون به العدوّ داخل البلاد وخارجها . وإذا قيل إن الصراحة التي اشتهر بها شعبنا تأبّى عليه اللجوء إلى التمويه والتضليل ولو من أجل غاية نبيلة ، فلست أجد عذراً للحكومة في إغفالها إبراز صفات شعبنا وسجاياه كخطوة مضادّة لإبطال مفعول الدعاوات الضارّة التي كانت تتعمّد إبراز عيوبنا .

والواقع هو أن الشعب الألماني كان خلال السنين العشر التي سبقت نشوب الحرب العالميّة في طليعة الشعوب الأوروبيّة تحسّساً بالقوميّة وأبعدها عن السقوط في حبائل المغامرين الدوليّين . فالاقتصاد الألماني استطاع الحفاظ على طابعه القومي أطول مدة ممكنة ، ولم يكن خضوعه في النهاية لإشراف الرساميل الدوليّة إلاّ خضوعاً جزئياً ، وكان تمرّده هذا أحد العوامل التي سبّبت نشوب الحرب .

ولئن يكن الشعب قد ابتعد بعض الشيء عن البيت المالك لقعود الأمبراطور والأمراء على مجاراة التطوّر والتبدّل الذي طرأ على ذهنيّة الرعيّة ، فقد ظلّ المستوي على العرش رمز الوحدة الوطنيّة والحكم المجرّد بين الأحزاب واليد القادرة على لجم النزوات وكبح جماح الأهواء السياسية . ولم يكن للجمهورية أنصار ذوو وزن وخطر ، لأن تجربة الجيران (فرنسا) لم ترق نتائجها في عيني شعبنا المحبّ للاستقرار ، المعجب بتنظيم إدارة بلاده ، المؤمن بنزاهة السلطة المهيمنة وبكفاءة موظّفيها .

كان الجيش في طليعة المؤسسات التي توحي الثقة والاطمئنان بالرغم من أعراض الضعف والانحلال التي ظهرت على الدولة . ولأنّه كان الدّعامة المتينة للبنيان القائم انصب عليه حقد الأعداء واستهدفته دسائسهم . وعندما اجتمع المتآمرون الدوليون في فرساي اختلفوا على أمور كثيرة ولكنهم

أجمعوا على ضرورة تصفية الجيش الألماني لا لشيء إلا لأنه سياج الوطن وحرياته وعنوان مجده وفخاره .

ولولا هذه القوة التي تحمينا لما تلكأ أعداؤنا في تطبيق أحكام معاهدة فرساي نصاً وروحاً مما يوازي القضاء على شعبنا قضاءً تاماً . فنحن مدينون للجيش بكل شيء .

كان الجيش يجسد معنى المسؤولية في زمن بات التهرب من المسؤولية شعار الحكام ، وكان ينفخ في المواطنين روح الشجاعة والإقدام في وقت كان الجبن ينتشر انتشار الوباء ، وروح التضحية تعتبر فضيلة الأغبياء ، وحب الذات رأس الحكمة . . . وبينما كان الماركسيون والديموقراطيون يهيبون بالأمة أن تنشد السلام بالتآخي مع الزنوج والصينيين والفرنسيين والإنكليز الخ ، كان الجيش يهيب بها أن تتأهب لمواجهة الخطر الداهم وأن تعد عدتها لليوم العصيب .

وقد رأينا الجيش راسخاً كالطود في مهب التيارات الفكرية المتضاربة ، فعبثاً حاول الماركسيون تحويل الجيش عن مثله الأعلى : الوطن ، وباطلاً أجهدت الدعاوة اليهودية نفسها في فتح ثغرة في هذا الجهاز القومي المتماسك ، أما نقطة الضعف الوحيدة في الجيش فقد كانت إخضاع المتعلمين للخدمة القصيرة الأمد (سنة واحدة) مما قضى على مبدإ المساواة في مؤسسة مثالية يلتقي فيها المواطنون كافة على صعيد الوطنية ونكران الذات .

أجل كان الجيش مدرسة الأمة الألمانية ، وسلاحها الأمضى ، وقوتها المعنوية الهائلة . ولئن يكن فريق من الألمان قد جهل هذه الحقيقة أو تجاهلها لغرض في النفس ، فالعالم الخارجي قد أدركها وأقام سياسته حيالنا على أساسها .

وإلى جانب الجيش كانت تقوم دعامة أخرى هي هيئة موظفي الدولة . فقد كانت ألمانيا في طليعة البلدان تنظيماً وإدارة ، وكان الموظفون مضرب المثل في دقتهم وتجردهم وترفعهم .

كان يحلو لمن يأكل صدورهم الحسد أن يعيبوا على الموظف الألماني عجزه عن إدارة المشاريع ذات الطابع التجاري . ولكنّ نجاح الدولة الألمانيّة في استثمار السكك الحديدية قد وضع حدّاً لهذه الخرافة . وإذا كانت إدارة الاستثمار قد ساءت بعد الهزيمة فمردّ ذلك إلى سياسة التوظيف التي اعتمدتها سلطات الجمهورية ، والتي قضت بإبعاد الأكفاء وإحلال المحاسيب محلّهم .

من ميزات الجهاز الإداري الألماني أنّه كان مستقلاً استقلالاً تامّاً عن الحكومات ، بحيث لا يتأثر وضع الموظف بتبدل الوزارات ونزعاتها السياسيّة وبرامجها وتوجيهاتها . أما اليوم فوضع الموظف قلق ، غير مستقرّ ، والوظائف ليست وقفاً على الأكفاء : فالجمهورية تريد أن تكافىء خدامها وأنصارها ، وكلّ حزب يريد أن يختصّ أعضاءه وأنصاره بالوظائف المفاتيح .

لم يكن لهذا الإيثار وجود في العهد الأمبراطوري الذي كان يعتبر الوظيفة تكليفاً لا تشريفاً ، ولكنّه عرف دائماً كيف يقي الموظفين شرّ المغريات بما كان يحوطهم به من حصانات وما يوفره لهم من أسباب الطمأنينة والرفاهية . أما اليوم فالوظيفة أداة للمساومة وباب من أبواب الارتزاق ، والموظف الناجح هو من يلبس لكلّ حالة لبوسها ، ويجاري كلّ تيّار ، ويحنظ رأسه عند تغيير الدول .

أمّا تغلغل اليهود في الدوائر فحدّث عنه ولا حرج . ومتى قلنا اليهود نكون قد عنينا الرشوة والفساد والإفساد .

• • •

على النظام الملكي والجيش وجهاز الإدارة السليم كان يرتكز هيكل الأمبراطورية الجبار ، ومن هذه العناصر مجتمعة كانت الأمبراطورية تستمدّ قوّتها وهيبتها وتمارس سلطة الدولة ممارسة فعليّة . فأين نحن اليوم من هذا كلّه ؟

إن سلطة الدولة لا تقوم على ثرثرات البرلمانيين ، ولا تُستمدّ من القوانين التي تفرض احترام السلطات ، ومن أحكام القضاء التي تهدف إلى إرهاب الذين يتجاهلون سلطة الدولة أو يرفضون الاعتراف بها . إنها تقوم على الثقة

بالذين يمسكون بالدفة ويديرون الشؤون العامة . وهذه الثقة تكون وليدة الاقتناع بصدق وطنية السلطات وتجردها كما تكون وليدة الارتياح العام إلى نظام الحكم القائم وشرائعه وإلى المبادىء التي يسترشد بها .

من حق القارىء أن يتساءل ، وقد أوضحت له أن الأمبراطورية كانت تقوم على ثلاث دعائم متينة ، كيف كان الانهيار إذن ؟ وهل كانت عوامل التفسخ والانحلال من القوة بحيث جرف إعصارها عوامل الاستقرار التي كانت تجعل من ألمانيا دولة مثالية ؟

إن عوامل التفسخ والانحلال التي عـددتها في هذا الجزء من كتابي ما كانت لتطيح بالأمبراطورية ومؤسساتها (مع بقاء عوامل الاستقرار سليمة) لو لم ينضم إليها عامل رئيسي يكمن وراءها جميعاً ، وهذا العامل هو إغفال مسألة الأجناس وأثرها البارز في نمو الشعوب وتطورها التاريخي .

إن الألمان الذين لم يفقدوا الإيمان بمقدرات وطنهم وأمتهم قبيل الكارثة وبعد وقوعها قد أدركوا ولا ريب أن الحوادث التي تعترض سير الشعوب ليست دائماً من فعل القدر ، وأن ما حل بشعبنا كان نتيجة طبيعية لأخطاء ارتكبناها في محاولتنا الدفاع عن حقنا في الحياة كأمة مستقلة عزيزة الجانب . وقد تساءلت أنا مع المتسائلين : كيف استطاع أجدادنا التغلب على الهزيمة ونتائجها ؟ وهل نكون نحن غير جديرين بالأمجاد التي خلفها لنا السلف ؟ وإذا كان ذلك كذلك أفلا يعني هذا أن الدم الذي يجري في عروقنا هو غير الدم الذي كان يجري في عروق أجدادنا العظام ؟

ومن هنا كان اقتناعي بأن جيلنا قد تلقى تلك الصفعة الأليمة لأنه لا يتحلى بالفضائل التي تحلى بها الأجداد ، وأن ابتعاده عن الجادة التي رسمها له تاريخ الأمة الألمانية الحافل بالأمجاد ليس وليد الصدف ، إنما هو نتيجة محتومة للنهج الذي اعتمده في سعيه إلى حفظ النوع وتأمين استمرار الجنس . وسنرى في فصل آت كيف أن الاختلاط في حقل التناسل ليس دائماً في

مصلحة العرق المتفوّق، فالدم الآري الذي كان يجري في عروق أجدادنا كان آرياً صرفاً ، فهل نستطيع الجزم بأن ما يجري في عروقنا هو دم آري صرف ؟

يجد القارىء الجواب في فصل آت . وقد يجده من تلقاء نفسه إن هو أنعم النظر قليلاً في حالة ألمانيا قبل نشوب الحرب ، وراقب تطوّر الأحداث الداخليّة . ألم يكن من دواعي الدهشة والاستغراب أن يزداد عدد النواب الماركسيّين بعد كلّ انتخاب ، وأن يجدّد الشعب الألماني ولاية الذين عملوا على إضعاف الجيش والأسطول وحاربوا مبدأ الخدمة العسكرية الطويلة الأمد ، ورفضوا إقرار الاعتمادات الضخمة التي رصدتها الحكومة للتسلّح ؟

أيعقل أن يضع الشعب الألماني يده في أيدي أعداء نهضته ، وأن يشدّ أزر الذين تطوّعوا لإفقاره وإذلاله ؟

ومتى كان الألماني ، الألماني الحقيقي ، يضحّي بمصالح أمّته في سبيل مبدإ هوائي كالسلام العام هو من مبتكرات اليهود والماركسيّين؟ أكاد أجزم بأن الذين مكنوا الماركسية وجعلوا أنفسهم مطيّة لليهود ولمحترفي السّياسة لا يمكن أن يكونوا مواطنين يجري في عروقهم الدم الألماني النقي .

أمّا الانتفاضة الأخيرة التي انتفضها شعبنا في العام ١٩١٤ ، فقد حملته عليها غريزة حبّ البقاء ؛ لأن السموم الماركسية قد شلّت منه الإرادة ؛ فمشى إلى لقاء أعدائه وهو ضعيف الإيمان بالنصر ، وجـاءت الهزيمة توقظه من سباته وتقضي على مفعول المخدر ، ولكن الثورة قطعت على عناصر البعث والنهضة الطريق ، فلم يبقَ أمام هذه العناصر إلا أن تعمل على هامش العهد الجديد لإنقاذ شعبنا من براثن المضللين المفسدين . وعلى وضع الأسس السليمة التي يجب أن يقوم عليها صراع الدولة الجديدة، الدولة الجرمانية للأمة الألمانيّة ، حيث يسود العنصر المتفوّق، ولا يفسح في مجال النشاط البنّاء لغير الآريين الحقيقيين.

ولن يكون لليهودي وصنيعه الماركسي مكان في الدولة الجديدة وفي كنف النّظام الجديد .

هتلر والأجناس

الفصل العاشر

الشعب والعرق

هناك حقائق تطوف الأسواق ليل نهار ، ولأنها تطوف الأسواق تمرّ بها عامة الناس دون أن تبصرها أو هي تبصرها ولا تعرفها . وعامة الناس تتعامى في الغالب عن رؤية الحقائق الصارخة ، ويتملّكها العجب إذا اكتشف أحد الناس ما يفترض في الجميع معرفته . إنّ آلاف المسائل القائمة حولنا معظمها بسيط ، ميسور الحل كبيضة كولومبوس . ولكن قلائل جداً هم الرجال الذين نجدهم حولنا من طراز كولومبوس .

هكذا نرى البشر دون ما استثناء ، يتنزّهون في حديقة الطبيعة متوهّمين معرفة كل ما يحيط بهم ، ولكنّهم يتصرّفون كالعميان حيال مبدإ بارز تقدمه إليهم الطبيعة هو وجود أكثر من طابع عضوي للتمييز بين الأنواع التي تدخل فيها الكائنات الحيّة في عالمنا هذا .

فنظرة سطحية تكفي لاكتشاف الناموس الأساسي الذي تخضع له الكائنات في عمليّة التناسل ، فالحيوان الذكر يبحث عن أنثى من نوعه : فالبلبل يبحث عن أنثاه ومثله الفأر والذئب والأسد والهرّ إلخ . . .

أمّا الانحراف عن هذه القاعدة فشذوذ لا يقاس عليه ، وهو يكون نتيجة العزلة الجبرية كالأسر أو ناجماً عن عائق يحول دون ممارسة العلاقات الجنسية بين ذكر وأنثى ينتميان إلى نوع واحد . ولكن الطبيعة لا تسكت على هذا الشذوذ ، ويتجلّى احتجاجها عليه بقطعها نسل الأجناس المتخالطة أو بتحديدها هذا النسل إلى الحدّ الأقصى . وفي معظم الحالات تجرّدها من القدرة على مقاومة الأمراض وصدّ هجمات الأعداء .

ليس في ذلك مثار للعجب ، فتزاوج كائنين متفاوتي القيمة هو تحدّ لإرادة الطبيعة التي تنزع إلى رفع مستوى الكائنات ، وهذا لا يتحقّق إلا بانتصار الذين اختصتهم الطبيعة بالقيم السامية انتصاراً نهائيّاً حاسماً ، فالقوي مدعو إلى السيطرة على الضعيف لا إلى الذوبان فيه مضحياً بعظمته ، وإذا لم يتقيّد البشر بهذا المبدإ الأساسي يصاب تطوّر الكائنات المنظّمة بنكسة خطيرة .

والطبيعة في حرصها على بقاء الأعراق أو الأجناس لا تهدف إلى الحفاظ على السمات الخارجيّة لكل منها فحسب ، بل تهدف أكثر ما تهدف إلى الحفاظ على الطابع المميز لها . فالثعلب هو دائماً الثعلب والنّمر هو النّمر والهرّ هو الهرّ إلخ . . . والفروق التي يمكن ملاحظتها بين الأفراد المنتمين إلى عرق واحد مردّها إلى التفاوت الذي نلمسه بين مواهب كلّ منهم واستعداده الطبيعي للكفاح . ولكننا لا نجد مطلقاً ثعلباً ينحو منحًى إنسانيّاً في معاملته للدجاج ، وليس ثمة هرّة تربطها بالفأر علاقات الود والصداقة .

واقتتال الأجناس فيما بينها مبعثه الجوع والحبّ قبل أن يكون مبعثه الكراهية المتبادلة . والطبيعة تشهد هذا الاقتتال بأعصاب هادئة وترتاح إليه ، لأن الكفاح من أجل الخبز اليومي يفضي بالنتيجة إلى هزيمة كلّ كائن ضعيف أو غير جدير بالبقاء . وفي كفاح الذكر من أجل الوصول إلى الأنثى لا يتمتّع بحقّ خلق حيوات جديدة إلاّ الأفراد الأصحّاء . ولكن يظلّ الكفاح الوسيلة المثلى لتقوية صحة البدن وطاقة النوع على احتمال المشاق ، ويظلّ بالتالي شرطاً أوليّاً لتقدّم البشر وتطوّرهم .

أما إذا أغفلنا هذا المبدأ فلا يلبث البشر أن يعودوا القهقرى . ذلك أن الصفوة مضطرّة للتراجع أمام الكثرة ، والكثرة تطغى بعددها على الجودة الممثلة بالصفوة ، فإذا تساوت حظوظ البشر في التناسل والبقاء تفوّق غير الأكفاء على الأكفاء دون كبير عناء . من هنا وجوب التدخّل لمصلحة الصفوة . والطبيعة تتدخّل بإخضاعها الضعفاء لشروط قاسية تحدّ من عددهم ، ولا

تسمح بالتناسل إلاّ للذين تنتخبهم هي من بين الأصحّاء والأقوياء .

وإذا كانت الطبيعة تأبَى على الضعفاء والأقوياء أن يتزاوجوا ، فإنها تحارب دون هوادة اختلاط عرق متفوّق بعرق وضيع ، لأن هذا الاختلاط يعود بالبشريّة القهقرى ، والتاريخ يقدم إلينا شواهد لا حصر لها على صحة هذه النظريّة . ومن عبره أن امتزاج دم الآري بدم شعوب وضيعة قد أدى دائماً إلى خراب الشعب ذي الرسالة التمدينيّة . فأميركا الشماليّة ، التي يتألّف سكانها من عناصر جرمانيّة بأكثريّتها لم تختلط إلا بمقدار بالشعوب الملونة ، هي ذات حضارة تختلف اختلافاً بيّناً عن حضارة أميركا الوسطى والجنوبيّة حيث ينتمي معظم الذين هاجروا إليها إلى العنصر اللاتيني وقد امتزجوا بالسكان المحليين دون تحفظ .

وهذا المثال وحده كافٍ لإظهار عواقب اختلاط الأعراق ، فالجرماني الذي حافظ على دمه نقيّاً أضحى سيّد القارّة الأميركيّة . وسيظلّ هذا شأنه ما دام محافظاً على طابعه الخاص .

ومجمل القول إنّ كلّ اختلاط بين الأجناس يفضي إلى :

١ – تدنّي مستوى الجنس المتفوّق .

٢ – تأخر مادي وروحي يفضي في النهاية إلى التفسخ والانحلال .

واختلاط كهذا يشكّل تحدّياً لإرادة الخالق ، وتحدياً لمنطق الطبيعة . وهنا ينبري الاعتراض اليهودي المضحك والسخيف « ولكن الإنسان قادر على قهر الطبيعة » . ما أكثر الذين يردّدون هذه السخافة ، وقد فاتهم أن الإنسان لم يقهر الطبيعة بعد في أيّ من الميادين . وكلّ ما فعله حتى الآن هو رفع جانب من الستار الضخم الذي تخفي وراءه أسرارها السرمدية . والإنسان ما اخترع شيئاً قطّ ، ولكنه اكتشف ما توصّل إلى معرفته ، وهو لا يسود الطبيعة ، إنما تمكّن بفضل اكتشافه بعض الأسرار الطبيعيّة المنعزلة ، من السيطرة على كائنات حيّة لم توفّق إلى ما وفّق إليه .

إن كلّ ما يستثير إعجابنا ، من علم وفنّ وتكنيك واختراعات ؛ هو نتاج النشاط الخلاّق لشعوب معدودة ربّما كانت في الأصل من عرق واحد . على هذه الشعوب يتوقف استمرار الحضارة : فإذا أدركها التفسخ والانحلال لحق بها إلى القبر كلّ ما هو رائع وجميل على هذه الأرض . وقد انهارت الحضارات الكبرى في الماضي لأن العرق الخلاّق الذي أوجدها قد ذهب ضحيّة سريان السمّ في دمه . لقد نسي المبدأ القائل إن الحضارة من صنع البشر ، وليس البشر من صنع الحضارة ؛ وإن الحفاظ على حضارة ما يفترض الحفاظ بالدرجة الأولى على الإنسان الذي أوجدها . وهذا المبدأ مرتبط بحقّ الأصلح والأقوى في التفوّق والسيادة .

على من يريد الحياة أن يكافح إذن . فليس في عالمنا هذا مكان لمن يتهرّب من النضال .

يمكن أن يبدو هذا أمراً شاقّاً ولكن أشقّ منه محاولة الإنسان قهر الطبيعة ، وإقدامه ، بالتالي ، على إهانتها . أمّا ردّ الطبيعة على الذين يركبون هذا المركب فردّ قاس ، صارم ، لا يرحم . إنّها تنزل بهم الضربات السبع .

• • •

كلّ محاولة ترمي إلى معرفة العرق أو الأعراق التي أوجدت الحضارة وأسّست بالتالي ما نسمّيه البشرية بمفهومها الحضري ، كلّ محاولة من هذا النوع هي ولا ريب مضيعة للوقت والجهود .

ما لنا وللماضي السحيق إذن ، ولنقصر البحث على الحاضر ، فماذا نجد ؟

نجد أن كلّ ما تطالعنا به الحضارة البشريّة من نتاج الفن والعلم والتكنيك يكاد يكون كله ثمرة النشاط الآريّ الخلاّق . وهذا الواقع يجيز لنا أن نستنتج بحقّ أن الآريّين قد أسّسوا في الماضي بشريّة متفوّقة ولهذا فهم يمثلون النموذج البدائي لما نسمّيه « الإنسان » . لقد كان الآري ولا يزال المشعل الإلهي الذي يضيء السبل أمام البشر ، فشرارة العبقريّة الإلهية انبعثت دائماً

من جبينه المشرق وهو الذي قاد الإنسان على دروب المعرفة ودلّه على السبل التي تجعل منه سيّد الكائنات الحيّة على هذه الأرض . فإذا توارى الآري يغشى البسيطة ظلام دامس ، وتتلاشى الحضارة البشرية في بضعة قرون ويستحيل العالم قفراً .

وإذا صنفنا البشرية فئات ثلاثاً : الفئة التي أوجدت الحضارة ، والفئة التي حافظت عليها ، والفئة التي قوّضت دعائمها ، كان الآريّ الممثّل الوحيد للفئة الأولى . فهو الذي وضع الأسس ورسم مخطط أبرز مآتي الإنسان ، وهو الذي قدم الحجارة الضخمة للبناء ووضع تصميم ما حقّقه التقدّم البشري ، أمّا التنفيذ فقد تولاّه كلّ عرق بنفسه وعلى طريقته ، وجاءت المظاهر الخارجية موسومة بطابع المنفّذين .

لنأخذ مثلاً الشرق الآسيوي . فبعد عشرات السنين يمكن هذه البقعة من العالم أن تدعي لنفسها حضارة وضع أسسها الفكر الإغريقي والتكنيك الألماني ، وليس لها من الوحي الآسيوي إلا المظهر أو الطابع . من الوهم الشائع أن اليابانيّين يضيفون إلى حضارتهم الخاصة التكنيك الأوروبي ، فالعلم والتكنيك الأوروبيان متحدان اتّحاداً وثيقاً بما يؤلف خصائص الحضارة اليابانيّة ، وأساس الحياة هناك لم يبق الحضارة اليابانيّة الأصلية — وإن تكن هذه تضفي على الحياة لونها الخاص — بل أصبح أساسها نتاج العلم والتكنيك في أوروبا وأميركا ، أي ثمرة مجهود الشعوب الآرية . فإذا انعدم تأثير أميركا وأوروبا في اليابان لسبب من الأسباب ، فقد يستمرّ تقدّم هذه البلاد بعض الوقت ، ولكن الينبوع لا يعتّم حتى ينضب ، وتتغلب خصائص الشعب الياباني على معالم الحضارة الحالية ، فتعود هذه إلى السبات العميق الذي أيقظتها منه منذ سبعين عاماً موجة الحضارة الآرية .

يمكن القول كذلك إن تأثيرات أجنبيّة هي التي حركت من مرقدها الحضارة اليابانيّة في الماضي السحيق ، والدليل على ذلك أن هذه الحضارة

عادت فغرقت في سباتها العميق . ذلك أن هذه الظاهرة لا تحدث لدى شعب من الشعوب إلا إذا كانت الخلية الخلاّقة قد زالت من الوجود أو إذا انحسرت موجة التأثير الخارجي بعد أن تكون قد دفعت بالحضارة المتخلّفة إلى الأمام .

ومتى اتّضح أنّ شعباً تلقّى من أعراق غريبة عناصر الحضارة الأساسيّة وهضمها وانتفع بها ، وأنّه عاد إلى خموله السابق فور تقلّص ظلّ الذين حملوها إليه ، أمكن القول إن هذا الشعب قد استودع الحضارة ، ولكنّه لم يوجدها .

وإذا درسنا حالة الشعوب على ضوء هذه النظريّة نلاحظ أن معظمها قد تلقّى أسس الحضارة من الصفوة ، ولم يؤسّس لنفسه حضارة خاصة به .

أمّا الفكرة التي يمكن تكوينها عن تطوّر هذه الشعوب فهي التالية :

هناك شعوب آرية ضئيلة العدد تخضع أقواماً أجنبيّة وتعمل على إنماء مواهبها الخلاقة والمنظمة بفضل ما تضعه في متناولها البقاع التي وضعت أيديها عليها . ولا تمرّ بضعة قرون حتى توجد الشعوب المذكورة حضارات ذات طابع متلائم وأسلوبها في الحياة ، ومتّفقة في الوقت نفسه مع خصائص الإقليم وروحية سكانه . ولكن ما يلبث الفاتحون أن يتنكّروا لمبدإ حافظوا عليه في البدء ، وهو المبدأ القائل بوجوب حفظ دم العِرق المتفوّق نقياً طاهراً ، ويكون الاختلاط بينهم وبين السكان الأصليّين وبالاً عليهم . ذلك أن ضياع دم الشعب الفاتح في دم الشعب الخاضع للسيطرة يفضي حتماً إلى ضياع المادة القابلة للاحتراق والتي منها الشعلة التي تنير السبيل أمام الحضارة البشريّة السائرة قدماً .

هذه اللمحة السريعة عن مراحل التطوّر التي تمرّ بها الشعوب التي لم يكن لها شأن في إيجاد الحضارات ولكنها تلقتها وأفادت منها ، تعطينا فكرة عن نموّ الذين أوجدوا الحضارة البشريّة ونشاطهم وزوالهم ، عنيت الآريّين .

فكما يحتاج النبوغ إلى مناسبة مؤاتية ليبرز ، هكذا الموهبة الخلاقة في

الشعوب تظلّ كامنة إلى أن يتاح لها الظرف المناسب . ففي الحياة اليوميّة الرتيبة يبدو لنا بعض الناس أشخاصاً عاديين لا تكاد بيئتهم تشعر بوجودهم . ولكن ما إن تضعهم الأقدار في ظروف صعبة حتّى تبرز مواهبهم فتصدر عنهم أعمال مدهشة تحيّر الذين كانوا يستخفّون بهم . من هنا القول : ليس لنبيّ كرامة في بلده . والحرب هي أفضل المناسبات لدرس هذه الظاهرة . فثمّة شبان وادعون ، خجلون ، ليس لهم في السلم شيء من المظاهر التي تنمّ عن الرجولة الحقّة ؛ ولكنّ الخطر يبدّل منهم الحال ، فيواجهونه بشجاعة فائقة ويقهرون الموت برباطة جأشهم وحضور ذهنهم . فالعبقريّة تحتاج إلى صدمة كي تظهر وتبهر بمآتيها الأنظار .

ويخطىء من يظنّ أن مخترعاً لا يؤسس شهرته إلاّ يوم يعلن عن اختراعه . ومن الخطإ الاعتقاد أن شعلة العبقرية قد أضاءت في الرجل عندما شرع في إعداد اختراعه . فشرارة النبوغ تجيء مع النابغ يوم يطلّ على العالم ، وليست العبقريّة ثمرة التربية والدرس .

وما يقال في عبقرية الأفراد ينطبق على عبقرية الأعراق . فالشعوب التي تقوم بنشاط خلاّق تتمتّع منذ نشأتها بموهبة تؤهلها للخلق والإبداع ، وبديهي أن تظلّ الشعوب الأخرى جاهلة هذه الموهبة أو أن تنكر وجودها إلى أن تبهرها مآتي الشعب النابغ في حقول الاختراع والاكتشاف والفنّ إلخ . . . وحتّى في هذه الحالة يتردّد العالم في الاعتراف له بالنبوغ والعبقريّة .

وكما تحتاج المواهب الخلاّقة لدى بعض الأفراد إلى مهماز يحفزها للعمل هكذا المواهب الخلاّقة لدى الشعوب لا تعمل ما لم تتوفّر لها شروط معيّنة . والآريون يقدمون إلينا أصدق الأمثلة على ذلك . فما إن يضعهم القدر في مواجهة ظروف خاصّة حتى تنمو مواهبهم نموّاً سريعاً وتبهر العالم بإنتاجها المدهش . أمّا الحضارات التي ينشئون في مثل هذه الحالات فإنّها تخضع لمقتضيات الأرض والمناخ والسكان المحليّين . ويكون السكان عاملاً حاسماً

في الموضوع ، لأن التمكين للحضارة في بقعة لا تزال على الفطرة يحتاج ، أكثر ما يحتاج . إلى يد عاملة يمكنها : بفضل التنظيم وحسن الاستعمال ، أن تقوم بالدور المسند إلى الآلة . ولو لم يقيّض للآري استخدام الشعوب الوضيعة لما استطاع أن يخطو خطاه الأولى على الطريق المؤدي إلى الحضارة . ولو لم يجد في بعض الحيوانات مساعداً أميناً لما ملك ناصية التكنيك وصار قادراً على الاستغناء عن الحيوانات ، إلى حدّ ما . فقد استخدم الإنسان الخيل في أعماله المختلفة طوال آلاف السنين ، واضعاً بذلك أسس تقدم تكنيكي ما إن أوجد السيارة حتى باتت الخيل غير ذات نفع ؛ وقد تضع حدّاً لنشاطها بعد سنوات .

ولا خلاف في أن وجود أعراق منحطّة ، بالنسبة إلى الأعراق المتفوّقة ؛ كان شرطاً أساسيّاً لتأسيس الحضارات . فقد قام البشر في هذا الحقل مقام الموارد الماديّة التي لا تقوم بدونها . ولا خلاف كذلك في أن الحضارة البشريّة الأولى قد اعتمدت على استخدام الأقوام الوضيعة قبل اعتمادها على الحيوانات الأليفة ، فالحيوان لم يسخر لخدمة الحضارة أو الإنسان المتحضر إلا بعد استعباد المتفوّقين لمن هم أدنى منهم . وقد بدأ الفاتحون في وضع المغلوبين على أمرهم أمام السكة ، ولم يحلّ الثور محلّ الإنسان إلاّ فيما بعد .

يجد بعض دعاة السلم في هذا الواقع علامة من علامات الانحطاط البشري ، ويفوت هذا البعض أن هذا التطوّر ضروري للوصول بالحضارة إلى الدرجة التي يجب أن تبلغها ، فالتقدّم البشري يرتقي سلماً لا نهاية له ، ولا يمكن بلوغ الأعالي ما لم ترتق درجات السلم الموازية للأرض والدرجات التي تتلوها . والآري قد سلك الطريق الذي رسمه له الواقع ، لا الطريق الذي يحلم به دعاة السلم في هذه الأيام . ولئن يكن الطريق الذي يرسمه الواقع شاقّاً وطويلاً فهو يؤدي حتماً إلى الهدف الذي يحلم دعاة السلم بالوصول إليه من طريق آخر يبعد البشريّة عن هدفها الأسمى بدلاً من أن يؤدي بها إليه .

لم يكن محض اتّفاق نشوء الحضارات الأولى حيث صادف الآري شعوباً منحطّة بالنسبة إليه هو ، فسيطر عليها وأخضعها ، وكانت بين يديه الأداة التكنيكيّة الأولى في خدمة حضارة ناشئة . واتّضحت من ثمّ معالم الطريق الذي كان على الآريّ أن يسلكه . فقد أخضع الأعراق ووجّه نشاطها التوجيه الملائم لأهدافه . ولكنّه عمل ، وهو يفرض عليها نشاطاً نافعاً وإن شاقّاً ، على تحسين مصيرها ورفع مستواها . وكان على الآري أن يحافظ على وضعه بصفة كونه السيّد المطاع ليظلّ هذا السيّد وفوق ذلك المهيمن على الحضارة التي أنشأها وأنماها لأن بقاء هذه الحضارة وازدهارها هما رهن ببقاء الآري هو إيّاه . ولكنّه لم يعرف كيف يحافظ على وضعه ، فما إن تحسّن مستوى السكّان الأصليين حتى انهار الحاجز الفاصل بين السادة والخدم وأغفل الآري أمر الحفاظ على دمه نقيّاً ، ففقد بذلك حقّ الاستمتاع بمغاني الفردوس الذي أنشأ ، وفقد كذلك مواهبه المبدعة ، وانتهى به الأمر إلى محاكاة السكان الأصليّين شكلاً وتفكيراً ، ثم فعل الانحلال فعله ولفّت عجلة الزمن الحضارة التي أوجدها .

هكذا تنهار الحضارات والأمبراطوريات ، تاركة مكانها لمحاولات جديدة .

إنّ تدنّي مستوى الأعراق هو النتيجة الحتمية لاختلاطها بشعوب لم تبلغ مستواها . وهذا الاختلاط هو الذي سبب انهيار الحضارات القديمة وزوالها . فالحروب الخاسرة لا يترتّب عليها فناء شعب من الشعوب ، إنّما يفضي إلى هذه النتيجة زوال قوّة المقاومة التي كانت ولا تزال وستبقى من خصائص الدم النقي .

• • •

نجد غريزة حبّ البقاء وحفظ النوع وراء كلّ حدث من أحداث التاريخ ، وإذا تحرّينا الأسباب الحقيقيّة لتفوّق الآري نجد أن تفوّقه مبعثه الشكل الخاصّ

الذي تتجلّى به غريزة حبّ البقاء وليس قوّة هذه الغريزة بحدّ ذاتها . فالرغبة في الحياة أو حبّ البقاء نزعة غالبة لدى البشر كافة ، أمّا الفروق فإنّنا نلمسها في حيز التطبيق حيث تختلف الانتفاضات وتتباين الأساليب .

كانت غريزة حبّ البقاء في عهد الإنسان البدائي لا تذهب إلى أبعد من اهتمام الإنسان بذاته . كان الإنسان حيواناً يحيا لنفسه ولا يعنى بأكثر من تدبير غذائه كلّما عضّه الجوع بنابه ودفع الخطر عن حياته . وقد اتّسع أفق الغريزة بعد أن باتت الحياة المشتركة بين الذكر والأنثى أكثر من تفاعل جنسي وصار الرجل يختص نفسه بامرأة ويهتمّ بحمايتها وتأمين الغذاء لها . ثمّ راح كلاهما يهتمّان بغذاء أولادهما وهكذا بدأت تتجلّى روح التضحية ، فلمّا امتدّت إلى ما وراء حدود العائلة توفّر الشرط الأساسي لإنشاء مجتمعات أوسع نطاقاً .

وإنّنا لنلاحظ اتّساع هذه المجتمعات في البلدان الآخذة بأسباب الرقيّ والحضارة (الدول) في حين ظلّت الأجناس الوضيعة في نطاق ضيق (القبيلة أو الأسرة) لأن روح التضحية لدى هذه الأجناس لم تنمُ النموّ الكافي . وقد نمت أكثر ما نمت لدى الآريين الذين لم تقم عظمتهم على تراثهم الفكري ومواهبهم غير المحدودة فحسب ، بل قامت على استعدادهم الدائم لوضع مؤهّلاتهم في خدمة المجموع . وقد اتّخذت غريزة حبّ البقاء عند الآري أنبل أشكالها : فهو يضحي بذاته في سبيل الجماعة .

وإنّك لا تجد مواهب الآري المبدعة وليدة مواهبه العقليّة ، لأنّها لو كانت كذلك لما تجاوز نشاط الآري حدّ التخريب ، ولما برز منظماً من الطراز الأوّل . ذلك بأن الشرط الأساسيّ لكلّ تنظيم أن يضحي الفرد في سبيل المجموع فلا يفرض رأيه الشخصي ولا يقدّم مصالحه الخاصّة على المصالح العامّة . فبالتضحية في سبيل النفع العام ينال المضحي نصيبه من هذا النفع . أمّا إذا حاد عن هذا السبيل وقصر همّه على خدمة مصالحه وأغراضه فإن

نشاطه ينقلب سرقة وشقاوة وتغريراً بالناس ! . .

وليست التضحية الشرط الأساسي لكلّ تنظيم فحسب ، بل هي الشرط الأساسي لكلّ حضارة بشريّة حقيقيّة . فبها ؛ وبها وحدها ، أبدع المبدعون وخلفوا للأجيال ينبوعاً من الخيرات لا ينضب ، أمّا هم فقد قاسوا الحرمان ليؤمنوا للجماعة أسس مستقبلها ومعالم الكينونة وأسباب البقاء . وعندي أن كلّ عامل أو فلاح أو مخترع أو موظف إلخ . . . ينتج دون أن يتوصّل إلى تأمين رفاهيته ، هو أحد بناة الحضارة البشرية بكدحه ولو فاته المعنى السامي لتضحيته الصامتة ، وأعظم منه ولا ريب من يضحّي بحياته في سبيل حماية الإنسان وصون حضارته ، أليس هذا منتهى الجود وأسمى أشكال التضحية ؟

إن الاستعداد الروحي لتوجيه النشاط الفردي هذه الوجهة هو المثالية بالذات ، والمثالية هي شرط أولي لقيام حضارة بشريّة جديرة بالبقاء ، وبدون المثالية تقصر المواهب العقلية عن أن تكون قوّة مبدعة .

يخلط بعضهم بين المثالية الحقيقية وبين أحلام الخياليين ودعاة السلم الذين ينطوون على أنفسهم ملتحفين بأنانيتهم : وحيث ينتصب عرش الأنانية يتقلّص ظلّ النظام وتضعف روح التضحية ، ويدبّ الانحلال إلى جسم الجماعة.

• • •

ليس في عالمنا شعب نمت فيه غريزة حبّ البقاء وتبلورت كالشعب الذي يسمّي نفسه « الشعب المختار » . وأقوى دليل نسوقه على صحة هذا القول بقاء هذا الجنس ومحافظته على طابعه وخصائصه ، وهو الذي واجه خلال ألفي عام ظروفاً قاسية .

لقد رأينا اليهود يدخلون أنوفهم في قضايا العالم الكبرى وكان لهم يد في كلّ ثورة ذات طابع انقلابي ، إلاّ أن الكوارث التي هزّت البشريّة لم تؤثّر فيهم ، وظلوا هم إيّاهم شعباً لا يدخر وسعاً في سبيل حماية كيانه .

يصفون اليهودي في أيّامنا بأنّه ماكر بل داهية . وقد كان هذا شأنه ، إلى حدّ ما ، في كلّ وقت . بيد أنّ ذكاءه ليس وليد تطوّر ذاتي أو داخلي ، فقد نما وتطوّر بفضل نتاج عقول الآخرين ، ولا ننسى أن العقل البشري نفسه لا يبلغ درجة اليناع الأول دفعة واحدة . ففي كلّ خطوة يخطوها لا بدّ له من الاستناد إلى الأسس التي خلفها له الماضي ، أي إلى معالم الحضارة العامة ، ومن هنا النظرية القائلة إنّ الفكرة هي وليدة تجارب متراكمة منذ مئات السنين قبل أن تكون ثمرة الاختبار الشخصي . فمستوى الحضارة العام يزوّد الفرد بمعلومات أوليّة يتسلّح بها في محاولته الكشف عن أسرار قصر عن اكتشافها الذين تقدّموه .

ليس لليهودي حضارة خاصة به ، فأسس عمله الفكري هي إذن مستعارة أخذها من الذين أوجدوا الحضارات . ولئن تكن غريزة حبّ البقاء عنده أقوى منها في أيّ عرق آخر ، فالشرط الأول الذي يجعل من شعب ما شعباً ذا حضارة ليس متوفّراً في « الشعب المختار » : ليس لليهود مثالية .

ذلك بأن روح التضحية لا تتعدّى عند الشعب اليهودي نطاق « الأنا » ، والتضامن الذي يقوم بين اليهود والذي يبدو لنا وثيقاً ليس أكثر من تجمّع آني شبيه بتجمّع قطيع من الغنم لمواجهة الخطر المشترك أو بتجمّع قطيع من الذئاب لمهاجمة الفريسة ، فما إن تنتهي « الوليمة » حتى يتفرّق « المدعوون » أيدي سبا . واليهودي لا يعرف معنى التضامن إلاّ في حالات مماثلة ، فروح التضحية لا تتجلّى ما لم يشعر كلّ فرد بأنّه مهدّد . والتضامن يصبح واجباً في حالتين : حيال عدوّ مشترك أو فريسة مشتركة . فإذا انعدم الحافز تكون الأنانية هي الطابع الغالب ، ويصبح همّ اليهود أن يكيد بعضهم لبعض وأن ينهش بعضهم بعضاً .

فمن الخطإ إذن أن نستنتج من اتّحاد اليهود للكفاح أو لسلب الناس ما يملكون أن لهم مثالية تذهب بهم إلى حدّ التضحية ونكران الذات . فاليهودي

لا يستوحي في هذا كلّه إلا الأنانية الضيّقة . وإذا استطاع « الشعب المختار » يوماً أن ينشىء الدولة اليهودية – الجهاز الحي المعدّ لحفظ العرق وإنمائه – فستكون دولته غير ذات حدود ، لأن تحديد تخوم دولة ما يفترض وجود مثالية لدى العرق الذي ينشئها كما يفترض أن يكون مفهومه للعمل قائماً على تقدير صحيح ، فإذا انعدم هذان الشرطان يكون مصير المحاولات الرامية إلى إيجاد دولة ذات حدود إلى الإخفاق الذريع لأن الدولة تظلّ مفتقرة إلى الأسس التي تشاد عليها الحضارة .

• • •

ليس للشعب اليهودي إذن ، بالرغم من مواهبه ، حضارة حقيقية خاصّة به ، فالحضارة اليهوديّة ، أو التي تبدو لنا كذلك ، هي ملك شعوب أخرى ، تلقفها « الشعب المختار » وشوّه أكثر معالمها .

ولكي ندرك وضع اليهود حيال الحضارة البشريّة ينبغي لنا أن نضع نصب أعيننا الحقيقة الآتية :

لم يعرف العالم قطّ شيئاً اسمه « الفنّ اليهودي » ، وليس لليهود أيّ فضل على الفنين الأعظمين : الموسيقى والهندسة ، وإنتاجهم في حقل الفنون ليس سوى نقل أو تقليد أو سرقة . وليس أدلّ على صحة هذا القول من تسابق الكتّاب اليهود إلى تعهّد الفنّ الذي لا يتطلب إلاّ اليسير من الابتكار ، عنيت الفن المسرحي . وحتّى في هذا الحقل يظلّ اليهودي مقلّداً شأنه شأن القرد ، وهل ينتظر ممّن يعجز عن الإبداع أن يحلّق مجارياً العباقرة ؟ ولكن الصحافة اليهوديّة المضللة لا تألو جهداً في سبيل رفع حثالة الفنانين اليهود إلى مصفّ أسياد الفنّ ، فتراها تكيل المديح للمقلّدين من أبناء « الشعب المختار » لتدخل في روع الجمهور أنّه أمام عباقرة حقيقيّين .

لا ، ليست لليهودي القدرة على الخلق والإبداع ، وليست له بالتالي القدرة المثالية التي بدونها لا يمكن أن يتطوّر الإنسان ويرتقي . أمّا ذكاؤه

فإنّه ينزع دائماً إلى الهدم والتخريب . وفي بعض الحالات النادرة يفعل اليهودي الخير وهو يحسبه شرّاً فيكون قد ساهم في خدمة البشريّة ولكن بالرغم منه .

من الخطإ أن ننظر إلى اليهود نظرنا إلى قوم من الرحّل لا لشيء إلاّ لأنّهم يفتقرون إلى مملكة ذات حدود معيّنة ولأن العالم لم يعرف شيئاً اسمه « حضارة يهوديّة » . فالرحّل يملكون أرضاً ذات تخوم يعيشون عليها بعض الوقت ولكنهم لا يتعهّدون الأرض كما يفعل المزارعون ، بل يعتمدون في غذائهم على نتاج الماشية ، ويملي على الرحّل هذا الطراز من المعيشة كون الأرض التي فيها ينزلون ضئيلة الخصب لا تشجّع على الإقامة الدائمة . ولو كان الرحّل من الجماعات المتطوّرة لاستطاعوا أن يستنبتوا التربة بما تعجز من تلقائها عن إعطائه وهو ما فعله الآريون بفضل تكنيكهم المتفوّق . فقد أنشأوا مؤسّسات ثابتة واستغلوا أراضي واسعة كانت مواتاً . ولولا تكنيكهم وعبقريتهم الخلاّقة لظلّ شأنهم شأن الرحل ، لا يقرّ لهم قرار . ولا ننسى أن الآريّين الذين هبطوا أميركا عاشوا ردحاً من الزمن وكأنهم رحّل حقيقيّون ، ولكن ما إن أسلست لهم الأرض قيادها حتى بدأوا يتجمّعون في مناطق معيّنة وسرعان ما كانت منشآتهم الثابتة ناطقة بقدرتهم على الخلق .

ويبدو أنّ الآريّين كانوا في البدء رحّلاً ، ثم استقرّوا حيث هم . أمّا اليهود فليسوا رحّلاً لأنّ للرحّل مثالية أو شيئاً من جوهر المثالية يجعلهم غير بعيدين عن الآريّين وإن تكن طبيعتهم غير طبيعة هؤلاء . لا ، لم يكن اليهود رحّلاً قطّ بل كانوا ولا يزالون طفيليّات تزاحم الشعوب على مقوّمات وجودها ، ولئن هجروا مناطق كانوا قد استوطنوها مئات السنين ، فقد هجروها مرغمين ، تشيعهم لعنة الشعوب التي هبّت تطردهم بعد أن برمت بهم وبخروجهم على آداب الضيافة .

أين هذا من تنقّل الرُحّل الذين يهجرون مكانهم من تلقائهم؟ إنّ اليهوديّ

لا يفكّر مطلقاً في براح مكان هو فيه ، وإذا اضطرّ للانتقال إلى مكان جديد ، فإنّه يختار مكاناً يؤمن له أسباب البقاء ، دون أن يتخلّى عن طابعه الخاص . فهو طفيليّ هنا كما كان طفيلياً هناك : وبديهي أن يكون له حيثما وجد التأثير الذي للنبتة الطفيليّة : فحيث يستقرّ اليهودي لا يلبث الشعب الذي فتح له ذراعيه أن يتلاشى ويضمحلّ .

وهكذا عاش اليهودي في كل عصر ومصر : عاش عالة على الشعوب الأخرى ، وكان يؤسّس دولته الخاصّة ويخفيها خلف قناع من « الجماعة الدينيّة » ما دامت الظروف لا تسمح له بفضح أهدافه الحقيقيّة . أمّا إذا آنس من نفسه القوة على نزع القناع فإنّه يكشف عن وجهه الحقيقي .

وتقوم علاقة اليهودي بالشعوب التي يفعل بها فعل الطفيليات بالجسم على الكذب والتدجيل . ألم يقل شوبنهور إن « الشعب المختار » هو الأستاذ الأعظم في فنّ الكذب ؟ وإقامة اليهود بين الشعوب لا يمكن أن تستمرّ ما لم يتوصّلوا إلى إقناع الناس بأنّهم « جماعة دينيّة » لا أكثر ولا أقلّ . ولكن هذا الادعاء هو إحدى كذباتهم الكبيرة .

ولكنها كذبة تجد مع الأسف من يصدّقها حتى بين الذين يفرض فيهم معرفة التاريخ . وكلّما عظم ذكاء اليهودي كتب لتدجيله النجاح ، ألم يتوصّل إلى إيهام شعبنا بأنّه ألماني لحماً ودماً ؟ ألم تنجح لعبته هذه في فرنسا وإيطاليا وإنكلترا حيث تعتبر الدولة اليهود رعايا مخلصين ؟ أليس من المخجل أن نجد اليوم وزيراً في الحكومة البافارية يعترف بأنّه لم يكتشف إلاّ أخيراً أن اليهود يؤلفون شعباً له طابعه المميز ؟

لم يكن اليهود في وقت من الأوقات مجرد طائفة دينيّة لها تقاليدها وطقوسها الخاصّة ، بل كانوا دائماً شعباً له خصائصه ، وقد بحثوا ، بعد تشردهم ، عن وسيلة يضلّلون بها الشعوب فلا تتبرّم بـ « ضيوفها » المزعجين ، فما وجدوا أفضل من تقديم أنفسهم بأنّهم جماعة دينيّة لا أكثر ولا أقلّ ؛ مع

العلم أن « الشعب المختار » كان في هذا الحقل ناقلاً ومقلّداً ومشوّهاً ، ذلك أنّ اليهود لا يمكنهم أن يؤلّفوا منظّمة دينيّة لأن لا مثالية لهم ولأنّهم لا يتطلعون إلى ما وراء عالمنا هذا ، فالتلمود لا يشير بكلمة إلى العالم الآخر .

إن العقيدة الدينيّة اليهودية تشتمل على توجيهات بعضها يتعلّق بحفظ الدم اليهودي نقيّاً، وبعضها الآخر ينظم العلاقات بين اليهودي واليهودي والعلاقات بين « الشعب المختار » وسائر الشعوب ، ولكنه لا ينظمها على صعيد مناقبي ، كما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى؛ فهو يعالج المسائل الاقتصادية بنوع خاصّ ، وبروح يفضح الدناءة التي فطر عليها اليهود . أمّا القيمة الروحيّة للتعاليم الدينيّة اليهوديّة فالدروس التي تناولتها بالبحث – وهي غير الدروس التي قام بها اليهود أنفسهم والتي جعلوها متمشية مع أهدافهم – تعطي عنها فكرة ليست هي في مصلحة الديانة اليهوديّة . ولكن ما لنا وللدروس ، فاليهودي نفسه يعطينا الدليل على بعد ديانته عن الروحانيات . فحياته تقوم على المادة ، وروحه كانت ولا تزال غريبة عن الروح المسيحيّة . ولا ريب في أن مؤسس النصرانيّة لم يظلم اليهود عندما أبدى فيهم رأياً صريحاً . ألم يستخدم السوط في إخراج عدوّ البشرية من الهيكل لأنّ اليهودي كان ولا يزال يعتبر الدين تجارة ؟ ولأن المسيح حارب المادية اليهوديّة صلبه اليهود . أليس من المخجل أن يستجدي اليوم الحزب المسيحي في بلادنا أصوات اليهود في الانتخابات وأن ينظم الدسائس ويحبك المؤامرات ضدّ الوطنيّين بالاشتراك مع الحزب اليهودي الملحد ؟

* * *

على الكذبة الأولى القائلة إن اليهود ليسوا عرقاً ، بل هم طائفة أو جماعة دينيّة ، قامت من ثم سلسلة أكاذيب خطيرة . مثال ذلك كذبتهم في مسألة اللسان الذي به يتكلمون ، فهو واسطة لإخفاء حقيقة ما يجول في رؤوسهم

بدلاً من أن يكون واسطة للتعبير عن آرائهم. فاليهودي إذ يخاطبك بالفرنسية مثلاً إنّما يفكّر يهودياً، وعندما ينظم الشعر بالألمانيّة فاعلم أنّه يعبّر فقط عمّا يجيش في صدر شعبه . واليهودي يظلّ يتكلم لغة الشعوب ما دام مهيض الجناح ، ولكن ما إن يخضعها لسيطرته حتّى يدعوها إلى التخاطب بلغة عالميّة (كالاسبيرنتو مثلاً) ليتسنى لليهوديّة أن تطويهم تحت جناحيها بيسر وسهولة .

لقد أظهر « بروتوكول حكماء صهيون » الذي أنكر اليهود وجوده بشدّة زائدة ، أنّ وجود هذا الشعب يرتكز على كذبة دائمة . أمّا تأكيد جريدة « لا غازيت دو فرانكفورت » أن « البروتوكول » مدسوس على اليهود ، فلا يعدو كونه محاولة تضليل استمدّت الجريدة عناصرها من منجم الكذب اليهودي الذي لا ينضب معينه . ونحن لا يهمّنا أن نعرف من هو اليهودي الذي وضع القواعد الّتي اشتمل عليها البروتوكول ، فالواضح هو أن الوثيقة تفضح طبيعة النشاط اليهودي وما يهدف إليه . وها هي وقائع القرن الماضي والسنوات الّتي تصرّمت من القرن العشرين تشهد بأن « بروتوكول حكماء صهيون » قد نفذ بعض ما جاء فيه بدقة وإحكام . أفنعجب ، والحالة هذه ، لتصايح الصحافة اليهودية وحرصها على إنكار وجود الوثيقة ؟ إن إحاطة الشعوب بخطط اليهود ومراميهم البعيدة قمينة بالقضاء على الخطر اليهودي قضاء مبرماً .

• • •

لمعرفة اليهودي حقّ المعرفة لست أجد طريقة أصلح من تتبّع خطاه خلال العصور . ولما كان نموّه واحداً في كل عصر وكانت الشعوب الّتي عاش على حسابها لم تتبدّل ، فمثال واحد يكفي لتنوير الأذهان .

هبطت طلائع اليهود الأرض الجرمانيّة في أعقاب الجحافل الرومانيّة الغازية ، وانتشروا في البلاد بصفة كونهم تجاراً . وخلال الانقلابات الّتي سبّبتها حركة الهجرة الواسعة اختفى اليهود في الظاهر ، ليظهروا مجدداً حالما

بدأت تتكوّن الدول الجرمانيّة . وفي هذه المرة أيضاً ظهروا كتجّار ، ولم يهتمّوا بكتم طابعهم المميز لأن سماتهم وجهلهم اللغة كانت تفضح تنافرهم مع مضيفيهم ، بيد أن كونهم غرباء ويهوداً لم يجرّ عليهم شيئاً من المتاعب ، فالجرمان مضيافون ويعطفون على الغريب أيّاً كان .

ولم يمضِ طويل وقت حتى تسلل اليهود إلى الحياة الاقتصادية ، ليس كمنتجين بل كوسطاء . وقد أهّلتهم براعتهم التجارية والمران الطويل لأن يبزّوا الآريين في الميدان التجاري حتى أوشكت التجارة أن تكون وقفاً عليهم .

وبدأ اليهودي يقرض الناس مالاً بفائدة فاحشة . ولم يكن الآريون قد اعتادوا هذا النوع من القروض فما تنبّهوا إلى خطره إلا بعد فوات الأوان .

وبعد أن احتكر اليهود التجارة والأعمال المالية ، شغلوا في المدن أحياء خاصّة بهم ، مؤلفين دولة ضمن الدولة . ولكن الربا الفاحش الذي كانوا يتقاضونه أفقدهم عطف السكان ، وازداد النفور منهم لصفاقتهم ، وحسدهم المحرومون على ثرائهم . واشتدّت النقمة عليهم عندما راحوا يسترهنون الأرض الواسعة ويتحكمون برقاب مالكيها وفلاحيها تحكماً جعل ضحاياهم تتألّب ضدّهم في نهاية الأمر وقد اكتشفت في هؤلاء الغرباء طفيليات مزعجة وخطرة .

وحيال هذه النقمة التي عبر عنها في بعض المناطق باستخدام العنف في تأديب المرابين اليهود ، لجأ « الضيوف » إلى الحكّام واستطاعوا بسحر المال وشتى المغريات استدراجهم إلى تزويد كل يهودي بكتاب يؤمن له حماية شخصه وثروته ، وهكذا أطلق الحكام يد العلق في امتصاص دم الضحيّة ، ولكنهم عادوا تحت ضغط الرأي العام ، فأخضعوا انتقال الأراضي لقيود ثقيلة وحظروا على المرابين استرهانها ، وأذعن اليهود أو هم تظاهروا بالإذعان يقيناً منهم أن الحكّام سيستنجدون بهم يوم يعوزهم المال ، وقد كان ، وتسلم المرابون ، مقابل مالهم ، وثائق تطلق أيديهم في استثمار رساميلهم وتمنحهم الامتيازات

التي يتمتّع بها أرباب الإقطاع . أمّا المال الذي دفعوه فقد تنازلوا عنه غير آسفين لعلمهم أنّهم قادرون على استرداده من جيوب الرعيّة أضعافاً مضاعفة من طريق الفائدة المركبة .

وكان تواطؤ الأمراء الألمان مع الطفيليات اليهوديّة سبباً في إفقار الشعب . وقد ترتّب على هذه السياسة العرجاء التي لا تضاهيها إلاّ سياسة بعض الوزراء في أيّامنا ، عجز الأمّة الألمانيّة عن التحرّر نهائيّاً من الخطر اليهودي .

ووقوع الأمراء في الشراك اليهودية كان نذيراً بخرابهم . فقد ابتعدت عنهم شعوبهم بعد أن لمست تقاعسهم الفاضح عن حماية مصالحها وتكالبهم على استحلابها . وكان اليهود يغذون النقمة على الأمراء حالما يتبين لهم أن نجم هؤلاء آخذ بالأفول . و « الشعب المختار » ذو اختصاص في الانحراف بالحاكم عن رسالته الحقيقيّة ، فهو يتودّد إلى الحكام بعبارات المديح والثناء ثمّ يستميلهم بالهدايا ، حتّى إذا اطمأنّ إلى نيّاتهم إزاءه ، هيأ لهم أسباب الاستمتاع وزين لهم التهتّك والاستهتار ، لينصرف هو إلى استنزاف ما في جيوب الرعيّة .

واليهودي يجمع إلى حبّ المال الطموح إلى المعالي . فبعد أن جرّ الأمراء إلى حمأة الرذيلة حملهم في ساعة من ساعات المجون والعبث على رفع نفر من أبناء جلدته إلى مصفّ العظماء والنبلاء . وسرعان ما اتبع هذه الخطوة بخطى أهلت اليهود لأن يكونوا وزراء ومستشارين مسموعي الكلمة ، وكان يكفي لإسكات المحتجين أن يتقبّل اليهودي سرّ العماد . دون أن يتخلّى عن إسرائيليته وخصائصها .

وفي عهد فردريك الكبير قامت حركة فكريّة ضدّ زواج اليهود من ألمانيات وزواج الألمان من يهوديات ، وتزعّم هذه الحركة « غور » الذي لم يكن رجعيّاً ولا قصير النظر ، وأيّد الشعب الحركة لأنّه أدرك منذ زمن بعيد أن اليهود عنصر غريب تغلغل في كيان الأمّة دون أن يتخلّى عن طابعه المميّز وتقاليده .

ولم يَفُتِ اليهود خطورة الحركة فقرّروا الاندماج نهائيّاً في الأمّة الألمانيّة دون أن يتخلّوا عن خصائصهم ؛ ولم يكن لهم من الألمانيّة سوى اللسان الذي أتقنوه مع الزمن . ومتى كانت اللغة قوام العرقية ؟ هذه الحقيقة لم تفت « الشعب المختار » . من هنا عدم اهتمامه بالحفاظ على لغته ومن هنا حرصه الشديد على بقاء دمه نقيّاً لأن الدم هو قوام العرقيّة . ليس أسهل من تعلم لغة شعب من الشعوب ولكن المرء يعبر باللغة الجديدة عن أفكاره القديمة . واليهوديّ يمكنه إتقان مئة لغة ولكنه يظلّ يهودياً بتفكيره .

لقد قرّر اليهود أن تكون الصبغة الألمانيّة طابعهم الغالب لأنّهم بدأوا يلمسون كراهية الشعب لهم . وشعروا في الوقت نفسه بتداعي نفوذ حماتهم الأمراء ، وبالحاجة إلى مرتكز جديد يستندون إليه في توسيع نطاق نشاطهم الاقتصادي دون أن يترتّب على ذلك تفاقم النقمة الشعبيّة . فبدأوا بأن طلبوا لأنفسهم الحقوق المدنيّة التي يتمتّع بها الألمان الحقيقيون ، ثم توزّعوا الأدوار ؛ فإلى جانب الذين تسلّلوا إلى قصور الأمراء وفرضوا أنفسهم مستشارين ورجال بطانة راح رفاق لهم يتودّدون إلى الشعب متظاهرين بالحدب عليه ومشاطرته آلامه والمشاكل التي يعانيها ، ولم تكن مهمّة هذا الفريق هيّنة ؛ لأن الشعب ، على طيبة قلبه ، وضعف ذاكرته ، لا يطمئن بسهولة إلى الذين استغلّوه دون ما شفقة ثمّ أقبلوا عليه يواسونه ويتفجّعون على مصيره .

بدأ اليهودي بإيهام الشعب أنّه يريد أن يكفّر عن إساءته إليه بأعمال إنسانيّة خالصة لوجه الله ، ولكنّه حرص على إفهام الخاص والعام كم هي جسيمة تضحياته في سبيل تحسين مستوى الطبقات الكادحة . وما زال يردّد هذه النغمة وينشرها بمختلف وسائل النشر حتى بدأ الناس في ألمانيا وخارجها يميلون إلى تصديق ادّعاءاته ؛ أمّا الذين ارتابوا في صدقها فقد اتّهموا بسوء النيّة وبالتحامل على اليهودي « المسكين » .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ فقد انقلب اليهودي بين ليلة وضحاها

من دعاة التحرّر وأنصار الحرية الملتهبين غيرة وحماسة ، وما عتّم حتّى حمل راية التقدم ومشى في طليعة ناشري الأفكار الجديدة . إلاّ أن هذا لم يمنعه من الاستمرار في تقويض أسس الاقتصاد القومي ، وقد تمكّن من التسلّل إلى حقل الإنتاج من طريق الشركات المساهمة مجرداً بذلك الصناعة الألمانيّة من الأسس التي تقوم عليها الملكيّة الفردية . وسرعان ما ترتّب على تدخّله قيام هوّة سحيقة بين أرباب العمل وعمالهم نجم عنها فيما بعد انقسام المجتمع إلى طبقات .

وشدّد اليهودي في الوقت نفسه قبضته على البورصة ممّا أتاح له الإشراف المطلق على نشاط الأمّة في كلّ حقل . وحرصاً منه على تقوية مركزه في الدولة عمل جاهداً في سبيل دكّ الحواجز التي كانت تعوق خطاه كعنصر دخيل يريد أن يمثّل دوراً رئيسيّاً . وكان عليه أن يبدأ بالدعوة إلى التسامح الديني ، فاستخدم الماسونيّة — وكانت قد أضحت أداة طيّعة بين يديه — في تحقيق هذه الغاية . وكانت الماسونيّة قد جذبت إلى شراكها الحكام والنبلاء وأقطاب الاقتصاد والبورجوازيّين ورجال الفكر .

ولكن الشعب الحقيقي ، الشعب الذي استيقظ ونهد لاستخلاص حقوقه وحريته بوسائله الخاصّة ، لم يقع في الشراك اليهوديّة ، وقد أدرك اليهود أن إخضاع السواد لسيطرتهم لا يمكن أن يتم من طريق الماسونيّة ، فوضعوا نصب أعينهم تهويد الصحافة أو توجيهها على الأقلّ فيتمّ لهم بذلك بسط إشرافهم على الحياة العامّة . وفي الوقت نفسه تظاهروا بأنّهم متعطشون إلى المعرفة ، وما ضنّوا بالثناء على كلّ حركة تقدميّة واختصّوا بثنائهم الحركات التي يترتب على نجاحها خراب الآخرين . أمّا التي تعود بالنفع على البشر فقد حاربوها دون ما هوادة ، لأن «بروتوكول حكماء صهيون» قد أوصى بمحاربة كلّ حضارة حقيقيّة والوقوف في طريق كلّ تقدم حقيقي ، لأن هذا وتلك لا يخدمان الأهداف اليهوديّة .

بيد أن تظاهر اليهود بالعمل على إسعاد البشريّة ونشر العلوم والأفكار الجديدة لم يصرفهم عن تعهّد خصائصهم كشعب وعن الحفاظ على طابعهم المميز . كانوا يلقون بنسائهم في أحضان الألمان النافذين ولكنهم حرصوا دائماً على نقاوة دم «الشعب المختار» بمنع أبنائه الذكور من الاختلاط بالألمانيّات . لقد وضعوا نصب أعينهم تسميم دم الشعوب بهذا الأسلوب الفذّ ، ولتغطية لعبتهم وتضليل ضحاياهم راحوا يبشرون بالمساواة بين البشر بقطع النظر عن الجنس واللون والمعتقد . ولما تبين لهم أن السواد لا يزال يعدهم شعباً غريباً وعنصراً خطراً ، أوعزوا إلى صحافتهم بأن تعطي عن اليهود صورة تجعل منهم شعباً مسالماً ، «مسكيناً» يهمّه أن يعيش وأن يدع غيره يعيش . وفي الوقت نفسه حملوا لواء الديموقراطيّة أو ما كان يسمّى في ذلك الحين نظام التمثيل الشعبي. وقد كان اليهود مخلصين للفكرة لأن النظام البرلماني يتكفّل باستبعاد اللامعين والأكفاء ، ليكل مقدرات البلاد إلى البُلْه والعاجزين والجبناء .

• • •

ترتّب على التطوّر الاقتصادي اختلال التوازن الاجتماعي من حيث انقسام الشعب إلى طبقات . فقد رافق زوال الحرف الصغيرة شيئاً فشيئاً تكاثر عدد العمّال الذين يكدحون لحساب الآخرين ليؤمنوا كفافهم اليومي دون أن يوفر لهم عملهم أسباب الاطمئنان إلى غدهم . كما رافق ظهور عمال المصانع ظهور طبقة البروليتاريا (الصعاليك) الذين كان شبح الشيخوخة يقضّ مضاجعهم لأن نظام العمل لم يعنَ بمصيرهم بعد انفكاكهم عن عملهم .

كانت الدولة قد واجهت مشكلة من هذا النوع عندما قامت طبقة الموظفين والمستخدمين إلى جانب الزراع والعمال اليدويين أو الحذّاق . فقد تبين للدولة أن موظفيها يؤمنون الكفاف ولا شيء غير الكفاف ، فعالجت هذا النقص باعتمادها نظام التقاعد ، وما عتمت المشاريع الخاصة حتى حذت

حذو الدولة ولكن على نطاق أضيق .

ولكن مشكلة العمال قد برزت بشكل معضلة صعبة الحلّ . فقد هجر الأرياف ملايين الرجال طلباً للرزق في المدن الكبرى وذلك بالعمل في المصانع الحديثة النشأة . ولكن أبناء الريف من زراع وأجراء وعمال يدويين لم يألفوا بسهولة جوّ العمل الجديد وشروطه الصعبة . فالوقت لم يكن عاملاً أساسيّاً في ما كانوا يتعاطونه من أعمال قبل هبوطهم المدن والتحاقهم بالمعامل والمصانع ، وهو هنا عامل أولي . وقد ترتب على تشغيل عامل في المصنع بضع عشرة ساعة في اليوم – وهي المدة التي كان العامل يقضيها في العمل قبل تطوير الصناعة – ترتب على هذا التدبير إلحاق أكبر الأذى بصحة الكادحين ، لأن شروط العمل قد تغيرت ، وما كان مقبولاً في الصناعة العادية أضحى إرهاقاً للعامل في صناعة تقتضيه مجهوداً متواصلاً طيلة ١٤ أو ١٥ ساعة لا تتخلّلها فترة راحة .

ولو وقف الأمر عند هذا الحدّ لهانت المصيبة . ولكن العامل كان يتقاضى مقابل عمله المضني أجراً زهيداً لا يؤمن له الكفاف ، في حين كان ربّ العمل يجني أرباحاً طائلة .

وهكذا نشأت طبقة جديدة هي طبقة العمال الكادحين أو البروليتاريا ، وقد كان على الأمّة أن تجعل من هذه الطبقة التي تضمّ الملايين عضواً له شأنه في المجتمع بدلاً من أن تدعها لمصيرها ليستغلّها أعداء الأمّة . أجل كان على الأمّة أن تلتفت إلى الملايين من الرجال الأقوياء ، فتجعل منهم درع الوطن وسيفه . ولكنّها لم تفعل وتركت الأمور تجري في أعنتها . أمّا اليهود فقد أدركوا بثاقب نظرهم أن البروليتاريا يمكن أن تغير مجرى التاريخ ، فتقرّبوا منها وتبنّوا قضيّتها ومفهومها للعمل وشروطه ونتائجه ، دون أن يتخلوا عن أسلوبهم الرأسمالي في استحلاب الناس . وسرعان ما أضحى اليهودي قائد الحملة العماليّة ، هذه الحملة التي كانت في الأصل موجّهة

ضدّه هو ولكنّه عرف كيف يتنصّل من كلّ تبعة ليلقي الوزر على الأبرياء .

أجل تبنى اليهودي قضيّة البروليتاريا ليحارب بالعمال الناقمين طبقه البورجوازيين ، وكان من قبل قد حارب بهؤلاء طبقة الإقطاعيين ، واستند إليهم في المطالبة بالحقوق المدنيّة ، وراحت الدعاوة اليهودية البارعة توجّه الحركة العمالية توجيهاً يتفق وهدف اليهودية الأسمى : السيطرة على العالم .

وهكذا أضحت مهمة العامل النضال المستمر من أجل مستقبل الشعب اليهودي وألفى نفسه ، دون أن يشعر ، في خدمة الفريق الذي يحتكر كلّ شيء . وقد قضى التكتيك اليهودي بإيغار صدر العامل على الرساميل الدوليّة ، ولكن الهدف الحقيقي للحملة كان الاقتصاد القومي ، حتى إذا انهار هذا الاقتصاد أتيح للبورصة العالميّة أن ترقص على أنقاضه .

أما طريقة اليهود في بثّ المبادىء الهدّامة فقد كانت غاية في الوضوح والبساطة :

كان رسلهم يتظاهرون بالعطف على العامل ويستدرجونه إلى الإفضاء بما يعتمل في صدره ، ثمّ يتحدثون إليه حديث من يشعر معه ويحرص على تحسين مستواه ويهيبون به أن يناضل في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية ، وبهذا الأسلوب يلقون بذور العقيدة الماركسيّة ، ثم يتصلون بأرباب العمل ويستعدونهم على العمال « الذين لا يرضيهم شيء والذين يتقدّمون بمطالب لا يمكن التسليم بها » .

ذلك أن وراء المبادىء الاجتماعيّة البحتة تكمن نيّات ومرام شيطانيّة . ولعلّ أبرز ما في العقيدة الماركسية كونها خليطاً من مبادىء بعضها معقول وبعضها الآخر لا يمكن أن يقول به عاقل . ولكن هذا الخليط العجيب مركب بشكل يجعل ما كان منه غير معقول قابلاً للتحقيق ، أمّا المعقول فتحقيقه في حكم المستحيل . والعقيدة الماركسيّة بإنكارها على الفرد وبالتالي الأمّة والعرق الذي تمثله ، حقّه في الوجود ، إنّما تهدم الأساس المبدئي لكلّ

ما يؤلف الحضارة ، وتهدم بالتالي الحاجز الرئيسي الذي يعترض محاولات العنصر اليهودي للسيطرة على العالم .

• • •

بدأ اليهود بتخدير غريزة حبّ البقاء عندما نشروا في الأوساط الفكريّة بواسطة الماسونيّة والصحافة الخاضعة لتوجيههم المبادىء السلميّة وتعاليم الثورة الفرنسية ، وتعهدت الصحافة من ثمّ الترويج لهذه التعاليم وتلك المبادىء في الأوساط الشعبية والبورجوازية . فلمّا نشأت في البلاد الحركة العمالية تعهدها اليهود ليجعلوا منها قوة هجوميّة يطلقونها في الوقت المناسب للإجهاز على أمتنا التي فتحت لهم ذراعيها . ولتحقيق هذا الغرض وجّه اليهود نشاطهم وجهتين تلتقيان في النهاية عند نقطة واحدة : فقد نظموا في البلاد الحركة النقابية بحجة حماية مصالح البروليتاريا ، وفي الوقت نفسه وجهوا هذه الحركة شطر السياسة ليستغلوها في خدمة أغراضهم .

كان على الحركة النقابية أن تحمي العمال وتمدهم بما يحتاجون إليه في الكفاح الذي ألجأهم إليه جشع أرباب العمل وقصر نظرهم . وقد دفع العمال إلى الانتظام في النقابات ومشايعة الحركة النقابيّة رفض الطبقة البورجوازية تحديد ساعات العمل والكفّ عن تشغيل الأولاد وتحسين شروط العمل في المصانع والمشاغل . أمّا اليهوديّ الذي زيّن للبورجوازية تجاهل مطالب البروليتاريا فقد تبنّى قضيّة العمال وما لبث أن تزعّم حركتهم دون أن يكون في نيته إبلاغهم ما يصبون إليه ، فقد كان يهدف من تدخله إلى استخدام الطبقة المناضلة في تقويض دعائم الاقتصاد القومي . وهذا لا يكون إلاّ بتوسيع شقة النزاع بين البروليتاريا وأرباب العمل ، ولتحقيق هذا الغرض تعمّد تعجيز البورجوازيين بأن جعل المطالب العمالية غير معقولة ، فأدى رفضها إلى تفاقم النزاع وإلى استحكام العداء بين أبناء الأمّة الواحدة ، أمّا الثمن الباهظ فقد دفعه الاقتصاد القومي من استقلاله .

أجل استطاع اليهود أن يجعلوا من الطبقة العاملة أداة تخريب خطرة بعد أن كانت عاملاً من عوامل الازدهار . كلّ هذا والدولة في شاغل عمّا يجري بالسياسات الحقيرة التي عرف اليهود كيف يستدرجون إليها الساسة والحكام .

ما اكتفى اليهود باستخدام الحركة العماليّة في أغراضهم الاقتصادية ، بل استخدموها على الصعيد السياسي أيضاً بتحويلهم النقابات إلى مؤسسات سياسيّة ، وسرعان ما استأثرت السياسة باهتمام العمال النقابيين فكفّوا عن النضال في سبيل الحصول على شروط أفضل بصفة كونهم كادحين ، ليضعوا أسلوبهم النضاليّ الفذّ ، أي الإضراب ، في خدمة الفكرة السياسيّة المختمرة في رؤوسهم . وتولّت الصحافة العاملة لحساب اليهود أو الخاضعة لتوجيههم إشاعة روح الفوضى والحضّ على كراهية كلّ ما أجمعت الأمّة على حبّه وتقديسه . ولا يخفى ما لهذه الدعاوة الخبيثة من تأثير بالغ في الطبقات الوضيعة .

كان على الصحافة المأجورة أن تدكّ كلّ حاجز يعترض انطلاق اليهود نحو هدفهم الأسمى ، وأن تحطّم كل رجل ذي سجيّة تأبَى عليه كرامته أن يكون مطية للشعب الدخيل كما تأبَى عليه وطنيّته أن يدع هذا الشعب يتلاعب بمقدّرات أمّته ، وكلّ رجل لامع يمكن أن تشكل مواهبه خطراً على اليهود . ذلك أن « الشعب المختار » يعتبر عدوّاً له كلّ من يؤهله مركزه وقوّة شخصيّته ودرجة تحصيله لقيادة أمته في معارج الرّقيّ والعظمة . أمّا الحرب التي يعلنها على ذوي النفوس الكبيرة فقد كانت ولا تزال وستبقى حرباً غير شريفة سلاحه فيها الافتراء والكذب . والمؤسف حقّاً أن حملات الافتراء اليهودية تؤتي ثمارها في معظم الحالات إذ لا يلبث الرأي العام أن يتنكّر للضحية المطعون في إخلاصها ونزاهتها وكفاءتها .

• • •

بعد أن تمّ لليهود الإشراف الفعلي على الدولة اقتصادياً وسياسياً وفكرياً تخلوا عن تحفظهم التقليدي وكشفوا عما يسمّيه أئمّتهم « مرامي اليهوديّة

عالميّة » أو الصهيونيّة وكفّوا عن الادّعاء أنّهم جماعة دينيّة ليصارحوا الناس في كلّ مكان بأنّهم يؤلّفون عرقاً له طابعه وخصائصه ، وأن مطمحهم القومي هو إنشاء وطن في فلسطين لا تكون له معالم الدولة بمفهومها الحديث بل يكون الأرض التي يتطلّع إليها اليهود المنتشرون تحت كلّ كوكب على أنّها الملجأ الأخير الذي إليه يفزعون .

وقد دلت الصفاقة التي بدأوا يظهرونها في معاملة الشعوب التي أضافتهم وفي مخاطبة الحكام ومقارعة الخصوم — دلّت على أنّهم باتوا موقنين بأن كلّ شيء أضحى في متناول أيديهم ، وأن انتصارهم وشيك ، ولكنّهم لم يدعوا شيئاً للصدف ، فتابعوا مساعيهم الرامية إلى خفض مستوى الأجناس بتسميم دم الأفراد . (جاء اليهود بالزنوج إلى ريتانيا لاستخدامهم في إفساد دم شعبنا والقضاء على مواهبه المبدعة) وبعد أن حقّقوا أغراضهم على ظهر الديموقراطيّة تخلّوا عنها ليدعوا لدكتاتورية البروليتاريا . ووجدوا في السواد الماركسي المنظم الأداة التي تمكنهم من إخضاع الشعوب لحكم الحديد والنار . وفي الوقت نفسه واصلوا خطّتهم التقليدية : نسف الاقتصاد القومي وتجريد الدولة من معالم البقاء بتشويه سمعتها وتحريض المواطنين على الثورة ، ومسخ التاريخ والانتقاص من قيمة المقدسات ، ومسخ مقومات الحضارة كالفنّ والأدب ومفاهيم الجمال والنبل والخير . وعلى الجملة عملوا على إضعاف معنويات الشعب بحيث يتقاعس عن النضال في سبيل البقاء .

وقد أحرز اليهود انتصارهم العلني الأوّل في روسيا حيث تسبّبوا في هلاك ثلاثين مليوناً من البشر ليتسنى لهم إخضاع شعب كبير لسيطرة لصوص الأدب والبورصة .

وإذا استعرضنا العوامل التي سبّبت الانهيار الألماني نجد أن إغفالنا أهميّة المسألة العرقيّة يأتي في طليعة هذه العوامل ، فلولا هذا الإغفال لما كتب لبلادنا أن تواجه شيئاً اسمه الخطر اليهودي .

لقد كان في وسعنا احتمال الهزائم التي منينا بها في آب ١٩١٨ ، وليس مردّ سقوطنا إلى خيانة الحظّ لنا ، فقد جرّتنا إلى هذا المصير المحزن القوّة التي مهدت لهزيمتنا بتجريدها شعبنا من القوى والغرائز السياسيّة والمعنويّة التي بدونها لا تقوم لشعب قائمة .

إن الشعوب التي تتبذّل لا تلبث أن تفنى في الجنس الأدنى الذي يخالط دمه دمها . أمّا التي تصون دمها نقيّاً فإنّها تتغلّب على الصعاب وتذلل كل عقبة تعترض نموّها وتقدّمها . والهزيمة العسكرية تكون بالنسبة إلى هذه الشعوب مهمازاً يحثّها على النهوض وإعداد نفسها للجولة المقبلة إعداداً يضمن لها الفوز .

أجل كانت هزيمتنا نحن النتيجة المنطقيّة لواقعنا القومي . فكلّ ما نشكو منه في حقول السياسة والاقتصاد والإدارة والتوجيه مبعثه وجود شعب غريب استدرجنا إلى التبذّل والاستهتار وعمل على إفساد دمنا .

يخطىء من يظنّ أن جميع الزعماء السياسيّين في الريخ السابق كانوا غير مؤهلين لإدارة شؤون البلاد . فقد ولي الأحكام منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى أيّامنا رجال أكفاء ، وآخرون كانت تعوزهم الكفاءة ولكن لم تعوزهم الإرادة الحسنة والرغبة الأكيدة في العمل . بيد أن جهود هؤلاء وأولئك راحت سدى لأنّهم توفّروا على مراقبة سير المرض دون أن يتوصّلوا إلى معرفة منشئه . ويمكن القول إن التفسّخ الداخلي في الريخ قد رافق الوحدة الألمانيّة ومشى والازدهار جنباً إلى جنب . فقد كانت الزيادة المطردة في عدد النوّاب الماركسيين نذيراً بقرب الانهيار الداخلي . أمّا انتصارات الأحزاب البورجوازية فقد كانت عديمة القيمة لأن هذه الأحزاب كانت تحمل في ذاتها بذور الانحلال ، ولم تكن مستعدّة للاستمرار في الكفاح إلى النهاية لانصراف أقطابها إلى الاهتمام بشؤونهم الخاصّة واستنباط الوسائل القمينة بمضاعفة ثرواتهم . وفي هذه الأثناء كان اليهودي يعمل جاهداً في سبيل هدفه الأسمى ويمضي نحو هذا الهدف بقدم ثابتة ، شاقاً طريقه بين أنقاض حضارة شعبنا .

الفصل الحادي عشر

الحزب في العمل

في العام ١٩١٨ انشطر الشعب الألماني شطرين ضمّ أولهما طبقة المفكرين وذوي الألباب ، وهي ذات نزعة قوميّة غير صريحة إن لم نقل سطحيّة ، لأنّها كانت تمثّل مصالح تتمشّى ومصالح الملكية ، وإن تكن في ظاهرها لاصقة بالدولة . وقد حاولت هذه الفئة تحقيق مثلها وبلوغ أهدافها بالأسلحة الفكريّة . ولكن هذه الأسلحة الضعيفة لم تستطع شيئاً حيال الخصم الشرس ، وقد رأينا العدو يلقي هذه الطبقة أرضاً بضربة واحدة ويرغمها على قبول شروط تعمّد بها إذلال شعبنا .

أمّا الشطر الآخر فقد ضم السواد الأعظم من العمال اليدويّين ، وقد انتظم هؤلاء في حركات ذات نزعة ماركسيّة متطرّفة إلى حدّ ما ، تهدف إلى سحق كلّ من يقف في طريقها ولا تعترف بالمصالح القوميّة ، ولا تقيم وزناً للمثل العليا . وكان أخطر ما في الحركات العماليّة المتطرّفة انضواء الأكثرية الساحقة من المواطنين تحت لوائها ، واشتمالها على عناصر لا يمكن أن يتحقّق بدونها الإنعاش القومي . ذلك بأن الضغط الأجنبي على شعبنا لا بدّ أن يتزايد لدى استئناف ألمانيا سيرها على دروب العزة والكرامة . ولمواجهة هذا الضغط ينبغي لنا أن نتسلح بقوة الإرادة . ألم يتوفّر لدى ألمانيا السلاح بكميات هائلة ؟ ومع هذا خسر الألمان المعركة لافتقارهم إلى القوى المحركة التي تستمدّ فعاليتها من غريزة حبّ البقاء . فإنعاش ألمانيا وبعث قوّتها لا يحتاجان إلى سلاح مادي ، وليس المهمّ أن نسائل أنفسنا : « كيف نتدبّر الأسلحة اللازمة ؟ » بل المهمّ أن نعرف كيف ننفخ في شعبنا الروح الذي يجعله جديراً بحمل السلاح ، ومتى سلمنا بأن محاولات البعث والإنعاش يجب أن

تقوم على هذا الأساس نجدنا حيال المسألة الدقيقة التي ألمعت إليها آنفاً ، أي اشتمال الحركات العمالية المتطرفة والمتنكّرة لقوميتها على عناصر لا يمكن أن يتحقق الإنعاش بدونها . إذ كيف نتصوّر النهوض بدولة ينزع سواد الشعب فيها إلى الأخذ بمبادىء لا قوميّة ؟

كان على حركة ناشئة كحركة حزبنا تتصدى لبعث الدولة الألمانيّة وردّ اعتبارها إليها أن تعمل جاهدة في سبيل اجتذاب السواد الأعظم إلى صفوفها ، لأن السواد يؤلف العنصر الفاعل في الأمّة وبدونه تذهب هباء جميع المحاولات الرامية إلى تحرير شعبنا .

لم يكن ثمّة من خطر على حركتنا القوميّة من جانب البورجوازية ذات الآفاق الضيّقة والنزعة القومية المشوّشة . فكلّ ما تستطيعه هذه الطبقة هو إبداء مقاومة سلبيّة كالتي أبدتها في عهد بسمرك بانتظار ساعة الخلاص .

ولكن مهمّتنا بدت لنا شاقّة لدى السواد من المواطنين الذين بهر عيونهم زخرف الدعوة الأمميّة والتعاليم الماركسيّة فتنكّروا لأمتهم وكفروا بقوميتهم وجنحوا إلى العنف بتحريض من قادتهم اليهود . ولم يعزب عن بالنا أن الماركسيين وحلفاءهم قادرون على إحباط كلّ محاولة تهدف إلى النهوض بألمانيا كما أحبطوا في الساعات الحاسمة المجهود الصناعي في المؤخرة ليقصموا في الجبهة ظهر الجيش الألماني .

ولم يفتنا كذلك أن الماركسيين وحلفاءهم قادرون ، بفضل تفوّقهم العددي الساحق ، على منع الدولة الألمانيّة ذات النظام البرلماني من نهج سياسة خارجيّة ذات مخطط قومي ، وقادرون بالتالي على إظهار ألمانيا بمظهر الدولة المتفككّة بحيث لا تجد من يحالفها أو يؤمن بإمكان التعاون وإيّاها ، ما دام سواد الشعب ، أي العنصر النشيط : يعرقل ، وإن سلبيّاً ، كلّ سياسة داخليّة بنّاءة وكلّ خطوة خارجيّة حازمة .

وقد أدركنا منذ اللحظة الأولى أن الشعب الألماني لن يعود إلى احتلال

مركز الصدارة قبل أن يصفّي حساب الذين سبّبوا انهيار الدولة ثم استغلّوا هذا الانهيار . فتشرين الثاني ١٩١٨ لم يكن خيانة عادية ، إنّما كان جريمة بحقّ الوطن . أجل لن يقوى شعبنا على إعداد نفسه للمهام الكبرى قبل أن يقضي القضاء المبرم على الأعداء الداخليين وفي مقدمتهم اليهود ، وقبل أن ينتزع من رؤوس ملايين الألمان الذين يعرقلون مشروعات الإنعاش المفهوم الماركسيّ للدولة ، ومن قلوبهم الحقد على أمّتهم .

ولئن يكن اجتذاب السواد قد شكّل منذ اللحظة الأولى الهدف العاجل لحركتنا ، فقد أدركنا ، ونحن نعدّ العدّة للشروع في العمل ، أن نشاطنا يجب أن يتعدّى الترضيات الموقوتة إلى إيجاد أسس ثابتة يقوم عليها صرح التعاون بين فئات الشباب الألماني ، أمّا التكتيك الذي قرّرنا اعتماده منذ سنة ١٩١٩ فقد ركزناه على المبادىء الآتية :

أوّلاً : كل تضحية ترخص في سبيل استمالة السواد إلى حركة الإنعاش القومي.

ذلك بأن التنازلات الاقتصادية التي تحصل لمصلحة العمال تظلّ ، مهما بلغت ، دون الفوائد التي تجنيها الأمّة في حال مساهمة هذه التنازلات في إدخال الطبقات الشعبيّة ضمن الجسم الاجتماعي التي هي جزء منه لا يتجزأ . ولو أن النقابات صانت ، خلال سنوات الحرب ، مصالح العمال وانتزعت من أرباب العمل ، حتى بالإضرابات ، موافقتهم على مطالب عمالهم ، ولو أنّها أعطت للوطن ما يعود إلى الوطن ، لما انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا .

ثانياً : لا يمكن تربية السواد تربية قوميّة إلاّ برفع المستوى الاجتماعي .

ثالثاً : إن استمالة السواد إلى الفكرة القومية لا تتمّ بأنصاف التدابير والجهود المتقطعة . فلا بدّ من تركيز الجهود ومواصلتها بعناد إلى أن تؤتي ثمارها . فلكي نجعل من شعبنا شعباً «قومياً»[1» ينبغي لنا أن نعمل قومياً

[1] عبر بعضهم بالعربية عن لفظة National بلفظة «وطني»، مع أن لفظة «قومي» تؤدي المعنى الذي يقصد إليه المؤلف .

ونعالج المعضلات بحزم ، فالسم يكافح بالعقار المضاد له ، وليس ينفع في مكافحته الرقى والتعاويذ .

إن السواد الأعظم لا يتألف من الأساتذة والدبلوماسيين ، فعبثاً نحاول ضمه إلى الحظيرة أو إعادته إليها بالنظريات العلمية ، فالسواد يؤخذ بالعواطف ، وفي هذا الحقل تكمن حوافز انتفاضاته من سلبية وإيجابية . وهو لا يتحفز للعمل إلا لمصلحة قوة ذات وجهة صريحة ؛ ولا يتحفز مطلقاً لمصلحة خطوة مترددة أو اتجاه مذبذب . على أن مشاعر الجمهور وعواطفه ليست كلها ثابتة مستقرة ، فما يراد إقامته على أساس ثابت يجب أن يرتكز على إيمان الشعب وتعصبه للمبدإ أو الفكرة التي يراد حمله على الدفاع عنها . فالإيمان أقوى على الصمود من العلم ، والمحبة أقدر على الاستمرار من التقدير ، والبغض أطول نفساً من النفور . ويعلمنا التاريخ أن الثورات الكبرى لم تحركها الرغبة في الدفاع عن فكرة علمية أو الحرص على نشر هذه الفكرة ، إنما حركها التعصب الأعمى لرأي أو فكرة أو عقيدة .

رابعاً : لا يمكن كسب ثقة الشعب ما لم يعمل العاملون ، إلى جانب اهتمامهم بتحقيق مثلهم العليا ، على تحطيم الحواجز التي تعترض سبيلهم ، مزيلين من الطريق أعداء حركتهم . ولا ننسى أن السواد يعتبر مهاجمة خصومه بعنف وقسوة حقاً من حقوقه بل واجباً مقدساً . ويرفض التسامح إزاء الذين يريدون ما لا يريد : فهو يفهم الحياة أنها بقاء الأصلح والأقوى ، فإما أن يزول الضعيف أو أن يسلم بدون قيد ولا شرط .

إن إشباع السواد بالفكرة القومية لن يؤتي ثماره ما لم ترافقه عملية تطهير تجتث العناصر التي دأبت على تسميمه .

خامساً : إن القضايا الكبرى في عصرنا ليست سوى ذيول لقضايا أعمق جذوراً ؛ ويأتي في رأس هذه القضايا الحفاظ على سلامة العرق بصون نقاوة الدم . فإذا فسد دم عرق من الأعراق بفعل الاختلاط تتفكك عرى الوحدة

الروحيّة وتنهار القوى المبدعة ، ويتقوّض صرح الحضارة . فعلى من يطمح إلى إخراج الشعب الألماني من المأزق الحالي أن يبدأ بتطهير صفوفه من الذين أفسدوه ، وعلى الأمّة الألمانية أن تبادر إلى مواجهة المسألة العرقية متخذة على ضوئها القرار الحاسم في المسألة بل المسائل التي يثيرها وجود اليهود بيننا .

سادساً : إن السواد الأعظم من الشعب الذي جذبته الماركسية إلى معسكر الأممية يمكن أن ينضمّ إلى الجماعة القوميّة دون أن يترتّب على انضمامه هذا تخلّيه عن حقّه في الدفاع عن مصالحه . مع العلم أن تضارب المصالح – مصالح مختلف الهيئات – ليس بالواقع الذي يبرّر قيام نزاع بين الطبقات ، لأن هذا التضارب ، بل لأن هذه المصالح نفسها ليست سوى النتيجة الطبيعية لتركيبنا الاقتصادي . ومتى أدركنا هذه الحقيقة نجد أن قيام تكتّلات حرفية أو مهنيّة لا يتعارض بشكل من الأشكال مع قيام المتّحد الشعبي وبالتالي الدولة القوميّة .

وانضمام طبقة من الطبقات إلى المتحد الشعبي أو إلى الدولة لا يتمّ بانخفاض مستوى الطبقات العليا ، إنّما يتمّ برفع مستوى الطبقات الوضيعة . فبورجوازية اليوم لم تندمج بالدولة لأن طبقة النبلاء شاءت أن تفسح لها في هذا المجال متنازلة عن بعض امتيازاتها ، بل لأن البورجوازية قد استحقّت وضعها الجديد بنشاطها وثباتها . ويمكن القول إن العامل الألماني ما توصل إلى أن يكون قوة فاعلة في المجموعة الألمانيّة إلا بعد أن نجح في جعل مستواه الاجتماعي والثقافي موازياً لمستوى سائر الطبقات .

ولئن يكن عمّال اليوم قد تنكّروا للفكرة القوميّة فليس مردّ هذه الظاهرة الخطيرة إلى كونهم منتظمين في هيئات تعاونيّة أو نقابات تقدّم مصلحة العامل الخاصة على مصلحة المجموع ، فمسؤولية هذا الانحراف تقع على المحرضين الذين نفخوا وينفخون في العمال روحاً يجعل منهم أعداء الوطن والشعب ويجندهم لخدمة أغراض المغامرين الدوليّين ومصالح اليهودية العالميّة . فإذا طهّرت صفوف النقابات من هؤلاء المحرضين ووجهت توجيهاً قومياً

وشعبياً صحيحاً فإنّها تصبح قادرة على مهر المجتمع الألماني بعنصر صالح ، هو أوفر أعضاء هذا المجتمع إنتاجاً وأقدرها على حمايته وصون تقاليده ومقدساته .

ولكن مسؤولية المحرضين لا تنفي بحال من الأحوال مسؤولية أرباب العمل . وكلّ محاولة ترمي إلى إعادة العامل الألماني إلى الحظيرة تظلّ عقيمة ما لم يسبقها تطهير صفوف أصحاب المشاريع (أرباب العمل) من الأنانيين والجشعين الذين يتعارض مفهومهم للعمل مع المبادىء التي يجب أن يقوم على أساسها التعاون بين أعضاء المجتمع الواحد ليعود تعاونهم بالنفع على الجميع ، فرب العمل يعتقد أن مجرد اندماج العامل في الجماعة الشعبيّة يجرّده ، في الميدان الاقتصادي ، من الوسائل التي اعتاد أن يستخدمها في الدفاع عن مصالحه ومقارعة مستخدميه . ويعتقد رب العمل كذلك أنّ كلّ محاولة لحماية مصالح العمال الاقتصادية ، حتى ما كان منها حيوياً ، تشكل اعتداء على مصالح الجماعة . إن مكافحة هذه النظرية تأتي في رأس المهام التي يتعين على الحزب الجديد أن يضطلع بها .

لا جدال في أن عاملاً يتعمّد تعجيز ربّ العمل بمطالب غير معقولة ، ويجنح إلى العنف كلما عنّ له إرهاب مستخدمه — إن عاملاً هذا شأنه يرتكب بحقّ أمّته ووطنه جريمة لا تقلّ بشاعة عن جريمة الخيانة . وكذلك ربّ العمل الذي لا همّ له سوى جني الأرباح الطائلة والذي يجعل منه تحجر عواطفه حليفاً ثميناً للماركسيين والمصطادين في الماء العكر .

إن نشاط حزبنا يجب أن يوجّه إلى محيط العمال بالدرجة الأولى ، ليعمل على إنقاذهم من أحابيل المغامرين الدوليين وعلى تحسين مستواهم الاجتماعي بحيث يصبحون عنصراً شديد المراس ، مشبعاً بالفكرة القوميّة ، لا تؤثر فيه الدعاوات المضللة . ولن يرفض الحزب الجديد التعاون في هذا الحقل مع العناصر القوميّة الواسعة الآفاق ، ولكنه لن يفعل شيئاً في سبيل اجتذاب

البورجوازيين لأن هذه الطبقة ستكون عالة على الحزب وربّما ترتّب على تعاونها وإيّاه نفور العمال منه . يضاف إلى هذا أن البورجوازيين مهما قيل في نقائصهم وعيوبهم ، مشبعون بالفكرة القوميّة إلى حدّ ما ، ونحن إنّما نسعى لاجتذاب أعداء القوميّة وإعادة من كان منهم ضالاً إلى الحظيرة .

سابعاً : لكي تقترن دعاوة الحزب الجديد بنتائج مشجعة يجب أن تمارس في اتجاه وحيد ، أي يجب أن توجّه إلى أحد المعسكرين اللذين يؤلفان الكثرة الساحقة ، ذلك بأن التفاوت الملموس في المستوى الفكري يجعل الدعاوة البسيطة غير ذات موضوع بالنسبة إلى المتعلمين لاشتمالها على حقائق بديهيّة ، في حين تقصر أفهام غير المتعلّمين عن إدراك ما تحاول الدعاوة الرفيعة استدراجهم إلى قبوله . وحتى طريقة التعبير لا يمكن أن تكون واحدة في التوجه إلى طبقتين اجتماعيتين لكلّ منهما وضعها الخاص ، فإذا لم تعتمد الدعاوة بساطة التعبير فإنّها تقصر عن إثارة عواطف السواد ، وإذا حرصت على أن يفهمها السواد ظلّت الأوساط الفكرية بعيدة عن متناولها .

بين مئة خطيب لا نجد عشرة يمكنهم أن يخاطبوا اليوم جمهوراً من الكانسين والحدادين ومنظفي الأقنية وأن يتوجهوا غداً إلى الأساتذة والطلبة ، معالجين الموضوع نفسه ومحرزين النتائج التي أحرزوها في اليوم السابق ، ولا يعزبن عن البال أن أجمل فكرة لا يمكن نشرها ، في أغلب الأحيان ، إلاّ بتبسيطها ، وأن نجاح فكرة ما يتوقف على مصيرها بعد أن يعبر عنها ناقلوها أكثر ممّا يتوقّف على مبلغها من السموّ .

وإنّنا لنلاحظ أن قوّة انتشار الاشتراكيّة ـ الديموقراطيّة ، ولنقل الحركة الماركسية ، تقوم على الوحدة : وحدة الأسلوب في مخاطبة الجماهير التي تنتمي إلى طبقة معينة . وقد أدرك الماركسيون أن السواد ، في تعطشه إلى المعرفة ، لا يسعه أن يهضم إلا التعاليم السطحية . فوضعوا في متناوله ما كان منها متلائماً واستعداده الفكري ، وعندي أنّه يحسن بالحركة الجديدة ألاّ تسمو بدعاواتها ،

شكلاً وموضوعاً ، فوق مستوى السواد ، وأن تجعل من النتائج الحاصلة قياساً للنجاح أو الإخفاق . ففي حفل شعبي يكون سيد الكلمة الخطيب الذي يغزو قلب السواد لا الخطيب الذي يصفق له ذوو الألباب من الحاضرين .

ولا ريب في أنّ « مفكّراً » يحضر حفلاً شعبيّاً وينتقد خطيب الحفل لأنّه لم يشرح فكرته على الصعيد العلمي ، هو آخر من تحتاج إليه حركتنا في صفوف المفكرين ، لأنّه يقدم الوسيلة على الغاية . إن حركتنا لفي حاجة إلى مفكرين يفهمون رسالتها وأهدافها ويصدرون في نظرتهم إلى دعاوة الحزب عن تقدير صحيح للظروف والملابسات ، تقدير يستند إلى النتائج الحاصلة لا إلى مدى تأثرهم هم بهذه الدعاوة غير الموجهة إليهم .

ثامناً : إن نجاح حركة إصلاح سياسيّ ليس السبيل إليه تنوير القوى الموجّهة أو التأثير عليها . فشرط النجاح هو إحراز القوة السياسيّة . والنجاح هو المقياس الوحيد لملاءمة فكرة ما لمصلحة المجموع . فالقول إن الحركة الثورية في ألمانيا قد أصابت نجاحاً كاملاً لمجرّد تسلّم الذين قادوا الحركة زمام الحكم ، هو قول هراء ؛ فالدليل الوحيد الذي يمكن الثورة أن تثبت به نجاحها هو كون الأمّة في العهد الجديد أكثر ازدهاراً منها في العهد السابق .

إن حركة تدرك منذ اللحظة الأولى أن إحراز القوة السياسيّة هو شرط أولي لنجاحها ، ينبغي لها أن تعتمد على تأييد السواد لها وأن تعمل على ضوء حقيقة بديهيّة هي أن الحركات الإصلاحيّة لا تقوم على سواعد روّاد الأندية الأدبية من محتسي الشاي ولا على سواعد لاعبي الشطرنج من أبناء البورجوازية .

تاسعاً : الحركة الجديدة هي في جوهرها وفي تنظيمها ضدّ النظام البرلماني ، أي أنها لا تعترف بسيطرة الأكثرية ؛ هذا المبدأ الذي يجعل من رئيس الحكومة منفذاً لمشيئة الآخرين . إن حزبنا يحصر المسؤوليّة بشخص الرجل الذي يتسلّم مقدرات الدولة ؛ ويحصرها كذلك بشخص زعيمه . وهذا المبدأ يجب أن يطبّق في نطاق الحزب على النحو الآتي :

يعين زعيم الحزب رؤساء الفروع ويكون رئيس كل فرع مسؤولاً عن فرعه أو المجموعة التي يرئسها ، وتوضع اللجان الحزبيّة تحت تصرفه ولكنه لا يؤدي لهذه اللجان أي حساب ، لأن مهمتها هي درس المسائل التي يحيلها إليها رئيس الفرع .

زعيم الحزب هو المسؤول الوحيد الذي يتبوّأ مركزه بالانتخاب ، وتتولّى انتخابه الجمعية العموميّة . وهو مطلق الصلاحية لأنّه يضطلع بمسؤولية جسيمة . فإذا خرق دستور الحركة أو فرط بمصالحها عمل أنصاره على إسقاطه وانتخبوا زعيماً جديداً .

ومبدأ حصر المسؤولية بشخص زعيم الحزب يجب أن يطبق في نطاق الدولة نفسها . فعلى من يطمح إلى مركز الزعامة أن يحمل إلى جانب السلطة غير المحدودة ، عبء المسؤولية الكاملة . أما الذي يجبن عن مواجهة مسؤولياته وتحمل نتائج عمله فإنّه غير خليق بأن يكون زعيماً ، إن قيادة الناس مهمّة لا يحسن أداءها إلا الأبطال .

إن التقدم والحضارة هما ثمرة العبقرية ، ولا يمكن أن يكونا ثمرة ثرثرات الأكثرية . وحزبنا يحارب النظام البرلماني لأنّه يقصي الصفوة من الميدان ويطلق أيدي الدجالين والخونة في شؤون الدولة .

عاشراً : ترفض حركتنا تحديد موقفها من المسائل الخارجة عن نطاق عملها السياسي أو التي تبدو ذات أهمية ثانوية ، فهي لا تهدف إلى تحقيق الإصلاح الديني وترى في كلتا الطائفتين الدينيتين إحدى الدعائم التي يرتكز عليها بقاء شعبنا ، وتحارب دون ما هوادة الأحزاب التي تنكر على الدين دوره الأساسي كسند معنويّ لتستخدمه في أغراضها السياسيّة .

تهدف حركتنا إلى إعادة تنظيم شعبنا على الصعيد السياسي ، ولكنها لن تتصدّى لإقامة شكل معين من أشكال الحكم ، فالملكية والجمهورية سيّان في نظرها ، فقيافة الدولة تأتي في المقام الثاني ، والأهمّ هو تقرير المبادىء

الأساسيّة الّتي يجب أن تقوم عليها الدولة الجرمانيّة المثلى .

أما تنظيم الحركة تنظيماً داخليّاً فواضح أنّه متّصل بالغاية الّتي وضعها حزبنا نصب عينيه ، وقد أوضحت لرفاقي منذ اللحظة الأولى أن النظام الأفضل هو الذي لا يقيم بين الزعيم وأنصاره جهازاً ضخماً من الوسطاء ، وأن التنظيم هو نقل فكرة معينة إلى عدد كبير من الناس بعد أن تكون قد اختمرت في رأس رجل واحد . وعندي أن التنظيم هو ، أولاً وآخراً ، شرّ لا بدّ منه . وهو ، فوق هذا ، واسطة وليس غاية .

وما دام العالم فقيراً بالأدمغة المفكرة الّتي تقود المخلوقات الآلية فالتنظيم يظلّ مهمة يسيرة بالنسبة إلى تجسيد فكرة ما ، والفكرة تشقّ طريقها مجتازة المراحل الآتية :

تخرج الفكرة من دماغ رجل ذي رسالة فيبشر بها ويجمع حوله وحولها عدداً من الأنصار . ونقل الفكرة مباشرة من صاحبها إلى أنصاره هو الطريقة المثلى ، ولكن هذا النقل يصبح متعذراً متى ازداد عدد الأنصار وتصبح الاستعانة بالوسطاء شرّاً لا بدّ منه ، وهذا ما يحتّم التنظيم على أساس إنشاء شعب وخلايا محلية ، بيد أنّه لا يجوز التسرّع بإنشاء هذه الفروع قبل أن تترسّخ سلطة مؤسس الحركة في المركز الرئيسي لحركته . فسحر مكّة وروما يمد الإسلام والكثلكة بقوة مبعثها الوحدة الداخلية وخضوع المؤمنين للرجل الذي يعتبره المؤمنون رمز هذه الوحدة . من هنا وجوب إحاطة المكان الذي انطلقت منه الفكرة بهالة من القدسيّة تجعله محجة للأنصار ، ورمز وحدتهم .

يتضح مما أسلفنا أن القواعد الّتي يجب أن يقوم عليها تنظيم الحركة داخليّاً هي الآتية :

١ — حصر النشاط بادىء ذي بدء في مـــدينة واحدة هي ميونيخ حيث تحتشد مجموعة من الانصار المتحمسين ، ويصار الى تأسيس مدرسة لتنشئة رسل الحركة . وفي الوقت نفسه يجتهد الحزب في إثبات وجوده وفي تبديد

ما علق بالأذهان حول استحالة قيام حركة جديدة قادرة على الوقوف في وجه الماركسية والتغلّب عليها .


أدولف هتلر عام ١٩٢١

٢ – لا يصار إلى إنشاء شعب محلية ما لم ترسخ سلطة المركز في ميونيخ .

٣ – لا يصار إلى إنشاء فروع إقليميّة ما لم تتوفّر الأدلّة الكافية على خضوع الأنصار للمركز الرئيسي وتقيّدهم بتعليماته . هذا مع العلم أن إنشاء مراكز إقليميّة يتوقف على توفر العدد اللازم من الأفراد الذين يمكن أن يعهد إليهم الحزب بإدارة هذه المراكز . فإذا كان الحزب يملك الوسائل الماليّة اللاّزمة عمل على اجتذاب الأفراد الأذكياء وتنشئتهم التنشئة التي تؤهلهم للقيادة . وهذه الطريقة عملية وسهلة ، ولكن الذين ينتدبون لإدارة الفروع الإقليمية ينفكون عن أعمالهم العادية ، فعلى الحزب والحالة هذه أن يدفع لهم رواتب من صندوقه ، أما إذا كانت ماليّته لا تسمح له باستخدام رؤساء – موظّفين ، فإنّه يعهد بإدارة الفروع إلى رجال لا يضنون على الحركة بجهد أو وقت أو مال .

قبل إنشاء الفرع يجب اختيار رئيسه ، فإذا تعذّر وجوده فالأفضل أن يترك الفرع بدون رئيس أو أن يترك الإقليم أو المنطقة بدون فرع ، لأن الرئيس غير الكفوء كالقائد الأحمق لا يتقن وضع الخطط ولا يحسن تنفيذها .

• • •

إن مصير حركة سياسية ما هو رهن بتعصب أنصارها لها وباعتبارهم

إياها أنبل الحركات وأسماها مقصداً . ويخطىء من يظن أن قوة الحركة تتضاعف لمجرد اقترانها بحركة أخرى مماثلة . فقد ينجم عن اقترانهما تزايد في النمو الخارجي يحسبه المراقب السطحي نمواً حقيقياً ، مع أن الحركة تتلقى بهذا الاندماج بذور ضعف داخلي لا تعتم أعراضه أن تظهر . ذلك بأنه مهما يكن وجه الشبه بين حركتين فالشبه التام بينهما يظل مستحيلاً ، وإلا لما كان ثمة حركتان ، بل حركة واحدة . والطبيعة نفسها لا تجيز تزاوج جهازين مختلفين ، فهي تستفزهما إلى الاقتتال ليبقى الأقوى والأنسب .

إن اتحاد حزبين سياسيين متشابهين يمكن أن يسفر عن نتائج إيجابية موقوتة ، ولكن هذا النجاح المشترك يستحيل مع الأيام عاملاً من عوامل الضعف والتفسخ . ولا يقيض لحركة أن تتسع ما لم تنمُ قواها الداخلية وما لم تنمُ هي باستمرار محرزة انتصاراً حاسماً على مزاحمتها . واضح أن قوة الحركة وحقها بالحياة لا ينموان ما لم تكن هي مشبعة بفكرة الكفاح ، ويمكن تشبيه الحركات المدينة بنموها وانتشارها لقيام اتحاد أو شبه اتحاد بينها وبين حركات قريبة منها ، أي التي تستمد قوتها الموقوتة من التسويات ، يمكن تشبيهها بتلك النباتات التي تنمو بسرعة ولكن تعوزها القوة لتحدي الأجيال ومقاومة الرياح والأعاصير .

يعلمنا التاريخ أن قوة المنظمات الكبرى قامت دائماً على التعصب ضد كل ما هو خارج عنها ، وأن أنصار فكرة ما ، متى اقتنعوا بصحتها وتجندوا للدفاع عنها ، يمشون إلى منازلة الخصوم موقنين بالنصر ولا يزيدهم الاضطهاد إلا استبسالاً في الكفاح . فالمسيحية لم تنتشر ويشتد ساعدها بإيجاد تسويات بين تعاليمها وتعاليم الديانات القديمة ، فقد شقت طريقها ونمت نمواً مطرداً بفضل تعصبها لرسالتها ودفاعها عنها دفاع المستميت .

إن التقدم الذي تحققه الحركات السياسية بتحالفها فيما بينها لا يلبث أن يتخطاه تقدم حركة تنظم نفسها وتناضل مستقلة . وعلى حزبنا أن يعلم أعضاءه

أن النضال هو الوسيلة والغاية وليس عنصراً ثانوياً يمكن الاستغناء عنه ، ومتى تشبّعوا بهذه الفكرة تتبدّل نظرتهمّ إلى الأعداء ويشعرون بأن كراهية هؤلاء لهم هي المبرر الأساسي لوجود الحركة . ولما كان الافتراء والكذب أمضى الأسلحة التي يحاربنا بها خصوم شعبنا كان كل من تستهدفه حملات الصحف اليهودية ألمانياً صالحاً ووطنياً اشتراكياً صادقاً ، والعكس بالعكس .

ينبغي لحركتنا أن تفهم الشعب الألماني أن اليهودي إذ يقول الحقيقة إنّما يحاول تغطية خدعة كبرى ، وأن كلّ افتراء مصدره اليهود هو شهادة بحسن سلوك مناصرينا . فكلّ ألمانيّ يمعن به اليهودي تجريحاً هو واحد منّا ، وكلّ ألماني يبغضه اليهودي هو أفضل أصدقائنا وحلفائنا .

ينبغي لحركتنا أن تُفهم أنصارها أن من يطالع في الصباح جريدة يهوديّة ولا يقع فيها على حملة افتراء موجّهة إلى شخصه ، يجب أن يفهم من هذا أنّه ضيّع سدى يومه الذي عبر ، ولو أنّه أمضى ذلك اليوم في مكافحة نشاط اليهود لانبرى له هؤلاء بحملة تجريح وافتراء ولأمعنوا بسمعته تلويثاً .

متى أدرك أنصارنا هذا كلّه تصبح حركتنا عزيزة الجانب موطّدة الأركان ، لا يمكن التغلّب عليها .

• • •

عندما شرعنا في العمل الحزبي المنظم آلمتنا قلّة اكتراث الجمهور بنا . وقد كان للجمهور عذره . تصوروا تصدي سبعة رجال مغمورين لا حول لهم ، للقيام بحركة تهدف إلى تحقيق ما عجزت عن تحقيقه أحزاب كبيرة : بعث الرّيخ الألماني قوياً . ولو أن الناس سخروا منّا ومن حركتنا ، لو أنهم انتقدونا لرحبنا بانتقادهم وسخريتهم كدليل على شعور المواطنين بوجودنا .

سبق لي ووصفت انطباعاتي عن أول اجتماع حضرته بصفة كوني مستمعاً . وتعاقبت الاجتماعات مذ ذاك فكنّا سبعة رجال نجلس إلى مائدة عارية إلاّ من أقلامنا وأوراقنا ، ونتناقش بضع ساعات في مسائل تافهة كتنظيم دعوة أو إعداد بيان . وغني عن القول إن ميونيخ كانت في شاغل

عن الاهتمام باجتماعات يعقدها سبعة مواطنين لا اسم لهم ولا نفوذ . وقد ظلّ هذا حال الحركة إلى أن ارتأينا توسيع نطاقها باستدراج الناس إلى حضور اجتماعاتنا فنظمنا اجتماعات دورية مرة أو مرتين في الشهر وتولينا كتابة رقاع الدعوة وتوزيعها بأنفسنا ، ولكن النتائج جاءت مخيبة للآمال . وأذكر أني وزعت بنفسي ذات مرة ثمانين رقعة على أناس طالما امتدحوا الحركة وأهدافها ، ولم يكن رفاقي أقلّ نشاطاً منّي ، فبلغ مجموع الرقاع التي وزّعت خمسمئة وعشرين ، وفي الموعد المعين لم يكن في قاعة الاجتماع سوى أصحاب الدعوة أي الأعضاء السبعة ، وبعد انتظار ساعة كاملة افتتح الرئيس الجلسة ولم يحضر أحد من المدعوين .

وبعد هذا الحادث رحنا نطبع الدعوات على الآلة الناسخة ، فضمنّا بذلك نجاح الاجتماع التالي إذ حضره ثلاثة عشر مواطناً ومواطنة ، وأخذ هذا الرقم يرتفع حتّى بلغ الثلاثين في الاجتماع الخامس . أما الاجتماع السادس فقد أعلنّا عنه في صحيفة مستقلّة هي « ميونيخر بيوباختر » فكانت النتيجة هذه المرة أكثر من مشجعة . فقد استأجرنا قاعة في « هوفبروس كيلر » تتّسع لمئة وثلاثين شخصاً ، وما أزف الموعد حتّى كان عدد الحاضرين قد أربى على المئة . وبعد عشر دقائق ارتفع الرقم إلى مئة وأحد عشر .

تلا أحد أساتذة جامعة ميونيخ تقريراً عامّاً، وكان الاختيار قد وقع عليّ لأخطب في الجمهور لأول مرة ، بالرغم من معارضة رئيس الحزب الحر « هارير » الذي كان يعتقد ، عن حسن نيّة ، أني أصلح لكل شيء إلاّ للخطابة . ولكن « هارير » كان على خطإ ، فقد اكتشفتني واكتشفني المستمعون خطيباً من الطراز الأول ، وكهربت كلماتي جوّ القاعة ، فقوطع خطابي بالتصفيق ، وعندما دعي الحاضرون إلى التبرّع لصندوق الحركة بلغت الحماسة حدّها الأقصى ودخل الصندوق ثلاثمئة مارك ، ممّا أتاح لنا طبع نشراتنا وتعليماتنا الحزبية ورقاع الدعوة .

ولم يقتصر النجاح على هذه الناحية . فقد كان في عداد الذين سمعوا خطابي الأول بعض الذين حاربت وإياهم جنباً إلى جنب ، فمضى هذا البعض إلى رفاق له ولي يصف انطباعاته عن الاجتماع ويشرح مبادىء الحركة الجديدة وأهدافها كما سمعني أشرحها ، واستطاع استدراجهم إلى حضور الاجتماعات التالية ، وقد فعلوا بدافع الفضول أولاً ، ولكنهم ما عتّموا أن انضمّوا إلى الحركة ، شبّاناً تشبّعوا بروح النظام وحملوا من الخدمة العسكرية شعاراً ممتازاً هو أن لا مستحيل في هذه الحياة .

وما هي إلا أسابيع معدودة حتى بدأ تدفّق الدم الفتي في شرايين الحزب يعطي نتائجه الطيبة .

كان أول رئيس للحزب الهر هارير صحافياً لامعاً ، عالي الثقافة ، ولكن عيبه كرئيس حزب كان جهله مخاطبة الجماهير وإلهاب شعورها . أمّا الهر دركسلر رئيس فرع ميونيخ فقد كان عاملاً عادياً ولم يكن ذا موهبة خطابيّة . وقد استلفتني منه تردّده وضعفه ، فلما سألت عن ماضيه قيل لي إنّه لم يكن جندياً قطّ ، وهكذا اتّضح لي سبب افتقاره إلى معالم الرجولة الحقّة ، فهو لم يدخل المدرسة الوحيدة التي تنشىء رجالاً يثقون بأنفسهم ثقة لا حدّ لها .

كان هارير ودركسلر من معدن واحد ، كلاهما ضعيف الثقة بنفسه وبمصير الحركة ، وكلاهما ضعيف الإيمان بقدرة الحركة على سحق كل من يحاول وقف نموّها وانتشار مبادئها . إن هذه المهمة لخليقة برجال طهرتهم الجندية وصهرتهم فخرجوا من بوتقتها وهم أصفى معدناً وأصلب عوداً وأقوى شكيمة .

وأنا أيضاً كنت جندياً وقد نسيت في الخندق والميدان المكشوف أن هناك شيئاً اسمه « المستحيل » وشيئاً اسمه « الخطر » ، نعم كانت حركتنا مجازفة ما بعدها مجازفة ، ففي ألمانيا كان الماركسيون أسياد الموقف ، يعقـدون الاجتماعات والمؤتمرات الدورية ، فإذا أراد حزب أن يحذو حذوهم هاجموا

مكان الاجتماع واعتدوا على الحاضرين وزعموا في صحفهم أن المجتمعين قد تحرّشوا بهم واستفزّوهم . ولكن قلّما اهتمّ الحمر بعرقلة نشاط الأحزاب البورجوازية لعلمهم أن هذا النشاط لا يشكّل أي خطر على حركتهم . ولكنهم كانوا يتربّصون بكلّ حركة تهدف إلى اجتذاب سواد الشعب ويكافحونها بالحديد والنار ، وقد أضحى هذا موقفهم من حزبنا الناشىء حالما بدأت اجتماعاته تجتذب العمال والمستخدمين وصغار الملاكين . فلمّا أطلقنا على الحركة اسم « حزب العمال الألماني » بدأ الماركسيون يتحرشون بنا ، وبدا على أنصارنا أنهم وجلون يفضلون تفادي الصدام مخافة أن يهزمهم الحمر ، وراح المسؤولون يؤجلون عقد الجمعية العموميّة الأولى لئلاّ ينتهز أعداؤنا الفرصة للقضاء على حركتنا وهي في المهد . أما أنا فقد دافعت بحرارة عن وجوب قبول التحدي ، والعمل على استفزاز الخصم ومحاربته بالسلاح الذي يشهره في وجه الذين يخشى خطرهم ، فالإرهاب لا يحارب بالفكر بل يحارب بمثله . وقد فازت نظريّتي وعقدنا الجمعية العموميّة الأولى بعد أن تأهّبنا لمواجهة شتّى الاحتمالات، فكان نجاحها مشجّعاً لنا على عقد جمعية عموميّة ثانية في تشرين الأول ١٩١٩ ،وكان عدد الخطباء أربعة أنا ثالثهم ، فتكلمت ساعة كاملة بحضور مئة وثلاثين مستمعاً، وفاق نجاحي هذه المرة ما كنت أحلم به . وحاول المشاغبون إشاعة الفوضى في القاعة ، فانبرى لهم الرفاق وأوسعوهم ضرباً ولكماً وأخرجوهم من المكان بحالة لا يحسدون عليها . وبعد أيام أربعة عقدنا اجتماعاً حاشداً بحضور مئة وسبعين مواطناً ومواطنة ، وكنت أنا خطيب الحفل الناجح هذه المرة أيضاً، وكان لهذا الإقبال أثره في رفع معنوياتنا فقررنا عقد اجتماعاتنا في قاعة فسيحة ، ووقع اختيارنا على قاعة في شارع « داشو » ، ولكن الذين حضروا لم يرب عددهم على المئة والأربعين ، فردّ المتشائمون تدنّي العدد إلى تعاقب اجتماعاتنا ، أما أنا فقد سفّهت هذا الرأي وقلت إن مدينة تضم سبعمئة ألف من المواطنين يمكن أن يعقد فيها عشرة اجتماعات حزبية في الأسبوع ، وأهبت

بالرفاق أن يتطلعوا إلى المستقبل وصدورهم عامرة بالإيمان والثقة ، فقد شقت الحركة طريقها وهي لا ريب منتصرة . وقد تصرم شتاء ١٩١٩ — ١٩٢٠ في استنهاض الهمم وإعادة الثقة إلى النفوس ، وفي إقناع المترددين والمسالمين والخائفين بأن العنف هو إحدى الوسائل للردّ على إرهاب الماركسيين ، وأن التعصّب للفكرة التي بدأت تشقّ طريقها قادر ، كالإيمان ، على نقل الجبل من موضع إلى آخر . وجاءت الحوادث تعزّز رأيي ، فضمّ أول اجتماع عقدناه في الربيع نحواً من مئتي مواطن ، وبعد خمسة عشر يوماً نظمت اجتماعاً ثانياً فبلغ عدد الحاضرين مئتين وسبعين . وضاقت القاعة بالأربعمئة الذين حضروا الاجتماع الثالث .

انصرفنا مذ ذاك إلى وضع النظام الداخلي لحركتنا الفتية . وقد تخلل النقاش جدل حادّ حول قضايا شكليّة ، وانتقد بعض الأعضاء تسمية الحركة « حزب العمال الألماني » وقال إن هذه التسمية تنتقص من قدرها لأنها تحصر نشاطها في نطاق الحزبيّة الضيّق . وقد نمّ هذا الاعتراض السخيف عن قصر نظر أصحابه وعجزهم عن تمييز الشكل من الموضوع والقشور من اللباب . ولم يكن من اليسير في ذلك الحين إفهام الناس أن كلّ حركة تظلّ حزباً ما دامت مقصرة عن بلوغ أهدافها . فلا يكفي أن يتسلّم زعماء الحركة الحكم كي تزول عنهم وعن أنصارهم الصفة الحزبيّة . إن حركتهم تظلّ حزباً إلى أن تحقق المنهج الذي اختطّته لنفسها يوم منشئها .

وقد قاومت خلال تنظيم الحزب تنظيماً داخليّاً فكرة قبول الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « الألمان الشعبيين » ، هذه الفئة من المواطنين التي يعادل عملها الإيجابي صفراً ، ويتجاوز ادّعاؤها الفارغ كلّ حدّ . وأوضحت للرفاق أن حركتنا الناشئة لا تفيد شيئاً من احتضانها رجالاً شفيعهم الوحيد هو قولهم إنهم سلخوا ثلاثين أو أربعين عاماً في خدمة فكرة ما ، ذلك أن رجلاً يصرف أربعين عاماً في خدمة ما يسميه فكرة دون أن يضمن لهذه الفكرة النجاح ،

ودون أن يحول دون انتصار خصومها — إن رجلاً هذا شأنه لا يرجى أيّ خير لحركتنا الناشئة على يديه . وأدهى ما في الأمر أن هؤلاء « المناضلين » العريقين يرفضون الانتظام في الحركة كأعضاء عاديين ، بل يطمحون إلى مراكز رفيعة يؤهلهم لها « جهادهم » الطويل . ما أشبه هؤلاء « الألمان الشعبيين » برجل الأعمال الذي تسبب في إفلاس مشروع مضى على إنشائه أربعون عاماً ، ثم يحاول تأسيس مشروع جديد !

وأوضحت للرفاق كذلك أن هذا الفريق من الساسة الخائبين لا يبغون من الانضمام إلى حركتنا خدمة هذه الحركة ، إنّهم يريدون تطبيق نظرياتهم الخاصة معتمدين على سواعدنا وعلى الإمكانات التي نقدمها إليهم . ولئن يكن بعض هؤلاء يصدر في تصرفاته عن جهل مطبق فإن بعضهم الآخر يعمل وفاقاً لخطة مرسومة وفي سبيل هدف معين . ومن هذا البعض الفئة التي تريد محاربة اليهود على الصعيد الديني بينا تزعم أن الحركات الإصلاحية في البلاد يجب أن تقوم على أساس محض عنصري .

ورغبة مني في إبعاد هؤلاء « العنصريين » الخطرين اقترحت تسمية الحزب الجديد « حزب العمال الألماني الوطني الاشتراكي » وقد كان ، وابتعد عنّا محترفو السياسة المزمنون و « المناضلون » الاسميّون الذين يريدون خوض غمرات القتال وسلاحهم الوحيد القلم والقرطاس . وقد انبرى هؤلاء لمحاربتنا في الصحف المأجورة واليهودية ، آخذين علينا شعارنا القائل : « سنردّ بعنف على كل من يحاول إرهابنا بالعنف » . وقالوا فينا إنّنا جماعة تمجّد القوة ولا تؤمن بالفكر وبالقيم الروحيّة .

وفي مستهلّ العام ١٩٢٠ انصرفت إلى تنظيم اجتماع حاشد بالرغم من معارضة بعض النافذين من أركان الحزب الذين اعتبروا هذه المحاولة سابقة لأوانها . وكانت الصحافة الحمراء قد بدأت تهتمّ بنا وتختصّنا بحملات عنيفة ، وبدأنا نحن من جانبنا نحضر اجتماعات الماركسيين بقصد التشويش ، وكان

كل واحد منّا ينال نصيبه من الضرب واللكم ، ولكن هذا الأسلوب جعلنا حديث الأندية والمجالس ، وتحقق لدينا أن «أصدقاءنا» في المعسكر الأحمر سيحضرون أول اجتماع حاشد ندعو إليه ليردوا لنا التحية بأحسن منها .

لم يفتني أن خصوم حركتنا قد يفلحون في البطش بنا ، ولكني كنت واثقاً من أن ثباتنا وعنادنا قمينان بتقوية حزبنا على حساب الذين يناصبوننا العداء لأن السواد تبهره القوة وتستثير إعجابه الأعمال البطولية . ولمّا لم يكن هذا رأي هارير رئيس الحزب ، فقد تخلى عن الرئاسة حيال ما لمسه من تأييد الأكثرية لوجهة نظري ، فحلّ محله أنطوان دركسلر الذي أطلق يدي في شؤون الدعاوة : فحددت يوم ٢٤ شباط ١٩٢٠ لعقد أول اجتماع شعبي كبير ، وأشرفت بنفسي على طبع النشرات والإعلانات وتوزيعها بالآلاف ، وحرصت على تضمينها المبادىء الأساسيّة للحركة .

وما إن تداولت الأيدي النشرات حتى عقد الماركسيون وحزب الشعب البافاري الخناصر على محاربة الحزب الجديد . وكان حزب الشعب هذا يقبض على زمام الحكم ويزعم أنّه ينهج في تصريف شؤون البلاد نهجاً قومياً ، وقد رأيناه يستخدم قوى الأمن في مصادرة نشراتنا من أيدي ألوف العمال الذين ضلّلتهم الماركسية ومسختهم أعداء للوطن وللقوميّة .

وقد شذّ من الحاكمين حلفاء الماركسية رجلان اثنان هما : أرنست بوهنر مدير البوليس ومستشاره الأمين الدكتور فريك ، هذان الموظفان الكبيران اللذان كانا ألمانيين قبل أن يكونا موظفين . وكان بوهنر رجلاً صارماً إلاّ أن الوظيفة لم تبعده عن الشعب ، ولم تنسه واجبه نحو الوطن الذي كان بحاجة إلى جهود المخلصين ليتسنى له النهوض من كبوته . أجل لم يكن بوهنر ومستشاره فريك مستعبدين للوظيفة ، وما كانت لتخيفهما حملات التشهير والافتراء يشنّها عليهما أعداء الشعب الألماني من يهود وماركسيين .

• • •

لم يخامرني شكٌ وأنا أرقب مساء ٢٤ شباط أن الاجتماع الحاشد الذي دعونا إليه سيكون حاشداً بالفعل . وعندما دخلت قاعة « هوفبروهوس » قبيل منتصف الساعة السابعة مساء كاد قلبي يتفجر فرحاً ، فقد غصّت القاعة بالناس الذين أربى عددهم على الألفين . وكان نصف الحاضرين على الأقلّ من الشيوعيين والمستقلّين والفضوليين ؛ جاؤوا وفي نيّتهم التشويش وتصفية حساب الحركة قبل أن يشتدّ منها الساعد .

ولكن النتيجة كانت عكس ما أملوا وأمل دافعوهم .

كنت ثاني الخطباء ، وقد لفظ من تقدّمني خطابه القصير دون أن يقاطعه أحد . أما أنا فقد شرع أعداء الحركة في مقاطعتي منذ اللحظة الأولى ، فتصدّى لهم رفاق لي مفتولو العضلات واستطاعوا أن يعيدوا الهدوء نسبياً ، وبعد نصف ساعة طغى التصفيق على الصراخ والهتافات العدائية . وعندما رحت أشرح للمستمعين منهج الحزب طغت أصوات الاستحسان والموافقة على صراخ التشويش . وعندما تلوت على الجمهور المقترحات الخمسة والعشرين أقرها بالإجماع وفي جوّ حماسيّ رائع . وهكذا وجدتني أخطب في مواطنين جمعهم إيمان جديد وإرادة جديدة . وأدركت وأنا أرى تدافع الناس إلى الخارج بعد انتهاء الاجتماع أن مبادىء الحركة ستنتشر بسرعة خاطفة في أوساط الشعب الألماني .

إن جمرة قد اتّقدت في تلك الأمسية من شباط . ومن لهيبها سيخرج السيف الذي يعيد إلى سيغفريد الجرماني حريّته وإلى الأمة الألمانيّة الحياة .

لقد تراءى لي موكب البعث وهو يتحرك ، وخيّل إليّ أن ربّة الانتقام قد انتصبت متأهّبة لمحو عار التاسع من تشرين الثاني ١٩١٨ .

أقفرت القاعة شيئاً فشيئاً . . .

. . . وتابعت الحركة سيرها .

الفصل الثاني عشر

في اجتماع ٢٤ شباط بسطت حركتنا للجمهور المبادىء والخطط القمينة بوضع حدّ لفوضى الآراء ذات المرامي اللاقوميّة . بقي أن تخطو الحركة خطى جديدة حاسمة يستيقظ على وقعها العالم البورجوازي الكسول وتنحسر أمامها موجة الماركسية . ولم يكن بلوغ الحزب هذا الشأو بالأمر المستطاع ما لم يصدر أعضاؤه وأنصاره عن اقتناع تام بأن لحركتهم مفهوماً فلسفياً جديداً ذا أهمية أساسيّة ، وأن منهجها يختلف عن مناهج الأحزاب التي تطلع على الناخبين في المواسم الانتخابيّة بخليط من المبادىء والآراء لا تؤمن بها ولا تقوم بأي خطوة جدية لتحقيق ما تضمنته مناهجها من وعود .

عندما تضع الأحزاب البورجوازية منهجاً جديداً أو تعمد إلى تعديل منهج يكون هاجسها في كلا الحالين التودّد إلى الناخبين ، وما إن يشعر محترفو السياسة وعشاق الثرثرة البرلمانيّة أن الشعب بدأ يتبرّم بهم وبجمودهم وإيثارهم مصالحهم الخاصة على المصلحة العامة ، حتى يحشد كلّ حزب « خبراءه » و « منجميه » ويعهد إليهم بسبر أغوار الشعب للوقوف على رغباته ومعرفة ما يشجيه وما يفرحه . وعلى ضوء تقارير « الخبراء » تعمد الأحزاب إلى تغيير مناهجها أو تعديلها ، ولا تتردّد في تبديل مبادئها مجاراة منها للتيارات التي تتجاذب الناخبين . ولا تنسى وهي تضمن المناهج الوعود الخلابة أن مصلحتها تحتم عليها إرضاء الجميع فتعد الفلاح بحماية محاصيله والصناعي بحماية منتجاته والمستهلك بحماية جيبه ، وتعد المعلم والموظف والمستخدم بزيادة الرواتب والأجور إلخ . . . ولكن هذه الوعود تتبخر كلها أو يتبخر معظمها فور انجلاء المعركة الانتخابية ، ويقصر « ممثلو الأمّة » نشاطهم على خدمة مصالحهم

ومصلحة الحزب الذي إليه ينتمون .

هذه المهزلة التي تتكرّر مرّة كلّ أربع سنوات أو خمس، ليست عيب الأحزاب البورجوازية الوحيد . ومع هذا يقوم بين المواطنين الحسني النيّة من يزعم أن في مقدور هذه الأحزاب أن تنازل الماركسيّة المنظمة تنظيماً دقيقاً وأن تهزمها على صعيد المبادىء الديموقراطية بمفهومها الغربي ، ويفوت الذين يحسنون الظنّ بالديموقراطيّين على الطريقة الغربيّة أن هؤلاء ما فكروا قطّ جدّياً ولن يفكّروا في مقارعة الماركسيين . وأنهم لا يحجمون عن التعاون وأعداء الوطن والأمّة إذا حتمت مصالحهم الخصوصية قيام مثل هذا التعاون الذي لا يفيد منه ، بالنتيجة ، سوى الحمر . ويوم خيّل إلى البرلمانيين البورجوازيين أن الأخذ بمبدإ الأكثرية يشكّل أقوى الضمانات للاستقرار المنشود ، أي يوم تبنّوا مفهوم الغرب للديموقراطيّة ، لم تعدم الماركسيّة وحلفاؤها اليهود وسيلة للاستيلاء على الحكم من طريق الأكثرية و « بفضل » الديموقراطية الغربيّة ، ثم ركلوا هذه الديموقراطية بعد أن صفعوها صفعة أليمة .

إن الماركسية تماشي الديموقراطيّة ما دامت عاجزة عن فرض نفسها وتحقيق أغراضها بوسائلها الخاصة . وهي اليوم تحالف الأحزاب البورجوازية على أساس هذا المبدإ . ولكنها يوم تشعر بجنوح الأكثرية البرلمانية إلى مناصبة الشيوعية العداء ، فإنّ النــاطقين بلسانها لن يتوجّهوا ساعتئذ إلى الضمير الديموقراطي ، بل يتوجّهون إلى البروليتــاريا وينتقل الصراع من قاعات البرلمان وأروقته إلى المصانع والشوارع ، ولا يصعب على الماركسية في هذه الحالة أن تصفي بسرعة حساب الديموقراطيّة . فما عجزت عنه مرونة رسل الدولة الثالثة وفصاحتهم تحت قبة البرلمان تتكفل بتحقيقه مطارق البروليتاريا وقبضاتها . وقد أظهرت حوادث خريف ١٩١٨ عقم كلّ محاولة لوقف الغزو اليهودي بالوسائل التي تملكها الديموقراطيّة الغربيّة .

إن الكفاح السياسي كما تفهمه الأحزاب البورجوازية القائمة مقصور على إحراز أكبر عدد ممكن من المقاعد البرلمانية . وفي هذا الكفاح يبدل الساسة مبادئهم بمثل السهولة التي يبدل بها الجندي قميصه الممزق إذا أعطي سواه . إن الأحزاب البورجوازية تفتقر إلى تلك القوة السحرية أو الممغنطة التي تجذب الجماهير ، إنها تفتقر إلى المبادىء والعقائد الفلسفية التي تسلح الذين يؤمنون بها بالعزم الصادق على قهر خصومها . وإذا تصدّى حزب ذو مفهوم فلسفيّ — وإن يكن مفهومه هذا مجرماً ألف مرّة — لنظام قائم محاولاً هدمه فإن هذا النظام لن يقوى على الدفاع عن نفسه ما لم يتخذ شكل معتقد جديد ، وينتقل بدوره إلى الهجوم الساحق الماحق . لهذا عندما يأخذ علينا الوزراء البورجوازيون من مدعي القوميّة الصافية والأوساط البافارية اعتماد الثورة وسيلة لبعث الأمّة لا نجد ردّاً أفضل من القول : إنّنا سنحاول القيام بالخطوة التي جبنتم أنتم عن القيام بها . لقد ساهمتم بنظامكم البرلماني المعقّد في جرّ الأمّة نحو شفير الهاوية . أما نحن فإنّنا عاملون بوحي مفهوم حركتنا الفلسفي ومبادئها الواضحة على إنشاء المرقاة التي توصل شعبنا ذات يوم إلى هيكل الحرية .

من أجل هذا كان علينا أن نحرص ، وحركتنا في مستهلّها ، على إفهام أنصارنا وسائر الناس أنّنا حزب ذو عقيدة وأنّنا نأبى على جنود الحركة أن ينقلبوا بين عشيّة وضحاها جمعيّة تضمّ الانتهازيّين والوصوليين وطلاب الشهرة والكرسي . وقد عنينا أول ما عنينا بإيضاح مفهوم الحزب للدولة ، لأن فكرة الدولة كانت قد شوهتها تعاليم كارل ماركس والنظريات المتدفّقة عبر الرين .

• • •

عندما توفرنا على تحديد أهداف الحزب الجديد ووضع الأسس الفلسفيّة التي يقوم عليها ، اقترح بعض الرفاق أن تكون العنصريّة أحد هذه الأسس ، ولكني لم أوافق على الاقتراح لسبب واحد هو كون العنصرية بمفهومها

الشائع لا تزال تعبيراً مطاطاً ينطوي على أكثر من مدلول . ولا تصلح بالتالي أساساً لعمل نضالي مشترك قبل تحديد معناها تحديداً ينتفي معه كل لبس . واستطعت بالنتيجة إقناع زملائي بجعل العنصرية القاعدة الرئيسية التي تقوم عليها حركتنا بعد اتفاقنا حول تحديد مهمة الدولة وحول مدلول العنصرية نفسها كمفهوم فلسفي .

ذلك بأن بعض المفاهيم الفلسفية الشائعة اليوم يعزو إلى الدولة طاقة الإبداع والتمدين ويذهب إلى أن الدولة هي وليدة ضرورات اقتصادية،وفي بعض الحالات الفضلى ، وليدة نشاط القوى السياسية . وهذا المبدأ الأساسي يجر حتماً إلى تجاهل القوى البدائية المرتبطة بالعنصر وإلى الانتقاص من قيمة الفرد .



الامبراطور غليوم الثاني والملك جورج الخامس

وبديهي أن يخطىء في الحكم على الأفراد من ينكر وجود فروق بين الأجناس من جهة أهليتها للإبداع وتأسيس الحضارات لأن تساوي الأجناس يجرّ منطقياً إلى القول بتساوي الشعوب والأفراد . وقد تبنى كارل ماركس هذا المبدأ وجعل منه عقيدة سياسيّة ، ثم زخرف حواشي هذه العقيدة بما كفل لها الانتشار ، كلّ هذا لمصلحة أبناء جلدته اليهود .

إنّ الماركسية هي الخلاصة الجوهرية للمفهوم السياسي والفلسفي الشائع للدولة . وحركة هذا شأنها لا يرجى مما نسميه « العالم البورجوازي » أن يقف في طريقها أو أن يحدّ من خطرها ، لأن العالم البورجوازي مشبع هو الآخر بالسموم التي يبثّها كارل ماركس واليهوديّة العالميّة ، ويعتنق مبادىء فلسفية تختلف عن المفهوم الماركسي اختلافاً يسيراً . فالبورجوازيون ماركسيون ، ولكنهم يقولون بإمكان سيطرة جماعة معينة من الناس (البورجوازية) بينا تهدف الماركسيّة إلى إخضاع العالم كلّه لسيطرة اليهود .

أما المفهوم العنصري للدولة — كما حدّده حزبنا فيما بعد — فإنّه يقيم وزناً لقيم الأعراق البدائية ويعتبر الدولة ، من حيث المبدأ ، ذات رسالة سامية هي الحفاظ على كيان الأجناس البشرية . ولا تعترف العنصريّة بتساوي الأجناس مما يجعلها مؤيدة لبقاء الأصلح والأقوى ، ولخضوع الضعيف للقوي ، تمشياً منها مع المبدإ الأرستقراطي للطبيعة .

والعنصرية إذ تنكر تساوي الأعراق تنكر تبعاً لذلك تساوي قيم الأفراد . وترى وجوب مهر البشر بمثل أعلى ، فبدون المثل الأعلى لا يبقى معنى لوجود البشريّة ولكنّها تنكر حقّ البقاء على كلّ قاعدة خلقيّة تشكّل خطراً على عرق يدافع عن قيم أسمى منها ، وتنكر بالتالي حقّ البقاء على كلّ عنصر وضيع يحاول إضعاف الأعراق المتفوّقة من طريق اختلاطه بها ، لأن عالماً تجتاحه سلالة الزنوج لا بدّ صائر إلى الاضمحلال بعد أن تتشوّه فيه مفاهيم الحقّ والخير والجمال .

الفصل الثالث عشر

في الدولة

أخذ علينا العالم البورجوازي منذ ١٩٢٠ وقوفنا موقفاً عدائياً من الدولة بوضعها الراهن . وراحت أبواق الأحزاب السياسيّة تدعو إلى إبادة « هؤلاء الشبان المزعجين الذين طلعوا بمفاهيم جديدة للدولة والأمّة والعالم » . ولو سأل سائل أساتذة الحقّ العامّ من « خدام » الدولة أن يوضحوا له مفهومهم لهذه الدولة ، لجاءت أجوبتهم غامضة ، وأجهدوا أنفسهم في تبرير وجود الحكومات وأشكال الحكم التي تتيح لهم أن يكونوا منهم . ولا يختلف موقف أساتذة الجامعات عن موقف الساسة المسؤولين ، لأن أستاذ الجامعة في أيّامنا يعد نفسه غير ملزم بقول الحقيقة ما دام الغرض من وجوده حيث هو خدمة هدف محدد : تبرير وجود الجهاز البشري الضخم الذي يسمّونه الدولة .

هناك ثلاث نظريات في الدّولة :

أوّلاً : نظرية الذين لا يرون في الدولة سوى تجمّع أناس بمحض رضاهم وخضوعهم لسلطة حكومة ما .

وأصحاب هذه النظريّة يؤلّفون الكثرة . وإنّنا لنجد بينهم المعجبين بمبدإ الشرعيّة ، الذين لا يقيمون وزناً لإرادة الشعب ، فيكفي ، في نظرهم ، أن توجد الدولة كي تصبح مقدسة ، ويبلغ بهذا الفريق الحرص على حماية هذه النظريّة السخيفة حدّاً يحمله على دعوة الناس إلى التعبّد للدولة وسلطتها ، وعلى تحويل الواسطة إلى غاية . فالدولة كما يفهمها ، لم تقم لخدمة الناس ، فواجب الناس أن يعبدوا سلطة الدولة التي يمارسها أناس مثلهم ، وحتّى لا يستحيل التعبد فوضى وتشويشاً ، جعل المبرّر الوحيد لوجود سلطة الدولة الحفاظ على النظام

والهدوء . وهكذا يبطل كون الدولة واسطة حتى ولا غاية .

يمثل هذا المفهوم للدولة في بافاريا حزب الوسط الذي أطلق على نفسه اسم « الحزب الشعبي البافاري » . وكان يمثّله في النمسا جماعة الشرعيّة . أمّا في الريخ نفسه فأصحاب النظريّة هم مع الأسف جماعة المحافظين .

ثانياً : نظرية الذين يجعلون وجود الدولة رهناً باستيفاء شروط معيّنة ، فيقولون إنّ الخضوع لسلطة واحدة لا يكفي بل يجب أن يكون للسكان لغة واحدة . ويقولون كذلك إن سلطة الدولة ليست المبرر الوحيد لوجودها ، فعليها أن تؤمن لرعاياها معالم الازدهار والرفاهية ، وبموجب هذه النظريّة لا تحاط الدولة بهالة القدسيّة بمجرّد وجودها ، واحترام الماضي لا ينجيها من انتقاد الحاضر . وعلى الجملة يريد أصحاب هذه المدرسة من الدولة أن تعطي الحياة الاقتصاديّة شكلاً ملائماً لمصلحة الفرد . وإنّنا لنجد هذه المدرسة ممثلة عندنا في أوساط البورجوازية المتوسطة ولا سيما الأوساط ذات النزعة الحرّة .

ثالثاً : نظريّة الذين يرون في الدولة واسطة أو وسيلة لبلوغ مرام استعمارية أو توسعية غير واضحة المعالم . يريد هؤلاء إنشاء دولة شعبية متحدة عناصرها اتّحاداً وثيقاً . ويكون لها لغة مشتركة ، على أمل أن تساعد وحدة اللغة على توجيه الفكرة القوميّة وجهة معيّنة .

في القرن الماضي توسّع بعض المفكّرين والموجهين في تفسير الحركة الجرمانيّة ، ولعلّ هذا البعض قد توسّع في التفسير عن حسن نيّة ، ولا أزال أذكر ذلك الجدل العقيم الذي قام بين صحيفتين تصدران في فيانّا حول أهداف الحركة الجرمانيّة وإمكاناتها . فقد ذهبت إحداهما إلى حدّ القول إنّ في وسع ألمان النمسا أن « يجرمنوا » الصقالبة (السلاف) من أبناء البلاد . وقد فاتها وفات أكثر الذين أساؤوا فهم الحركة وقصروا عن إدراك كنهها أن ما تهدف إليه هو جمع الجرمان في دولة واحدة ، أمّا « الجرمنة » التي يقصد بها التوسّع فلا يمكن تطبيقها على الناس ، إنّما تطبق على الأرض

وحدها . أليس من السخف القول بإمكان « جرمنة » صيني أو زنجي بمجرد تعليمه الألمانيّة ؟ إن « الجرمنة » من طريق اللغة تؤدي عكس النتيجة المتوخاة لأنّها تفضي في الغالب إلى اختلاط الألمان الحقيقيين بالأجناس الوضيعة التي ليس لها من خصائص الجرمانيّة سوى اللغة ، وقد تبيّن معنا في فصول سابقة كيف أن هذا الاختلاط بين العِرق المتفوّق والعِرق المنحطّ يفضي إلى زوال أوّلهما .

إنّ القوميّة ، أو على الأصحّ العِرق ، هو مسألة دم وليس مسألة لغة . فعلى الذين يعتقدون بإمكان « جرمنة » الصقالبة وسواهم أن يبحثوا أوّلاً عن طريقة تمكنهم من تغيير دم من يراد « جرمنتهم » ، ولما كان هذا مستحيلاً بدون اختلاط الألمان بمن هم أدنى منهم ، بحيث يمتزج دم الغالب بدم المغلوب على أمره ، فكلّ تفكير بجرمنة الأقوام والشعوب على هذا الأساس هو إجرام بحقّ أمّتنا ذات المواهب المبدعة .

ينبغي لنا أن نغبط أنفسنا على إخفاق « الجرمنة » التي أراد جوزف الثاني تحقيقها في النمسا . فلو نجحت خطة الأمبراطور لكان من نتائجها بقاء الدولة النمسويّة على قيد الحياة ، ولكان من عواقبها الوخيمة انخفاض مستوى الأمّة الألمانيّة من جراء تفاعلها مع أقوام غريبة هي أدنى منها بمراحل .

وهذا المفهوم الخاطىء للحركة الجرمانيّة نجده ، مع الأسف ، في أوساط ألمانيّة تدّعي التشبّع بالفكرة القوميّة ، وتدعو إلى « جرمنة » الشرق بفرض اللغة الألمانيّة على البولونيّين وجيرانهم . ويفوت هذه الأوساط أن تحقيق هذه الفكرة سيكون معناه دمج شعب غريب في أمتنا ، دون أن يكون له شيء من خصائصها وطابعها المميز ، شعب يعبر باللغة الألمانيّة عن أفكاره الأجنبيّة وينتقص من طبيعة أمّتنا بطبيعته الوضيعة .

لم ننسَ بعدُ ما كان من أمر اليهود الذين فتحت أميركا لهم ذراعيها على أنّهم ألمان لأنّهم يتكلمون الألمانيّة . لقد حسبهم الأميركيون علينا . ولما

ضاقت بهم ذرعاً شملت تدابيرها الألمان الحقيقيين . فليعلم القائلون بالتوسع وجرمنة الأقوام والشعوب بواسطة نشر اللغة الألمانيّة أن أجدادنا كانوا أبعد نظراً عندما قصروا « الجرمنة » على الأرض من دون السكان . لقد حقّقوا ذلك بحدّ السيف ، ولكنّهم أجرموا بحقّ أمتهم يوم أدخلوا دماً أجنبيّاً في جسم شعبنا ، فساهموا بهذه الهفوة في القضاء على طابعنا القومي .

* * *

يتّضح من شرحنا للنظريات الثلاث أنّها تتجاهل أهميّة العِرق كأساس ترتكز عليه القوى المبدعة والقيم ، وتغفل دور الدولة في حفظ العرق ورفع شأنه ، هذا الدور الذي يعتبر قيامها به شرطاً أساسيّاً لكلّ تقدّم . وبتجاهل البورجوازية أهمية العِرق ودور الدولة الأساسي فسحت في مجال العقائد والمذاهب السياسيّة لمذهب ينكر وجود الدولة بحدّ ذاتها ، لهذا لا يظلم المرء البورجوازية عندما يقرّر أن المعركة التي تخوضها ضدّ الماركسيّة هي معركة خاسرة حتماً . فقد اكتشف خصمها نقاط الضعف في الصرح الذي شيّدته ، وانبرى لها يحاربها بالسلاح الذي وضعته هي في متناوله .

إن أقدس واجبات الحزب الجديد – ما دام يعمل على صعيد المفاهيم العنصريّة – هو تعريف الدولة وتحديد مبررات وجودها . والمبدأ الأساسي الذي يجب أن يكون نقطة الانطلاق هو اعتبار الدولة وسيلة لا غاية ، واعتبارها بالتالي شرطاً أوليّاً لإيجاد حضارة قابلة للبقاء دون أن تكون مبعث هذه الحضارة المباشر . ذلك بأنّه لا يمكن تصوّر حضارة بدون العِرق المتفوّق القادر على إبداع الحضارات . ويمكن القول إن وجود الدول لا ينتفي معه احتمال زوال الجنس البشري في حال زوال من يمثل العِرق المتفوّق ، مؤسس الحضارة المثلى ، لأن زوال هذا يفضي حتماً إلى تجريد البشرية من طاقة المقاومة والاحتمال وموهبة الخلق .

لنتصوّر زلزالاً هائلاً يأتي على البسيطة زمن عليها ، فماذا يبقى من معالم

الحضارة ؟ لن يبقى أثر من آثارها . ولكن إذا نجت بضعة كائنات بشريّة تنتمي إلى عرق متفوق ، فإنّها لا تلبث أن تستأنف الخلق والإبداع بحيث تعود البسيطة سيرتها الأولى في غضون بضعة قرون . ويقدم التاريخ أكثر من شاهد على عجز الدول التي وضع أسسها عرق غير مؤهل لأداء هذه المهمة ، عن مغالبة الزمن والصمود في وجه الزعازع .

إن الشرط الأول لبقاء الشعب المتفوّق ليس إذنْ قيام المتحد السياسي الذي يسمّونه الدولة ، بل هو العرق ذو المواهب المبدعة . وهذه المواهب تكمن في الأعراق لتبرز حالما يتاح لها الحافز الخارجي الملائم . وقد كان هذا حال الجرمان قبل النصرانيّة . فالقول إنّهم كانوا برابرة يجافي الحقيقة والواقع ، لأن الجرمان ما كانوا برابرة قطّ ، ولكن المناخ في البقاع الشماليّة فرض عليهم طراز معيشة كان سبباً في تأخير نموّ طاقتهم المبدعة . ولو أنّهم اختاروا لإقامتهم مناطق جنوبيّة ووجدوا العتاد البشري الذي تقدمه الأعراق الوضيعة لأمكنهم ، بفضل طاقة الإبداع الكامنة فيهم ، أن يوجدوا حضارة تبزّ حضارة الإغريق .

يستخلص مما ذكرنا المبدأ الأساسي التالي :

الدولة هي واسطة لبلوغ غاية ما . وغايتها هي الحفاظ على جماعة من البشر ينتمون ، روحياً ومادياً ، إلى عنصر واحد ، إلى جانب توفيرها أسباب النموّ لهذه الجماعة . ويتعيّن على الدولة أن تعنى ، في الدرجة الأولى ، بالحفاظ على ميزات العرق الجوهريّة ، لأنّ بقاء هذه الميزات لا بدّ منه لنموّ المواهب الكامنة نموّاً طبيعياً وحرّاً .

إنّ دولة لا تضع نصب عينيها هذا الهدف هي أجهزة متداعية ومخلوقات غير مكتملة النموّ . ونحن الوطنيين الاشتراكيين مدعوّون ، بحكم نظرتنا الجديدة إلى العالم ، إلى تمييز الدولة التي لا تعدو كونها إطاراً من العرق الذي يضمّه هذا الإطار . فالدولة تفقد مبرّر وجودها يوم تصبح عاجزة عن حماية

مضمونها والحفاظ عليه .

والدولة العنصريّة الّتي ندعو إلى إقامتها ستكون مهمتها السهر على بقاء ممثلي العرق البدائي الذي مهر العالم بحضارة هي أسمى الحضارات وأجدرها بالبقاء . ونحن كآريين نفهم الدولة أنّها جهاز حيّ من صنع شعب حيّ ، جهاز يوفّر للشعب مقوّمات الوجود وينمي مواهبه . أمّا الدولة الّتي يريدون فرضها علينا اليوم فإنها ثمرة أفدح الأخطاء البشريّة . ولسنا نجهل أن خصوم حركتنا لن يدخروا وسعاً في سبيل عرقلتها ، ولكن متى كان المصلحون يأبهون لما يتقوله أبناء عصرهم في رسالتهم ؟ ولسنا نشكّ لحظة في أنّ مرامي حركتنا لن تنوت الجيل الطالع وأنّه مبارك عملنا وقادر أهميته العظيمة .

• • •

على ضوء المبادىء والنظريات الّتي تولينا شرحها يمكننا نحن الوطنيّين الاشتراكيين أن نجعل من الدولة ما يجب أن تكون وأن نقيس مدى نفعها ، مع العلم أن هذا النفع يظلّ نسبياً إذا نظر إليه من خلال مصالح كلّ أمّة على حدة ، ولكنّه يصبح مطلقاً إذا نظر إليه من خلال مصلحة البشريّة .

والدولة لا تمثّل جوهراً إنّما تمثّل شكلاً أو هيكلاً ، فإذا بلغ شعب ما شأواً عظيماً في العلوم والفنون والحرب إلخ . . . فتقدمه هذا لا يصلح مقياساً لنفع الدولة الّتي تحضنه . لا جدال في أن شعباً ذا مواهب هو أقدر على الظهور بمظهر لائق ومرضٍ من قبيلة زنجية . ومع هذا فقد تكون الدولة الّتي ينشئها هذا الشعب أسوأ حالاً من القبيلة . وفي التاريخ أن الدولة تصبح مقبرة لممثلي العرق الذي أوجد الحضارة إن هي سمحت أو تسببت بزوال مواهبهم المبدعة وقدرتهم على الخلق .

وعلى هذا يكون تقدير قيمة الدولة رهناً بمقدار النفع الذي يعود به وجودها على شعب ما ، وليس رهناً بأهمية دورها في تاريخ العالم . فعندما يؤتى على ذكر رسالة الدولة — رسالتها السامية — فلا يعزبن عن البال أن هذه الرسالة

يضطلع بها الشعب ، أمّا هي فمهمّتها الأساسيّة أن توفّر له أسباب النموّ الطبيعي . فإذا تساءلنا نحن الألمان : كيف يجب أن تكون الدولة التي تحتاج إليها أمّتنا ؟ تعين علينا أن نبدأ بإيضاح نقطتين : من هم المواطنون الذين يجب أن تضمّهم هذه الدولة ، وما هي الأهداف التي ينبغي لها أن تعمل لها ؟

أسارع إلى القول إن شعبنا الألماني لم يبقّ له العرق المتجانس أساساً ، وإنّ الاندماج الذي حصل بين العناصر البدائيّة لم يحرز من التقدّم قدراً يسمح له بالقول إنّ عرقاً جديداً قد انبثق من هذا الاندماج . ولا يعدو المرء الحقيقة إذ يقرّر أن الاختلاطات المتتالية التي سبّبت تعكير دم شعبنا ، ولا سيما ما حصل منها منذ حرب الثلاثين سنة ، — أنّ هذه الاختلاطات قد سبّبت انحلال الشعب الألمانيّ جسدياً وروحياً . ذلك بأن حدود وطننا المشرعة الأبواب ، والتماسّ المستمرّ مع أجهزة سياسيّة غير ألمانيّة على طول مناطق الحدود ، وتدفق الدم الأجنبي ، هذا كلّه لم يتح ، بتجدّده المستمر ، الوقت الكافي لتحقيق الاندماج الكامل الذي يجب أن ينبثق منه عرق جديد . وقد ترتّب على هذا النقص انعدام التجانس واللحمة بين السكان ، وافتقارهم إلى غريزة التجمع التي هي وليدة وحدة الدم ، والتي تحول دون زوال الأمم بمحوها ، في ساعة الخطر ، كلّ أثر للمنازعات وبواعثها لتواجه عناصر الأمّة العدو المشترك صفاً واحداً ، أو قطيعاً متجانساً .

إنّ ما يسمونه عندنا « الفرديّة المبالغ فيها » هي وليدة نزوع العناصر التي انبثق منها عرقنا إلى التجاور فيما بينها دون أن تتوصّل إلى الاندماج بعضها في البعض الآخر . وقد يكون لهذا التجاور المشبع بالتحفظ مزاياه في السلم، ولكنه كان دائماً وبالاً على أمّتنا في الحرب، ولو تحلّى الشعب الألماني في تاريخه الطويل بالحرص على التكاتف لاستطاع الريخ الألماني أن يسود العالم ، ولحقّق البشر الغرض الذي يتوهّم أنصار السلام في أيّامنا القدرة على تحقيقه بدموع التماسيح وبالنظريات السخيفة : سلم عالمي يستند إلى سيف مظفر ،

هو سيف شعب من الأسياد يجنّدون العالم كلّه لخدمة حضارة متفوّقة .

وقد ترتب على افتقار شعبنا إلى اللحمة التي يوفرها الدم الواحد ، قيام عواصم للعديد من صغار الأمراء الألمان وحرمان الشعب من حقوقه الأساسيّة كسيد . وفي أيامنا يقاسي الشعب الألمانيّ الأمرّين من جرّاء هذا النقص . ولكن ما كان وما يزال سبب شقائنا في الماضي والحاضر ، قد يصبح مصدر خير وبركة في المستقبل،لأنّ انعدام اللحمة المطلقة بين العناصر البدائيّة التي كانت تؤلف عرقنا يقابله لحسن الحظ بقاء دم فريق من الألمان سليماً طاهراً ممّا يشكل ضمانة لمستقبل شعبنا . وزيادة في الإيضاح أقول : إنّ امتزاجاً كاملاً بين العناصر البدائية كان يمكن أن يترتّب عليه ، لو تمّ ، نشوء شعب قادر على التطوّر ، ولكن الحضارة لا تصيب على يديه الخير الذي كان يمكن أن تصيبه على أيدي العناصر الممثلة للعرق المتفوّق ، مبدع الحضارة ، وعلى هذا يجب أن يكون انعدام اللحمة الكاملة مدعاة لارتياحنا ، فقد بقي في شعبنا قوى احتياطية ممثلة بأبناء العنصر الجرماني ، قوى حافظت على نقاء دمها وطابعها المميز ، مؤلفة نواة صالحة لأجيال يرجى لشعبنا على يدها مستقبل أفضل .

أمّا وقد أدركنا اليوم أن امتزاج العناصر البدائيّة واللحمة التي يفرضها هذا الامتزاج كان من شأنهما أن يجعلا منّا أقوياء في الظاهر ، مع بقائنا مقصرين عن بلوغ الهدف الذي تتطلّع إليه البشريّة ؛ فإنّه يحسن بنا أن نحمد للقدر تدخله للحؤول دون ذلك الامتزاج ؛ لأنّه لو تمّ لأدّى إلى ذوبان العناصر الخيّرة القادرة وحدها على الوصول بالبشرية إلى هـدفها الأسمى ، في خليط من الأجناس عجيب .

ما أكثر المتحدّثين في أيامنا عن الدور الذي يجب أن يسند إلى الشعب الألماني ، ولكن قلائل هم الذين يدركون أن هذا الدور يجب أن يقتصر على إنشاء دولة هدفها الأسمى الحفاظ على العناصر الخيّرة في شعبنا لمصلحة هذا الشعب والبشريّة جمعاء .

بهذا يكون للدولة هدف داخلي نبيل ، ولا تبقى مهمّتها الأساسية السهر على الأمن والنظام ليتاح للمواطنين أن يخدع بعضهم بعضاً . وبهذا كذلك يستحيل الجهاز الجامد جهازاً حيّاً غايته المثلى خدمة فكرة نبيلة .

والريخ كدولة يجب أن يضمّ الألمان كافّة ، وأن يأخذ على عاتقه ، إلى جانب جمع القوى الاحتياطيّة الخيّرة والحفاظ عليها ، تمكين هذه القوى من العمل المثمر والاضطلاع برسالتها كعنصر له مركز الصدارة .

• • •

إنّ عهداً من النضال الشاقّ والكفاح المرير سيعقب العهد الحالي ، عهد الجمود والتواكل واللامبالاة . فالنصلة التي لا تستعمل يتأكّلها الصدأ، ومن شاء أن تكون له الغلبة عليه بالهجوم لأنّه سبيل النصر . ولسنا نجهل أنّه لا يجوز لنا الاعتماد على تفهّم السواد لرسالتنا وأهدافها قبل مضي بعض الوقت ، وأنّه ينبغي لنا أن نحدّد هذه الأهداف تحديداً واضحاً وأن نمضي في الكفاح ، محطّمين كلّ حاجز يعترض سبيلنا .

ولسنا نجهل كذلك أن العديد من المواطنين الذين يهيمنون اليوم على مقدرات الدولة ويديرون شؤونها ، يفضلون المركب السهل ، وهو هنا العمل على بقاء الحالة الراهنة ، على النضال في سبيل ما يؤمل حصوله في المستقبل . هذا الفريق من المواطنين ينظر إلى الدولة نظره إلى جهاز مبرر وجوده الوحيد هو الاستمرار في العمل .

ففي كفاحنا من أجل نشر مفهومنا الجديد للدولة لن نجد مناضلين يماشوننا على الدرب الوعر في مجتمع دبّ إليه الهرم ولن يأتي إلينا واحد من الذين لا همّ لهم سوى الإبقاء على الحالة الراهنة .

بيد أن الصعاب التي تواجهنا والعقبات التي تعترض سبيلنا ، وكفاحنا الذي يبدو يائساً ، هذه العوامل مجتمعة تشحذ منّا الهمم لأنّها تبرز لنا عظمة الرسالة التي نضطلع بها . وستكون الدعوة إلى الحرب ــ هذه الدعوة التي

ترتعد لها في البدء فرائص الضعفاء — ستكون الإشارة التي يرقب صدورها المناضلون ليتجمعوا . وليعلم الوطنيون الاشتراكيون أنه متى اتحد عدد من الرجال متحلين بالعزم والقدرة الفاعلة ، متحررين من كل ما يقعد بالسواد عن الحركة ، واضعين نصب أعينهم هدفاً معيناً ، فلن يلبث هؤلاء الرجال أن يقبضوا على زمام القيادة . فتاريخ العالم قد صنعته الصفوة ، أي الأقلية ، في كل مرة كانت الأقلية من حيث العدد مجسدة للإرادة والإقدام .

تتكفل الطبيعة بتدابير مناسبة لتصحيح نتائج الاختلاطات التي تعكر نقاء الأجناس البشرية ، فهي قلما ترحم المخضرمين ولا سيما السلالات الأولى حتى الجيل الخامس ، وتجردها من الميزات التي كانت للعنصر البدائي المتفوق الذي كان شريكاً في الاختلاط . ناهيك بما يترتب على انعدام وحدة الدم من تضارب بين الإرادات والقوى الحيوية . ففي الظروف الحرجة يتخذ الإنسان ذو الدم الصافي قرارات حكيمة ومنسجمة ، أما المخضرم فإنه يفقد توازنه والسيطرة على أعصابه ، وينتهي به الأمر إلى الخضوع للإنسان ذي الدم الصافي ، ويكون في الغالب عرضة للزوال السريع .

ولا تكتفي الطبيعة بهذا النوع من العقوبة ، ففي الكثير من الحالات تضرب الاختلاطات بالعقم فلا تلبث أن تنقرض ، فإذا اتحد فرد متحدر من عنصر متفوق بفرد ينتمي إلى عنصر وضيع ، تكون أولى نتائج هذا الاختلاط تدني مستوى السلالة تدنياً مطرداً إلى أن يأتي يوم يزول فيه كل أثر للعناصر البدائية المتفوقة ، ويقوم شعب جديد ذو مؤهلات لا بأس بها ، ولكنه يظل دون العرق المتفوق الذي اشترك في الاختلاط الأول . فإذا واجه هذا الشعب شعباً متفوقاً ، عرف كيف يصون دمه نقياً ، فالغلبة تكون لهذا بفضل حضارته السليمة واللحمة التي توحد بين عناصره .

وفي بعض الحالات تلجىء ظروف قاهرة شعباً من الشعوب المتفوقة إلى الاختلاط بشعب أو شعوب وضيعة نسبياً . ولكن ما إن تزول هذه

الظروف حتّى تنزع العناصر التي بقيت سليمة إلى الاختلاط الذي تباركه الطبيعة: الاختلاط بين أصحاب الدم الواحد ، ولا تلبث سلالات المخضرمين أن تقف على الهامش ، ما لم تكن قد ضمنت لنفسها التفوّق العددي ، وأضحت مقاومتها في حكم المستحيل .

من هنا وجوب جعل المهمة الرئيسية للدولة الجرمانية السهر على وقف كلّ اختلاط جديد وصمّ الآذان عن سماع الدعوة اليهودية – الماركسية إلى دكّ الحواجز التي تفصل بين الأجناس وعن سماع احتجاجات أنصار الاختلاط على المساس بحقوق الإنسان المقدسة . فليس للإنسان سوى حقّ واحد مقدّس وهو في الوقت نفسه أقدس الواجبات ، وهذا الحقّ هو السهر على بقاء دمه نقياً طاهراً ، ليتسنّى له أن يصون الحضارة ومقوّماتها ، وعلى الدولة العنصريّة أن تنهض بالزواج من الوهدة التي يتردى فيها بفعل الاختلاط ، معيدة إليه قدسيته كمؤسسة تهدف إلى خلق كائنات على صورة الله ومثاله ، لا مسوخ هي أقرب إلى القردة منها إلى البشر .

أما الاعتراضات التي يمكن أن توجّه إلى نظريّتي باسم الانسانيّة ، فإنها أعجز من أن تقف على قدميها في عصر يتيح ، من جهة ، للمنحطين والمتفسخين أن يتكاثروا مسبّبين للمتحدّرين من صلبهم ولسائر الناس عذابات لا تطاق ، ويتيح من جهة أخرى للأصحاء الحصول من أهون السبل على عقاقير تتلف الزرع البشري . إن البورجوازيين يقيمون الأرض ويقعدونها لأنّنا نطالب بمنع زواج المصابين بالزهري والسل وذوي العاهات الوراثيّة إلخ . . . ولكنهم لا يحرّكون ساكناً ضدّ الوسائل التي يلجأ إليها الأصحاء لمنع الحمل ولإتلاف الزرع البشري .

ولا يقلّ موقف الكنيستين الكاثوليكية واللوترية غرابة عن موقف البورجوازيّين . إنّهما تتذمّران من موجة الإلحاد الطاغية ، ولكنهما لا تقومان بأي عمل إيجابي لوقف طغيان هذه الموجة ، بل نراهما تتنافسان في تبشير

الإفريقيين محاولتين عبثاً إفهام الزنوج ما لا قبل لهم بإدراك كنهه ، وفي هذا الوقت بالذات يتأكل أوروبا جذام إذا ترك وشأنه أدّى بشعوبها إلى الانقراض .

حبّذا لو تركت الكنيستان الزنوج وشأنهم لتلتفتا إلى الخراف الضالة في أوروبا ، وتُفهما السكان أن من كان منهم ضعيف البنية أو مريضاً يحسن عمله في عيني الله إن هو تبنّى يتيماً سليماً بدلاً من أن يهب الحياة لأولاد مرضى يكونون عالة عليه وعلى المجتمع .

يتعيّن على الدولة العنصريّة أن تسدّ النقص الحاصل في هذا الحقل بفعل الإهمال ، جاعلة العِرق محور حياة الجماعة ، ساهرة على بقائه نقيّاً . وعليها أن تجعل من الولد أثمن ما في حوزة الشعب ، وأن تحصر حقّ التناسل بالرعايا الأصحاء معلنة أنّه إذا كان ثمّة من فعلة نكراء فهي أن يتزوّج المرضى وذوو العاهات ويرزقوا أولاداً ، وأن أنبل الأعمال هو أن يمتنع هؤلاء عن التناسل ، وفي الوقت نفسه يتعيّن على الدولة أن تعاقب بصرامة منع الحمل عندما يكون الأب والأم موفوري الصحة والنشاط .

أجل ، ينبغي للدولة أن تتدخل في هذا الحقل بصفة كونها مؤتمنة على مستقبل شعب ، وأن تستخدم الطب والعلم في الحؤول دون تناسل غير المستحقّين وغير المؤهّلين ، فتجرّدهم من القدرة على التناسل . وينبغي لها كذلك أن تضع حدّاً لتحديد النسل في العائلات الفقيرة التي تخشى تعدد الأولاد وذلك بتشجيع الأصحاء على الزواج تشجيعاً عمليّاً يطمئنّ معه المتزوجون إلى قدرتهم على تربية أولادهم دون أن تلاحقهم الهموم وتقضّ مضاجعهم الهواجس .

أليس إجراماً بحق المجتمع أن ينقل المريض أدواءه إلى ذريته؟ على الدولة أن تفهم الفرد بواسطة التربية ، أن كون الإنسان مريضاً أو ضعيفاً ليس عيباً ، إنّما هو محنة تستثير الشفقة ، ولكنه يصبح إجراماً يوم يورث المصاب داءه

أو عاهته مخلوقاً بريئاً . إن البشرية قادرة على إنقاذ نفسها باعتمادها هذا النهج خلال بضعة قرون وكذلك الدولة التي نريد إنشاءها على أساس عنصري سليم . فإذا حيل بين المتفسخين والمرضى وبين التناسل وشجع الأصحاء في هذا الحقل، يتوفر لألمانيا عرق سليم من الشوائب والعاهات ، مهمته الأولى إتلاف بذور الانهيار المادي والمعنوي الذي يتهدد شعبنا في هذه الآونة .

ولتحقيق هذا الغرض يتعيّن على الدولة أن تخضع استعمار الأقاليم المكتسبة حديثاً لقواعد مدروسة فتؤلف لجاناً خاصة مهمتها الترخيص للأفراد بإنشاء مستعمرات ، ولا يعطى الترخيص إلاّ لمن يثبت انتماؤه إلى العرق المؤسس للحضارة ويثبت بالتالي بقاء دمه نقيّاً طاهراً . وهكذا تقوم شيئاً فشيئاً مستعمرات نموذجية على سواعد مستعمرين يمثلون العنصر المتفوّق ويتحلّون بسجاياه الفريدة ، ويؤلفون النواة الصالحة لشعب جديد .

يعود إلى الدولة العنصرية توفير مناخ النمو للجيل الجديد ، وعندها يكف البشر عن الاهتمام بتحسين نسل الخيل والكلاب ، لينصرفوا إلى تحسين النوع البشري ، وفي هذه الحالة يكون المجتمع قد بلغ من الرقي مبلغاً لا تحتاج معه الدولة إلى فرض رقابتها على عملية التناسل ، فغير الصالحين لهذه المهمّة يمتنعون من تلقائهم ، والصالحون يضطلعون بها بإخلاص وفرح .

يبدو هذا للقطيع البورجوازي حلماً مستحيل التحقيق . إنّه لكذلك بالنسبة إليهم وإلى عالمهم الذي لا قبل له بتحقيق المعجزات . فليس للبورجوازية من شاغل سوى الاهتمام بما يعود إليها ، وليس لها معبود سوى المال . وإني لأسأل الذين يقلبون الشفاه ويهزون الأكتاف للتدليل على ارتيابهم في بلوغ البشرية هذا الشأو : أليس في عالمنا اليوم آلاف الرجال والنساء ممّن امتنعوا عن التناسل وفرضوا على نفوسهم التبتّل خضوعاً منهم للشرائع الدينيّة ؟ فلم لا يكون ممكناً تبتّل المواطنين غير الصالحين للتناسل متى حلّ محلّ تعاليم الكنيسة ووصاياها إنذار توجّهه الدولة إلى رعاياها مهيبة بهم أن يضعوا حدّاً

للخطيئة الأصلية الحقيقيّة ، وأن يمجّدوا الخالق القدير بسلالات تكون على صورته ومثاله ؟

لا ، لن يفهم العالم البورجوازي هذه الحقيقة ، فمن العبث التوجه إليه . إنّنا لنتوجّه : أول ما نتوجّه ، إلى الشبيبة الألمانيّة التي تترعرع في عصر هو منعطف كبير من منعطفات التاريخ ، والتي يضطرها تقاعس الجيل المتواري ولامبالاته إلى الكفاح المبكر . نتوجّه إليها ونحن موقنون بأن الشبيبة الألمانيّة ستكون يوماً أحد اثنين : إمّا القوة التي ستبعث الدولة بشكل جديد ومفهوم جديد ، أو آخر من يشهد الانهيار التام للعالم البورجوازي المتداعي . ذلك أنّ جيلاً يتبرّم بالحالة التي هو فيها ويكتفي بالتبرّم بدلاً من أن يجتهد في إزالة بواعثه : — وهو ما يفعله البورجوازيون ومن هم على شاكلتهم — إن جيلاً هذا شأنه مقضي عليه بالزوال . فالبورجوازية في أيّامنا تعترف بأن الداء قد استشرى وتدل على موطنه ولكنها أعجز من أن تحزم أمرها على تدبير جذري . وأعجز ، بالتالي : من أن تعبيء شعباً من سبعين مليوناً وتنفخ فيه روح الكفاح وتقود كفاحه قيادة حكيمة .

إنّ الأندية السياسية التي تعرف باسم « الأحزاب البورجوازية » قد انقلبت جمعيات تضمّ جماعات لا همّ لها سوى خدمة مصالحها الأنانيّة . فكيف يرجى من محترفي السياسة هؤلاء أن يقودوا كفاحاً ضدّ خصم لا يختار أنصاره في أوساط خازني المال ، بل يختارهم في أوساط الكادحين وينفخ فيهم روح الثورة بعد أن يغذي صدورهم بالحقد على كلّ ما هو نبيل وجميل وخليق بالتقديس .

• • •

متى أدركنا أن واجب الدولة الأول هو الحفاظ على أفضل عناصر العرق وتوفير المناخ الصالح لنموّه ، يتّضح لنا دون كبير عناء أن مهمة الدولة ليست مقصورة على تحسين النسل ، بل يتعيّن عليها أن تربّي النشء تربية

تتيح له في المستقبل المساهمة في رفع مستوى الجماعة . وغني عن القول إن أوّل أهداف التربية يجب أن يكون الحفاظ على صحة الأفراد . ففي معظم الحالات نجد العقل السليم في الجسم السليم ، ولا عبرة ببعض الشواذات . ويندر أن يخرج من شعب يتألف من أناس متفسخين رجل ذو سجية وعقل راجح . وإذا ظهر مثل هذا الرجل فإن نجاحه يظلّ نسبياً ، إمّا لأنّ مواطنيه المتفسخين لا يفهمونه ، أو لأن إرادتهم الضعيفة تقعد بهم عن اللحاق بالنسر المحلّق .

والدولة العنصرية المدركة لهذه الحقيقة ، لن تكتفي بحشو الأدمغة بالعلم بل ستجتهد في مهر الأمّة بأجسام سليمة ، محلّة التعليم المحلّ الثاني ، على أن يكون هدفه الرئيسي تنشئة السجايا وإنماء قوّة الإرادة والقدرة على التصميم : أمّا التعليم بمفهومه الأصيل فإنّه يأتي بالدرجة الثانية .

على الدولة العنصرية أن تنطلق من المبدإ الآتي : إن رجلاً سليم الجسم ، كريم الخلق ، قوي الإرادة ، مقداماً ، هو عضو أنفع للمجتمع ، وإن محدود الثقافة ، من رجل ذي عاهة مهما تكن مواهبه العقلية . وإنّ شعباً من العلماء المتفسّخين جسمانياً ، الضعاف الإرادة ، المبشرين بسلم مثبّط للعزائم – إنّ شعباً هذا شأنه يقصر عن بلوغ السماء ويعجز حتى عن تأمين ما يكفل بقاءه على هذه الأرض . وفي الكفاح الذي يفرضه علينا القدر يندر أن تكون الهزيمة من نصيب القادر جسمانياً ، فالخاسر هو دائماً من يستمدّ من معرفته قرارات غير عمليّة وبعيدة عن روح الرجولة وينفّذها بطريقة تستثير الإشفاق .

يجب أن يتوفّر قدر من الانسجام بين الماديات والمعنويات . فالجسم المصاب بالجذام مثلاً لن يعيد إليه الإشعاع الفكري بهاءه وجماله . فقد خلد المثل الأعلى للجمال الذي تخيله الإغريق كونه قرن الجمال الجسماني بتألق الروح وسموّ النفس .

فالعناية بتقوية الأجسام ليست في الدولة العنصرية من شأن الأفراد ،

وليست من المسائل التي يعود الاهتمام بها إلى أولياء النشء ، إنّها من صميم مهمة الدولة لعلاقتها الوثيقة بصيانة العرق أو الشعب الذي تمثله الدولة وتحميه .

ويتعيّن على الدولة العنصريّة أن تسترشد في مهمتها التربويّة بالحكمة الشرقيّة القائلة : العلم في الصغر كالنقش في الحجر ، بحيث تبدأ العناية بتقوية أجسام النشء منذ الطفولة ، وهذا يتطلّب إرشاد الأمهات إرشاداً عملياً في حقل العناية بأطفالهنّ لينموا ويترعرعوا في أحسن الحالات .

وفي الدولة العنصرية يحسن بالمدرسة أن تكرس للرياضة البدنيّة وقتاً كافياً . ففي أيّامنا تخصّص المدارس للألعاب الجمبازية ساعتين في الأسبوع جاعلة حضور التلاميذ اختيارياً ، وهذا هو الخطأ بعينه ، لأن التمارين الرياضية تنشط الجسم والعقل معاً . ولا يجوز أن يمرّ يوم دون أن يمارس الفتى مختلف ضروب الرياضة مدّة ساعتين على الأقلّ ، ساعة في الصباح وساعة في المساء . وثمّة رياضة يعدّها « العصريون » المزعومون بربريّة ومبتذلة، عنيت الملاكمة . والذين ينظرون إليها هذه النظرة يحشرون لعب السيف والمبارزة في عداد الفنون الجميلة . ويفوت هؤلاء أن الملاكمة تنمي روح الكفاح وتروض العقل على التصميم والتنفيذ بسرعة خاطفة وتجعل الجسم صلباً دون أن يفقد شيئاً من مرونته . أليس الأفضل أن يحتكم خصمان إلى سواعدهما وقبضاتهما بدلاً من أن يلجآ إلى النصال والمسدسات ؟ إن الرجل الحريص على كرامته يصدّ هجمات المعتدي بقبضته ولا يرضى لنفسه بإطلاق ساقيه للريح كي يشكو المعتدي إلى أقرب مخفر للشرطة . ولا ريب في أن دعاة السلم بأي ثمن سيسفهون هذا المبدأ ، ولكن الدولة العنصريّة لن تلتفت إلى اعتراضاتهم السخيفة ، فمهمتها ليست تنشئة أجيال مسالمة ، شعارها التسليم دون قيد ولا شرط . إنّها لن تمهر عرقنا برجال من طراز البورجوازي المحترم ، ونساء من طراز العانس الفاضلة ، فمهمتها هي تنشئة رجال يتحلون بالجرأة والإقدام ونساء مؤهّلات لمهر الوطن برجال حقيقيّين .

فلو كانت الطبقات العليا قد مارست الرياضة البدنيّة إلى جانب توفّرها على الدرس والتحصيل ، لو أنّها مارست الملاكمة إلى جانب ممارستها الرقص وضروب اللهو الأخرى ، لما استطاع الفراريون والخونة إشعال نار الثورة في ألمانيا ، هذه الثورة التي لم تكن مدينة بنجاحها لشجاعــة القائمين بها وإقدامهم ورجولتهم ، فقد كتب لها النجاح لأنّ الحكّام كانوا جبناء ، متردّدين ، واجهوا بالأسلحة الفكرية قبضات المخرّبين وأسلحتهم النارية . لقد تغلبت الغوغاء على الطبقات العليا لأن معاهدنا لم تنشىء رجالاً بل أنشأت موظفين وأساتذة وأطباء وكيمائيّين وأدباء ومشترعين .

إن التربية لا تجترح العجائب ولا تأتي بالمعجزات . فمن كان جباناً أصيلاً لا ينتظر من التربية أن تجعل منه شجاعاً مقداماً . ولكن الشجاعة لا تفيد صاحبها إن لم يتعهّدها وينميها بالتربية البدنيّة . وقد أدركت مؤسساتنا العسكريّة هذه الحقيقة وعملت على ضوئها ، فمهرت البلاد في السلم بجيش يتحلّى بالشجاعة ورباطة الجأش والقدرة على احتمال المشاقّ . وقد رأينا الجنود الألمان في صيف ١٩١٤ وخريفه يكنسون كل شيء في طريقهم وينطلقون إلى لقاء الموت كما لو كانوا منطلقين إلى حضور عرس . وهذه الثقة بالنفس هي ثمرة التربية البدنيّة التي تنمي الشخصية وتبلور السجايا ولا سيما الشجاعة والروح النضالي .

ما أحوج شعبنا اليوم ، وهو المغلوب على أمره ، الراسف في أغلال العبوديّة ، إلى هذه الثقة بالنفس ! إن الدولة العنصريّة ستربّي النشء على الاقتناع بأن شعبنا متفوّق على سائر الشعوب ، وسنعيد إليه الإيمان بمقدّرات وطنه والثقة بمستقبل أفضل . ولكن لا يتوهمنّ أحد أن مهمة الدولة العنصريّة ستكون هينة يسيرة . فقد كان انهيار شعبنا هائلاً ، وستكون هائلة الجهود التي ينبغي لنا أن نبذلها لإنهاضه من كبوته .

• • •

لن يكون اهتمام الدولة العنصريّة بإنماء القوى الجسمانيّة مقصوراً على النشء وهو على مقاعد الدراسة ، بل يجب أن يلاحقه هذا الاهتمام ما دام بحاجة إليه ، وإنّنا لنلاحظ والألم يحزّ في نفوسنا ، إهمال الدولة بشكلها الحالي ، واجبها التربوي إهمالاً فاضحاً . فالشبيبة في أيّامنا تتردّى في مهاوي الرذيلة ولا تجد من يردعها ويعنى بتربيتها خلقياً وبدنياً .

وعلى الدولة العنصرية أن تكل هذه المهمّة إلى مؤسسات تابعة لها ، لأنّ التربية البدنيّة يجب أن تكون في خطوطها الكبرى ، مرحلة إعدادية تؤهّل الشبيبة للخدمة العسكرية فلا يضطر الجيش لأن يعلم المجندين الجدد المشي وحمل السلاح إلخ . . . ولا يطلب منه أن يعمل على إنماء قواهم الجسمانيّة . بل يتلقاهم بصفة كونه معهداً عالياً للتربية القوميّة ، دون أن يتخلّى عن الهدف الرئيسي الذي كان للتربية العسكريّة في الجيش القديم : مهر الوطن برجال يعتزّ بهم . وليس يكفي أن يربّي الجيش الجندي على الطاعة ، عليه أن يؤهله للقيادة وأن يروّضه على الصمت والإغضاء عن ظلم يكون هدفاً له . وبعد انتهاء الخدمة العسكرية يزوّد الجندي بوثيقتين : شهادة المواطن التي تتيح له الحصول على وظيفة ، وشهادة صحيّة تثبت كونه صالحاً للزواج .

ولن تغفل الدولة العنصريّة تربية الإناث على أساس المبادىء نفسها . وستكون غاية التربية النسويّة إعداد الفتيات للاضطلاع بدورهن العظيم ، يوم يصبحن أمّهات الغد .

• • •

بعد التربية الجسمانيّة يأتي دور التربية الخلقية .

لا جدال في أنّ بعض الطباع ثابت لا يتبدّل . فالأنانيّ يظلّ أنانياً والمثالي يظلّ مثاليّاً ، وبين هذا وذاك نجد ملايين الطباع المائعة التي لا تستقرّ على حال . فالمجرم بالفطرة يظلّ مجرماً ، ولكن ما أكثر المجرمين الذين يمكن إصلاحهم بحيث يضحون أعضاء نافعين في المجتمع ، وما أكثر ذوي الطباع المائعة الذين

يمكن أن يتكشفوا ذات يوم عن عناصر شريرة إذا لم يتعهّدهم المجتمع بالتّربية اللازمة . طالما تذمرنا ونحن في الميدان من نزعة متأصلة في شعبنا ، هي الثرثرة . فقد لاقى الرؤساء مشقّة كبيرة في محاولتهم كتمان الأسرار العسكرية والسياسيّة عن العدو . ولكن هل ربي شعبنا قبل الحرب على التحفظ والتزام الصمت حيث يجب الصمت ؟ ألم ندرج على إيثار الثرثار في المدرسة والمصنع والدوائر الحكوميّة ؟ ألم نعتبر دائماً الوشاية ضرباً من الصراحة والكتمان ضرباً من العناد ؟ وهل فكّر المربون عندنا في إفهام النشء أن الثرثرة عيب بارز ، وأن التكتّم هو فضيلة الذين يتصفون بالرجولة الحقّة ؟

إنّ المربّين لا يعلقون كبير أهميّة على هذه المسألة لأنّهم يعدونها تافهة ، ولو أنّهم فكّروا قليلاً لتبيّن لهم أن تسعين بالمئة من قضايا الذمّ والقدح والافتراء تنجم عن الثرثرات الفارغة ، وأن المصالح الاقتصاديّة تتضرّر باستمرار لأن أصحاب الألسنة الطويلة يفشون أسرار الصناعات ، وحتّى الاستعدادات العسكرية لم تسلم من ثرثرة الثرثارين ؛ فترتب على ذلك خسارة أكثر من معركة .

ولا يعزبنّ عن البال استحالة تقويم الخلق المعوجّ بعد أن يكون المرء قد اكتمل نضجه وصلب عوده . فتنشئة مواطنين متحلين بالسجايا الحميدة يجب أن تبدأ في البيت حيث يتولاّها الآباء والأمّهات ، ثم تتولاّها المدرسة . وليعلم المربون أن التلميذ أو الولد الذي يشي برفيقه أو بأخيه هو ذو نزعة كامنة تقوده إلى الخيانة . وإذا كان يحلو لبعض المربّين أن يستخدم هذه النزعة في فريق من التلامذة ليقف على ما يفعله سائر رفاقهم في الخفاء ، فإن البعض الآخر يعتبر الوشاية في مثل هذه الحالات تصرفاً حميداً ، ويشجع أبطالها منمياً فيهم هذا العيب الذي يجعل منهم في المستقبل خونة بالفطرة .

ليس للتربية الخلقيّة أثر يذكر في مدارس اليوم . أمّا الدولة العنصريّة فستحلّ هذه الناحية محلّها من الاعتبار وتعلم النشء أن الأخلاص ونكران

الذات والتحفّظ فضائل ينبغي لكلّ شعب عظيم أن يتحلّى بها ، وستدعو المربين إلى ترويض التلاميذ على احتمال الألم والظلم بصمت ورباطة جأش ، لأن هذه السجيّة تجعل منهم في المستقبل جنوداً ثابتي الجنان ، قادرين على أداء الواجب في أحرج الظروف وأقسى الحالات .

• • •

سيكون من مهامّ التربية في الدولة العنصريّة العمل على إنماء قوّة الإرادة وروح الإقدام ومواجهة المسؤوليات .

في الماضي كان الجيش يأخذ بالمبدإ القائل : « الأفضل أن يصدر القائد أمراً ما من أن يحجم عن إصدار الأوامر . » وفي أيامنا يجب إفهام النشء أن الخوف من مواجهة المسؤوليات هو الذي عجل بكارثة ١٩١٨ . ففي كانون الأوّل من العام المذكور تخاذلت السلطات كافّة ، وأحجم الجميع ، من الأمبراطور إلى قائد الفرقة ، عن ممارسة صلاحياتهم وتركوا الزمام يفلت من أيديهم ؛ واليوم نجدنا عاجزين عن إبداء مقاومة جديّة لا لأنّنا لا نملك سلاحاً بل لأنّه تعوزنا الإرادة الحسنة . ألم يقل أحد القادة العسكريين : « أنا لا أقدم على خطوة ما لم أضمن لها النجاح بنسبة ٥١ بالمئة » ؟ إن الـ ٥١ بالمئة هذه تكشف لنا عمّا وراء الكارثة وانهيار ألمانيا . فالذي ينتظر من القدر أن يضمن له النجاح هو آخر من يحقّ له أن يزهو بنتيجة عمله ، وآخر من يجوز للدولة أن تعتمد عليه .

وغني عن القول إن ضعف الإرادة والإحجام والتهرّب من المسؤوليّة مبعثها سوء التربية وفساد الأسس التي تقوم عليها ، وإنّا لنلمس هذه العيوب في الذين تصدّوا لقيادة الأمّة : حكّاماً وبرلمانيّين وعسكريين ورؤساء أحزاب ، وستولي الدولة العنصرية هذه الناحية عناية خاصة واضعة نصب عينيها تحرير الشعب الألماني من عوامل الضعف التي كانت أحد الأسباب المباشرة لانهيار ألمانيا.

• • •

وستدخل الدولة العنصرية على التعليم تعديلات ثلاثة تتناول الأمور الآتية :

أوّلاً : إنّ نظام التعليم في أيامنا يرهق التلاميذ ويحشو أدمغتهم بمعلومات لا فائدة منها ، ولا يلبث التلميذ أن ينساها ، وإذا استقرّ في ذهنه شيء منها فهذا الشيء اليسير لن يفيده في حال تعاطيه حرفة معيّنة .

ويقول أنصار هذا الأسلوب إن المعلومات التي يحشى بها دماغ التلميذ تنمي فيه القدرة على التفكير والملاحظة . وهذا الدفاع وجيه إلى حدّ ما ، ولكن هذا الطوفان من المعلومات كثيراً ما يغرق دماغ الطالب فيفقد القدرة على الاستيعاب ولا يبقى له بالتالي شيء من القدرة على التفكير والملاحظة، فعلى الدولة العنصريّة أن تقدم إلى كلّ مواطن قدراً من المعلومات يفيده ويؤهله لخدمة المجتمع .

طالما تساءلت : ما هي الحكمة من جعل تعلّم اللغات الأجنبيّة إلزاميّاً مع العلم أن بضعة ألوف فقط من ملايين الذين يتعلّمونها يمكنهم أن يستفيدوا بما تعلّموه أمّا سائر المواطنين فلا . أليس الأفضل تخصيص ساعات اللغات الأجنبية للألعاب الرياضية وجعل تعلّم الفرنسية والانكليزيّة والإسبانيّة اختياريّاً ؟

على الدولة العنصريّة أن تغيّر الأسلوب الحالي في تعليم التاريخ . فالتلميذ لا يعرف من الأحداث سوى تاريخ حصولها ومكانه وأسماء أبطالها . وقد كان جهلنا التاريخ ولا يزال الباعث على إخفاق سياستنا الخارجيّة لأنّه لا ينتظر من رجل دولة يجهل الخطوط الكبرى للتاريخ أن ينجح في معالجة القضايا الدولية . أمّا أعضاء البرلمان المفروض فيهم أن يكونوا صفوة المتعلّمين ، فإنّهم يخبطون خبط عشواء كلما استشهدوا بالأحداث التاريخية ، ويندر أن يقوم بينهم خطيب ذو إلمام بهذه الشؤون .

إن التاريخ كما يجب أن يتعلمه المواطنون هو الذي يبرز تفاعل العوامل المسببة للأحداث . فالمقصود من تعلّم التاريخ ليس معرفة ما كانه الماضي ، إنّما المقصود استخراج الدروس والعبر من هذا الماضي . ونجعل الدولة العنصرية غاية التاريخ تعليم الألمان ما ينبغي لهم عمله لتأمين مستقبل أفضل ، وستسهر على وضع تاريخ شامل تحتلّ فيه المسألة العنصريّة المقام الأوّل .

ثانياً : يعنى نظام التعليم في أيّامنا عناية خاصّة بالرياضيات والطبيعيات والكيمياء . أنا لا أنكر أهمية هذه الموادّ فيّ عصر هو عصر التكنيك ولكني أعارض في التشديد عليها وإهمال الموادّ التي لا بدّ من تحصيلها ليحصل الطالب على قدر كاف من الثقافة العامة . ومن هذه المواد التاريخ والجغرافيا والآداب ... وعندي أن تكون هذه المواد هي الأساس ، على أن يتعمق الطالب في الكيمياء والطبيعيات والرياضيات إذا كان في نيّته التخصّص في فرع يتطلّب هذا الاتجاه .

وقد درج المؤرخون على إبراز بطولة الملوك ومشاهير القادة العسكريّين، وقلّما توقّف مؤرّخ عند بطولة الشعب ، وهذا النقص يجب أن تسدّه الدولة العنصريّة في عصر يتحسّس الشعب بقضاياه ويدرك أهمية دوره في بناء الدولة والحفاظ على الحضارة .

ثالثاً : يجب أن يتيح نظام التعليم الجديد للدولة العنصريّة العمل على إنماء العزّة القوميّة . فالتاريخ الشامل وتاريخ الحضارة يجب أن يتجها هذا الاتجاه . فالمؤرخ في الدولة العنصريّة لن يقدم المخترع كرجل عظيم إلاّ لأنّه يمثل شعبه . وعليه أن يسلط أضواء كافية على نوابغ شعبنا لتمتلىء صدور المواطنين بالفخر والاعتزاز حتّى إذا غادروا معاهد التعليم عملوا لوطنهم كألمان يريدون أن يضيفوا إلى أمجاد الماضي أمجاداً طارفة .

وعلى المربّين في الدولة العنصريّة أن يدخلوا في روع النشء أنّه لا يجوز للمواطن أن يفخر بانتسابه إلى الأمّة الألمانيّة إذا كان بعض طبقات الشعب يشكو انعدام المساواة ؛ أو كان ثمة فئات تسيء بمسلكها إلى سمعة الأمّة .. ولكن هذا الفخار يصبح واجباً قومياً يوم تسود العدالة الاجتماعيّة ويصدر جميع المواطنين عن إيمان ثابت بمقدّرات الوطن .

تبلغ الدولة العنصريّة غايتها كمعلم ومربّ يوم تنعش في قلب الناشئة فكرة العرق ، بحيث لا يغادر مقعد التحصيل فتى إلاّ وهو مقتنع بأن نقاء الدم هو ضرورة حيويّة .

هتلر والنازية

الفصل الرابع عشر

الدولة وتنشئة النخبة

رسمت في الجزء السابق الخطوط الكبرى للاصلاح الذي يتعيّن على الدولة العنصرية كما يفهمها حزبنا أن تحقّقه في حقل التّربية والتعليم . وقد رأيت أن أستهلّ هذا الجزء بالتشديد على أهميّة الدور الذي يمكن الدولة أن تقوم به في تنشئة ما يسمّونه النخبة أو الصفوة .

في أيّامنا قلّما يقام وزن للاستعداد الشخصي . فأبناء الأغنياء والنبلاء وكبار رجال الدولة هم وحدهم المؤهلون للتحصيل العالي . ويندر أن نجد في الجامعات طالباً والده فلاح ، وإذا وجد وكان متفوّقاً فأبواب التوظيف الّتي تفتح أمامه لا تؤهله لشغل المناصب المرموقة لأن هذه المناصب محفوظة للنخبة المؤلفة من أبناء الوزراء وأقطاب السياسة والنبلاء وكبار القادة والأغنياء . وإنّنا لنجد اليوم حقلاً واحداً تتساوى فيه المواهب : هو حقل الفنون ، ففي هذا الحقل لا يكفي التحصيل وحده فلا بدّ من وجود ميل طبيعي يجعل الطالب راغباً في التحصيل ، قادراً على إنماء مواهبه . أمّا المال ووضع الوالدين في المجتمع فإنّهما لا يمثلان هنا دوراً مذكوراً .

أنا لا أدعو إلى جعل التحصيل العالي ولا سيما الاختصاص في متناول الجميع ، فالنخبة تفرض نفسها على المجتمع ، تفرض نفسها لأن ما تبدعه هو ثمرة زواج الكفاءة والمعرفة . يمكننا ، ولا ريب ، أن نروّض رجلاً عاديّاً أو ذا استعداد عقليّ وسط على استيعاب معلومات تفوق طاقته ، ولكن شأنه يظلّ شأن الحيوان المروض ، يقوم بحركات آليّة مستقلّة عن النشاط العقلي .

أجل يمكننا بواسطة التّرويض العقلي أن نمهر الدولة بجيش لجب من

الموظفين الذين يصرّفون الأمور تصريفاً آلياً ، وأن نتيح لكلّ بيت أن يقدم للوطن عالماً، ولكن العلم الذي يستوعبه العقل غير المؤهل استيعاباً آلياً يظل مادة ميتة، فالمواهب المولدة يشحذها الاكتساب ويستفزّها للعمل ولكنّه لا يوجدها.

ما أكثر الأخطاء التي يقع فيها الجمهور الألماني في هذا الحقل ، وإني أورد مثالاً واحداً للتدليل على ذلك . تنشر الصحف الفينة بعد الفينة صوراً لزنوج اشتهروا في فنّ الموسيقى أو برزوا في الطبّ أو السياسة ، أو بزوا أقرانهم البيض في الملاكمة أو السباحة إلخ . . . ويقوم بين رجال الفكر من يعرب عن ابتهاجه بهذه النتيجة تعطيها نظم التعليم الحديثة ، أما اليهودي الماكر فإنّه يجد في هذه الظاهرة سنداً للنظرية التي يحاول فرضها : المساواة بين الناس.

ولو عقلت البورجوازية الآخذة بالانهيار لوجدت في بروز غير المؤهلين تجديفاً على العقل . أليس تحدّياً لمشيئة الخالق ترويض مخلوق هو نصف قرد بحيث يصبح محامياً أو طبيباً بينما لا يجد الملايين من أبناء العرق المتفوّق عملاً يؤمن لهم الكفاف ويتيح لهم وضع مواهبهم في خدمة الحضارة ؟ في أميركا الشماليّة ازداد عدد الاختراعات زيادة مطردة خلال السنين العشر الأخيرة لأن التحصيل العالي وضع في متناول جميع المؤهلين للخلق والإبداع وأوصدت أبوابه في وجوه المتطفّلين . ذلك بأن موهبة الاختراع تجد في المعرفة حافزاً ومنشطاً، ولكن العلم بدون المواهب الطبيعية يظلّ عاجزاً عن العطاء ، عقيماً .

ينبغي للدولة العنصرية أن تتدخل في هذا الحقل ، فتبحث عن ذوي المواهب وتعهد إليهم بالمهام الرئيسيّة ، ينبغي لها أن تفتح أبواب مؤسسات التعليم العالي أمام المواطنين المؤهلين بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي ، وفي التاريخ أكثر من شاهد على عظمة المشروعات التي تمّت على أيدي النابغين من أبناء الشعب . ناهيك بالعواقب الوخيمة التي نجمت وتنجم عن استئثار طبقة معيّنة بالعلوم العالية . فقد ترتّب على هذا الاستئثار نشوء طبقة من المفكرين مقفلة منطوية على نفسها ، تعالج القضايا من برجها العاجي وتأنف

الاختلاط بالسواد ، ممّا يجعلها بعيدة عن التحسّس بقضايا الشعب ، عاجزة عن فهم مشاكله ونفسيته . يضاف إلى هذا أن حصر العلوم العالية بطبقة النبلاء والأغنياء أفضى إلى وضع مقدّرات البلاد في عهدة رجال تعوزهم الجرأة والإقدام وروح التضحية ، لأن تنشئتهم العلميّة جاءت ناقصة ، فما عنيت المؤسّسات التي تخرّجوا منها بالناحية الخلقيّة ولا هي تصدّت لأن تجعل منهم رجالاً قادرين على مواجهة الأحداث .

لقد كان من سوء طالع شعبنا اضطراره إلى خوض غمار معركة حياة أو موت في وقت كان مستشار الريخ فيلسوفاً. فلو قيّض لألمانيا أن يتولّى زمام الأمور فيها رجل حازم من أبناء الشعب ، لما ذهبت سدى تضحيات جنودنا البواسل .

في هذا الحقل نجد في الكنيسة الكاثوليكيّة قدوة ومثالاً . فهي تحرص على أن يكون رجالها أقوياء الشكيمة ، ويضطرها مبدأ التبتّل إلى اختيارهم من أبناء الشعب لأنّهم أقدر من أبناء الخاصة على لجم الغرائز وكبح جماح الشهوات . وبفضل هذا الأسلوب ظلّت الكنيسة على تماسّ بالسّواد ، واستمدّت من هذا السواد الطاقة على مغالبة التيارات المضادة . من هنا شباب الكنيسة المتجدّد أبداً ، ومرونتها المدهشة وإرادتها الفولاذيّة .

يتعيّن على الدولة العنصريّة إذنْ أن تسهر باستمرار على تجديد شباب الطبقات المثقفة بدم فتي هو دم الطبقات الدنيا . وعليها أن تغربل الرعايا بعناية ودقّة لاستخراج العتاد البشري الموهوب ووضعه في خدمة الجماعة ، فمبرّر وجود الدولة ومؤسّسات الدولة ليس توفير الدخل لبعض الطبقات ، إن مبرّر وجودها هو أداؤها المهام المنوطة بها ، وهذا لا يكون إلا بتنشئة رجال مؤهّلين للاضطلاع بالعبء .

يبدو تحقيق هذا الإصلاح متعذّراً في مجتمعنا الحالي ، وبديهي أن يبدي عليه البورجوازيون اعتراضات وملاحظات لا سبيل إلى إنكار وجاهتها، كأن يقولوا : كيف يفرض على أبناء كبار الموظفين أن يكونوا عمالاً يدويين

ليحلّ محلّهم في معاهد التعليم العالي أبناء فلاح أو عامل أو مستخدم ، بمجرد كون هؤلاء أوفر استعداداً من أولئك ؟ إنّه لاعتراض وجيه ولا ريب ، بالنظر إلى القيمة التي للعمل اليدوي في مجتمعنا ، فعلى الدولة العنصرية أن ترفع من شأن العمل اليدوي وأن تتخذ من قيمة العمل لا العمل نفسه أساساً للحكم على الفرد . أليس من الظلم أن يحتلّ في أيامنا مؤلف رواية بوليسيّة أو كاتب سخيف مركزاً في المجتمع هو أرفع من المركز الذي يحتله عامل ذو اختصاص ؟

إن للعمل قيمة مزدوجة : ماديّة ومعنويّة . فالماديّة تتجلّى بأهميّة العمل من حيث تأثيره في حياة المجتمع . فكلما ازداد عدد المواطنين المنتفعين ، مباشرة أو بالواسطة ، بعمل ما ، ازدادت قيمة هذا العمل الماديّة . أمّا القيمة المعنويّة فإنّها لا تتجلّى بأهميّة إنتاج العمل بل تتجلّى بضرورته . ولا جدال في أن الفائدة المادية لاختراع ما يمكن أن تكون أجزل ممّا يقوم به العامل في يومه . ولكن لا جدال كذلك في أن خدمات العامل للجماعة ضروريّة لهذه الجماعة أكثر من الاختراع نفسه الذي يظلّ مشروعاً ميتاً إن لم تتوفّر له الأيدي اللازمة .

في دولة يسودها العقل ينبغي للقابضين على الزمام أن يعهدوا إلى كلّ مواطن بالعمل الذي تؤهله له كفاءته ، بعد أن يسبر غور هذه الكفاءة بالتربية التي رسمنا خطوطها الكبرى في فصل سابق . أمّا قيمة الفرد فيتّخذ مقياساً لها مدى نجاحه في أداء المهمة التي ناطتها به الجماعة ، بعد أن أعدته للاضطلاع بها الإعداد اللازم . ونجاحه في مهمته يعني أنّه استطاع أن يعيد إلى المجتمع ما تلقّاه منه . وبديهي أن يكون مواطن هذا شأنه موضع الرعاية والاحترام ، وأن يكون الأجر المادي الذي يتقاضاه نظير النفع الذي يعود به عمله على المجتمع ، أمّا الأجر المعنوي فهو الاحترام الذي يجب أن يطمح إليه كلّ فرد يقف المؤهلات التي حبته بها الطبيعة على خدمة المجتمع الذي عمل على إنماء هذه المؤهلات وتوجيهها .

الفصل الخامس عشر

رعايا الدولة والمواطنون

تضمّ الدولة فئتين من الناس : فئة المواطنين وفئة الأجانب . فالمواطن هو من كان يتمتّع بفضل منشئه أو بفضل تجنّسه بالحقوق المدنيّة . والأجنبيّ هو من كان يتمتّع بالحقوق نفسها في دولة أخرى . وبين هاتين الفئتين نجد أحياناً الهايمتلوز أي الذين لم يتح لهم شرف الانتماء إلى دولة ما والذين لا يتمتعون بالحقوق المدنيّة في البلاد التي يقيمون على أرضها .

يكفي إذنْ أن يبصر الإنسان النور ضمن حدود دولة ما كي يتمتّع بالحقوق المدنيّة ، فليس للعِرق والدم المشترك أي تأثير في هذه المسألة ، وبموجب القوانين السارية المفعول في ألمانيا يعتبر مواطناً ألمانيّاً الوليد الزنجي الذي هبط أبوه بلادنا من مستعمرة ألمانيّة ليقيم فيها إقامة موقتة أو دائمة ، ويعتبر مواطنين كذلك أبناء اليهود والبولونيّين والأميركيين والأسيويّين الذين يولدون في حالات مماثلة .

وثمّة طريقة أخرى لإحراز الجنسيّة تجعل الرعوية الألمانيّة في متناول كلّ من توفّرت فيه شروط معيّنة .

يشترط في طالب الجنسية ألاّ يكون لصّاً ولا تاجر رقيق ولا ذا ماض سياسي يؤهله لتمثيل دور بارز ، ويشترط فيه كذلك أن يكون قادراً على العمل وتدبّر معاشه بحيث لا يكون عالة على الدولة . أمّا المسألة العنصريّة فإنّها تظلّ بمعزل عن الموضوع ولا يقام لها أيّ وزن . ولا يكلف إحراز الجنسية الطالب كبير عناء . فهو يتقدّم بطلبه الخطّي من السلطات الإدارية المختصة فتدرسه وترفعه إلى رئيس الدولة مرفقاً بملاحظات هي في الغالب في مصلحة

الطالب . وبعد أيام تنتهي إليه مذكرة تشعره بأنّه أصبح مواطناً ألمانياً . وهذا العمل السحري يقوم به رئيس الدولة ، فما يعجز عنه الآلهة يحقّقه موظّف من طينة البشر بجرّة قلم . وهكذا ينقلب المغولي بين عشيّة وضحاها ألمانياً مئة بالمئة . أمّا العنصر الذي ينتمي إليه طالب الجنسية ، أمّا حالته الصحيّة فمسألتان لا تدخلان في حساب القائمين على الأمر . فالمهمّ في نظرهم أن يعول الألماني الجديد نفسه ولا يشكل خطراً عليهم على الصعيد السياسي .

وفي الدولة بحالتها الراهنة للمواطن وحده الحقّ بشغل الوظائف والالتحاق بخدمة العلَم وانتخاب أعضاء البرلمان والمجالس الإقليميّة . وبهذه الحقول الثلاثة تنحصر امتيازاته ، لأن الأجنبيّ في الجمهورية الألمانيّة يتمتّع بالحقوق الفرديّة وبالحريّة الشخصيّة التي يتمتّع بها المواطن . قد يقول المدافعون عن هذا الوضع الغريب إن الديموقراطيّة تعترف للأجنبيّ بهذه الحقوق ، وأنا أحيل هؤلاء على الولايات المتّحدة الأميركيّة التي سبقتنا إلى الترحيب بالأجانب وعادت اليوم تقيم في طريقهم العراقيل ، رافضة قبول المرضى ، مانعة جنسيتها عن رعايا الأجناس الملونة ، ممّا يجعل تصرّفها هذا متمشّياً والنظرة العنصريّة إلى الدولة .

السكان في الدولة العنصريّة ثلاث فئات : مواطنون ورعايا وأجانب ، والفرق الوحيد بين الفئتين الثانية والثالثة هو أن الأجانب رعايا دولة أخرى ، وتعتبر الدولة العنصريّة رعايا لها جميع الذين يولدون على أرضها ، ولكن الرعوية وحدها لا تخول صاحبها حقّ المساهمة في النشاط السياسي ولا تؤهّله لشغل وظيفة عامّة ، فكلّ ألماني هو أحد رعايا الدولة العنصريّة الألمانيّة ، ولا يكتسب صفة المواطن الألمانيّ إلاّ بعد أن تصهره المدرسة أوّلاً والجيش ثانياً في البوتقة القوميّة . فالجيش هو المدرسة التي تخرج المواطنين ولكن لا تمنحهم هذه الصفة والحقوق اللاصقة بها ما لم يكونوا موفوري الصحة وما لم يكن مسلكهم خلواً من الشوائب .

وشهادة المواطن هذه هي أعظم وثيقة يحصل عليها الفرد في الدولة العنصريّة ، لأنّها تتيح له ممارسة حقوق المواطن والاستمتاع بالامتيازات التي تعود إلى هذا اللقب . ويرافق منح الشهادة قسم يؤدّيه المواطن الجديد معاهداً الأمّة والدولة على خدمتهما بإخلاص وأمانة ونكران ذات .

والمواطن يحتفظ بصفته هذه ما دام أهلاً لها . أمّا المجرم والخائن والمتخاذل إلخ . . . فإنّهم يفقدون هذه الصفة ليعودوا إلى صف الذين لم يكتمل نضجهم القومي أي رعايا الدولة العنصريّة .

لا تمنح الفتاة الألمانيّة صفة المواطنة إلاّ بعد زواجها ، وتستثنى الفتيات اللواتي تضطرهن ظروفهن للعمل ؛ ويأكلن خبزهن بعرق الجبين .

• • •

إنّ نظرة الدولة العنصريّة إلى الفرد تجرّها حتماً إلى محاربة المبدأ الماركسي القائل بالمساواة المطلقة بين البشر . ولكن التفاوت الذي نلمسه بين الشعوب والأعراق قائم بين العناصر ذات الدم الواحد ، فعلى الدولة العنصريّة أن تختصّ بعنايتها في المجتمع الواحد العناصر المتفوّقة ، مع العلم أن اكتشاف هذه العناصر لا يكلفها كبير عناء ، إنّما الصّعوبة كلّ الصعوبة في غربلة المتفوّقين لانتقاء الصفوة التي يجب أن تتولّى التوجيه ، وفي الدولة العنصريّة لن يصار إلى اختيار القادة بالطرق الأوتوماتيكية المعروفة ، أي أنّ مبدأ الأكثريّة الذي يطلق أيدي النكرات في التلاعب بمقدّرات الأمّة ويجعل من الأكفاء كميّة مهملة ؛ لن يؤخذ به في دولة تطمح إلى تزعّم العالم المتمدّن . فالشخصيّة القويّة تفرض نفسها بفضل الترتيبات التي تجريها الدولة بحيث لا يفسح في مجال الخدمة العامّة للانتهازيّين وتجار السياسة والمغامرين .

يتوهّم بعض الذين يتتبّعون خطى حركتنا الفنيّة أن الفرق الوحيد الذي يجب أن يقوم بين الدولة العنصريّة الوطنيّة الاشتراكية وبين سائر الدول هو فرق مادي بحت يتجلّى في التنظيم الاقتصادي ، حيث تعنى الدولة العنصريّة

بإقامة توازن عادل بين الثروة والحرمان، أو بتحسين مستوى الطبقات الكادحة، أو بجعل الأجور متناسبة وقيمة الإنتاج وما إلى ذلك من شؤون. إن الذين لا ينتظرون من حركتنا أكثر من هذه المآتي العادية ذات الطابع الموقوت، ليست لديهم عن أهدافنا فكرة صحيحة ولا يحق لهم بالتالي أن يتصدّوا لنقد حركتنا أو تقريظها. إن شعباً يكتفي من الإصلاح بتنظيم أموره تنظيماً سطحياً هو شعب غير مؤهّل لانتزاع المبادرة وتقدّم الموكب البشري الآخذ بأسباب النموّ والحضارة. لن تكتفي حركتنا بإصلاحات سطحيّة لا غد لها ولا شأن يذكر في النهوض بشعبنا، فالدولة العنصرية الاشتراكيّة ستجعل في رأس الإصلاحات الأساسيّة التي ندبت نفسها لتحقيقها تمكين الصفوة من الاضطلاع بمهمّة التوجيه. وهذا يفترض جعل الدولة مؤسّسة ذات مناخ مؤات لنموّ شخصيّة الفرد.

ولأجل فهم أهداف حركتنا على حقيقتها لست أجد بأساً في استنطاق التاريخ مرّة أخرى لأنّه يبرز دور الفرد في إنشاء الحضارات.

إن الخطوة الأولى التي باعدت بين الإنسان والحيوان كانت تلك التي خطاها الانسان نحو الاختراع، وقد كان جهده في هذا الحقل مقصوراً بادىء ذي بدء على استنباط الحيل والمداورات التي تمكّنه من حماية نفسه.

وهذه الاستنباطات البدائيّة يفسرها السطحيون بأنّها بوادر غريزيّة لم تصدر عن الإنسان المنعزل، إنّما صدرت عن جماعة ألفت نفسها في مأزق فاستنبطت الوسائل القمينة بإنقاذها. ولكن المدقّقين يجزمون بالعكس ويقولون إن النشاط الإنساني في شتى مظاهره يكون في مستهلّه محصوراً بفرد، وإنّ كلّ تطوّر في مصلحة الكائنات الحيّة وضع أسسه رجل فرد: فكانت بادرته هذه بمثابة إشارة انطلاق للآخرين. فالقول إن الاختراعات البدائيّة هي من صنع الجماعات يجافي الواقع. حتى بالنسبة إلى الحيوانات التي لجأت وتلجأ إلى الحيلة بدافع من الغريزة. فالحركة التي يقوم بها قطيع من الماعز مثلاً لتفادي خطر

حيوان مفترس هي تقليد لحركة أتاها من قبل رأس من الماعز دفاعاً عن نفسه ، فما عتّم القطيع كلّه أن اقتبسها . ولا ريب في أن الحيل الأولى التي استنبطها البشر في سعيهم إلى اتّقاء شرّ الحيوانات المفترسة كانت من تدبير أفراد موهوبين ، وقد تأثرت الجماعة خطى هذا النفر الموهوب ، ولما شرع يبتكر أدوات الدفاع عن النفس أفادت الجماعة من اختراعاته البدائيّة ، كما أفاد البشر بعد آلاف السنين من اختراعات تفتّقت عنها عبقريّة أفراد .

وابتكر الإنسان من ثمّ طرقاً مكّنته من السيطرة على كائنات حيّة كان يخشاها وكانت تخشاه ، وما عتّم حتّى استخدم هذه الكائنات في أغراضه المختلفة ، ولما اطمأنّ إلى وضعه ككائن متفوّق برزت مواهبه المبدعة ، فصقل الحجر وروّض الحيوان الشرس واخترع السلاح القاطع ، فالسلاح الناري إلخ ... وقد كانت هذه الاختراعات جميعاً نتاج نشاط أفراد موهوبين ، فالسواد لا يبدع شيئاً وكذلك الكثرة ، لأن التصميم والتنظيم لا يمكن أن يصدرا عن جماعة .

وعندي أنّ دولة من الدول أو جماعة من الجماعات تبلغ حدّ الكمال من حيث التنظيم يوم تتيح لقواها المبدعة أسباب النموّ ومجالات العمل لتستخدم هذه القوى في ما يعود بالنفع على المجتمع . وسيكون في رأس واجبات الدولة العنصريّة الوطنيّة الاشتراكيّة إبراز الموهوبين من رعاياها ووضعهم في المقدمة . والبحث عن الصفوة يستغرق بعض الوقت لأن الكفاح في سبيل البقاء طويل وشاقّ ، فالّذين يتساقطون على جوانب الطرق أو يهلكون قبل الوصول يكونون غير مؤهّلين للقيادة ، أمّا القلائل الذين يصمدون إلى النهاية فإنّهم يؤلّفون الصفوة المؤهّلة . وإنّا لنجد عمليّة الانتخاب هذه آخذة مجراها بيسر في ميادين الفكر والفنّ والتنافس المهني حيث يسود الأكفاء ، ويتفوّق ذوو المواهب ، ونجدها كذلك في المؤسّسات التي تخول الرئيس سلطة مطلقة على مرؤوسيه كالجيش مثلاً . ففي الجيش يفرض الفرد ذو الشخصيّة اللامعة نفسه رئيساً ، وإذا وجد في السلم من يتجاهله فالحرب وملابساتها كفيلة بإبرازه

فلا يلبث أن يشقّ طريقه ليتبوّأ المركز اللائق .

يمكن القول إن وضع الزمام في اليد القادرة أضحى في أيّامنا منهجاً عامّاً في شتى ميادين النشاط الانساني ما خلا الحياة السياسيّة حيث يسود، مع الأسف، مبدأ الكثرة ، وحيث نجح اليهود في القضاء على تأثير الشخصيّة ليحلّوا محلّه تأثير السواد ، وهكذا زال المبدأ الآريّ البنّاء ، المبدأ الذي يجعل من الصفوة دعامة المجتمع والعنصر الفاعل القادر على الخلق والإبداع ، وساد المبدأ اليهودي الهدام الذي يهدف أكثر ما يهدف إلى إفساد الشعوب والأعراق وتقويض دعائم الحضارة الحقّة . وقد تبنّت الماركسيّة المبدأ اليهودي ، تبنّته لأنّه يقصي النخبة ولا يقيم وزناً للشخصيّة ويجعل الشأن الأوّل والأخير للكثرة أو العدد . من هنا عطف الماركسيّة واليهوديّة على النظام البرلماني ، ومن هنا عطفهما الكاذب على الطبقة الكادحة ، وتحريضهما النّقابات على الشغب كأسلوب من أساليب المطالبة بالحقوق ، وقد ترتّب على إخضاع الاقتصاد القومي لأهواء السواد فقده الحوافز الشخصيّة التي كانت له بمثابة مهماز يدفع به إلى الأمام .

إن الوعود والنظريّات هي كلّ ما تستطيع الماركسيّة تقديمه إلى السواد لقاء استخدامها إيّاه في زعزعة أسس الدولة ، وفي تقويض دعائم الاقتصاد القومي . ستأخذ حركتنا على عاتقها إفهام العمال أن الخطب الطنّانة والنظريات «الخنفشارية» التي تزين لهم الإضراب والشغب لا تستهدف إضعاف الانتاج العامّ فحسب بل القضاء على حيويّة شعبنا وشلّ نشاطه . وإن توفير أسباب الرفاهية للجميع إنّما يكون بإعطاء كلّ مواطن نصيبه اليومي من الخير العام الذي يجب أن يكون حاصل الجهد المشترك الذي يبذله الجميع .

ليست حركتنا حزباً منافساً للماركسية ، لهذا ينبغي لنا أن نشدّد على إبراز التباين الصريح بين مفاهيمنا العنصريّة وبين نظرة الماركسيّين إلى الدولة والأمّة والعرق . فالدولة العنصرية الوطنيّة الاشتراكيّة تحلّ المسألة العرقيّة محلّها

اللائق من الاعتبار وتعترف بأهميّة الشخصيّة وتجعل من هذه وتلك أساس كلّ عمل إيجابي بنّاء . فإذا قضى سوء الطالع بأن تهمل حركتنا هذا المبدأ الأساسي بل الجوهري ، وأن تسلم بالأمر الواقع وتقرّ مبدأ الأكثريّة ، فلن يكون حزبنا أكثر من جماعة لا همّ لها سوى منافسة الماركسيّين ، ويفقد بالتالي مبرّر وجوده كحركة تقوم على عقيدة فلسفيّة .

على الدولة العنصريّة أن تسهر على رفاهية رعاياها ، وهي إذ تعترف بأهميّة الشخصيّة إنّما تضاعف طاقة الأنتاج الجماعي وتكفل لكلّ مواطن العيش الرغيد . ولن يتمّ لها ذلك ما لم تحرّر الأوساط الموجّهة ولا سيما الأوساط السياسيّة من المبدإ البرلماني : مبدأ تفوّق الأكثريّة . أي إخضاع الجماعة لما يقرّره السواد . وما لم تسلم الزمام إلى العناصر المؤهّلة لتقوم بالتوجيه والقيادة .

لن يكون في الدولة العنصريّة الوطنيّة الاشتراكيّة شيء اسمه « قرار الأكثريّة » بل يكون فيها رؤساء مسؤولون ، وتستردّ لفظة « مشورة » معناها الأصلي، فيكون لدى الرئيس مستشارون ولكن القرارات تصدر عنه وحده ، وإن الدولة العنصريّة لتحسن صنعاً بتبنيها المبدأ الذي كان الجيش البروسي يتمشّى عليه في الماضي جاعلة منه أساس جهازها السياسي : للرئيس السلطة المطلقة على مرؤوسيه ، وهو مسؤول مسؤوليّة تامّة أمام رؤسائه . أما البرلمانات فتنقلب مجالس استشارية لا أكثر ولا أقلّ ، وستكون هذه المؤسّسات نافعة إلى حدّ ما ؛ لأن طبيعة تكوينها وما يدور فيها من مناقشات يجعلان منها مدرسة لتنشئة الرؤساء .

يمكن إعطاء الصورة الآتية عن دور البرلمان في الدولة العنصريّة الوطنيّة الاشتراكيّة :

لن يكون في الريخ مجالس تمثيليّة تمارس صلاحية اتخاذ المقررات الملزمة للحكومة ، بل سيكون له مجالس استشاريّة تقوم بما يكل إليها الرئيس القيام به . ولن تسمح الدولة العنصريّة بأن يفصل في القضايا الحيويّة — القضايا

الاقتصادية مثلاً – أناس غير مؤهّلين لأداء هذه المهمّة ، لهذا سيكون هناك مجالس سياسيّة وأخرى تعاونيّة ، ولأجل جعل التعاون مثمراً بين هذه المجالس وتلك يناط بمجلس شيوخ القيام بدور الحكم . بيد أنّه لن يكون تصويت في أي مجلس من المجالس، فهي مؤسّسات مهمّتها العمل ، وليست آلات للتصويت .

• • •

ليس قصر مهمّة المجالس التمثيليّة على الدرس وتقديم المشورة غير الملزمة بدعة يطلع بها حزبنا . ولا ننسى أن مبدأ الأكثرية لم يؤخذ به إلا لماماً منذ أن كان في العالم دول وحكومات ، وقد كان الأخذ به سبباً في خراب الشعوب وانهيار الدول . بيد أنّ هذا التحوّل يدعو إليه حزبنا لا يمكن أن يتمّ بمجرّد اتّخاذ تدابير نظريّة معيّنة : فلا بدّ لتحقيقه من بذل جهود جبّارة وطويلة النفس . وهو ما أخذ الحزب الوطني الاشتراكي على عاتقه القيام به .

الفصل السادس عشر
المفهوم الفلسفي والتنظيم

لن يكون قيام الدولة العنصرية رهناً باهتدائنا إلى مقوّمات وجودها . فليس يكفي أن نعرف كيف يجب أن تكون هذه الدولة ، بل علينا أن نوجدها. ولن يكون للأحزاب السياسيّة القائمة أي شأن في العمل الإنشائي الذي ندبت حركتنا نفسها له ، وكيف يُرجى منها أن تُعمل معاولها في أسس الوضع الراهن وهي المدينة بوجودها لفساد هذا الوضع ؟ ولا ننسى أنّ موجّهي الأحزاب الحاليّة هم من اليهود ، فإذا لم يقم بيننا من يضع حدّاً لتلاعب «الشعب المختار» بمقدّرات شعبنا فلن يمرّ طويل وقت حتّى تتحقّق النبوءة اليهودية القائلة : « سيخضع اليهودي شعوب الأرض قاطبة ويصبح سيّدها غير مدافع » .

أجل كيف يرجى من الأحزاب البورجوازية وأحزاب اليسار أن تقاوم الذين يوجهونها ويسخرونها في خدمة أغراضهم ومصالحهم ؟

إنّ الانتقال بالدولة العنصريّة من الصعيد المثالي إلى ميدان الواقع لن تحقّقه القوى التي تسود الحياة العامّة في أيامنا ، ولا بدّ لتحقيقه من تدخّل قوّة جديدة قادرة على الكفاح في سبيل هذا المثل الأعلى . ذلك بأن مهمتنا الأولى ليست إقامة هيكل الدولة العنصريّة بل هي القضاء على الدولة اليهوديّة ، وقد علّمنا التاريخ أنّ الصعوبة كلّ الصعوبة ليست في إقامة حالة جديدة ، بل في فسح المجال لهذه الحالة ، وهكذا يتعيّن على جنود فكرتنا أن يبدأوا كفاحهم المرير بالعمل على إزالة الوضع الراهن .

على كلٍّ عقيدة فتيّة ذات مبادىء جديدة أن تبدأ كفاحها بشهر سلاح النقد في وجه خصومها . وإنّنا لنسمع اليوم العنصريّين المزعومين يقولون ،

لمناسبة ولغير مناسبة ، إنّهم يترفعون عن تسديد سهام النّقد إلى الآخرين ليتفرّغوا للعمل الإنشائي وحده . إن هؤلاء « العنصريين » يجهلون التاريخ وحتّى تاريخ العصر الذي يعيشون فيه ؛ فالماركسية ، في سعيها إلى فرض سيطرة اليهوديّة العالميّة – وهو عمل إنشائي – قد بدأت بالنقد وظلّ هذا شأنها طيلة خمسة وسبعين عاماً ، وكان نقدها هدّاماً ، طويل النفس ؛ ما زال بالدولة الهرمة حتّى قوّض دعائمها ، وعندئذ فقط شرع في العمل « الإنشائي » المزعوم . لقد أدرك الماركسيون أن حالة راهنة ما لا يمكن أن تزول بمجرد ظهور رسل حالة جديدة ، وأن الحالتين كثيراً ما تتعايشان وتستمرّان ولا تلبث العقيدة الفلسفية المزعومة أن تعيش متغلة في الإطار الحزبي الضيّق ، ذلك بأن التسامح لم يكن قطّ ولن يكون أبداً من شيم أصحاب العقائد ، والعقيدة تأبَى أن تكون حزباً في جملة الأحزاب القائمة . فهي تطمح إلى فرض مبادئها ونظرتها إلى الكون ولا تسمح ببقاء أثر واحد من النظام القديم .
كان هذا شأن الأديان ولا يزال .

فالنصرانيّة لم تكتفِ بإقامة هياكلها الخاصة ، بل عمدت أولاً إلى هدم الهياكل الوثنيّة . ولولا هذا التعصّب الأعمى لما كان ذلك الإيمان الذي مهر النصرانيّة بالعديد من الشهداء .

قد يعترض معترض ، بحقّ ، أن التعصّب والأنانيّة هما نقيصتان عالقتان باليهود ، وأنّه ليس خليقاً بنا أن ننسج على منوالهم وأن نحاربهم بالسلاح الذي يشهرونه في وجه خصومهم . هذا صحيح وألف مرّة صحيح ، ولكن الوضع الراهن الذي نتبرّم به لا يمكن إزالته بالوسائل العاديّة ، والعقيدة التي تقوم على التعصّب والأنانيّة لا سبيل إلى سحقها بغير العقيدة التي تشهر في وجهها السلاح نفسه وتحمل في ذاتها فكرة جديدة صافية ومطابقة للحقيقة . هل نسينا أن النصرانيّة حملت وإيّاها الإرهاب الروماني ؟ ذلك أن الإرهاب لا يسحقه غير الإرهاب ، ولئن تكن الأحزاب السياسيّة تؤثر فضّ المشاكل بالتسويات فالمذاهب الفلسفيّة

ترفض المساومة والتنازل عما تعتقده حقاً . والأحزاب السياسيّة تأتلف أحياناً مع أحزاب مناوئة لها ، أمّا المذاهب الفلسفيّة فإنّها لا تمدّ يدها إلى المناوئين وتعتبر نفسها معصومة عن الخطإ .

تبدأ الأحزاب السياسيّة نشاطها وفي نيّتها الاستئثار بالسلطة والانفراد بالتوجيه ؛ ويبدو عليها أنها تميل إلى اعتناق مذهب فلسفيّ معيّن : ولكن سرعان ما تبتعد عن المذاهب الفلسفيّة رغبة منها في مسايرة الجمهور الذي يؤثر الانضمام إلى الحركات السياسيّة ذات المناهج السطحيّة ، فتلتفّ حولها النفوس الضعيفة التي لا تقوى على الكفاح وشنّها صليبية مبادىء وعقائد . وإذا طال بالأحزاب المذكورة الانتظار نراها تسارع إلى ما تسميه « التعاون الإيجابي » مع المؤسّسات القائمة طمعاً بالحصول على نصيب ضئيل من الغنيمة ، ويقف كفاحها عند هذا الحدّ . أمّا إذا أبعدها عن المائدة منافس أقوى منها ، فإنّها تسير في موكب الناقمين ويظلّ هذا شأنها إلى أن تتاح لها العودة مجدداً إلى مكان الوليمة .

أمّا المذهب الفلسفي فإنّه برفض التعاون ومذهباً آخر أو العمل في نطاق وضع لا يعترف به ؛ فهو يعتبر نفسه ملزماً بمحاربة هذا الوضع والقوى المعنويّة التي تسانده إلى أن يتاح له إزالتها جميعاً .

وهذا الكفاح التدميري الصرف يحتاج إلى مناضلين متّصفين بالعناد والصلابة وقوّة الشكيمة . فالحركة العقائديّة لا تفلح في فرض مبادئها ما لم تجند تحت لوائها أشجع عناصر الشعب وأوفرها نشاطاً ، وتحشدها في منظمة قويّة شعارها النضال ؛ وما لم تنتقِ من فلسفتها مبادىء معيّنة فتشرحها شرحاً يجعلها قريبة من أفهام الجمهور ، صالحة لأن تكون قانون إيمان المنضوين تحت لواء الحركة .

ولئن يكن منهاج الحزب السياسي بمثابة وصفة يضعها الساسة لمناسبة حلول موسم الانتخابات ، فمنهاج الحركة العقائديّة هو بمثابة إعلان الحرب

على النظام القائم ، والوضع الراهن والمفهوم العملي للوجود . وليس مفروضاً في جميع الذين يناضلون في سبيل الحركة أن يكونوا مشبعين بمبادئها ، مدركين كلّ ما يجول في رأس الزعيم ، فالمهمّ أن يكونوا ملمّين ببعض المبادىء الأساسيّة ، مؤمنين بانتصار الحزب وعقيدته وبقدسيّة القضيّة التي تجنّدوا للدفاع عنها .

أيُّ نفع يرجّى من جيش يتألف بمجموعه من كبار الضباط ، حتى لو كان هؤلاء موهوبين وأكفاء ؟ والحزب الذي لا يضمّ سوى أعضاء لامعين لا يرجى منه أن يستميت في الدفاع عن عقيدته ، فلا بدّ لانتصار الحزب وعقيدته من وجود قيادة عليا حكيمة بعيدة النظر ، وجنود تسيرهم العاطفة ويخضعون للقيادة خضوعاً أعمى . إن سريّة تضمّ مئتي رجل جميعهم أذكياء وأكفاء هي أصعب قياداً من سريّة تضمّ مئة وتسعين رجلاً عاديّاً وعشرة رجال موهوبين يمسكون زمام القيادة . وقد أدرك الحزب الاشتراكي الديموقراطي هذه الحقيقة وعمل على ضوئها . بسط هذا الحزب سيطرته على ممثلي الفئات الشعبيّة الذين سرّحوا من القوّات المسلحة حيث روّضوا على الطاعة والنظام ، وقد أخضعهم الحزب لنظام لا يقلّ قسوة عن نظام الجنديّة ، وجعل منهم رؤساء ومرؤوسين ضباطاً وضباط صف وجنوداً . فالعامل الألماني أصبح جنديّاً من جنود الحزب ، ورجل الفكر اليهودي أصبح ضابطاً أو صف ضابط .

وفيما كان البورجوازيون يباهون بأن أنصارهم يؤلفون صفوة المتعلّمين ويعيرون الماركسيّة بحضن الجماهير الجاهلة ، كان العقلاء من المواطنين يردون نجاح الماركسيّة إلى هذا العامل بالذات . ذلك بأن الأحزاب البورجوازيّة تضمّ جماعات من أرباب الوجاهة ورجال الفكر الذين لا يتقيّدون بضابط ولا يعترفون بنظام . أمّا الحزب الماركسي ، والأحزاب التي ترسّم خطاه ، فقد ألف بعتاد بشري محدود الأفق جيشاً من المناضلين يطيع قادته اليهود طاعة عمياء . وقد تعامت البورجوازية — وهي التي لم تعنَ قطّ بدرس نفسيّة الجماهير —

عن رؤية الخطر الناجم عن هذا التفاوت في التنظيم ، ولم تفعل شيئاً في سبيل اجتذاب السواد ، وحجتها أن الأحزاب التي يكون قوامها الوجهاء والمفكرون هي أوفر حظاً بالوصول إلى الحكم من الأحزاب التي تعتمد على تأييد الجماهير الشعبيّة لها ، وقد فات البورجوازية أنّ قوة حزب سياسي ما ليست في ذكاء أعضائه ولا في استقلال كلّ عضو برأيه ، بل هي في النظام الذي يسود الحزب وفي خضوع الأعضاء للقيادة خضوعاً تاماً .

إنّه لمبدأ أساسي ينبغي لنا أن نتقيّد به ونحن نحشد وسائلنا تأهّباً للنضال ، فبدون العتاد البشري المؤمن بالفكرة ، المتعصّب لها ، تظلّ الفكرة مجرد فكرة ؛ وإذا شئنا أن نوفّر لحركتنا أسباب النجاح فلنتوجّه بدعاوتنا إلى الطبقة التي لا يهولها الكفاح ، عنيت الطبقة العاملة . وتمشّياً مع هذا المبدإ حرصت منذ اللحظة الأولى على استخلاص خمسة وعشرين مبدأ من منهاج الحزب لوضعها في متناول أبناء الشعب . وهذه المبادىء تعطي السواد صورة مكبرة عن أهداف الحركة وتصلح في الوقت نفسه لأن تكون قانون إيمان للمنضوين تحت لوائها .

ليس المهمّ أن نفرغ منهاج الحزب بقالب جميل لنهمل العناية بصوغ المبادىء صياغة تجعلها غير قابلة للتأويل الخاطىء . فالمبنى أو القالب يمكن تعديله أمّا المعنى أو الجوهر فيجب أن يظلّ ثابتاً وإلاّ كان تحويره النينة بعد الفينة باعثاً على الانقسام . وفي هذا الحقل يحسن بنا أن نقتدي بالكنيسة الكاثوليكية التي ترفض بعناد التنازل عن حرف واحد عندما يكون الأمر متعلّقاً بجوهر العقيدة ، مع العلم أن صرح الكنيسة العقائدي يصطدم في أكثر من نقطة بالعلم والمنطق . ومن هذا الرفض تستمدّ الكنيسة قوّتها ونفوذها المتزايدين ، فعلى من يرجو مخلصاً نجاح الحركة العنصريّة أن يتشبّع بالفكرة الآتية : لا بدّ لنجاح الحركة من قيام حزب مناضل يأخذ على عاتقه تحطيم الحواجز التي تعترضها ، ويضع لنفسه منهاجاً واضحاً ويخلص للمبادىء التي يضمنها منهاجه ويحافظ عليها ؛ فلا يتنكر لها إذا حورب من أجلها ؛ ولا يتناولها بالتحوير والتعديل

مسايرة للرأي العام ، لأنّه إن فعل يقضي على اللحمة التي تشدّ أنصار الحزب بعضهم إلى البعض الآخر ويضعف فيهم الروح النضالي .

إن لحزب العمال الألماني الوطني الاشتراكي منهاجاً يشتمل على خمسة وعشرين بنداً هي قانون إيمان الحركة . فعلى الحزب أن يقدّس منهاجه وأن يمتنع عن نقده وتعديله ما دامت الحركة لم تبلغ أهدافها بعد .

من حقّ حزبنا ، بل من واجبه أن يعتبر نفسه حامل لواء المبادىء العنصريّة. فقد تصدّى غيرنا لأداء الرسالة التي يضطلع الآن بمهمة أدائها الحزب الوطني الاشتراكي ، ولكن المبادىء التي طلع بها الذين سبقونا غامضة متنافرة لا لحمة بينها ولا انسجام ، ولئن قامت اليوم جمعيات وأندية وأحزاب ـ حتى الكبيرة منها ـ تدعو لإقامة صرح الدولة على أساس عنصري فلأن الحزب الوطني الاشتراكي قد طلع بمفهوم للعنصريّة مستوحى من العلم والمنطق والتاريخ ، وقبل تدخل حزبنا لم يكن لدى المشتغلين بالسياسة ، وقل القضايا العامّة ، أية فكرة عن العنصريّة ، فجاءت حركتنا وأعطت هذه اللفظة مدلولاً جوهريّاً وأبرزت قوّة الفكرة وأثرها في بناء دولة سليمة التركيب ، عزيزة الجانب ، فما كان من الأحزاب إلاّ أن تلقّفت اللفظة وتبنّتها ، لا لأنّها تؤمن بالفكرة بل لأنّها لمست نجاح حركتنا ومدى انتشار مبادىء هذه الحركة في البيئات الشعبيّة .

كانت الأحزاب «البورجوازية» تجهل ما هي العنصريّة لثماني سنوات خلت ، وقبل سبع سنوات كان زعماؤها يغرقون في الضحك كلّما جيء على ذكر العنصريّة ، ثم انبرت البورجوازيّة لمحاربتها دون ما هوادة ، ومنذ ثلاث سنوات اضطهد الحاكمون رسل الفكرة ولكن الاضطهاد زاد هؤلاء إخلاصاً لفكرتهم وأكسب حركتهم أنصاراً جدداً . وفي العام الفائت تبنى البورجوازيون اللفظة والفكرة لئلاّ يفوتهم القطار ، ولكنّهم يستخدمونها في الدعاوة الانتخابيّة أداة لتضليل الناخبين واجتذابهم إلى الحظيرة .

وثمة أحزاب فهمت العنصرية على حقيقتها ولكنها لم تحسن تنظيم نفسها تنظيماً يؤهلها للكفاح ، وعند وضع المناهج اكتفت بإيراد نظريات ومبادىء غامضة ، مشوشة ، وزعمت أن تحقيق الدولة المثالية يمكن أن يتم باللاعنف .

ولإبراز عجز الأحزاب عن الاضطلاع بالمهمة التي ندب حزبنا نفسه للاضطلاع بها يحسن بي أن أعود بالقارىء إلى الأيام التي فاجأت فيها حركتنا الرأي العام بظهورها على المسرح السياسي .

الفصل السابع عشر
فعل الكلمة

كان نجاح الاجتماع الذي دعا إليه الحزب في ٢٤ شباط ١٩٢٠ مشجعاً لنا على عقد اجتماعات شعبيّة دوريّة ، وبعد أن كنّا نتردّد في تنظيم اجتماع صغير مرّة واحدة في الشهر ، صرنا نستسهل تنظيم الاجتماعات الحاشدة مرّة كل أسبوع ؛ وظلّ هاجسنا خلال الفترات الفاصلة بين اجتماع وآخر السؤال الذي حرق شفاهنا يوم دعونا الناس إلى حضور اجتماعنا الشعبيّ الأوّل : أتراهم ملبين الدعوة ومصغين إلى خطبائنا حتّى النهاية ؟

فاق نجاح الاجتماعات الأسبوعيّة كلّ تقدير ، وكان عدد المستمعين يزداد أسبوعاً بعد أسبوع . وقد عالج خطباؤنا القضايا التي تشغل الأذهان بعد أن شرحوا مبادىء الحزب ، بادئين بتعيين المسؤولين الحقيقيين عن الحرب وإبراز مساوىء معاهدة فرساي ، هاتين المسألتين اللتين انفرد حزبنا بإثارتهما في ذلك الحين لأنّ مجرّد البحث فيهما بحثاً موضوعيّاً مجرّداً كان يعدّ خيانة للجمهورية وعرضاً منْ أعراض الرجعيّة والتعلّق بأهداب الملكيّة، وكان الذين ضللتهم الماركسية ما إن يسمعوا أحدنا ينتقد معاهدة فرساي حتى يقاطعوه متصايحين : « ومعاهدة برست ليتوفسك ؟ » وقد لقينا في البدء مشقّة كبيرة في إفهام المستمعين أن معاهدة فرساي قد ألحقت بألمانيا عاراً ليس من السّهل محوه . ولم يكن موقف السواد منّا في هذه القضيّة موقفاً ودّيّاً ، فكان علينا إمّا أن نتابع الحملة أو أن نتراجع مداراة منّا للسواد . وكان رأيي الاستمرار في الحملة ولو ترتّب على ذلك ابتعاد الشعب عن حزبنا ورميه إيانا بكل نقيصة ، فالحزب الوطني الاشتراكي يجب أن يسود الرأي العام وأن يضطلع بمهمّة

توجيه الجماهير ، فإذا جاراها في الخطإ حرصاً منه على التودّد إليها فإنّه يفقد مبرّر وجوده كحركة تريد النهوض بالشعب الألماني وإقامة دعائم الدولة على أسس سليمة .

كانت مصارحة الشعب بالحقائق في ذلك الحين مغامرة خطرة . فالحزب الذي يغالب التيّار يجازف بشعبيّته . وقد رأينا البورجوازية تتحاشى الاحتكاك بالسواد تاركة إياه يهيم في دياجير الضّلال التي افتعلها اليهود وعملاؤهم . أمّا نحن فقد زادنا عناد الجماهير الشعبية رغبة في الكفاح . ومضينا في خطتنا الرامية إلى إزالة الوهم العالق بالأذهان حول معاهدات الصلح ولا سيما الزّعم القائل إن معاهدة فرساي كانت انتصاراً للديموقراطيّة ، ولم يفتني وأنا أشدّد على وجوب الاستمرار في الحملة على معاهدات الصلح أن حزبنا قد يخسر من جرّاء ذلك بعض شعبيّته ، ولكني كنت موقناً بأن الأمر سينتهي بالشعب إلى إدراك الحقائق ، فيستحيل بغضه لنا حبّاً ويولي حركتنا ثقته ولا يضنّ عليها بالتشجيع .

يمكن القول إنّ كلّ فكرة شقّت طريقها عبر التاريخ لتخلد هي وتخلد صاحبها قد أسيء فهمها لذا طرحت في التداول وحوربت محاربة لا هوادة فيها ، لأنّها جاءت متعارضة والآراء السائدة ، مخالفة لوجهة نظر الجمهور ولرغباته . وقد أدركنا نحن هذه الحقيقة في اجتماعنا الشعبيّ الأول ، وأدركت أنا قبل الجميع أنّني أتوجّه إلى أناس متشبّعين بأفكار وآراء غير متفقة وما أنا مزمع بسطه لهم . كان علي في خطاب يستغرق ساعة أو ساعتين أن أنسف الأسس التي يقوم عليها اقتناعهم بصحّة ما يؤمنون به تمهيداً لاستدراجهم إلى اعتناق مبادئنا ونظرتنا إلى الأشياء .

كانت المهمة صعبة ، ولا شكّ ؛ لأنّنا دخلنا المعترك ونحن مصمّمون على مواجهة الجمهور بالحقائق غير مدارين عواطفه وأهواءه . وقد أدركت على ضوء ما تخلّل الاجتماعات الأولى أن مهمتنا يمكن تبسيطها وتيسيرها

بانتزاع السلاح من يد الخصم . وكنت قد لاحظت أن اعتراضات الماركسيين وحلفائهم تكاد تكون هي إيّاها في كلّ اجتماع فصرت أفنّد الاعتراضات المحتمل سوقها قبل أن أتبسط في الموضوع قاطعاً بذلك الطريق على المشاغبين والذين استظهروا ما لقّنهم إيّاه أسيادهم ليسوقوه في الاجتماع ، وبفضل هذا الأسلوب استطعت أن أستميل من كان منهم حسن النيّة وأن أردّ كيد المشاغبين إلى نحورهم .

وتمشّياً على هذه الخطّة شرعت أشرح أحكام معاهدة برست ليتوفسك في معرض حملتي على معاهدة فرساي ، ذلك أني اكتشفت أن الناقمين على المعاهدة الأولى لا يعرفون شيئاً عنها ، وأن الدعاوة الماركسيّة البارعة قد أدخلت في روعهم أن ألمانيا فرضت تلك المعاهدة على الشعب الروسي وأن معاهدة فرساي كانت بمثابة ردّ فعل لما ارتكبه الألمان بحقّ الروس . كان عليّ أن أدحض المزاعم الماركسيّة بإجراء مقارنة بين المعاهدتين ، وقد وفّقت في محاضرة استغرقت ساعتين إلى إبراز مساوىء معاهدة فرساي ومحاسن معاهدة برست ليتوفسك بالرغم من الشغب الذي تعمّده المتطرفون ، وألقيت من ثمّ سلسلة محاضرات في هذا الموضوع ضارباً على الوتر نفسه فكوفئت على مجهودي بأحسن ما يكافأ ذو رسالة إذ كان ألوف المواطنين يتحررون بعد كل محاضرة من أوهام حشت الدعاوة الماركسية رؤوسهم بها .

وبفضل الاجتماعات الدوريّة ملكت ناصية الكلام وأتقنت فنّ مخاطبة الجماهير وإذكاء حماستها باللهجة المؤثرة والحركة التي تفعل أحياناً في النفس فعل الكلمة .

ولم نكتفِ بالخطب وسيلة لتنوير الشعب بل عمدنا إلى إصدار النشرات وإذاعة البيانات وضمّنّاها رأي الحزب في معاهدة الصلح وفي العوامل التي أدت إلى نشوب الحرب ، بيد أن الجانب الأعظم من مجهودنا قد تجلّى في الاجتماعات التي كنّا ندعو إليها وفي الخطب والمحاضرات التي كنّا نلقيها

اقتناعاً منّا بأنّ الكلمة هي وحدها القمينة بإثارة الجماهير . وقد وضحتُ في جزء سابق أن الأحداث التاريخيّة الكبرى قد مهدت لها الكلمة تتحرك بها الشفاه وليس ما طالعه الناس منشوراً في صحيفة أو كتاب .

منذ أسابيع أثيرت هذه المسألة في الصحف المحليّة وسخرت صحف البورجوازيين من الرأي القائل بقوة تأثير الكلمة المنطوق بها ، ولم يدهشني هذا الموقف من جانب فئات تعيش في برجها العاجي وتحاول أن تتصل بالجمهور بواسطة ما تخطّه أقلام مفكريها البعيدين عن عقلية السواد ونفسيته بُعد الأرض عن السماء .

يفوت البورجوازيين أن الخطيب يمكنه أن يقيس مدى تأثير كلماته وهو يتفرّس في وجوه المستمعين ، وعلى ضوء ما يقرأه في هذه الوجوه يمكنه إمّا المضيّ في النهج الذي اختطّه لنفسه أو تحويره أو العدول عنه . . . أمّا الكاتب فإنّه يدفع بما يكتب إلى قراء لا يعرفهم ولا يمكنه والحالة هذه أن يوقع خطاه في مضمار التوجيه على خطى الذين يتوجه إليهم أو أن ينحو النحو الذي يجعل آراءه قريبة من الأفهام أو في متناول عقول قرائه ، ولا ننسى أن أبناء الشعب ينفرون بطبيعتهم من قراءة ما لا يتفق وما يؤمنون به أو ما يحمل إليهم غير ما كانوا يتوقعون . وإذا شاء كاتب أن يستدرج السواد إلى الوقوف على رأيه مكتوباً فليعتمد النشرات والبيانات القصيرة وسيلة لنشر رأيه، لأن الجمهور يقبل على مطالعة ما يدفع إليه بهذه الوسيلة بدافع الفضول لا أكثر ولا أقلّ . وما يقال في البيان القصير يصحّ في الصور والأشرطة التي تعطي عن الموضوع فكرة سريعة وواضحة نسبيّاً ، إلاّ أن الكاتب يمكنه أن يتلاعب بعواطف الجمهور مجارياً الخطيب المفوّه ، إن هو توجه إليه بأسلوب جذاب وبصيغ وألفاظ موازية لمستوى السواد . ولكن اختبار جدوى الأسلوب يستغرق وقتاً غير قصير وجهوداً متواصلة ، أمّا الخطيب فإنّه يطالع في وجوه المستمعين تأثير كلماته ، يقرأ في هذه الوجوه : أولاً — ما إذا كان المستمعون

يفهمونه جيّداً ، ثانياً – إذا كانوا يتتبعون باهتمام ما يبسطه بإسهاب ، ثالثاً – إلى أيّ حدّ نجح في إقناعهم بأنّه على حقّ ، فإذا لاحظ أنّهم لم يفهموه اعتمد أسلوباً آخر وخاطبهم بلغة تقرب الموضوع من أفهامهم ، وإذا تبيّن له أن ثمّة مستمعين ضاعوا في خضمّ البحث عمد إلى تبسيط الموضوع . وإذا قرأ في الوجوه أن حججه لم تقنع من يراد إقناعه عمد إلى ردّ الاعتراضات التي يفرض وجودها في خواطر غير المقتنعين . ثمّ يكرّر الحجج معزّزة بالأمثلة الحيّة إلى أن يستدلّ من الأمارات المرتسمة على الوجوه على انهيار آخر حصن من حصون المقاومة والعناد .

وبديهي أن المطلوب إقناعهم في هذه الحالة هم في الغالب من المواطنين الذين ضللتهم الدعاوة وغررت بهم ، فصاروا يصدرون عن عاطفة أو هوى وليس عن اقتناع هو وليد التفكير المتزن . . . ولا شك في أن تخطي هذا الحاجز من العداء المصطنع والمستمدّ من الغرائز هو أشقّ ألف مرّة من تقويم نظرية علمية أو رأي بعيد عن الصواب . ولا شكّ كذلك أنّه يمكننا مكافحة الجهل والمعرفة الناقصة بتعليم الأميين وأنصاف المتعلمين ، ولكن الشعور العدائي لا سبيل إلى معالجته بالطريقة نفسها . فلا بدّ من الاستعانة عليه بالمواهب ذات التأثير السحري المباشر .

إنّنا لواجدون الدليل الصارخ على تفوّق الكلمة المنطوق بها على الكلمة المكتوبة في ظاهرة لا سبيل إلى تجاهلها . في ألمانيا صحف بورجوازيّة متقنة يوزّع منها يوميّاً ملايين النسخ ، ولكن انتشار هذه الصحف لم يمنع سواد الشعب من الالتفاف حول الحركات المعادية للبورجوازية ، فقد انزلقت كتابات الصحف ومصنّفات المفكرين البورجوازيين على ملايين المواطنين انزلاق الماء على جلد يعلوه الزيت . ومردّ هذه الظاهرة إلى أحد أمرين : إمّا أن يكون نتاج المفكّرين وحملة الأقلام البورجوازيين عقيماً لا يحمل جديداً إلى النّاس ، أو أن تكون الكلمة المكتوبة مقصرة عن النفاذ إلى

قلوب الناس .

زعمت جريدة تصدر في برلين أن الأدب الماركسي المكتوب ومؤلفات كارل ماركس قد فعلت في نفس السواد الأعظم فعل السحر . ما أبعد هذا الزعم عن الحقيقة ! إن ما استحوذ على عقول الطبقات الكادحة خلال السنوات الأخيرة هو تلك الموجة الجارفة من الدعاوة الشفوية التي عرف الماركسيون كيف يوجهونها ، ولم يكن لمؤلفات ماركس والأدب الماركسي ولا لمصنفات اليهود التي تدس السم في الدسم شأن يذكر في اجتذاب السواد إلى الدائرة الحمراء . فمن مئة ألف عامل ألماني لا نقع على مئة عامل تصفحوا كتاب كارل ماركس واكتنهوا ما تضمه دفتاه من مبادىء وآراء وفكر . وكتاب كارل ماركس لم يوضع ليكون في متناول السواد ، بل وضع ليكون دستوراً للحركة اليهودية العاملة على إخضاع العالم لسيطرة « الشعب المختار » ، وتولت الصحافة مهمة الدعاوة للمبادىء التي اشتمل عليها ، مستهدفة بدعاوتها البارعة وسم الماركسية بطابع اجتماعي – إنساني يبهر الطبقات المحرومة .

إن نجاح الماركسية في اجتذاب ملايين العمال مردّه في الدرجة الأولى إلى الدعاوة الطويلة النفس يقوم بها آلاف المحرضين ، من القطب الكبير إلى العامل الحقير مروراً بالمشاغب المتطوع لمقاطعة الخطباء المعادين وبالخطيب المتطوع لتلقيح السواد باللقاح الماركسي . ناهيك بحرص الدعاة من مفكرين وخطباء ومحدثين بارعين على معايشة السواد رغبة منهم في الوقوف على أحواله والتعرف إلى ما يفرحه وما يشجيه ، وتظاهرهم بمعاناة مشاكله والتحسس بقضاياه . ولا ننسى مواكب التظاهرات يمشي فيها عشرات الألوف من الصعاليك تحدوهم الرغبة في إظهار تضامنهم وإفهام الملأ أنهم يؤلفون قوة هائلة في وسعها أن تفرض سيطرتها وأن تخضع العالم البورجوازي لمشيئة البروليتاريا . هذه المظاهر مجتمعة قد خدمت أغراض الماركسية وجذبت إلى أحضانها السواد .

وأحسن الماركسيون اختيار جنود الدعاوة المكتوبة . فقد كانت صحافتهم صحافة ناطقة أكثر منها مطبوعة . فبينما كان الأساتذة والأدباء والنظريون والكويتبون في المعسكر البورجوازي يحاولون أحياناً الكلام ، ففي المعسكر الماركسي كان الخطباء يحاولون أحياناً أن يكتبوا ، ولا ننسى أن اليهودي الذي يتولى الدعاوة المكتوبة لحساب الماركسيّة تساعده مرونته وطول نفَسه في الكذب والتضليل أن يكون خطيباً أكثر منه كاتباً . فلا بدع والحالة هذه أن تظلّ الصحافة البورجوازية مقصرة عن بلوغ شأو الصحافة الماركسيّة في مضمار إقناع الجماهير واستمالتها إلى رأي أو فكرة .

وقد استخرجت من الاجتماعات الحاشدة التي كنت خطيبها الرئيسي أمثولة سبقني الماركسيون إلى استخراجها ، وحرصوا مذ ذاك على عقد اجتماعاتهم ليلاً . فقد تعلمت على حسابي أن محاضرة في موضوع معين يلقيها المحاضر نفسه يكون لها إذا ألقيت نهاراً غير التأثير الذي يكون لها إذا ألقيت ليلاً .

أذكر أننا دعونا إلى اجتماع شعبي في حانة كادنكيلر بميونيخ ، وحدّدنا الساعة العاشرة من صباح الأحد موعداً لافتتاح الاجتماع بخطاب ألفظه أنا حول « اضطهاد الألمان في المناطق المحتلة » . ولما كان اليوم يوم أحد فقد كان الإقبال عظيماً ، ولكن المستمعين ظلوا محتفظين بوقارهم فما تحركت شفتان باعتراض أو استيضاح ، ولا تحركت يدان بالتصفيق ، وأحزنني أن يقابل خطابي بلامبالاة وأن أخفق في إلهاب شعور الحاضرين ، وتكررت الاجتماعات النهارية ، فكانت النتيجة فيها جميعاً مخيبة للآمال .

وأخيراً بدّلنا المواعيد ، وألقيت أول خطاب في أول اجتماع شعبي ليلي ففعلت كلماتي في نفوس المستمعين فعل النار في الهشيم ، وطالعت في وجوههم أني سحرت منهم الألباب . وحرت بادىء ذي بدء في تعليل هذا الانقلاب ، فالخطيب والجمهور المستمع لم يتغيرا وكذلك موضوع الخطاب . وأخيراً أدركت سرّ هذه الظاهرة بفضل ملاحظة أبداها أمامي أحد الرفاق . فقد نصح

لصديق له ، بحضوري ، بأن يشهد مسرحيّة « الشعب المتحرر » وقال له إنّه شهد المسرحيّة مرتين وإن انطباعاته كانت في المرة الثانية غيرها في المرة الأولى، وأعرب عن اعتقاده أن المشهد التمثيلي في الليل يترك في النفس أثراً أعمق من الأثر الذي يتركه في النهار .

وهنا تذكرت قولاً لأستاذي « ألبرخت » : إنّ قوى الإرادة في الإنسان تقاوم في النهار كلّ محاولة تهدف إلى إخضاعها لإرادة أخرى . فإذا استهدفتها المحاولة نفسها ليلاً فلا تلبث أن تخضع للسيطرة . ذلك بأن قوى المقاومة تضعف نسبياً في آخر النهار . وإنّنا لنلمس حرص الكنيسة الكاثوليكية على اصطناع الظلال في المعابد لتضفي عليها جوّاً من الرهبة والجلال ، الجو الذي يجعل المؤمنين في حالة نفسيّة مؤاتية يسهل معها على الوعّاظ التلاعب بأفئدتهم .

• • •

حضرت خلال الأعوام ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ اجتماعات بورجوازية ولا سيما الاجتماعات التي كان يدعو إليها الديموقراطيّون والشعبيّون والقوميون الألمان . وسرعان ما اكتشفت أني الغريب الوحيد الذي يدخل القاعة ولا يبرحها قبل أن يفرغ آخر الخطباء ما في جعبته . أما أعضاء الحزب فإنّهم يبدون وكأنّهم جماعة في ناد تقتل الوقت في التثاؤب ولعب الورق ، ويخيل إليك وأنت تطالع على وجوههم أمارات اللامبالاة أن الخطيب يتوجه من خلالهم إلى جماعة غير منظورة .

حضرت ذات يوم اجتماعاً في قاعة داغز بميونيخ ، وكان الحزب الذي نظمه قد جعل الدخول مباحاً . وقد وقع اختيار اللجنة التنفيذية للحزب على أستاذ في إحدى الجامعات ليخطب في الناس ، وجلس حول المنصة ثلاثة رجال باللباس الأسود ، عرفت فيما بعد أنّهم يؤلفون اللجنة التنفيذيّة .

كان الخطاب مكتوباً فشرع الأستاذ يتلوه متمهّلاً ، وما هي إلا عشرون دقيقة حتى بدأ التسلّل من القاعة ، وكثر المتثائبون ، وكان يجلس أمامي ثلاثة

تدلّ قيافتهم وهندامهم على أنهم من العمال ، فرأيتهم يتغامزون ويتبادلون الابتسامات الساخرة ، وما لبثوا أن خرجوا بدورهم . ولما ترك « الخطيب » المنبر وقف أحد الثلاثة الذين يؤلفون اللجنة التنفيذية وشكره باسم الجمهور وقال إن المحاضرة تعدّ حدثاً داخلياً خطيراً، لهذا فهو يدعو الحاضرين إلى إنشاد النشيد الوطني الألماني . فوقفوا وأنشدوا النشيد ثم اتجهوا نحو الأبواب متدافعين بالمناكب ، لا ليسيروا في تظاهرة وطنيّة ينشدون فيها نشيد « ألمانيا فوق الجميع » ، بل ليتنفسوا الصعداء في الهواء الطلق ، يطردوا السأم الذي استولى عليهم ، والنعاس الذي بدأ يداعب أجفانهم .

لم يكن هذا جوّ اجتماعنا نحن ، كنّا نحرص على أن تكون خطبنا ومحاضراتنا ، بمعناها ومبناها ، حافلة بما يستثير العواطف ويهزّ المشاعر ويستفزّ الخصوم الذين كانوا يحضرون الاجتماعات ويدخلون معنا في نقاش طويل النّفس .

أجل كان الحزب الشيوعي يرسل المشاغبين بالعشرات ليشوّشوا باعتراضاتهم وصفيرهم على الخطباء ويستدرجونا إلى عراك يضع في يد البوليس حجّة لتعطيل الاجتماع أو يضع حدّاً لنشاطنا بعض الوقت .

وكان العديد من الماركسيين يحضرون اجتماعاتنا وهم يحسبونها اجتماعات شيوعيّة ، لأنّنا اخترنا للافتاتنا وإعلاناتنا اللون الأحمر . وقد هال البورجوازية اختيارنا هذا اللون ، وتوسعت في تفسيره فزعمت أنّنا ماركسيون مموهون ، وأن اشتراكيتنا زائفة . أما اختيارنا اللون الأحمر فقد هدفنا منه إلى استفزاز اليساريين المتطرفين واستدراجهم إلى حضور اجتماعاتنا ولو بقصد التشويش والمشاغبة ، لأنّنا لم نجد طريقة لنشر مبادئنا في أوساطهم أفضل من هذه الطريقة .

وقد وقع الماركسيون في الفخ ، وأقبل العمال والعاملات على حضور اجتماعاتنا ، ولكن رؤساءهم اكتشفوا اللعبة فحظروا عليهم حضورها ، إلاّ أن بعضهم لم يتقيّد بالحظر فقد غلب عنده الفضول على النظامية ، وسرعان

ما ابتعد عن حظيرة البولشفيك وتنكّر هذا البعض لتعاليم كارل ماركس وجرّ معه من أمكنه إقناعهم . عندها قرّر الرؤساء رفع الحظر وأوعزوا إلى الحمر بأن يحضروا اجتماعات « المحرضين الملكيين والرجعيين ويفضوها بالقوة » فصار العمال يحتلون القاعات التي تعقد فيها اجتماعاتنا قبل الموعد بنصف ساعة ، كانوا يدخلونها وفي نيتهم مقاطعة الخطباء وتحطيم المقاعد ويخرجون منها غالباً وقد بدأوا يرتابون بقيمة العقيدة الماركسيّة .

خيبت هذه النتيجة فأل الرؤساء وأسقطت من أيديهم مرة أخرى . لقد أباحوا للحمر حضور اجتماعات حزبنا وزودوهم بتعليمات صريحة : تعطيل كلّ اجتماع بشتّى الطرق والأساليب ، فكان أن زعزعت المبادىء الوطنيّة الاشتراكية إيمان العمال بالماركسية وحطمت الطوق الفولاذي الذي حشرهم ضمنه المغامرون الدوليون .

وعاد الرؤساء إلى التكتيك الأول : منع العمال من حضور اجتماعاتنا تحت طائلة الطرد ، فحرك هذا المنع فضول الذين وقفوا حتّى ذلك اليوم من حركتنا ونشاطنا المتزايد موقف اللامبالاة ، فصاروا يغشون قاعاتنا سرّاً ولا يأتون حركة يشتمّ منها العداء لئلاّ يؤدي التصادم بيننا وبينهم إلى افتضاح أمرهم . وقد أتاح تحفظهم هذا للخطباء أن يبسطوا مبادىء الحزب في جوّ مؤات محررين عقول العديد من الألمان من أوهام نسجتها حولها اليهوديّة العالميّة بدقّة وإحكام .

ولقد لمسنا التكتيك الحائر نفسه في موقف الصحافة الحمراء من حركتنا . رأيناها تتجاهل هذه الحركة عندما اشتدّ ساعدها ، فلمّا لم يؤت هذا الأسلوب ثماره عمدت إلى مهاجمتنا مختصة مبادئنا وأهدافنا بحقول طويلة من صفحاتها الأولى ، فوجهت هذه الحملات الأنظار إلينا ، فما كان من الصحافة الحمراء إلاّ أن عدلت لهجتها واجتهدت في الحطّ من شأن الحركة واصفة إياها بأنّها سخيفة ، لا تقوم على أساس علمي . ولكن « سخافة » حركتنا لم تمنع الصحف

الماركسيّة من الاستمرار في مهاجمتنا ممّا أثار فضول الناس وحملهم على التساؤل : أيّ مبرّر يبقى لهذه الحملة ما دامت حركة الوطنيين الاشتراكيين سخيفة لا تستند إلى أساس علمي ؟ وأدرك الماركسيون خطأهم فاعتمدوا تكتيكاً جديداً هو التكتيك اليهودي الذي يجعل الخصم هدفاً لحملة افتراءات طويلة النفس . فزعموا أنّنا نشكّل منظمة إرهابيّة ، وأن أقطاب الحركة يغذون في صدور أنصارها الحقد والبغضاء ، ولكن هذه الحملة لم تحوّل عنّا اهتمام الناس ، ولم تؤثر في نموّ حركتنا وانتشار مبادئنا . وهكذا نجحنا في استلفات أنظار المواطنين إلينا ، وفي تسخير خصومنا أنفسهم لهذا الغرض .

وجدير بالذكر أن خصومنا عجزوا عن تعطيل اجتماعاتنا بالشغب وأعمال الاستفزاز بفضل دوائر استخباراتنا المنظمة من جهة ، وبفضل ثرثرة الحمر أنفسهم من جهة أخرى . فما من خطة رسمها الماركسيون لتعطيل مهرجان أو حفلة أو اجتماع إلاّ وعرفنا تفاصيلها في الوقت المناسب واتخذنا التدابير القمينة بإفسادها . وقد كنّا نتولى حماية اجتماعاتنا بوسائلنا الخاصة ، لأن الاستعانة بالبوليس كانت تعطي عكس النتائج المتوخاة ، إذ تعمد السلطة إلى فضّ الاجتماع لدى حصول أول تصادم ، وهل كان خصومنا يطمحون إلى أكثر من تعطيل اجتماعاتنا ؟

وقد جرى البوليس على تقليد يتنافى وأبسط القواعد الحقوقية . كان إذ يترامى إليه أن ثمّة جماعة تنوي تعطيل اجتماع ما ، يعمد إلى منع المنوي الاعتداء عليهم من عقد اجتماعهم بدلاً من أن يتّخذ التدابير اللازمة بحقّ المشاغبين . وبفضل « هذه السياسة الحكيمة » صار في مقدور أي شقي مقدام أن يشلّ نشاط الرجل الشريف في الميدان السياسي ، أو أن يفرض عليه نهجاً معيناً ، فإذا لجأت الضحية إلى السلطة طالبة تدخلها ، انحنت لمشيئة الشقي باسم النظام والأمن ونصحت للضحية بأن تتجنّب مظاهر التحدي والاستفزاز .

وهكذا رأينا السلطة في كلّ مرة يهدّد النقابيون بتعطيل اجتماعات حزبنا ،

تبادر إلى منعنا من عقد الاجتماعات بدلاً من أن تعتقل الارهابيّين وتأمر بملاحقتهم عدلياً . وقد تعلّمنا على حسابنا أنّ السلطات القائمة لن تحمي نشاطنا الحزبي وأنّ هذه الحماية يجب أن نؤمّنها بأنفسنا ، حتى إذا تخطت السلطة التقليد المتّبع ورعت اجتماعاتنا ، لأن كلّ اجتماع برعاه البوليس يُظهر منظميه بمظهر الضعفاء ، فالقوة وحدها هي التي تبهر السواد وتجذبه إلى دائرتها كما يجذب الضوء الفراشة .

وكما يسهل على الرجل المقدام غزو قلب المرأة كذلك يسهل على حركة ما استمالة الجمهور إن هي عرفت كيف تبهره بمواقفها البطولية ، من أجل هذا قرر حزبنا الذود عن كيانه وسحق إرهاب خصومه بوسائله الخاصة ، وقد تمّ لنا حماية اجتماعاتنا بفضل الإدارة الحازمة وشجاعة وحدات الصدام التي عهدنا إليها بالحفاظ على النظام . فما دعونا إلى اجتماع إلاّ ونحن موقنون بأنّنا سنكون أسياد الموقف . وحتى في الحالات التي كنّا فيها الفريق الأضعف استطعنا أن نثبت للملأ تفوّقنا ومقدرتنا على حماية ساحتنا وثباتنا في الدفاع حتى آخر جهد .

ولست أنكر أنّنا ، قبل أن نختطّ لأنفسنا نهجاً معيناً في تنظيم الاجتماعات وحمايتها ، راقبنا نشاط البورجوازيين والماركسيين في هذا الحقل واستخرجنا منه الدروس والعبر .

يتحلّى الماركسيون بروح نظامي ممتاز ، وينفذ المرؤوسون تعليمات الرؤساء تنفيذاً دقيقاً ، لهذا لم يكن تعطيل اجتماعات اليساريين موضع بحث في الأوساط البورجوازية . في حين كان تعطيل الاجتماعات البورجوازية هاجس الحمر وشغلهم الشاغل . وقد استطاعوا أن يدخلوا في روع النقابيين أنّ كلّ اجتماع غير ماركسي هو تحدّ للبروليتاريا . أما صحفهم فقد كانت تناشد السلطات منع الاجتماع تفادياً للحوادث المؤسفة ، فإذا كانت هذه السلطات ضعيفة تؤخذ بالتهويل ، فإنّها تبادر إلى إبلاغ منظمي الحفل أنها لن تسمح بعقد

الاجتماع لأسباب تتعلق بالأمن والنظام العامين . أمّا إذا كان الحاكم موظفاً ألمانياً حقيقياً لا يتأثر بالتهويل فإن الصحافة الحمراء تتوجّه عندئذ إلى العمال أنفسهم مناشدة إياهم تعطيل اجتماع « الرجعيين وأعداء الشعب » وإخراج الجمهور من القاعة بالقوّة والعنف .

كم كان ضعيفاً مركز البورجوازيين حيال الحمر ! فقد كانوا يعطلون أكثر اجتماعاتهم خوفاً من اعتداء البروليتاريا . وإذا عقدوا اجتماعاً يفتتحه الرئيس بكلمة موجّهة إلى « السادة المعارضين » يؤكّد فيها أن الحزب يرحّب بهم ويسعده أن يرى في عداد المستمعين مواطنين لا يشاطرونه رأيه . ثمّ يناشدهم ألاّ يقاطعوا المحاضر « فالمحاضرة قصيرة وليس فيها ما يصحّ اعتباره إهانة لخصومنا أو انتقاصاً من أهميّة حركتهم السياسيّة وأهدافهم الوطنيّة » . ولكن الحمر قلّما كانوا يتأثّرون بهذه اللهجة المسالمة ، فما إن يباشر الخطيب تحريك شفتيه حتّى تبدأ المقاطعات ويعلو الصفير ، وترتفع أصوات بالشتائم ، فيترك الخطيب المنبر ويسود القاعة هرج ومرج ليس الباعث عليهما مبادرة البورجوازيين إلى تأديب « ضيوفهم » المشاغبين ، وإخراجهم من القاعة بالقوة ، بل الباعث عليهما تسابق البورجوازيين « الشجعان » إلى الأبواب في طلب النجاة .

لهذا وجد الحمر أنفسهم وهم يحتكون بنا لأوّل مرّة حيال حركة تعرف كيف تنظم اجتماعاتها وكيف تحميها . فقد حرصنا منذ اللحظة الأولى على إفهام المستمعين أنّنا لن نسمح لأحد بمقاطعة الخطباء أو بالتشويش عليهم ، وأن بوليس الحزب يتولى الحفاظ على النظام ، ولن يتردّد في إخراج المشاغبين بعد تأديبهم .

وكان لنا بوليس منظم مدرب على قمع الشغب . أمّا الأحزاب البورجوازية فقد كانت تعهد بمهمّة حماية اجتماعاتها إلى رجال وقفوا على عتبة الشيخوخة ، على أمل أن يحترم المستمعون مشيبهم ويتهيبوا وقارهم . وقد

فات البورجوازية أن الحمر لا يأبهون لهذه الاعتبارات ، ولا يقيمون وزناً للسنّ والوقار .

كانت حركتنا في مستهلّها عندما انصرفت إلى إنشاء وحدة الحرس (بوليس الاجتماعات) ، وقد جندت لهذه المهمّة العشرات من الجنود المسرحين والعشرات من الأنصار الجدد . واخترتهم جميعاً بين الشبان المفتولي السواعد . وحرصت على إفهامهم قبل أن يؤدّوا القسم أنّ القضيّة التي تجنّدوا للدفاع عنها هي قضيّة نبيلة تستحقّ من خدامها أغلى التضحيات ، وأن الإرهاب لا يسحقه إلاّ الإرهاب ، فإذا شاؤوا أن تكون لهم الغلبة فليكن دفاعهم هجوماً لا يبقي ولا يذر .

كم كان شبابنا توّاقين إلى قيادة تخاطبهم بهذه اللهجة وتستنهض منهم الهمم . لقد قلت وأعيد القول إن الثورة ما كان ليكتب لها النجاح لو لم تتجزأ قوى شعبنا في عهد الحكومات البورجوازية . فالقبضات القادرة على حماية الأمّة لا تزال هي إيّاها ، ولكن تعوزها الرؤوس المدبرة والقيادة الحازمة ، الحكيمة .

إن أنسَ ما أنسَ البريق الذي التمع في عيونهم وأنا أشرح لهم مهمّتهم وضرورتها الحيويّة . قلت لهم إن فكرتنا ، على سموّها ، لن يقيّض لها الانتشار ما لم تسندها القوّة وتوفر لها الحماية اللازمة ، وإن ربة السلم لا تقوى على الظهور ما لم يأخذ بيدها إله الحرب ، وإن كل سعي سلمي لا يؤتي ثماره ما لم تدعمه القوة . وإني لذاكر ما حييت كيف كان رجال الحرس ينقضون على خصومنا ، غير مكترثين للتفوّق العددي الساحق ، مسقطين من حسابهم الخطر الذي يعرضون حياتهم له ، أليست مهمّتهم حماية الحركة وإزالة كل عقبة مادية تعترض سيرها ؟

• • •

في ربيع ١٩٢١ وسعت حركتنا دائرة نشاطها ، فصار لزاماً عليها أن تعزّز

الحرس بعناصر جديدة . وقد جرّنا تنظيم الوحدات إلى حلّ مسألة جوهريّة كان قد طال حولها الأخذ والردّ . ذلك أنّه لم تكن للحركة شارة ولا راية ، مع أني أدركت منذ نعومة أظفاري الأهمية البسيكولوجيّة لمثل هذه الظاهرة ، وما إن قرّرنا أن يكون للحزب رايته رمز رسالته ، بل رسالة الدولة العنصرية ، حتى انهالت علينا التصاميم والمقترحات . فدرسناها ولم نأخذ بواحد منها إلى أن عرض طبيب أسنان مشروعاً لا بأس به ، ولكن الألوان التي اقترحها جاءت متنافرة ، فوفّقت أنا بين الألوان وعرضت على أنظار الرفاق المؤسسين راية الحزب : دائرة بيضاء في قماشة حمراء ، وفي وسط الدائرة صليب معقوف أسود اللون . فتبنّى الرفاق رمز الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة ، واختاروا في الوقت نفسه شكل الشارة المعدنيّة ولون ربطة الذراع التي يجب أن يضعها رجال الحرس .

كانت الراية حقّاً رمز حركتنا وأهدافها السامية . فاللون الأحمر يرمز إلى الناحية الاجتماعيّة من الحركة ، والأبيض إلى الفكرة القوميّة ، والصليب المعقوف يرمز إلى النضال المرير في سبيل انتصار الآري وانتصار فكرة العمل المنتج . وفي العام ١٩٢٢ عندما جعلنا من الحرس نواة وحدة مقاتلة تضمّ ألوف الشبان ، اخترنا للوحدة علماً (بنداً) خاصّاً بها .

وبعد اتّساع دائرة نشاطنا ضاعفنا عدد الاجتماعات الحاشدة ، فصرنا نعقد ثلاثة اجتماعات في الأسبوع في أكبر قاعات ميونيخ ، وكان البوليس يتدخّل في كلّ مرّة لمنع الازدحام بإقفال الأبواب وإعادة الناس من حيث أتوا.

وفي شتاء ١٩٢١ وجدت ألمانيا نفسها أمام مصاعب جديدة ، فقد أنذرتها لندن وباريس بوجوب دفع مئة مليار مارك ذهباً عملاً بأحكام الاتفاقات المعقودة . وفي ٢١ كانون الثاني من العام المذكور تنادت الأحزاب المسمّاة « عنصريّة » إلى القيام بتظاهرة مشتركة في ميونيخ احتجاجاً على الحلفاء ، ودعي حزبنا إلى إرسال مندوبين عنه لحضور اجتماعات اللجنة التنظيميّة .

وقد قررت اللجنة أن تبدأ التظاهرة من ميدان «كونسيغ»، ثم عادت فاختارت ساحة «فلدنهال»، وبعد ثمان وأربعين ساعة عدلت عن فكرة التظاهر وقررت عقد اجتماع حاشد في قاعة كنوكيلز. وطال تردّد اللجنة وتذبذبها، وكنت أنا في عداد مندوبي الحزب فطلبت بإصرار اتخاذ قرار نهائي قبل أول شباط، فاستمهلوني إلى يوم الأربعاء، وفي اليوم المذكور لمست تردّدهم مجدّداً، فانسحبت ورفاقي بعد أن صرخت في وجوه مندوبي الأحزاب المتردّدين: إنّنا سننظّم الاجتماع وحدنا.

وظهر الأربعاء ٢ شباط ١٩٢١ ظهرت النشرات في المدينة تدعو الناس إلى حضور اجتماع يعقد مساء ٣ شباط في ملعب كرون. وكانت هذه البادرة من جانبنا خطوة محفوفة بالمخاطر. فالملعب كبير، وواسع الأرجاء، ومن المشكوك فيه أن ننجح في اجتذاب العدد اللازم لمله؛ يضاف إلى هذا أن رجال الحرس في ميونيخ ليسوا من الكثرة بحيث يمكنهم الحفاظ على النظام وحماية اجتماع يعقد في ملعب كبير.

وكنّا واثقين من أمر هو أنّ الهزيمة قد تلقي بنا في زاوية النسيان مدة طويلة، لأن نجاح خصومنا في تعطيل اجتماع واحد من اجتماعاتنا يعني القضاء على الهالة المحيطة بحركتنا ويشجّع الأعداء، بالتالي، على المضي في خطتهم.

وصباح يوم الاجتماع تلبّد الجوّ بالغيوم وهبّت رياح شديدة وهطلت أمطار غزيرة، فساد التشاؤم دوائر الحزب لأن الناس قلّما يحضرون اجتماعات تعقد في يوم عاصف. بيد أن الجوّ صحا بعض الشيء بعد الظهر بقليل، فاقترحت على اللجنة المكلفة تنظيم الاجتماع تسيير سيارتي شحن في ميونيخ مزدانتين بالأعلام الحمراء يتوسّطها الصليب المعقوف، وعليهما عشرون شاباً وفتاة من أنصار الحزب، مهمتهم توزيع نشرات تدعو الناس إلى حضور الاجتماع. وقد وافقت اللجنة على المقترح وشاهد السكّان، لأول مرة، سيارتين كبيرتين ترفرف عليهما الأعلام دون أن يكون ركابهما

من الماركسيين . ووقف البورجوازيون يراقبون هذا المشهد مشدوهين ، أمّا الحمر فقد ضمّوا قبضاتهم مهدّدين وقد غلى في صدورهم الحقد على منظمي الاجتماع لأنهم وجهوا إلى الماركسيين تحدّياً سافراً .

أزفت الساعة السابعة مساء فاتصلت بملعب كرون فقيل لي إن القاعة الرئيسيّة قد امتلأت ، على رحبها ، وإن القاعات الأخرى بدأت تستقبل الوافدين . ولما وصلت إلى الملعب في الساعة الثامنة كان جمهور غفير من الناس واقفاً في الساحة الخارجيّة ، وقيل لي إن المكان ضاق بالوافدين فاضطرّ رجال الحرس لمنع المئات من الدخول . وقال لي أحد معاونيّ إنّ شباك التذاكر باع خمسة آلاف وخمسمئة تذكرة ، وإن أكثر من ألف عاطل عن العمل دخلوا بدون مقابل ، فيكون عدد الذين حضروا ستّة آلاف وخمسمئة .

كان موضوع محاضرتي « يجب أن نبني الغد أو نتوارى » . وقد استغرقت محاضرتي ساعتين ونصف ساعة ، وشعرت منذ اللحظة الأولى أن التماسّ قائم بيني وبين المستمعين ، وحاول بعض العناصر مقاطعتي وأنا بعد في مستهلّ محاضرتي ، ولكن ما هي إلاّ عشرون دقيقة حتى كانت ثلاثة عشر ألف كفّ تقاطعني بالتصفيق ، وتتلقّف كلّ كلمة من كلماتي بلهفة وإيمان .

وظلّ نجاح الاجتماع حديث ميونيخ أسبوعاً كاملاً ، ونشرت الصحف المستقلّة صوراً ناطقة بهذا النجاح . أما الصحف البورجوازية فقد أشارت إليه إشارة عابرة ، وأغفلت عمداً ذكر اسم الخطيب .

وحرصاً مني على استغلال هذا النجاح الباهر نظمت للأسبوع التالي اجتماعاً آخر في الملعب نفسه ، فبلغ عدد الحاضرين سبعة آلاف ، وقف منهم خمسمئة في الباحة الخارجيّة وتركت الأبواب مفتوحة ليتسنّى لهم سماع ما يقوله الخطباء . وقد شجعني هذا الإقبال على مضاعفة عدد الاجتماعات فازداد تبعاً لذلك عدد النصراء والمؤيّدين .

ولم يقف خصومنا متفرجين فقد تذبذبوا طويلاً بين خطتين : خطة تقوم

على تجاهل الحركة ، وخطّة تقوم على محاربتها . فلمّا اشتدّ ساعدنا وبات نشاطنا حديث المجالس اعتمدوا الخطّة الثانية وقرروا إرهابنا بشكل نعجز معه عن عقد الاجتماعات .

وقد مهد خصومنا لخطتهم الإرهابية بحادث افتعلوه وحاولوا أن يحمّلونا مسؤوليّته . ففي إحدى الأمسيات أطلق « مجهولون » النار على النائب الاشتراكي الديموقراطي « ارهارد أوير » ولكن الرصاص أخطأه وفرّ المعتدون ، وصدرت الصحف الماركسيّة واليهوديّة في اليوم التالي وفيها تحريض سافر على وضع حدّ لما سمّته «نشاط العصابة الإرهابيّة التي تعيث فساداً في ميونيخ » متهمة حزبنا بمحاولة اغتيال النائب الاشتراكي الديموقراطي . ومما قالته الجريدة الناطقة بلسان الحزب الاشتراكي البافاري إن تدابير حازمة ستتّخذ قبل أن تناطح الأشجار السماء ، وإن أيدي العمال ستهوي بفؤوسها على هذه الأشجار وتلقي بها أرضاً .

وبعد أيام قام خصومنا بمحاولتهم ، ولكن الأشجار الباسقة لم تلقَ أرضاً .

ففي الثاني من تشرين الثاني ١٩٢١ دعونا إلى اجتماع يعقد مساء ٤ منه في قاعة « هوفبروهوس» . وقد بلغنا قبيل الموعد بنصف ساعة فقط أن الحمر مصمّمون على تعطيل الاجتماع وأنهم عبّأوا لهذا الغرض بضع مئات من العمال . فما تسنّى لنا اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحماية القاعة ، واكتفينا بسواعد ستين رجلاً من رجال الحرس . ولما وصلت إلى المكان أبلغني رئيس الحرس أن القاعة قد امتلأت بجماعات من المشاغبين قبل وصول أنصارنا وسائر المدعوين ، وأن هؤلاء لا يزال معظمهم خارجاً ، وعلى الأثر جمعت رجال الحرس في إحدى القاعات وزودتّهم بالتعليمات اللازمة ، ولم أكتمهم أنهم الفريق الأضعف وأنّه قد يسقط في صفوفهم قتلى وجرحى ، فقرأت في عيونهم ما أشاع الطمأنينة في نفسي ، وعندها دخلت القاعة الكبرى فألفيتها غاصة بالناس ،

وقد استقبلني الذين عرفوني بهمهمة ألفتها أذناي ورمقني سائر الحاضرين بنظرة يتطاير منها الشرر ، وتناهت إلى سمعي شتائم من العيار الثقيل وتهديدات من نوع : « سنصفي حسابكم هذا اليوم » و « سنضع حداً لثرثرتكم ونريح ألمانيا منكم » إلخ . . .

افتتح الاجتماع في الموعد المحدّد ، ووقفت أنا وراء طاولة توسطت القاعة ألقي محاضرتي ، لا يحميني شيء من غضب الحمر الذين كانوا يحيطون بي إحاطة السوار بالمعصم ، وقد جلسوا يحتسون الجعة وهم بحالة عصبيّة ظاهرة .

تكلّمت ساعة كاملة غير مكترث لشغب المشاغبين ، وخيّل إليّ أنني بتّ سيّد الموقف ، ولكني ما لبثت أن ارتكبت غلطة بسيكولوجية بانتهاري أحد المشاغبين ، إذ تذرع الحمر بهذا الحادث البسيط لينفذوا الخطة المرسومة ، فوقف رجل فارع القامة ، وهتف ثلاثاً للحرية ، فردّد « أنصار الحرية » الهتاف ثم قلبوا الموائد وعمدوا إلى الزجاجات الفارغة يرشقون بها أنصارنا ، فاختلط الحابل بالنابل ، وتعالى الصراخ . ولم أبرح أنا مكاني ، بل رحت أرقب ردّ الفعل في معسكر رجال الحرس وأنا مطمئنّ سلفاً إلى النتيجة . فرأيتهم ينقضون على الخصوم انقضاض قطيع من الذئاب على قطعان من الغنم ، وكان في الطليعة موريس أمين سرّي الخاص وهيس الذي تولى إدارة الهجوم . وما هي إلاّ دقائق خمس حتى كانت جموع الحمر تتدافع بالمناكب نحو الأبواب ، منهزمة أمام أبطالنا الصناديد ، وثبت نحو من خمسين ماركسياً في ركن من القاعة . فارتدّ عليهم رجالنا محاولين إخراجهم بالقوّة . وفجأة دوى ما يشبه انفجار القنبلة اليدوية ورأيت خمسة من رجال الحرس يسقطون . فألهب هذا الحادث شعور أنصارنا ، حتى النساء والشيوخ ، وهرعوا لنجدة الحرس وتمكن الجميع من تطهير القاعة بعد أن سقط تسعة جرحى في صفوفنا وثلاثة وعشرون جريحاً في صفوف الحمر .

وفيما كان رفاق لنا ينقلون الجرحى إلى سيارات الإسعاف وقف هرمان

ايسر رئيس الاجتماع وأعلن أن الجلسة مستمرة ، ثم دعاني إلى استئناف محاضرتي ، ففعلت ثم تركت مكاني لأقف في الصف الأمامي استعـداداً للمشاركة في إنشاد الأناشيد القوميّة التي اعتدنا أن نختم بها اجتماعاتنا : فدنا مني أمين سري وهمس في أذني أن أحد ضباط البوليس قد وصل على رأس قوة كبيرة. ودخل الضابط في اللحظة نفسها وأعلن بصوت جهوري أنّه يفض الاجتماع بأمر السلطة .

الفصل الثامن عشر

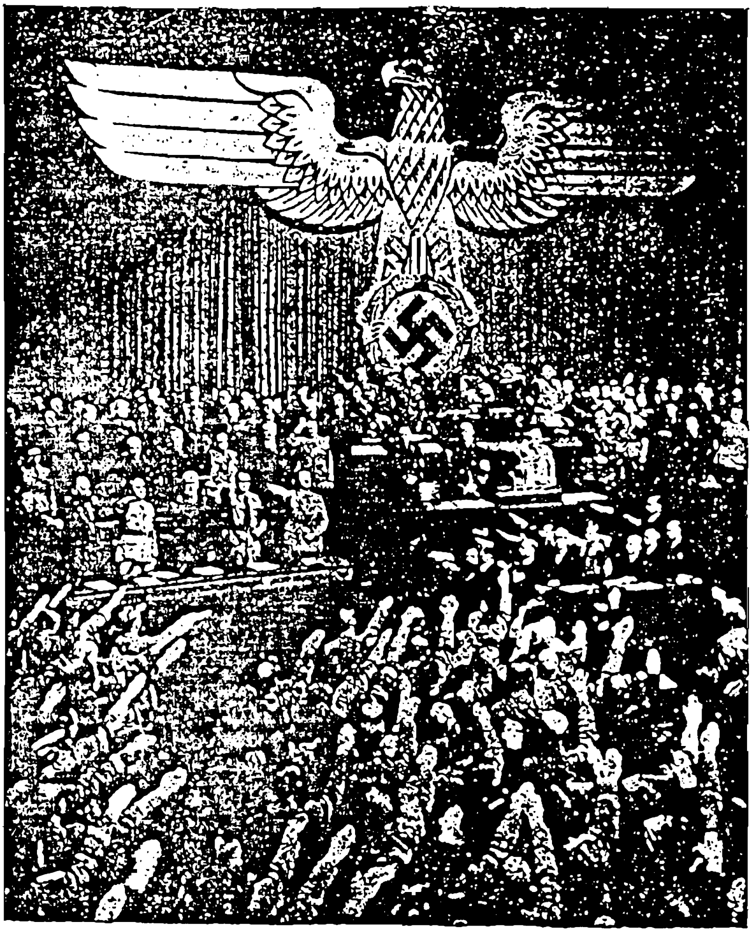
القوي قوي بنفسه

ألمعت في الفصل السابق إلى قيام تعاون أو شبه تعاون بين المنظمات «العنصرية» في ميونيخ ، بحيث تقوم هذه المنظمات بمجهود مشترك في سبيل الهدف المشترك .

لا ريب في أن التعاون بين هيئات أو أحزاب أو جمعيات متقاربة الأهداف أمر مرغوب فيه. ولكن يخطىء من يظنّ أنّها تستمدّ من هذا التعاون قدرة على العمل متزايدة وأن العمل المشترك يرفع من شأن كل منها ، وقد تعلّم حزبنا ، على حسابه مع الأسف ، أن الهدف الأسمى يجب أن يبلغه الحزب الذي كان السابق إلى اختياره ، فإذا عجز أو انحرف عن السبيل المؤدي إلى الهدف ، جاز للأحزاب التي قامت على هامش الحركة لتعمل للهدف نفسه أن تضطلع بالعبء علّها تنجح حيث أخفق هو . أما إذا استطاع الحزب الأول التغلب على الصعاب وكانت الأحزاب الأخرى مخلصة للفكرة المشتركة ، فبقاؤها منفصلة عنه يُعدّ خيانة لهذه الفكرة وإضعافاً للحركة ، حتى في حال قيام تعاون وثيق بينها وبينه .

وقد جرّبنا نحن في العام ١٩٢٢ التعاون والمنظمات «العنصرية» على أساس توحيد الخطط ما دام الهدف واحداً ، ولكن سرعان ما أدركنا خطأنا ، لأن حلفاءنا أرادوا من تعاونهم وإيانا أن يقووا منظماتهم على حسابنا . فكانت النتيجة أن سادت البلبلة الصفوف وضاعت المسؤولية، ومثلت المطامع الشخصية دورها المقيت في إبعاد الحركة الموحدة عن أهدافها السامية . وعندها نصحت

لحزبنا بوضع حدّ لهذا التعاون المسيء إلى حركتنا الصاعدة ، وكانت حجتي أن حركة قوية تخسر الكثير بتعاونها وحركات أضعف منها ، ونبهت الأفكار إلى حقيقة ما كان يضمره زعماء المنظمات ، فقلت إنهم جماعة من المشتغلين بالسياسة ، استهوتهم فكرتنا، وبدلاً من أن ينضموا إلى حركتنا ويعملوا في



هتلر في موقف خطابي

نطاقها كجنود مخلصين للوطنية الاشتراكية ، أنشأوا أحزاباً مستقلّة ، فلمّا لمسوا عجزهم عن اللحاق بنا مدوا إلينا أيديهم دون أن يتحرروا من مطامعهم الشخصية ، وخيل إليهم أن الحركة الوطنية الاشتراكيّة قمينة بتحقيق مطامحهم كسياسيين بعد أن عجزوا هم عن تحقيقها بواسطة منظماتهم الضعيفة .

وقد لقيت صعوبة كبيرة في إقناع رفاقي بوجهة نظري ، ولم يؤيدني في موقفي ، بادىء ذي بدء ، سوى نفر قليل ، ولكنّ التردّد الذي أبداه « حلفاؤنا » يوم قررنا التظاهر احتجاجاً على التعويضات ، وضع حدّاً للجدل في لجنة الحزب حول استمرار التعاون أو عدم استمراره. وأدرك الجميع أن حركة تقوم على أساس عقيدة فلسفيّة لا يجوز أن تعتمد على المحالفات والتسويات ، بل ينبغي لها أن تعتمد على نفسها وأن تشقّ طريقها عبر الحركات المماثلة والمضادة .

* * *

كانت قوة الدولة ، قبل ١٩١٨ ، ترتكز على دعائم ثلاث : النظام الملكي والجيش وهيئة الموظفين الإداريين . وقد جاءت ثورة ١٩١٨ فقوّضت الدعامة الأولى وسرحت الجيش وأفسدت الموظفين وهكذا فقد ما يسمّونه « سلطة الدولة » مقوّماته الأساسيّة .

إن الأساس الأول الذي ترتكز عليه السلطة هو الشعبية ، ولكن هذه السلطة تظلّ جدّ ضعيفة إذا كانت الشعبية مرتكزها الوحيد ، لأن سلامتها واستقرارها يظلان غير مضمونين . لهذا كان المرتكز الثاني للسلطة هو القوة ، مع العلم أنّ حظها من الاستقرار ليس أفضل من حظّ الشعبية . فإذا توفّر المرتكزان : الشعبية والقوة أمكنهما أن يولدا ، مع الزمن ، ما يسمونه التقليد، ومن المرتكزات الثلاثة يمكن أن تنبثق سلطة وطيدة الأركان متينة الدعائم .

لقد جعلت الثورة توفّر المرتكزات الثلاثة مستحيلاً ، فهي قد جردت التقليد من كل سلطة بقضائها على النظام الملكي وكل ما يرمز إليه ، ومرغت

سمعة الموظفين بالحضيض عندما أطلقت أيدي رجال السياسة في التعيين والعزل والنقل ، متخذة من المحاباة والنزعات السياسيّة أساساً للتوظيف ، جاعلة همها الأول والأخير إرضاء الأحزاب . وأزالت الثورة معالم القوة يوم سرحت الجيش ، رمز القوة ، ففقدت بذلك المرتكز الثاني للسلطة ، ولم يبق للثورة ما تسند إليه سلطتها سوى الشعبية ، هذا المرتكز غير المستقرّ في بلد ضعضعته الهزيمة وأطاحت الحرب بالتوازن الطبيعي الذي كان يجعل من شعبنا قدوة للشعوب .

فالشعب الألماني ، وكل شعب آخر ، يتألف من ثلاث فئات : فئة النخبة ذات النزعة الوطنيّة المتطرفة ، وهي تتحلّى بما يتحلّى به المواطنون الصالحون من ترفع وإخلاص وشجاعة ونكران ذات ، وفئة تقف في الطرف الآخر وتضم حثالة البشر كالمغامرين والأنانيين والمرائين والخونة إلخ . . . وبين هذه الفئة وتلك نجد الفئة المتوسطة التي ليس لها شيء من فضائل الأولى ولكنها مترفّعة عمّا يشين الفئة الثانية . فإذا خطا مجتمع بشري خطى واسعة نحو الرقي كان ذلك بفضل نهضة الفئة الأولى وتوجيهها وحزمها ، وإذا نما مجتمع نمواً طبيعياً في كنف الهدوء والنظام كان ذلك وليد إدارة الفئة المتوسطة التي تجنح دائماً إلى الاعتدال . أما العهود التي تنهار فيها القيم ويدرك المجتمع الانحلال أو ما يشبه الانحلال فهي العهود التي تسود فيها العناصر الفاسدة والمفسدة .

وجدير بالذكر أن السواد الأعظم – أي الفئة المتوسطة – لا يقبض على الزمام إلاّ في الحالات التي يكون فيها التنافس على أشدّه بين الفئتين المتطرفتين ، ولكن ما إن تنتصر إحداهما حتى يخضع السواد الأعظم للمنتصر ، ولا يتردّد في تأييد العناصر الطيبة إذا كانت هي الظافرة ، أما إذا كتبت الغلبة للعناصر الشريرة ، فالسواد لا يؤيدها صراحة ولا يعارضها صراحة ، لأن الفئة المتوسطة لا تتحلّى بالروح النضالي .

قلت إن الحرب قضت على التوازن بين الفئات الثلاث ، فقد جادت النخبة بآخر نقطة من دمها الزكي وسقط الآلاف من أبناء الفئة المتوسطة بينما كان الأشرار يوفرون أنفسهم للثورة ويتحفزون لطعن ألمانيا في ظهرها . كان المسؤولون يذيعون من خطوط النار النداء تلو النداء والمناشدة تلو المناشدة مهيبين بالمواطنين القادرين أن يتطوّعوا لأداء مهامّ معينة ، كانوا يطلبون متطوّعة للعمل في الجبهة ، ومتطوعة للقيام بعمليات الاستطلاع ولنقل الأوامر عبر الخطوط ، ومتطوعة للمخابرات ومتطوعة للطيران ومتطوعة للغواصات إلخ . . . واستمرّ الطلب أربع سنوات ونصف سنة فكان يلبّي النداءات فتيان دون السابعة عشرة وكهول تخطوا عتبة الخمسين ، تحدوهم وطنيّة صادقة وتحفزهم شجاعة نادرة . وقد حصـدت نيران العدو عشرات الألوف من هؤلاء الأخيار ، بينما كانت سهول الفـلاندر تروى بدماء إخوانهم الذين أرسلوا إلى الساحة قبل أن يتدربوا على القتال التدريب الكافي ، فتلقفتهم نيران العدوّ فريسة سهلة .

إن الذين سقطوا في معارك ١٩١٤ والذين تساقطوا بعدهم كمتطوعة أو كمجندين هم أبناء الفئتين الخيرة والمتوسطة ، وهكذا اختلّ التوازن والحرب في إبانها ، لمصلحة الفئة الشريرة التي أتاح لها تراخي الحكام وعيوب نظام التجنيد أن تظلّ بمنجاة من الخطر ، فما إن أصيبت جيوشنا بالنكسة الأولى حتى شرعت هذه الفئة في لغم الجبهة الداخلية ، وعندما قامت بثورتها لم تعترض طريقها عقبة ذات شأن لأن البقية الباقية من العناصر الصالحة كانت أضعف من أن تقف في وجهها .

إن القول بأن ثورة ١٩١٨ كانت ثورة شعبية هو تجديف على الحقيقة ، فالشعب الألماني لم يَشُرْ ولم يهبط إلى الدرك القاييني . إنهم أعداء الشعب ، من فراريين وانهزاميين وخونة ومضللين ، الذين استغلّوا الهزيمة أبشع استغلال ، بعد أن تسبّبوا بها .

لقد رحب جنودنا بانتهاء القتال الدامي ، وفرح كل منهم بالعودة إلى مسقط رأسه ، ولكنهم ظلوا غرباء عن الثورة وبواعثها وأهدافها لأن منظميها والمحرضين عليها ما أوحوا قط للجنود غير الحذر والحيطة ولأن الحرب وويلاتها لم تنسهم الضرر والعبث اللذين يتميز بهما نشاط الأحزاب السياسية في البلاد . أمّا المواطنون القلائل الذين رحبوا بالثورة فقد رحبوا بما قد تحمل من جديد ولم يرحبوا بها هي . وارتكزت الثورة على تأييد هذه القلة من الشعب ، ولكن المرتكز الشعبي كان من الضعف والخور بحيث وجد الماركسيون أنفسهم ، بعد أشهر من قيام الجمهورية ، مضطرين للبحث عن مرتكز لسلطتهم قبل أن تنظم بقايا الفئة الخيّرة نفسها وتخرج البلاد من بحران الفوضى والفساد .

كانت الجمهورية في مطلع العام ١٩١٩ أبعد ما تكون عن الاستقرار ، ولم يفت « أبطال » الثورة أن المرتكز الشعبي لسلطتهم سينهار حتماً لدى هبوب أولى زوابع النقمة ، فراحوا يبحثون عن رجال يمكنهم أن يتداركوا البنيان المتداعي ويحموا الجمهورية بقوّة السلاح .

أجل : وجدت الجمهورية التي سرحت الجيش ، نفسها في حاجة إلى جنود يدافعون عنها . ولكن مرتكزها الأول والوحيد ، مرتكز سلطتها كدولة ، أي شعبيتها ، كان يستمدّ أصوله من أوساط اجتماعيّة لا تؤمن بالمثل ، ولا ينتظر منها : بالتالي ، أن تضحّي ، ولو بالزهيد ، في سبيل مثالية جديدة ، أوساط تضم اللصوص والمحتالين والمزورين والفراريين والمغامرين إلخ . . . أي فئة الأشرار التي لم تقم بالثورة إلاّ بعد أن خلت الساحة من السواعد المفتولة والتي لا يمكنها أن تقدم جنوداً يتولون الدفاع عن هذه الثورة . هذه الفئة لم تفكر لحظة واحدة في تنظيم دولة ذات نظام جمهوري ، بل جعلت همها الوحيد تقويض دعائم الدولة السابقة ، بدافع من غرائزها المجرمة ، وكان شعارها : نهب الجمهورية التي قامت على أنقاض النظام الملكي .

أما أصوات الاستغاثة وإشارات الخطر التي انبعثت من ممثلي الشعب فلم تترك أي صدى في أوساط تلك الفئة العابثة . وهل يعقل أن يهب لإنقاذ الجمهوريّة أولئك الذين تعمّدوا إغراقها في الفوضى والفساد وأعلوا كلمة الباطل ؟ استغاث ممثلو الشعب لأنّهم أحسّوا بالأرض تميد تحت أرجلهم ، وأدركوا أن الشعب الألماني بدأ يتململ ، وأن ثمة عناصر تدعو في العلانية إلى قلب النظام القائم ووضع حدّ للسرقات ولمظالم قطيع من اللصوص والأشقياء وسائر ذوي الضمائر العفنة .

أما الذين لبّوا النداء في شتاء ١٩١٩ ، وأخرجوا بزاتهم المهترئة من الصناديق ليحملوا مجدداً البندقية ويعتمروا بالخوذة ، فقد فعلوا بدافع من وطنيتهم لا حرصاً منهم على الجمهورية . لقد كان الأمن والنظام بحاجة إلى من يصونهما ، وكان الوطن نفسه بحاجة إلى من يردّ عنه كيد أعدائه الداخليين . انتظم أولئك المواطنون كمتطوعة في وحدات ارتجلت ارتجالاً وعملوا ، مخلصين ، في سبيل دعم الجمهورية ، مع نفورهم من هذا النظام والذين أقاموه .

لقد أدرك منظم الثورة الفعلي،أي اليهودية العالمية ، الموقف على حقيقته : إن الشعب الألماني لم يهبط إلى الدرك الذي هبط إليه الشعب الروسي كي يمكن جرّه في أوحال المستنقع البولشفي . ويمكن القول إن ضعف البولشفية في ألمانيا مردّه ، في الدرجة الأولى ، إلى وحدة العرق التي شدّت دائماً رجال الفكر الألمان إلى العمال الألمان ، وهي ظاهرة اجتماعيّة مشاهدة في معظم بلدان أوروبا الغربيّة ولكن لا أثر لها في روسيا حيث يعيش المفكرون في برج عاجي لأنّهم غرباء عن القوميّة الروسيّة ، لا يتحسّسون بقضايا الطبقة الكادحة ولا يعانون مشاكلها . ولم يكن ثمة عنصر يقوم بدور الوسيط أو يكون صلة الوصل بين المفكرين والكادحين ، مع العلم أن مستوى السواد الفكري والخلقي كان قبل الحرب جدّ خفيض ، لهذا لم يلقَ المحرّضون كبير عناء في حمل ملايين

الجهلة والأميين على رفع الراية الحمراء وخدمة أغراض أسيادهم اليهود الذين موّهوا دكتاتوريتهم بمهارة عندما زعموا أنها دكتاتورية الصعاليك .

أمّا ما حدث في ألمانيا فهو الآتي :

ما كانت الثورة لتنجح في ألمانيا لولا انحلال الجيش انحلالاً مطرداً ، ولكن هذا لا يعني أن الجندي العامل في خطوط النار كان وراء الثورة وتفكك الجيش . إن الذين عملوا للثورة وأشاعوا روح التذمّر في القوى المسلّحة هم أولئك المتخلّفون الذين لم يذهبوا إلى الجبهة إمّا لأنهم فرضوا أنفسهم إداريين لا يستغنى عن خدماتهم ، أو لأن السلطات انخدعت باختصاصهم فكرستهم خبراء في الشؤون المالية والاقتصادية . يضاف إلى هؤلاء وأولئك آلاف الفراريين الذين استطاعوا أن يولوا الأدبار « بفضل » تسامح القوانين المرعية .

إن الموت يخيف الجبان ، وهذا الموت يبرز له في ميادين القتال مراراً في اليوم الواحد وبأشكال مختلفة . ولأجل منع الجنود الجبناء من التخلّي عن مراكزهم ليس هناك سوى وسيلة واحدة : يجب إفهام الفراري أن فراره يعود عليه بما يحاول تجنبه . ففي الجبهة يمكن أن يلاقي المرء حتفه أما الفراري فهلاكه مؤكّد .

جميل جداً أن نحسبنا قادرين على خوض غمار المعركة والدفاع عن كيان شعبنا إلى النهاية معتمدين على إخلاص المواطنين وإيمانهم بقدسيّة قضيتهم .

ولكن لا ننسى أن أداء الواجب فضيلة لا يتحلى بها المواطنون كافة ، فالمواطن الأمثل هو الذي يؤدي واجبه من تلقائه ، وليس هذا شأن المواطن العادي ، لهذا كان وجود الحافز الإرهابيّ ضرورياً .

لنأخذ مثلاً القوانين التي وضعت لقمع اللصوصيّة ومعاقبة اللصوص .

هذه القوانين لم توضع لتخويف أفاضل الناس ، بل وضعت لتخويف ضعفاء الإرادة ، العاجزين عن مقاومة التجربة والغرائز ، ولولا القوانين التي تخيف هذه الفئة والعقوبات الزاجرة التي تنزل بها لازدهرت النظريّة

القائلة بأن الرجل الفاضل أو الشريف هو مخلوق أبله ، وأن الأفضل للمرء أن يساهم في السرقة من أن يبقى صفر اليدين .

كان من قصر النظر إذن توهّم المسؤولين أن بإمكانهم صرف النظر عن تدبير أثبت جدواه طيلة قرون ، في حرب كان كلّ شيء يدلّ على أنها ستكون حرباً قاسية وطويلة الأمد . أنا لا أنكر أن عقوبة الإعدام تكون تدبيراً لا لزوم له عندما يكون المقاتلون أبطالاً تطوّعوا للذود عن حياض الوطن ؛ ولكنها تفرض نفسها كتدبير إرهابي واحترازي عندما يكون المقاتلون خليطاً من الأبطال المتطوّعين والمواطنين العاديين الذين دعوا إلى حمل السلاح . ففي صفوف هؤلاء نجد الجبان والأناني والانهزامي الذين يرون أن حياتهم أثمن من حياة المجتمع الذي إليه ينتمون ، ولا شكّ في أن إرغام الجبناء والأنانيين والانهزاميين على البقاء حيث هم والتشبّث بمواقعهم ومواجهة الموت مراراً في الساعة الواحدة ، لا يكون بوضع من يولي الأدبار في السجن أو بمصادرة ممتلكاته وإسقاطه من الحقوق المدنيّة ، فعقوبة الإعدام هي الضامن الوحيد لبقاء المقاتلين مستمرّين حيث هم أو لاندفاعهم لملاقاة الخطر ومواجهة الموت .

ولقد ترتّب على إلغاء عقوبة الإعدام عندنا انتشار جيش من الفراريين في المؤخرة . وعرف الخونة من الداخل كيف يضللون هؤلاء الجبناء ويسخرونهم لخدمة أغراضهم ، ويتخذون منهم وقوداً لثورة ١٩١٨ . أما الذين ثبتوا إلى النهاية وفاجأتهم الهدنة وهم يناضلون بحماسة وإيمان : فقد كانوا غرباء عن الثورة ، جاهلين بواعثها وأهدافها ، ممّا جعل الماركسيّين وحلفاءهم غير مطمئنين إلى موقف الجيش من حركتهم .

وعندما أخذ الجيش ، بعد عقد الهدنة ، يقترب من أرض الوطن استحوذ على رجال الثورة قلق شديد وبات هاجسهم الوحيد معرفة رأي العائدين إلى عيالهم ومساقط رؤوسهم في ما حدث ، وهل هم على استعداد للتعاون والعهد

الجديد ؟ وخلال الأسابيع الثلاثة التي انقضت بين إعلان الهدنة وبين وصول القوات الألمانيّة إلى الوطن حرص الثوريون على وسم الثورة بطابع الاعتدال لئلاّ يتّخذ الجيش من التطرّف حجّة يتذرّع بها لنسف الجمهورية ، إذ كان يكفي أن تتولّى فرقة ألمانيّة واحدة تطهير البلاد من الحمر كي ينضم إليها في أيّام معدودة عشرات الفرق ، وقد أدرك اليهود هذه الحقيقة فبدّلوا اتجاه الثورة بين عشية وضحاها ، وبعد أن كان المطلوب بلشفة الشعب الألماني ، أضحى شعار رجال الثورة : الهدوء والنظام .

من هنا تلك المناشدات الحارة التي وجهتها السلطات إلى الموظفين السابقين وكبار القادة العسكريين تهيب بهم أن يتعاونوا وإيّاها في العمل على إنهاض ألمانيا من كبوتها . فقد كان اليهود وحلفاؤهم وصنائعهم بحاجة إلى خدمات هؤلاء وأولئك لوقت محدود ، أليس الجيش والموظفون مرتكزين أساسيّين لسلطة الدولة ؟ لقد نادتهم الثورة فلبوا ، ولم يدُرْ في خلدهم أن خدماتهم سيستغنى عنها لتلقى مقاليد الجمهورية إلى أعداء النظام ، وأن سلطات العهد الجديد تودّدت إليهم لتتّقي شرّهم وتقطع عليهم طريق العمل على مقاومة الوضع القائم .

لا بدّ من الاعتراف بأن هذه المناورة اليهوديّة نجحت نجاحاً باهراً ، بيد أن الثورة لم تكن من صنع عناصر الشغب والسلب والنهب ، ولئن يكن تطوّر الثورة قد خيّب ، إلى حدّ ما ، فأل هذه العناصر ، لابتعاده بها — أي الثورة — عن الغاية التي أرادها لها المشاغبون والسالبون الناهبون ، لئن يكن تطوّر الثورة قد خيّب فأل هؤلاء ، فمردّ ذلك — كما أسلفت — إلى اعتبارات سياسيّة أحلّها اليهود ، صانعو الثورة الحقيقيّون، محلّها من التقدير . وقد حاول المتطرفون ، بعد أن ارتدى أسياد العهد مسوح الرهابين ولزموا جانب الحكمة والاعتدال ، حاولوا الوقوف في وجه الاتجاه الجديد ولكن اليهود استطاعوا بعثرة قواهم بإحداث انقسام خطير في صفوف أكبر حزب ماركسي : هو

الاشتراكي الديموقراطي ، فساير فريق الاتجاه الجديد وعارضه الفريق الآخر ، وترتّب على هذا الانقسام قيام معسكرين : معسكر شعاره الهدوء والنظام ، ومعسكر شعاره الإرهاب والبطش ، وكان على البورجوازية أن تنضمّ إلى أحد المعسكرين ، بعد أن هبطت إلى مستوى الأحزاب الثانوية ، فانتقلت بقضّها وقضيضها إلى المعسكر المعتدل .

كان الموقف في مطلع شتاء ١٩١٩ يبدو إذن بالشكل الآتي :

كانت الثورة من صنع قلّة مؤلّفة من العناصر الشريرة ، وقد مشى في أثر هذه القلّة الأحزاب الماركسيّة كافّة . ولكن الذين قبضوا على الزمام ما لبثوا أن وسموا الثورة بطابع الاعتدال ممّا أغضب المتطرّفين المتعصبين فقاموا بسلسلة أعمال إرهابيّة في طول البلاد وعرضها واحتلّوا عدة مبان عامة . ولمواجهة هذا الخطر مدّ أنصار الوضع الجديد أيديهم إلى أنصار الوضع القديم وقرر الفريقان وقف موجة الإرهاب الطاغية . وهكذا رأينا أعداء الجمهورية ينظمون أنفسهم لمحاربة الجمهورية كنظام حكم ويتعاونون سياسياً مع الذين يحاربون هذه الجمهورية لأنّها توشك أن تغرق البلاد في الفوضى وليس لأنها نظام حكم .

وقد أيّد هذا الحلف بين أنصار الوضع القديم والمعتدلين من أنصار الوضع الجديد تسعة أعشار الشعب الألماني ، أي الكثرة الساحقة التي فرضت عليها الثّورة قلّة تمثّل العشر الباقي .

وفي الوقت الذي كان المتطرّفون من الجانبين يقتتلون في المدن والأرياف كانت الفئات المتوسطة ، أي السواد الأعظم ، تقبض على الزمام . ولم تتأثّر الجمهورية بالنزاع الدامي بين فريقي المتطرفين ، فقد أدى التقاء الماركسيّة والبورجوازية على صعيد الأمر الواقع إلى تدعيم أسسها ، إلاّ أن هذا لم يمنع البورجوازيين ، قبيل الانتخابات ، من التودّد إلى الملكيين والتظاهر بالحنين إلى العهد السابق ، لأنّهم كانوا بحاجة إلى أصوات المحافظين .

• • •

قلت وأعيد القول إن الثوريين اضطروا ، بعد أن أمعنوا في الجيش تخريباً ، إلى إيجاد أداة جديدة قمينة بدعم سلطة الدولة . ولما لم يجدوا في صفوفهم مَن يتحلّى بالرجولة الحقّة استنجدوا بخصوم الثورة فتألف من هؤلاء جيش صغير هو نواة القوة التي تحتاج إليها الدولة لفرض سلطانها .

إذا سأل سائل : كيف قيّض للثورة النجاح مع افتقارها إلى مقوّمات هذا النجاح وظروفه ؟ فإنّه واجد الجواب في ظاهرتين :

١ – تحجر نظرتنا إلى الواجب والطاعة . ٢ – سلبية أحزابنا المحافظة .

ويعود تحجر نظرتنا إلى الواجب والطاعة إلى تربيتنا الّتي تشدّد على مفهوم الدولة ولا تقيم كبير وزن للقوميّة . وقد ترتّب على هذا النقص عجزنا ، حكاماً ورعيّة ، عن تمييز الواسطة من الغاية ، وفاتنا أن الشعور بالواجب وأداء الواجب والطاعة ليست غاية بحدّ ذاتها ، وكذلك الدولة . ولو لم تفتنا هذه الحقيقة لكان موقفنا من الذين سبّبوا الكارثة غير الموقف المخزي الذي أساء إلى سمعة شعبنا إساءة بالغة . ففي الوقت الذي كان شعبنا يسلم إلى جلاديه ويسام صنوف الهوان والعذاب بفعل خيانة بعض المارقين ، كانت طاعة هذا البعض إجراماً بحقّ الوطن وتجديفاً على المناقبية . ولو أن الذين كانوا يتلقون الأوامر تجاهلوها ليتصرّفوا التصرّف الذي تمليه المسؤولية الشخصيّة لتبدّل الحال غير الحال . ولكن ما حيلتنا في نظرة البورجوازية إلى الدولة ؟ فالطاعة العمياء هي أثمن في نظر البورجوازيين من حياة الشعب ، أما نحن الوطنيين الاشتراكيين فإنّنا نقدم طاعة الجماعة على طاعة الرؤساء الضعفاء ، ونرى أن المسؤوليّة الشخصيّة إزاء الأمّة كلها تصبح في الظروف الدقيقة أقدس الواجبات.

ننتقل إلى الظاهرة الأخرى : سلبية الأحزاب المحافظة .

لقد أدى تساقط الفئات النشيطة والخيرة في ساحات القتال إلى تجريد أحزاب الميمنة من العنصر الوحيد الذي كان قادراً على حمايتها وحماية النظام الذي نصبت نفسها حارساً له . وقد رأى البورجوازيون ، بعد أن فقدوا

القوة المادية ، أن ينقلوا الدفاع عن مبادئهم إلى صعيد الفكر وأن يشهروا في وجه أعدائهم الأسلحة الفكرية . اختاروا هذا النهج ، مع علمهم أن الخصم حطم الأسلحة الفكرية وأعلن عن عزمه على فرض مبادئه بالقوة والعنف. وفي غضون الأسبوع الثاني من تشرين الثاني ١٩١٨ أثبت الماركسيون أنهم أبعد نظراً من خصومهم ، فكانت القوة ، قوتهم هم ، سيدة الموقف ،وضاعت بلاغة البرلمانيين البورجوازيين في ضجيج الحمر وأزيز رصاصهم. وبعد الثورة ، عندما عادت الأحزاب البورجوازية إلى المعترك بأسماء جديدة ، خرج رؤساؤها « الشجعان » زحفاً على الركب من الأقبية المظلمة ، وبدلاً من أن يعتبروا بما كان ويستخرجوا أمثولة مفيدة من حوادث تشرين الثاني ، برزوا إلى الساحة بعدتهم القديمة ، سلاحهم الوحيد ألسنتهم وهدفهم الأوحد كراسي الحكم.

لقد مني البورجوازيون بهزيمة شنعاء تحت قبة البرلمان وفي الشارع ، حتى بعد الثورة . وعندما عرضت الحكومة على الرخشتاغ مشروع قانون حماية الجمهورية عارضه خطباء أحزاب اليمنة والوسط معارضة شديدة ، ولما تحقق للماركسيين أن المشروع لن يحرز أكثرية الثلثين أوعزوا إلى أنصارهم بالتظاهر أمام البرلمان ، فاحتشد حول الرخشتاغ (تموز ١٩٢٢) مئتا ألف ماركسي ، وهتفوا هتافات مختلفة ؛ فجبن المعارضون وتخاذلت منهم الركب ، وكانت النتيجة أن أقر المشروع بأكثرية ساحقة ، واستنكف النواب القوميون .

وهكذا قامت الدولة الجديدة ونمت وترعرعت دون أن تصادف مقاومة جدية . أما المنظمات التي تحلت بالشجاعة ووقفت في وجه الماركسية فهي « الكتائب الحرة » و « الحرس المدني » و « عصبة الدفاع عن التقاليد » و« عصبة المحاربين القدماء » .

بيد أن قيام هذه المنظمات لم يكن له أي تأثير للأسباب الآتي بيانها :

لم يكن للأحزاب المعتدلة وأحزاب اليمنة أي نفوذ في البلاد لافتقارها إلى العناصر المناضلة . وقد كان للمنظمات اليمينية وحدات صدام منظمة ،

ومع هذا ظلّ تأثيرها ضئيل الشأن لأنها لم تكن منظمات ذات مبادىء ، ولأنّه لم يكن لها هدف سياسيّ واضح .

لقد انتصر الماركسيون بفضل اللحمة القائمة بين تصميمهم أو إرادتهم السياسيّة وبين شراستهم في العمل . ولو اجتمع لألمانيا القومية تعاون القوة الشرسة مع الإرادة القوميّة لما ظلّت بمعزل عن اللعبة السياسيّة ولما انفردت الماركسيّة بتقرير مصير البلاد .

كان للأحزاب « القوميّة » إرادة ، ولكن كانت تعوزها القوة لفرض هذه الإرادة. أما المنظمات فقد كان لها القوة وكان في وسعها أن تفرض سيطرتها على الشارع وحتّى على الدولة ، ولكن كان يعوزها الحافز أي الفكرة السياسيّة والهدف السياسي . وقد استغلّ اليهودي هذا النقص المزدوج وعمل جاهداً في سبيل إقناع المواطنين بأنّه ليس بالإمكان أبدع ممّا كان . فبإيعاز من اليهود راحت الصحافة تبرز الطابع غير السياسي للمنظمات اليمنية وتمتدح هذا الطابع . وبإيعاز من اليهود لم تضنّ الصحافة بالثناء على « الذين يقابلون التحدي والعنف بالأسلحة الفكرية » . وتبنى ملايين الألمان هذه النظرية السخيفة ، وقد فاتهم أنها خدعة يهودية وأنهم ، باعتمادهم الفكر وحده سلاحاً في معركة هي معركة حياة أو موت ، جرّدوا أنفسهم عملياً من كلّ سلاح وباتوا تحت رحمة اليهودي وعصاباته الشرسة .

وثمة تفسير آخر لضعف الأحزاب البورجوازية والمنظمات اليمينية ، فقد نزلت إلى المعترك ولا مثالية لها ، وفي التاريخ أكثر من شاهد على قصر باع كلّ حركة من هذا النوع ، فهي لا تتحلّى بالروح النضاليّ الذي تتحلّى به الحركات الرسولية . فقد ارتبط الإيمان بانتصار فكرة ما ولا يزال ، بادّعاء رسل هذه الفكرة حقّ اللجوء إلى العنف حتى أقصى درجاته .

لقد نجحت الثورة الفرنسيّة لأن إعلان حقوق المواطن بهر الجماهير ، فتبنّته وتعصّبت له ، وناضلت في سبيله . وطلعت الثورة الروسيّة بفكرة

استهوت السواد الأعظم ، فآمن بها واستمات في الدفاع عنها . واستمدّت الفاشستيّة قوّتها من رسالتها الإصلاحيّة .

• • •

بقيام الحزب الوطني الاشتراكي قامت في ألمانيا حركة هي الأولى من نوعها ، حركة غايتها إعادة بناء الدولة على أساس عنصري . وقد قرّر الحزب منذ اللحظة الأولى اعتماد الوسائل الفكريّة أداة لنشر مبادئه ، ولكنّه قرّر في الوقت نفسه دعم دعاوته ، عند الاقتضاء ، بالقوّة والعنف والدفاع عن نفسه بضراوة ، إيماناً منه بقدسيّة القضيّة التي ندب نفسه لخدمتها .

قلت في فصل سابق إنّ حركة ذات عقيدة يدعمها الإرهاب لا يمكن التغلب عليها بالأسلحة الفكريّة والأساليب الإداريّة العاديّة ، فلا بدّ لمنازلتها بنجاح ، من مواجهتها بحركة ذات عقيدة تعتمد هي الأخرى على الإرهاب .

لقد ظلّت الدولة الألمانيّة هدفاً لهجوم ماركسي مركز وعنيف طيلة سبعين عاماً ، ولكنها لم تنجح ، في نضالها الشاق وكفاحها المرير لصدّ الهجوم ، لم تنجح في الحؤول دون انتصار المبادىء الهدامة بالرغم من التدابير الصارمة التي اتّخذتها بحق زعماء الحركة ، لأنّها واجهتها بتدابير محض سلبيّة بدلاً من أن تقابلها بمذهب فلسفي يقضي على مبرّر وجودها . والدولة التي ألقت السلاح في ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ وتركت الماركسيّين يقبضون على الزمام ، لا يرتجى منها – حتّى بعد وصول البورجوازيين إلى الحكم في ظلّ النظام الجديد – أن تقلب للماركسيين ظهر المجن ، فمنذ ١٩٢١ وحكومتنا البورجوازية تلاطف الحمر وحجّتها أنّه لا يجوز إغضاب البروليتاريا . وهذا الخلط بين الماركسيّة والطبقات الكادحة في ألمانيا هو تزوير للتاريخ يتذرّع به الحاكمون لتغطية إخفاقهم في إنقاذ البلاد من براثن المغامرين الدوليين .

وحيال خضوع الدولة الحالية للماركسيّة خضوعاً تامّاً ، أخذت الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة على عاتقها إنقاذ ألمانيا ، واتّخذت على مسؤوليتها تدابير

دفاعية مجدية تواجه بها الإرهاب الأحمر . وقد ذكرت في فصل سابق أن حركتنا أنشأت وحدة صدام مهمتها الأساسية حماية اجتماعاتنا ، وبعد أن وسعنا دائرة نشاطنا جعلنا من الوحدة نواة ما سميناه « الحرس الخاص » ، ونحونا في تنظيم الحرس نحو المنظمات اليمينيّة التي عرفت باسم « منظمات الدفاع » . ولكن وجه الشبه لم يتعد التنظيم . فالمنظمات اليمينيّة كانت تعمل – كما تقدّم معنا – وليس لها هدف سياسي واضح . وقد رأيناها تقوم بنشاطها في نطاق الوضع الجديد مع اعترافها بفساد الوضع وتتصدّى لمحاربة الماركسيّة دفاعاً منها عن جمهوريّة هي من ألدّ أعدائها . أمّا « الحرس الخاص » فقد كان الغرض من إنشائه حماية حركة قوميّة ترفض تكريس الوضع القائم وتناضل في سبيل إنشاء ألمانيا جديدة .

ولست أنكر أن الحرس كان ، بادىء ذي بدء ، بمثابة بوليس مهمته حماية قاعة الاجتماع والحفاظ على النظام ، ومنع المشاغبين من مقاطعة الخطباء وتعطيل الاجتماعات . أي أنّه أنشىء في الأصل لأداء المهام الهجوميّة ، لا تعبداً منه للقوّة ، كما يزعم العنصريون الكذبة ، بل لأن الهجوم هو أفضل وسائل الدفاع ، ولأن أسمى الفِكَر يمكن خنقها بالقضاء على صاحبها بضربة هراوة أو عصا .

إن منظمة الحرس التي أنشئت لحماية حركتنا ما اعتبرت العنف قطّ غاية بحدّ ذاته ؛ وقد تولّت الدفاع عن رسل الوطنيّة الاشتراكيّة بتفان وإخلاص وحماسة لأنّها آمنت بالوطنيّة الاشتراكيّة وأهدافها النبيلة . ولكنها أدركت منذ اللحظة الأولى أنّها غير ملزمة بحماية دولة لا تكفل للأمة أيّة حماية ؛ وأنّها مدعوة إلى الدفاع عن هذه الأمة بإحباط خطط الذين يريدون القضاء على الشعب والدولة .

• • •

بعد معركة قاعة هوفمبروهوس أطلقنا على وحدة الحرس اسماً جديداً

هو « فرقة الهجوم » وشعر الماركسيّون بأن الموجة الطاغية تكاد تغرقهم فضاعفوا من نشاطهم محاولين ، بالإرهاب تارة ، وباستعداء السلطات علينا تارة أخرى ، تعطيل اجتماعنا وتعكير صفو مهرجاناتنا . ومن تحصيل الحاصل القول إن الصحافة الماركسيّة والأحزاب ذات اللون الماركسي كانت تحرض الدهماء على التحرّش بنا والاعتداء علينا ، وتصفّق لكلّ محاولة يحالفها التوفيق . ولكن ماذا نقول في الأحزاب البورجوازيّة التي كانت تفرح لفرح الماركسيّين كلّما تمكّن هؤلاء من تعطيل اجتماع وطني اشتراكي ؟ كان يسعد البورجوازيين ولا شكّ ، أن يروا حزبنا عاجزاً عن التغلّب على الحزب الذي هزمهم هم بعد أن عجزوا عن التغلّب عليه . وماذا نقول بالموظفين الإداريين ومديري البوليس ، وحتى الوزراء ، الذين يتظاهرون بالوطنيّة ، ولكنّهم في كلّ نزاع يقوم بين الوطنيّة الاشتراكيّة والماركسيّة ، يتسابقون إلى خدمة هذه ابتغاء لرضاها ؟

هذه الذهنيّة المريضة هي التي أوحت إلى مدير البوليس السابق بوهنر ، هذا الموظف المثالي ، قوله للذين حاولوا شراء ضميره : « حرصت في حياتي كلّها على أن أكون ألمانيّاً أوّلاً ثمّ موظّفاً . وأنا كألماني صميم لا أسمح لأحد بأن يرتاب في نزاهتي وطهارة ذيلي . وإذا كان ثمة موظفون يقبلون الرشوة ، فليكن معلوماً أن هؤلاء هم حثالة شعبنا وأن الدم الذي يجري في عروقهم ليس دماً ألمانيّاً صافياً » .

لم يكن لنا أن نرتجي أيّة معونة من رجال هذا شأنهم ، فحماية حركتنا يجب أن نؤمنها بوسائلنا الخاصّة ، ومن هنا كان اهتمامنا بتوسيع نطاق منظمتنا الدفاعيّة الخاصّة . وقد حرصنا على أن تكون فرقة الهجوم ذات مظهر يستهوي الجماهير كما حرصنا على أن نجعل منها قوّة معنويّة مشبعة بمثالية الوطنيّة الاشتراكيّة فلا يكون لها طابع الجمعيّة السريّة ولا عقلية المنظمات البورجوازية المنشأة لأغراض دفاعيّة .

وقد قام حرصنا هذا ــ وحرصي أنا بنوع خاص ــ على الاعتبارات الآتيــة :

إن التربية العسكريّة لشعب من الشعوب لا يمكن أن تتولاّها منظمات خاصة ما لم تقدم إليها الدولة مساعدات مالية سخيّة . يضاف إلى هذا أن المنظمات الخاصة تكتفي بفرض « نظامية اختياريّة » ممّا يجرّد القيادة من أداتها الرئيسيّة : القدرة على معاقبة من تجب معاقبته . لقد كان تأليف ما يسمّونه « الوحدات الحرّة » ممكناً في ربيع ١٩١٩ لأن هذه الوحدات تألّفت من محاربين قدماء وجنود سرحوا حديثاً ، وهؤلاء وأولئك تخرجوا من مدرسة الطاعة والنظام أي الجيش الألماني . ولكن الطاعة والنظام لم يكونا من الفضائل التي يتحلّى بها رجال « المنظمات الدفاعيّة » البورجوازيّة ، فهي لم تضمّ من الجنود المسرّحين أكثر من عشرة بالمئة ، وحتّى « النظامية الاختيارية » وجدت دائماً من يبرم بها ويحاول التهرّب من قيودها . ولا ننسى أن تدريب المتطوعة في المنظمات الدفاعيّة كان تدريباً اسميّاً ، فقد أُخضع المتطوّع الذي لم يحمل البندقيّة من قبل ، لتدريب أسبوعي مدّته ساعتان ، على أن تنتهي تنشئته في غضون ستّة أشهر .

لم ننسَ نحن جنود الأمس كيف كانت نيران العدوّ تحصد المجندين الجدد الذين تدفّقوا على الجبهة قبل أن يكتمل تدريبهم ويصلب عودهم . حتّى الذين دربوا تدريباً كافياً كان ارتباكهم واضحاً في المعارك الأولى ، وظلّ هذا شأنهم إلى أن أخذ بيدهم الرفاق «القدماء» . كم تبدو سخيفة والحالة ما ذكرت محاولات البورجوازيين الرامية إلى إنشاء وحدات مسلحة تعوزها القيادة والوسائل ، وتخضع لتدريب مدته ثماني ساعات في الشهر .

يمكننا بهذه الطريقة أن نجمع بضع عشرات من المحاربين القدماء في ما يشبه التعاونيّة أو النادي . . . ولكن هيهات أن نجعل من الفتيان جنوداً !

عندما اقترح بعض الرفاق أن تكون منظمتنا الهجوميّة ذات طابع سرّي

عارضت المقترح معارضة شديدة ، لأن المنظمات السرّية لا تستطيع توسيع نطاق ملاكها لئلا يفتضح أمرها ويتعرّض لها الحكّام بالحلّ . ولا ننسى أنّ شعبنا يميل إلى الثرثرة ، فالحفاظ على سريّة قرار تتّخذه المنظمة من الأمور النادرة جداً ، مع العلم أنّ للسلطات في أيّامنا مؤسّسات بوليسيّة يعاونها جيش من المخبرين والجواسيس الذين أتقنوا فن التلفيق والافتراء . قلت لرفاقي إن حركتنا ليست بحاجة إلى مئة أو إلى مئتي متآمر مقدام ، فالذي نحتاج إليه هو جيش يضمّ آلاف المناضلين المتعصبين لمثاليتنا . وقلت كذلك إن هذا الجيش يجب أن يعمل في وضح النهار ويبهر السواد بمظاهر قوته وحسن تنظيمه ، وإن الحركة لن تنتصر ما دام الشارع في قبضة الحمر ، فعلينا أن نثبت لهؤلاء أن الوطنيّين الاشتراكيّين هم أسياد الشارع وأنّهم قابضون على الزمام يوماً من الأيّام .

ويكمن خطر المنظمات السريّة في ظاهرة مشاهدة في أيّامنا . فأعضاء هذه المنظمات قلّما يدركون عظمة مهمّتهم ، ويغلب أن يرسخ في أذهانهم أن مصير شعب ما يمكن أن تقرّره جريمة قتل .

يمكن الأخذ بهذه النظريّة عندما يكون الشعب خاضعاً لحكم طاغية ، ففي هذه الحالة يمكن أن يبرز مواطن من صفوف الشعب ويغمد خنجره في صدر الرجل المقيت ، ولا ننسى أن شيلر مجد في « غليوم تل » جريمة من هذا النوع .

كان يخشى بين ١٩١٩ و ١٩٢٠ أن تعمد المنظمات السريّة إلى الانتقام من الذين سبّبوا الكارثة واستغلّوا محنة الوطن ، ولو أنّها فعلت لجاء انتقامها في غير محلّه . ذلك بأن الماركسيّة لم تنجح بفضل عبقريّة زعمائها ، بل نجحت لأن العالم البورجوازي أخلى لها الجوّ وانطوى على نفسه لا يبدي ولا يعيد . أنفهم أن يلقي البورجوازي الفرنسي السلاح أمام رجال من وزن روبسبيير ودانتون ومارا ولكن أليس العار كلّ العار في أن ينحني البورجوازي الألماني

أمام أشباه رجال من طراز شيدمان وارزبرجر وفريدريك اليبرت وسائر أقزام السياسة ؟ لم يكن ثمّة ثوري واحد ذو وزن ، فاغتيال « زعيم » أو أكثر ما كان ليعود على القضيّة القوميّة بأي نفع ما دام هناك من يستطيع أن يأخذ مكانه . أملت عليّ هذه الاعتبارات معارضة المشروع القاضي بجعل « فرقة الهجوم » ذات طابع سرّي ، وحرصت مذ ذاك على منع أنصارنا من الانتظام في منظمات تعمل في الظلام ، وحظرت عليهم الاشتراك في محاولات كان القائمون بها مواطنين مثاليّين ولكن تضحياتهم ذهبت سدى ، لأن الذين أزالهم رصاص الفدائيين رجال عاديون يمكن تعويضهم بيسر .

بعد أن قرّرنا أن ننفي عن « فرقة الهجوم » الطابع السرّي وأن نبتعد بها عن المنظمات الدفاعيّة ، تنظيماً وغاية ، انصرفنا إلى العناية بأمور ثلاثة هي التدريب ، وعلنيّة الاجتماعات والاستعراضات ، واللباس الخاص .

أمّا التدريب فإنّنا لم ننظر إليه من زاوية محض عسكريّة ، بل حرصنا على جعله متمشياً ومصلحة الحزب ، بأن أعطينا الأفضلية للتمارين الرياضيّة بدلاً من جعلنا مركز الثقل التمارين العسكريّة ، فقد كان رأيي دائماً أن الملاكمة والمصارعة اليابانيّة تفضلان تدريب أنصارنا على الرماية تدريباً ناقصاً .

ولتجريد « فرقة الهجوم » من الطابع السرّي وسعنا نطاقها وحظرنا عليها التستر والتآمر ، وحرصنا على توسيع آفاق تفكير المنضوين تحت لوائها بحيث يشعرون أنّهم حماة فكرة وأعداء مثالية غريبة تريد بالوطن شرّاً .

أمّا اللباس الخاص فقد جعلناه متلائماً والمهمة الموكولة إلى الفرقة ، من حيث اللون والزي ونوع القماش .

وفي أواخر صيف ١٩٢٢ عرضت مناسبات ثلاث من النوع الذي يصلح لامتحان القوى ، فاجتازت فرقة الهجوم الامتحان بنجاح باهر أدى إلى نموّها وعاد على الحركة بأجزل الفوائد .

أمّا المناسبات الثلاث فهي الآتية :

١ – التظاهرة التي قامت بها الهيئات الوطنيّة في ساحة كوينغس بميونيخ احتجاجاً على قانون حماية الجمهوريّة .

فقد اشترك الحزب الوطني الاشتراكي في التظاهرة ، ومشى المنضوون تحت لوائه صفوفاً متراصة ، وكانت فصائل الهجوم الخاصة بمدينة ميونيخ تتقدّم الصفوف بنظام بديع ، يخفق فوقها خمس عشرة راية . وقد استقبل الوطنيون الاشتراكيون لدى دخولهم إلى المكان استقبالاً حماسيّاً ، وكان لي شرف الكلام باسم الحزب فلفظت خطاباً وطنيّاً جريئاً ألهب شعور ستّين ألف مستمع .

وفي ذلك اليوم أقمنا أكثر من دليل على مدى انتشار حركتنا وأزلنا ما كان عالقاً بالأذهان حول قوى الحمر في ميونيخ . فقد حاول أعضاء المنظمات الدفاعيّة الحمراء التعرّض لموكبنا ، فانبرت لهم فصائلنا وصفّت حسابهم في بضع دقائق . وهكذا أثبتت حركتنا أنّها قادرة على النزول إلى الشارع وفرض سيطرتها عليه منتزعة هذا « المونوبول » من أيدي الخونة الدوليّين وأعداء الوطن .

وعلى ضوء مسلك فصائل ميونيخ في ذلك اليوم أدركنا أن الأسس التي اعتمدناها في تنظيم فرقة الهجوم هي الأسس الصالحة .

٢ – زيارة مدينة كوبورغ .

في تشرين الأوّل ١٩٢٢ قررت المنظمات « العنصريّة » عقد « مؤتمر ألماني » في كوبورغ . وتلقيت أنا دعوة إلى حضور المؤتمر مع الرجاء بأن أصطحب نفراً من أنصار الحزب الوطني الاشتراكي ، فقرّرت اصطحاب ثمانمائة من رجال فرقة الهجوم يؤلفون أربع فصائل ، على أن ينقلهم من ميونيخ إلى كوبورغ قطار خاص . وعملاً بالتعليمات التي أرسلت على جناح السرعة إلى أنصار الحركة في الأماكن التي مرّ بها القطار ، كان يستقبلنا في كلّ محطة وفود الوطنيّين الاشتراكيّين ومعهم أعلامهم ، ممّا كان له أعمق

الأثر في نفوس السكّان .

وفي محطة كوبورغ كانت تنتظرنا مفاجأة مزعجة .

فقد استقبلتنا لجنة تنظيم المؤتمر وأبلغتنا أن النقابات المحليّة والحزب الاشتراكي المستقلّ والحزب الشيوعي والسلطات المحليّة قرّرت بالاتفاق مع منظمي المؤتمر – وهنا وجه الغرابة – مطالبتنا بدخول المدينة بمجموعات صغيرة ، فلا مواكب ولا أعلام ولا موسيقى الخ . . .

وقد رفضت ، دون ما تردّد ، هذه الشروط الغريبة ولم أكتم اللجنة أن مسلكها غير مشرّف ، وقلت لرئيسها إن فصائل فرقة الهجوم ستدخل المدينة صفوفاً متراصّة تتقدّمها الأعلام والموسيقى .

وهكذا كان .

وقبل أن نتحرّك من ميدان المحطة أقبلت جماهير غفيرة كانت تنتظر إشارة من خصومنا لتتحرّش بنا ، وراحت تكيل لنا السباب مهدّدة إيّانا بقبضاتها ، ولكن الفصائل لم تلق الهاتفين بالاً وتابعت تنظيم صفوفها ، ووصلت شراذم من البوليس فواكبتنا في طريقنا إلى قاعة هوفمبروهوس القائمة في قلب الجزء الأوسط من المدينة ، ولحقت بنا الجماهير الصاخبة دون أن تفتر لحظة واحدة عن التحرّش بنا . وما ان احتوت القاعة الصف الأخير من صفوفنا حتى همّ باقتحامها جمهور كبير ، فبادر البوليس إلى إقفال الأبواب ، كمن يريد وضع الاجتماع تحت حمايته ، فجمعت على الأثر رجالنا وأهبت بهم أن يكونوا على حذر ، ثمّ احتججت على إقفال الأبواب وطالبت بفتحها فوراً وقلت لآمر القوّة إنّنا قادرون على حماية الاجتماع بوسائلنا الخاصّة ، عندما يأزف موعد الاجتماع ، وأفهمته أنّنا نريد الانتقال إلى مركز الحزب في كوبورغ ، فأمر بفتح الأبواب وسلكنا طريقاً جديداً متجهين نحو المركز ونحن ننشد الأناشيد القوميّة ، ولما وجد الحمر وحلفاؤهم من دعاة « الاشتراكية والإخاء والمساواة » أن الشتائم لم تخرجنا من وقارنا عمدوا إلى الحجارة يرشقوننا بها ،

فنفد صبر الفصائل وشمّر أفرادها البواسل عن سواعدهم وارتدّوا على المعتدين وفي أقلّ من عشر دقائق أقفرت الشوارع من المشاغبين .

وفي الليل حصلت اصطدامات عنيفة في أماكن شتّى من كوبورغ . فقد اعتدى الحمر على إخوان لنا من أبناء المدينة وتركوهم في حالة مؤسفة ، وما اتّصل الخبر بمركز الحزب حتّى خرجت دوريات من فصائل الهجوم ونظفت الشوارع والأزقة من المعتدين وسحقت إرهاب الحمر الذي عانت منه كوبورغ ما عانت طيلة سنوات .

ولكن الماركسيّين لم يعتبروا بما حصل . فدعوا إلى القيام بتظاهرة شعبيّة يمشي فيها ألوف العمال ، وزعمت نشراتهم أن « الوطنيّين الاشتراكيّين هبطوا المدينة ليقوموا فيها بحملة إرهابيّة ضدّ العمال المسالمين » . ولما اتّصل بي الخبر أمرت فصائل الهجوم والعناصر المحليّة بأن تؤلف جريدة قوامها ألف وخمسمئة رجل ، ومشيت على رأس هذه القوّة متجهين شطر قلعة المدينة مروراً بالميدان الذي دعي العمال إلى التجمّع فيه ، وفي نيّتنا تحدّي الخصوم وإعطاؤهم درساً جديداً . ولكننا لم نجد في الميدان سوى بضع مئات من الرجال والنساء والأولاد ، فمررنا بهم تتقدّمنا الأعلام والموسيقى ، دون أن يحرّكوا ساكناً أو تبدر من أحدهم بادرة عداء .

كان لمظاهرتنا الناجحة فعل الخمر في النفوس المتعبة ، فبعد أن كان السكان غير مكترثين لنا وقفوا على الأرصفة يحيوننا ويهتفون لحركتنا . وفي المساء شيعتنا المدينة بمظاهر جدّ وديّة ورافقنا جمهور كبير إلى المحطة حيث فوجئنا برفض الموظفين المختصين قيادة القطار ليعود بنا إلى ميونيخ ، وذلك بتحريض من النقابيّين الماركسيّين ، فأفهمت المحرضين — وكانوا قد تجمّعوا في المكان ليراقبوا تطوّر القضيّة — انّني لن أحجم عن احتجاز العشرات منهم في إحدى عربات القطار ، على أن نتولى نحن قيادته بأنفسنا ، بالرغم من جهلنا هذا الفن ، فإذا تدهور القطار أو طرأ عليه خلل ، هلكنا نحن وهلك معنا الحمر

المحتجزون ، تمشّياً مع مبدإ المساواة الذي يبشر به الماركسيون وحلفاؤهم .

فعل التهديد فعله ، فتحرّك القطار من محطة كوبورغ في الموعد المحدّد ، وبلغنا ميونيخ في اليوم التالي سالمين .

لم تظهر أهمية النتائج التي أسفر عنها يوم كوبورغ دفعة واحدة ، ولكن أفراد « فرقة الهجوم » عادوا من المدينة وقد رسخ إيمانهم بأنفسهم وبمهارة رؤسائهم . أمّا الذين كانوا يستهينون بحركتنا فقد بدأوا ينظرون إلى الحزب الوطني الاشتراكي نظرهم إلى مؤسسة مؤهلة لأن تضع ذات يوم حدّاً للوباء الماركسي في ألمانيا .

ولم يتبدّل موقف « الديموقراطيّين » منّا ، فقد أخذوا علينا لجوءنا إلى قبضاتنا وعصينا لدفع خطر الحمر وصدّ هجماتهم ، زاعمين أن الرد على العنف بالعنف ليس جائزاً في جمهوريّة ديموقراطيّة تؤمن بالأساليب السلميّة . وقد شجّعنا يوم كوبورغ على مواجهة الإرهاب الأحمر في كلّ مدينة وقرية : وسحقه حتى في الأمكنة التي أخضعها الماركسيون لسيطرتهم التامّة ، وهكذا أعاد حزبنا حريّة عقد الاجتماعات وتنفس الناس الصعداء في بافاريا كلّها وهم يشهدون سقوط القلاع الماركسية على التوالي ، وما انصرم العام ١٩٢٢ حتى تجمّع لدينا بضعة أفواج جديدة فألفنا منها ومن الأفواج السابقة « جيش الهجوم » .

٣ ـ احتلّ الفرنسيون منطقة الرودر في آذار ١٩٢٣ . فأجمعت الأحزاب والمنظمات ذات الطابع القومي على وجوب توجيه المنظمات الدفاعيّة وجهة جديدة تصبح معها وحدات عسكريّة ذات طابع هجومي . وقد جارينا نحن هذه النزعة متيحين لجيش الهجوم فرصة للمساهمة في الذود عن شرف الوطن ، ولكن ما إن استوفى هذا التدبير أغراضه حتى أعدنا لجيش الوطني الاشتراكي طابعه الأوّل : جندي الحركة وعنوان قوّتها وحامي مثاليتها .

الفصل التاسع عشر
القناع الفيديرالي

في غضون ١٩١٩ و ١٩٢٠ ألجيء حزبنا الناشيء إلى تحديد موقفه من قضية كان قد أثير حولها جدل طويل والحرب مستعرة الأوار .

في أحد الأجزاء السابقة وصفت أعراض الانهيار الذي كان يهدد بلادي وهي منصرفة إلى مقارعة أعداء شديدي المراس ، وألمحت إلى المناورات التي لجأت إليها الدعاوة الانكليزيّة والدعاوة الفرنسيّة لتوسيع الهوّة الفاصلة بين جنوب ألمانيا وشمالها . ففي ربيع ١٩١٥ ظهرت في صفوفنا نشرات حليفة تحمل بروسيا وحدها تبعة نشوب الحرب . وفي شتاء ١٩١٦ توجهت الدعاوة إلى ألمان الجنوب مهيبة بهم أن يتحرّروا من سيطرة البروسيّين . ولا بدّ من الاعتراف بأن النشرات التي كانت تروي حوادث المصادمات الدامية بين ألمان الجنوب وألمان الشمال لم تكن دائماً مفترية . . . ولا بدّ من الاعتراف كذلك بأن السلطات الألمانيّة من مدنيّة وعسكريّة– ولا سيما السلطات البافارية– تتحمّل القسط الأكبر من المسؤوليّة لأنّها لم تحرّك ساكناً لمنع الصحافة الألمانيّة الثرثارة من نشر المقالات التي تنمّ عن نزعة انفصاليّة .

تأجّجت نار الحقد على بروسيا والبيت المالك أوّل ما تأجّجت في مدينة ميونيخ ، ولا يسع المنصف إلاّ الاعتراف بأن الشعب ما كان ليقع في شرك الدعاوة الحليفة لو لم تتوفّر لديه الأدلّة على سوء نيّة ولاة الشأن . فقد كانت إدارة الاقتصاد القومي غاية في السوء ، وكانت برلين تستأثر بالسلطة ، وبرلين هي بروسيا في نظر الرجل العادي . . .

كان الشعب يعلم أن « مصالح الحرب » التي يتبرّم بتدابيرها منجمعة

كلّها في برلين ، ولكنه كان يجهل أن الذين نظموا هذه المصالح ليسوا برلينيين ولا بروسيّين وأنّ معظمهم لا يمتّ إلى ألمانيا بصلة . . . أمّا حكومة بافاريا فقد كانت محيطة بكلّ شيء ، ومع هذا رأيناها تغضي إغضاء مجرماً عن تفاقم التيار المعادي لبروسيا بدلاً من أن تقف في وجهه وتبدّد الأوهام العالقة بأذهان الناس .

أمّا اليهودي الماكر الذي نظّم « مصالح الحرب » لينهب الشعب بواسطتها فقد أدرك أن النقمة لا بدّ منفجرة وأن السواد قد يمسك بخناقه ، ولأجل تحويل غضب السواد عنه عمل على بذر بذور الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، فحرض بافاريا على بروسيا وهذه على تلك ، ووقعت كلتاهما في الشرك ، ونسي الجميع العلقة الدوليّة التي تمتصّ دم الشعب . . .

وظلّت الحال على هذا المنوال إلى أن استعر لهيب الثورة ، فانتهزها اليهود والبلاشفة فرصة لتفكيك عرى الوطن الألماني . ونصب منظم ثورة بافاريا نفسه ممثلاً للمصالح البافارية ، مع أنّه آخر من يحقّ له الكلام باسم الشعب البافاري وهو اليهودي الشرقي ذو الماضي الغامض .

لقد حرص منظم الثورة البافارية ، كورث اميزنر ، على إعطاء هذه الحركة طابع الهجوم على باقي أجزاء الريخ ، وهو في حرصه هذا كان منسجماً مع نفسه كيهودي عريق ، ومنفذاً لتعليمات اليهودية العالميّة التي ارتأت أن يسبق بلشفة الشعب الألماني تقطيع أوصال الوطن الألماني .

وعندما أنقذت القوات الألمانيّة بافاريا من براثن البلاشفة ، وصفت دعاوة هؤلاء نضال الحمر في سبيل استبقاء سيطرتهم بأنّه « نضال العمّال البافاريّين ضدّ العسكريّين البروسيّين » . وقد كان لهذه الدعاوة المغرضة صداها المطلوب فازداد نفور البافاريين من بروسيا وتفاقم حقدهم عليها .

في ذلك الحين نزلت أنا إلى المعترك لأعمل جاهداً في سبيل وضع حدّ لهذه الدعاوات ودعوة المواطنين إلى التبصر في عواقب انقسامهم .

كانت مهمتي شاقة ، فالنقمة على بروسيا قد بلغت الذروة في الأوساط البافارية ، ففي كلّ مدينة ودسكرة وقرية قامت منظمات مهمّتها حضّ السكان على كراهية البروسيّين والدعوة السافرة للانفصال .

قررت مغالبة التيار الجارف وحضرت اجتماعاً عقده غلاة الانفصاليّين في قاعة لوفن – بروكلر بميونيخ ، وقد رافقني إلى المكان بضعة أصدقاء . وبعد أن ترك المنبر أوّل الخطباء وقفت في مكاني وارتجلت كلمة لا تعوزها الصراحة نددت فيها بالنزعة الانفصالية وقلت إن نزاعاً يقوم بين بروسيا وبافاريا لن يفيد منه غير المغامرين الدوليّين من يهود وشذاذ آفاق وماركسيّين : وقد أغضبت صراحتي الحاضرين وقوطعت كلمتي مراراً بالشتائم واللعنات ، ولو لم يبادر رفاقي الشجعان إلى إحاطتي بسواعدهم وإخراجي من القاعة لنالني من اعتداء الناقمين أذى كبير .

وتكرّرت تدخلاتي مذ ذاك ، وازداد تبعاً لذلك عدد أصدقائي ومؤيديّ ، وحدث أكثر من مرّة أن اعتدى الانفصاليون بالضرب واللكم على رفاقي وجروهم إلى الخارج وهم غائبون عن الوعي أو في حالة جدّ مؤسفة .

وبعد قيام الحزب تبنى وجهة نظري واضطلع بالعبء الذي اضطلعت به منفرداً في العام ١٩١٩ والأشهر الأولى من العام ١٩٢٠ ، معتمداً على وطنيّة المناصرين من أبناء بافاريا الذين عملوا جاهدين في سبيل تنوير أذهان مواطنيهم ، متحمّلين أنواع الأذى ، معرضين صدورهم لسهام الافتراء .

ولما اشتدت حملة حزبنا في الاتجاه المعاكس للاتجاه الانفصالي عمد اليهود والعاملون بوحي من اليهود إلى تكتيك جديد لتمويه لعبتهم الخطرة فزعموا أن الحركة التي افتعلوها ترمي إلى إعادة تنظيم دويلات الريخ على أساس اتحادي (فيديرالي) ولكنّهم اشترطوا للكفّ عن النغمة الانفصاليّة تقطيع أوصال بروسيا لمصلحة الدويلات المجاورة لها ، وهكذا فضح الانفصاليون لعبتهم الخطرة وسهّلوا مهمّتنا إلى حدّ كبير ، وجاءت حادثة دورن ،

الانفصالي الريناني الخائن ، فأزالت الغشاوة عن عيون المخدوعين من أبناء بافاريا ، وأدركوا أن متزعمي الحركة الانفصالية تارة والفيديراليّة تارة أخرى ، مأجورون للأجنبي ، يعملون لحساب فرنسا أو انكلترا .

وقد لاحظنا أن الحملة الظالمة التي استهدفت بروسيا انصبت على العناصر البروسية المحافظة من دون سائر العناصر . ذلك بأن المحافظين رفضوا دستور فيمار الذي وضعه ألمان الجنوب واليهود . وعندما شعر اليهود بأن الحركة الانفصاليّة آخذة بالتلاشي صرفوا الأذهان عن « نشاطهم » في حقل السلب والنهب والإفساد وإيقاعهم بين المحافظين البافاريين والمحافظين البروسيّين .

كلّ هذا والشعب في غفلة عن دسائس اليهود وعبثهم الجريء . وفي شتاء ١٩١٩ حاولت ورفاقي تنبيه الأفكار إلى الخطر اليهودي ولكن الناس استنكروا هذه النغمة ونعتونا بالمتعصّبين . ولا بدّ من الاعتراف بأن الفضل في إثارة المسألة اليهوديّة بشكل جدّي يعود إلى « عصبة الدفاع والهجوم » التي تأسّست في العام المذكور . وكان أن تبنى الحزب الوطني الاشتراكي الفكرة وجعلها محور حركة شعبيّة واسعة النطاق . ولكن اليهودي اشتمّ رائحة الخطر وبادر إلى تنظيم الدفاع عن نفسه ، معتمداً تكتيكه التقليدي . فقد أثار إحدى القضايا المذهبيّة في ثلاث صحف مأجورة ووقف يتفرّج على الجدل الديني العقيم بين الكاثوليك والبروتستنت ، وعلى ما ترتّب على هذا الجدل من انقسام في صفوف العنصريّين القائمين بالحركة اللاساميّة .

وهكذا نجح اليهودي مرّة أخرى في إلهاء المواطنين بما صرف أذهانهم عنه . وبين عشيّة وضحاها نسي الكاثوليك والبروتستنت عدوهم المشترك ليقتتلوا فيما بينهم . نسوا هذا الغريب ذا الشعر الأسود والأنف الطويل الذي يعيش عالة عليهم ويكيد لهم ويلوث الدم الآري . نسوا أن اليهودي القذر هو عدوّ المسيحيّة الألد ، لا فرق عنده بين الكثلكة والبروتستنتيّة ، وأنّه تجاسر ويتجاسر على هدر كرامة الكائن الآري النبيل ، ديدبان الحضارة

وحامل مشعلها عبر الأجيال .

نسوا ذلك كلّه ليدخلوا في جدل عقيم حول قضايا بعيدة عن جوهر الدين بعد الأرض عن السماء : و « تطوعت » الصحف الماركسيّة والملحدة لصب الزيت على النار بنشرها آراء سخيفة للجانبين . وبدلاً من أن يبادر العنصريون



أدولف هتلر في فترة راحة واستجمام

إلى إطفاء النار نزلوا إلى المعترك وأقحموا الحركة العنصريّة في النزاع الديني .
وفي هذه الأثناء كان اليهودي يتابع تلويث دم شعبنا وهدر كرامته وتخريب مصالحه ، وكان أعداء ألمانيا الخارجيون يقسمون العالم فيما بينهم ساخرين من مشاكلنا الداخليّة الحقيرة .

• • •

ألجىء الحزب الوطني الاشتراكي إلى تحديد موقفه من المسائل الجوهريّة التي أثارها النزاع بين الفيديراليين وأنصار الدولة الموحدة ، فقد كان عليه ، دون أن يتدخّل تدخّلاً فعليّاً ، أن يبدي رأيه في النزاع ويطلع الناس على وجهة نظره في الدولة الاتحاديّة « الفيديراليّة » والدولة الموحدة .

كان علينا أن نحدّد ، بادىء ذي بدء ، مفهومنا للدولة الاتحاديّة لأن هذا التعبير قد أسيء فهمه حتّى في عهد بسمرك .

ما هي الدولة الاتحاديّة ؟

هي مجموعة دول سيدة اتحدت فيما بينها من تلقائها وتنازلت لمصلحة الاتحاد عن بعض حقوقها كدول ذات سيادة .

ولكن هذا التعريف النظري لم يطبّق عمليّاً في أيّة دولة من الدول الاتحادية القائمة . فالولايات المتحدة الأميركيّة لم تكن وليدة اتفاق دول ذات سيادة ، أي أن الولايات التي يتألّف منها الاتحاد لم تكن يوماً دولاً سيدة كي يصحّ القول إنّها تنازلت عن بعض حقوقها لمصلحة الاتحاد . ويمكن القول إن الولايات الأميركيّة لم تؤلّف الدولة الاتحاديّة ، بل كان بعضها من صنع الاتحاد نفسه ، وإن الولايات لم تمارس سيادتها السياسيّة قبل الاتحاد ولا هي مارستها بعد إعلانه ، فهي تمارس الحقوق التي حددت في الدستور وكفلها لها الدستور ، وأضحت مذ ذاك بمثابة امتيازات محليّة .

ولا ينطبق التعريف النظري للدولة الاتحادية انطباقاً تامّاً على ألمانيا وذلك بالرغم من كون الدول التي يتألّف منها الاتحاد قد سبق قيامها كدول إنشاء

هذا الاتحاد . ذلك بأن الريخ الألماني لم يكن وليد اتفاق حر بين الدول الألمانيّة ، ولا كان وليد التعاون فيما بينها على قدم المساواة ، بل كان وليد تفوّق إحداها: بروسيا .

كانت بروسيا أكبر الدول الألمانيّة مساحة ، وأقدرها في ميدان البذل ، فكان بديهيّاً أن تترعّم هي حركة إنشاء الدولة الاتحاديّة ، يضاف إلى ما تقدّم أن السيادة التي كانت تتمتّع بها الدويلات الألمانيّة كانت اسميّة أكثر منها فعلية ممّا يجيز لنا القول إنّها تنازلت للاتحاد عن حقوق ما مارستها قطّ أو مارستها جزئيّاً .

ليس هنا مجال البحث في نشوء الدويلات الألمانيّة وتطورها . ويكفي للتدليل على ضعف تركيب هذه المؤسسات السياسيّة « السيدة » ، أن نذكر أنّها أنشئت لاعتبارات محض سياسيّة وفي أسوإ العهود التي مرّت بالريخ : عهود ضعفه وانهياره .

وعندما أنشأ بسمرك الريخ الألماني أحلّ هذه الحقائق محلّها من التقدير ، فجعل تمثيل دول الاتحاد في مجلس « البوندسرات » متناسباً وأهميّة كلّ منها . ولزم جانب الحكمة والاعتدال في تعزيز سلطة الريخ على حساب الدويلات التي يتألّف منها ، فما أخذ منها إلاّ ما كان الاتحاد بحاجة ماسة إليه ، وحرص في الوقت نفسه على احترام العادات والتقاليد المحليّة . ويظلم بسمرك من يعتقد أنّه اكتفى بهذا القدر اقتناعاً منه بأن الريخ لا يحتاج إلى أكثر منه ليقوم بدوره الكبير في مركب الدولة الاتحادية . لقد آثر المستشار الحديدي مداراة الدويلات الألمانيّة تاركاً للزمن أن يكمل ما بدأه هو ، لأن الطفرة غير مأمونة العواقب ، فدلّل بهذا النهج القويم على بعد نظره وسلامة منطقه . وكان الزمن عند حسن ظنّ المستشار ، فنما الريخ مع الأيّام نموّاً مطرداً على حساب الدويلات الألمانيّة .

وكانت الحرب وكانت الهزيمة وانهيار ألمانيا ، ففقدت الدويلات الألمانيّة

أهميّتها بمجرّد زوال الأنظمة الملكيّة ، ورأينا العديد من هذه « الدول الوهميّة » يتخلّى عن حقّه بالوجود ويندمج في دول مجاورة له أو يتعلّق بأذيالها .

ولئن يكن انهيار النظام الملكي قد سدد إلى طابع الريخ الاتحادي ضربة قاصمة ؛ فقد أجهزت على هذا الطابع الالتزامات التي فرضتها علينا معاهدة الصلح . ذلك بأن الريخ جرد الدول الألمانيّة من صلاحياتها الماليّة عندما فرضت عليه الهزيمة التزامات لا قبل له بحمل عبئها اعتماداً على الوسائل العاديّة المتوفّرة لديه ، ولم يكن تأميم السكك الحديديّة والبريد سوى النتيجة الحتميّة لسياسة التخاذل والتسليم التي نهجها الريخ حيال المنتصرين ، فقد كان بحاجة ماسة إلى المال ليقوم بالتزاماته ، ولتدبر هذا المال وضع يده على موارد البلاد كلّها .

ولكن الريخ ما كان ليستأثر بالسلطة ويجرد الدول الألمانيّة من معالم سيادتها ليتسنى له إرضاء المنتصرين ، لو عرفت الأحزاب الألمانيّة كيف تنهي الحرب نهاية سعيدة ، بدلاً من أن تتجاهل ، والحرب مستعرة الأوار ، حقوق الريخ ومصالحه ؛ لتخدم مصالحها الخاصة .

إن الذين يتباكون اليوم على السيادة المضيعة والحقوق السليبة هم من المرائين الذين يحاولون تغطية مساوئهم . فقد ساهموا مساهمة فعليّة في القضاء على الأسس التي وضعها المستشار بسمرك للدولة الفيديراليّة ، وقاموا الآن يتهمون الريخ بالأنانية ليبرئوا ساحتهم أمام الناخبين . وأنكى من هذا أن الأحزاب المرائية تحاول أن ترد إلى إشراف الريخ على مالية الدويلات الألمانيّة هذه النقمة المتزايدة في الأوساط الشعبيّة على الحكومة الاتحاديّة في برلين .

لا ، لم ينقم الشعب الألماني على الريخ لأنّه انتزع من الدويلات التي يتألّف منها مقوّمات سيادتها ، بل نقم عليه لأنّه لا يجسد إرادته ولا يعبر عن أمانيه . وقد ظلّ الريخ الحالي (ريخ ما بعد الحرب) بعيداً عن قلوب الألمان ، ولئن تكن القوانين الاستثنائيّة والتدابير الإرهابيّة كفيلة بصون

المؤسسات الجمهوريّة ، فإنّها لن تنجح في جعل هذه المؤسسات عزيزة على قلب ألماني واحد .

كيف يراد من الشعب أن يتعلّق بالدولة في وقت يقوم الدليل تلو الدليل على خضوع هذه الدولة خضوعاً تامّاً للقوى الدوليّة التي سبّبت خراب بلادنا وجرّتها إلى هذا المصير المحزن ؟ كان الشعب فخوراً بانتمائه إلى الريخ السابق لأنّه – أي الريخ – كان يوفر أسباب الرخاء وأسباب الطمأنينة في الداخل ويبهر الخارج بمظاهر عظمته وقوته . أمّا الجمهوريّة فإنّها تتخاذل حيال الخارج وتضطهد المواطنين في الداخل ؛ وليس في هذه الظاهرة ما يستوقف المراقب الفطن ، فالدولة القوميّة النشيطة لا تحتاج في الداخل إلى العديد من القوانين لأن المواطنين يحترمونها ويوالونها ويتجنّبون كلّ ما يسيء إلى سمعتها . أمّا الدولة ذات الطابع الدولي أو الأممي فإنّها تفرض السخرة على رعاياها بالقوّة والإكراه وتعاملهم معاملة الأسياد للعبيد . والنظام الحالي في ألمانيا يجدف على الحقيقة عندما يصف رعاياه بأنّهم « مواطنون أحرار » . كان هذا شأن المواطنين في الريخ السابق ، أمّا اليوم فالجمهوريّة تضمّ عبيداً في خدمة الأجنبي ، وليس في هذه الجمهوريّة مواطنون ، ولا هي تملك علماً قوميّاً ، أمّا الرمز الذي اختارته فقد ازدراه الشعب وأبى الاعتراف به .

تجد الدولة الحالية نفسها مضطرة للتجاوز على حقوق الدويلات الألمانيّة لا لاعتبارات ماديّة فحسب ، بل لاعتبارات بسيكولوجيّة . فهي تنهج إلى جانب سياسة قصم الظهور بالضرائب ، سياسة الكبت والتضييق على الحريات ، لأنّها تخشى انفجار النقمة العامة ذات يوم لتستحيل ثورة مكشوفة ، كما تجنح ، شيئاً فشيئاً ، نحو الاستئثار بالسلطة كلّها منتزعة من حكومات الدويلات الألمانيّة البقيّة الباقية من معالم السيادة .

ليس من ينكر أن دول العالم المتمدّن تتجه نحو المركزيّة ، ولن تشذّ ألمانيا . فمن السخف إذن التشبث بسيادة الدويلات في الريخ الألماني بعد أن فقدت هذه

الدويلات أهميتها والمرتكز الأساسي لسيادتها « الملكيّة » . ولا ننسى أن النظام الفيدرالي كان له ما يبرره أيّام كانت وسائط النقل والمواصلات بطيئة . أمّا اليوم فقد اختصر النقل الحديث المسافات الشاسعة وصار بالامكان الانتقال من ميونيخ إلى برلين في بضع ساعات .

الاتجاه نحو المركزيّة هو إذاً تطوّر لا بدّ منه . ولكنّنا نحن الوطنيين الاشتراكيّين نجد أنفسنا مسوقين إلى محاربة مركزيّة تمّ في الوقت الحاضر لمصلحة دولة تسيء استعمال سلطتها . فالريخ الحالي لم يؤمم السكك الحديدية والبريد الخ . . . عملاً بنهج قومي واضح المعالم ، نبيل الأهداف ، ولكنّه اعتمد التأميم وسيلة لتنفيذ شروط المنتصرين والنزول على مشيئتهم .

من أجل هذا يجد حزبنا نفسه في عداد أعداء المركزيّة . وثمّة سبب آخر يجعل هذه المركزيّة غير مرغوب فيها . ذلك أنّها قد تؤدي إلى تقوية نظام حكم كان ولا يزال وبالاً على الأمّة الألمانيّة . ولما كان في رأس أهداف حركتنا القضاء على النظام « الديموقراطي – اليهودي » وإقامة دولة عنصريّة يتوفّر فيها لشعبنا مناخ العمل والإبداع ، فقد قرنا التعاون والأحزاب البافاريّة التي راحت تتبرّم باتّساع صلاحيات الريخ الجديد وتجهر بعدائها للمركزيّة ، مجتهدين في رفع القضيّة إلى مستوى رفيع يجعل منها قضيّة قوميّة وألمانيّة ، وليس كما يريدها « حزب الشعب البافاري » قضيّة محليّة ذات طابع خاص .

يضاف إلى العاملين السالفي الذكر عامل ثالث لا يقلّ عنهما أهميّة . فقد توفّر لدى حزبنا أكثر من دليل على أن اليهود يكمنون وراء جنوح برلين إلى المركزية المطلقة ، وأن ما يسمّونه « التأميم لمصلحة الريخ الألماني » يرمي في الواقع إلى انتزاع المشروعات الكبيرة من الدويلات ليتسنى لليهود وللأحزاب التي يوجّهها اليهود أن يستثمروها على هواهم ويحشروا في مصالحها أتباعهم ومؤيديهم . فبعد تأميم البريد استغنت سلطات الريخ عن موظفي الإدارة القدماء وأحلّت محلّهم أناساً تثق بولائهم للجمهوريّة ، وناطت الإشراف

على عمليّة الاستثمار بـ « خبراء » ثلاثة أرباعهم من اليهود .

بيد أن محاربتنا المركزيّة لا تعني بحال من الأحوال أنّنا نحارب المبدأ نفسه ، فنحن من القائلين بوجوب تخويل الريخ صلاحيات واسعة ، لأنّ الدولة ، بحدّ ذاتها ، ليست في نظرنا أكثر من عرض أو شكل أمّا الجوهر الذي يحتوي عليه هذا الشكل فهو الشعب . وواضح أن مصلحة الدولة يجب أن تخضع لمصلحة الشعب وأن تنسجم معها . ولما كانت النزعات الخصوصيّة لكلّ دويلة من الدويلات الألمانيّة تتعارض ومصلحة الشعب الألماني فنحن نقف في صف الذين يحاربون هذه النزعات ولا نعترف للدويلات بحقوق الدولة ذات السيادة ، ونطالب بمنعها من تبادل الممثلين الدبلوماسيّين مع الخارج ، لأن هذه النزعة الخصوصيّة تفضح في العواصم الأجنبيّة ضعف الريخ وهزاله ، وتغري به الطامعين .

إنّ الدولة القوميّة التي نطمح إلى إنشائها ستكون دولة موحدة ، ولكنها لن تستخدم المركزيّة وسيلة للاستئثار بالمنافع ، ولن تتصدّى للقضاء على ميزات البافاريّين وأبناء الساكس والبروسيّين الخ . . . إنّها ستشجع بقاء ميونيخ مثلاً عاصمة الفن الألماني الرفيع ، وليبزيغ عاصمة العلوم ، ولكنها لن تسمح بأن يكون لبافاريا جيش ذو طابع بافاري وللساكس جيش له لباسه وأعلامه وقادته . . . فالجيش الألماني في الدولة القوميّة يجب أن يظلّ بمعزل عن التيارات الخصوصيّة ، ستجعل هذه الدولة القوميّة بوتقة تنصهر فيها النزعات المختلفة ، فينسى الجندي البافاري أن له وطنين : بافاريا الوطن الأصغر والريخ الوطن الأكبر ، ويعتزّ بانتسابه إلى الأمّة الألمانيّة .

قلت إن الحزب الوطني الاشتراكي هو ضدّ مركزيّة تتمّ لمصلحة الريخ الحالي . ولكن حزبنا يرحّب بكلّ خطوة تخطوها الجمهوريّة نحو إخضاع تنظيم الجيش للمركزيّة . أليس من العار أن يستبقى المجندون البافاريون في ثكنات ميونيخ وأبناء وارتمبورغ في ثكنات شتوتغارت وأبناء إمارة فرنكوني

في ثكنات نورمبرغ ؟ أليس من الأفضل أن يتاح للبافاري زيارة بلاده ، فيتفرّج تباعاً على رينانيا ووستفاليا ومنطقة بحر الشمال ؟ وأن نتيح لابن هامبورغ التفرّج على الألب ولابن بروسيا الإقامة بعض الوقت في ميونيخ ؟

إن الدولة التي نطالب لها بالمركزيّة هي التي تكمل ما بدأه بسمرك دون أن تتعرّض للطابع المميّز لكلّ جزء من أجزاء الوطن الألماني ، والتي تحمل هذه الأجزاء ، بسياستها القوميّة الناجحة ، على التنازل لها بملء اختيارها عن آخر حقّ من حقوق السيادة .

هذه الدولة ستكون الدولة العنصريّة التي تسود فيها العقيدة الوطنيّة الاشتراكيّة .

يتهمنا غلاة الانفصاليّين في بافاريا أنّنا نعمل لمصلحة برلين ، ويتهمنا الحمر أنّنا انعزاليّون متعصبون ، وتتهمنا برلين بالوقوف حجر عثرة في طريق المركزية التي تصبو إليها . إن الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة لا تخدم مصالح الانفصاليّين ولا مشاريع برلين وخططها . إنّها حركة قوميّة تهزأ بالحدود المصطنعة والنزعات المفتعلة لأنّها ندبت نفسها لتحقيق الوحدة الألمانيّة والسير بالأمة الواحدة قدماً نحو مراقي المجد والعظمة .

هتلر والحركة النقابية

الفصل العشرون
الدعاوة و التنظيم

كان للعام ١٩٢١ معنى خاص بالنسبة إليّ وإلى الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة. فبعد انضمامي إلى حزب العمال الألماني بأشهر معدودة اضطلعت بمهمة تنظيم الدعاوة للحزب وتوجيهها ، وقد أدركت منذ اللحظة الأولى أنّ مهمّتي تتعدى التنظيم ، من حيث هو عمل إداري تخطيطي ، إلى نشر الفكرة نفسها ، وأنّ الدعاوة يجب أن تسبق التنظيم وتجمع حول الفكرة أكبر عدد ممكن من الناس . ولم أتحوّل عن هذا الرأي فيما بعد اقتناعاً مني بأن الترتيبات المرتجلة لا يمكن أن تنبثق منها منظمة حيّة ، لأن المنظمات تستمد وجودها من كائن عضوي ينمو نمواً طبيعيّاً مطرداً .

عندما يتبنّى فكرة ما فريق من الناس نراهم ينزعون إلى الانتظام في جمعيّة أو عصبة أو حزب ، ولهذا التطوّر قيمته الكبيرة ، ولكن يغلب أن تلمع في المنظمة شخصيّة آتتها الظروف فتحاول أن تقطع الطريق على العناصر الجديدة المؤهلة للزعامة ، لتفرض نفسها ، والحركة في مستهلّها ، قائداً للحركة وموجهاً لها . وهذا الاستئثار ، قبل انتشار الفكرة الانتشار الكافي ، يفضي في الغالب إلى أسوإ النتائج ويكون وبالاً على الفكرة والحزب الذي يعتنقها .

من هنا وجوب نشر الفكرة أوّلاً حتى إذا تضخم العتاد البشري الملتف حولها أمكن البحث عن الرؤوس المؤهلة للزعامة وامتحانها . يخطىء من يظن أنّ التشبّع بالعلوم النظريّة كاف لأن يؤهّل المرء لاحتلال المركز الأوّل ، فكبار المفكرين قلّما ينجحون في حقل التنظيم ، لأن عظمة المفكّر وواضع

المنهاج تقوم على المعرفة وسنّ الشرائع العادلة ، أمّا المنظم فيجب أن يكون رجلاً عمليّاً ، عارفاً بنفسيّة البشر ، يعالج القضايا على أساس موضوعي ، ولا يسقط من حسابه ، في محاولته إنشاء منظمة حيّة ، الضعف البشري والنزوات الحيوانيّة .

يندر أن يتحلّى صاحب فكرة بمؤهلات الزعامة . ولكنّنا نجد الزعماء أكثر ما نجد ، في صفوف المحرّضين الذين يكونون أعرف بنفسية الجماهير ، بفضل احتكاكهم بها ، من المفكرين أو النظريين المنطوين على أنفسهم ، المستغرقين في التأمّل بمعزل عن الناس . ذلك بأن التوجيه والقيادة معناهما تحريك السواد ، فموهبة توليد النظريات والمبادىء لا تؤهل حتماً صاحبها للزعامة . لقد أجهد فريق من المتناظرين أنفسهم في جدل عقيم حول المسألة التالية : أيّهما يستحق شكر الإنسانيّة : صاحب الفكرة أم منفذها ؟ وقد فات المتناظرين أن أسمى الفكر تظلّ بدون قيمة إذا لم يقيّض لها الزعيم الذي يمكنه أن يؤلّب الجماهير حولها ، وأن أقدر الزعماء وأرجحهم عقلاً يظلّ عاجزاً عن توجيه حركة لا يحدّد أهدافها رجل فكر . وإذا اتّفق واجتمع في شخص رجل الفكر والمنظم والزعيم (الفوهرر) — وهذا نادر — انبثق من اجتماعهم الرجل العظيم .

قلت إنّي انصرفت إلى تنظيم الدعاوة بعد انضوائي تحت لواء الحزب . وقد وضعت نصب عيني توفير نواة العتاد البشري الذي يصلح أساساً للعمل المنظم . وبعد توفر النواة تألفت العناصر الأولى المنظمة ، فصنفناها فئتين : فئة الأنصار وفئة الأعضاء . وصار على الدعاوة أن تحشد الأنصار ، أمّا المنظمة نفسها فقد عملت على كسب الأعضاء . والفرق بين النصير والعضو هو أن أوّلهما يوافق على مبادىء الحركة وأهدافها ، أمّا العضو فهو الذي يناضل في سبيل الحركة .

تعمل الدعاوة على استمالة النصير أمّا العضو فيتعين عليه أن يعمل من

تلقائه على كسب الأنصار للحركة ، ومن هؤلاء الأنصار تختار المنظمة أعضاء جدداً . ولا يطلب من النصير أكثر من اعتناق الفكرة أما العضو فعليه أن يمثلها عمليّاً ويدافع عنها ، وينشرها . ولهذا كان الأعضاء في حركة أو منظمة قلّة وكان الأنصار كثرة طاغية .

كان على الدعاوة التي عهد إليّ بتنظيمها وتوجيهها أن تؤلب الأنصار حول الفكرة ، على أن تختار الحركة العدد اللازم من الأعضاء بين هؤلاء الأنصار ، ولم يكن على الدعاوة أن تجهد نفسها في غربلة المناصرين وتصنيفهم تبعاً لدرجة تحصيل كلّ منهم وذكائه ومعرفته . فهذا التصنيف تتولاّه المنظمة نفسها مستخرجة من الأنصار العناصر التي يمكنها أن توجه الحركة نحو النصر .

• • •

تسعى الدعاوة لنشر فكرة ما في أوساط الشعب كافة ، أمّا المنظمة فإنّها لا تدخل في ملاكها إلاّ الذين لا يستطيعون ، لأسباب بسيكولوجيّة ، الوقوف حجر عثرة في طريق انتشار الفكرة .

• • •

تدخل الدعاوة في ذهن السواد فكرة ما وتعمل على ترسيخها لتعد هذا السواد ليوم النصر . أمّا المنظمة فإنّها تناضل في سبيل النصر معتمدة على فريق من أنصارها يتحلّى بالشجاعة والإقدام ونكران الذات .

• • •

بقدر ما تنجح الدعاوة في استمالة الأنصار يسهل انتصار الفكرة التي تعمل على نشرها . بيد أن انتصارها يظلّ رهناً بحسن تنظيم الهيئة التي يعود إليها قيادة النضال .

• • •

لا يتضخّم عدد الأنصار مهما نما وازداد . أي أنّ الحركة تظلّ بحاجة إلى مناصرين بالغاً عددهم ما بلغ ، ومتى قيّض للدعاوة أن تقنع شعباً كاملاً

يمكن المنظمة أن تستغلّ هذا النجاح بقبضة من الرجال . فكلّ خطوة موفقة تخطوها الدعاوة تجعل ممكناً خفض عدد الأعضاء العاملين ، أمّا إذا أخفقت الدعاوة فالحركة لا تنمو ما لم تكن المنظمة واسعة النطاق . وزيادة في الإيضاح أقول : إذا قلّ عدد الأنصار وجبت زيادة عدد الأعضاء العاملين ، والعكس بالعكس .

• • •

أوّل واجبات الدعاوة هو اجتذاب الناس إلى الحركة ، وأوّل واجبات المنظمة هو كسب الناس ليتابعوا الدعاوة . وثاني واجبات الدعاوة هو إثارة النقمة على الوضع الراهن وإقناع الناس باعتناق العقيدة الجديدة ، أمّا ثاني واجبات المنظمة فهو الكفاح من أجل القوّة لاستخدامها في تقويض أسس الوضع الراهن وانتصار العقيدة الجديدة .

• • •

يكتب الفوز لحركة ثوريّة إذا مهد لها بتعليم الشعب كلّه مفهوماً جديداً للكون والحياة ، أو بفرض هذا المفهوم فرضاً عند الاقتضاء ، وإذا ضمت المنظمة المركزية ، أي الحركة ، أقلّ عدد ممكن من الرجال الذين تؤهلهم كفاءتهم للقيادة والتوجيه .

ولزيادة الإيضاح أقول :

في كل حركة ذات رسالة انقلابيّة ، يتعيّن على الدعاوة أن تنشر مبادىء الحركة وتشرحها وترسخها في أذهان الناس ، أو تسعى على الأقل لزعزعة العقائد القديمة . ولما كانت الدعاوة بحاجة إلى مرتكز قوي فإن المنظمة القوية هي التي توفر لها هذا المرتكز . وعلى المنظمة أن تختار أعضاءها في صفوف الأنصار الذين جذبتهم الدعاوة إلى تلك الحركة الجديدة . ويشتدّ ساعد المنظمة بإقبال الناس على اعتناق الفكرة كما تتسع دائرة نشاط الدعاوة عندما يكون وراءها منظمة قويّة .

• • •

ينبغي للمنظمة أن تحول دون قيام خلافات بين أعضائها من شأنها إحداث شقاق يفضي إلى إضعاف الحركة ، وأن تسهر على بقاء روح الكفاح متقد الجذوة ، يتجدد ويقوى يوماً بعد يوم . ولتحقيق هذا الغرض المزدوج ليست المنظمة في حاجة إلى زيادة مطردة في عدد أعضائها . فالحزم والإقدام هما من شيم القلّة المختارة ، وفي التاريخ أكثر من شاهد على ما آلت إليه الحركات التي نمت بسرعة من ضعف وتفكّك ، لأنّها فتحت ذراعيها ، بعد نجاحها ، للذين رفضوا ، قبل هذا النجاح ، الاعتراف بها صراحة .

إن الحزب ذا الرسالة الانقلابيّة يفقد طابعه الثوري يوم يزداد عدد أعضائه زيادة غير طبيعيّة على أثر إحرازه انتصاراً حاسماً . لأن الجبناء والأنانيّين الذين يقفون من الحركة موقف اللامبالاة وهي في إبان الكفاح المرير ، يتسابقون إلى خطب ودّها بعد انتصارها ، فإذا فتحت لهم ذراعيها أمكنهم مع الأيّام أن يحوّلوها عن أهدافها ليسخروها في خدمة مصالحهم الخصوصيّة .

لهذا كان في مقدمة ما عنيت به هو إقناع رفاقي بضرورة إقفال باب الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة في وجه الجمهور لدى إحرازها أول انتصار حاسم ، ليتسنى لها الحفاظ على النواة الأساسيّة السليمة والخيّرة التي يجب أن تتفرّد بالقيادة والتوجيه ، وأن تقوم بالخطى اللازمة لتحقيق أهداف الحركة .

• • •

عملت ، بصفة كوني مديراً للدعاوة في الحزب ، على إعداد الأفكار للحركة الوطنيّة الاشتراكيّة ، وسهرت في الوقت نفسه على إقصاء العناصر المائعة والمتردّدة والخائفة عن اللجان التنفيذيّة والهيئات العاملة . وقد اعترف لي المئات من الأنصار بأنّهم مع الحركة قلباً وقالباً ولكنّهم يفضّلون أن يبقوا في الظلّ لأن عضويّة الحزب قد تسبّب لهم متاعب هم بغنى عنها . ولو أنّنا فتحنا باب العضويّة أمام هذا الفريق من الأنصار المتردّدين ، لقضينا على الحركة في المهد ، ولمسخناها أخويّة تقويّة ، لا حول لها ولا طول .

وقد ترتّب على إعطائي الدعاوة شكلاً نضاليّاً حيّاً إظهار الوطنيّة الاشتراكيّة بمظهر الحركة ذات النزعة المتطرّفة ، ممّا استبعد من طريقها الاتكاليين والوصوليين والانتهازيّين وضعفاء النفوس ، وجعل عضويتها وقفاً على المتحلّين بالجرأة والإقدام .

وفي صيف ١٩٢١ حاول فريق من العنصريّين النظريّين ، بالاتفاق مع رئيس الحزب ، وضع أيديهم على الحركة والانحراف بها عن غايتها ، فأحبطنا المحاولة وانتخبتني الجمعيّة العموميّة للأعضاء رئيساً للحركة وأطلقت يدي في العمل . وفي الوقت نفسه وافقت الجمعيّة العموميّة على مشروع نظام جديد يخول الرئيس الصلاحيات المطلقة ويحد من اختصاصات اللجان والهيئة المركزية (مكتب الحزب) . وقد دشنت عهدي بإعادة تنظيم البيت ، لأن الحركة كانت قد تبنّت الأنظمة التقليديّة ووزعت السلطة توزيعاً ضاعت معه المسؤوليات . ففي العامين ١٩١٩ — ١٩٢٠ تولت إدارة الحركة لجنة انتخبتها مجالس الأعضاء . وكانت اللجنة تتألّف من رئيس ورئيس ثان ، وأمين صندوق وأمين ثان ، وأمين سرّ ومعاون له . يضاف إلى هؤلاء جميعاً لجنة من الأعضاء ورئيس الدعاوة وآخرون . . .

كانت اللجنة صورة مصغّرة لما ندبت الحركة نفسها لمحاربته : عنيت النظام البرلماني . فقد كانت اجتماعاتها نسخة طبق الأصل عن جلسات البرلمان : القرارات تتّخذ بالأكثريّة ، والمسؤوليّة ضائعة ومثلها المؤهلات .

كان للجنة أمناء سرّ وأمناء صندوق وهيئة لتنشئة الأعضاء الجدد وهيئة للدعاوة الخ . . . وكان هؤلاء جميعاً يشتركون في دراسة المسائل ويصوتون عليها . وهكذا كان الرجل المكلّف إدارة الدعاوة مثلاً يصوت على القضايا الماليّة وأمين الصندوق يصوت على شؤون الدعاوة والتنظيم . . .

لقد انتقدت هذه الفوضى وأنا بعد عضو عادي ، وبعد تكليفي شؤون الدعاوة انقطعت عن حضور الاجتماعات ، ومنعت أعضاء اللجنة من التدخل

في الحقل الذي أفردته الحركة لنشاطي .

وما إن انتخبتني الجمعيّة العموميّة رئيساً أوّل وخوّلتني الصلاحيات اللازمة بموجب النظام الجديد للحركة حتى وضعت حدّاً للفوضى السائدة ، وحصرت المسؤوليات في شخصي . ومنذ شهر أيلول ١٩٢١ أصبح الرئيس الأوّل مسؤولاً عن سير الحركة : يوزع المهام على أعضاء اللجنة ويختار معاونيه ويوجّه نشاطهم ، ويعتبر كلاً منهم مسؤولاً تجاهه عن المهمة الموكولة إليه ، وسرعان ما ألفت الحركة مبدأ المسؤولية المطلقة ، أمّا القلائل الذين برموا بالوضع الجديد فقد أخرجتهم من الحزب وعمّمت على الفروع وجوب إخراج كلّ عضو يحنّ إلى مبدإ الأكثريّة ، فالحركة التي ندبت نفسها لمحاربة البرلمانيّة ينبغي لها أن تبدأ بالتحرّر ممّا تريد تحرير البلاد منه . وقلت في خطاب لفظته في الجمعيّة العموميّة للأعضاء إن حركة تقوم في عهد يسود مبدأ الأكثريّة على مبدإ مسؤوليّة الفوهرر ، هي حركة مؤهلة لكنس الأوضاع القائمة وإنشاء نظام جديد يصلح ما فسد .

عندما انضممت إلى الحزب في خريف ١٩١٩ ، كان عدد الأعضاء المؤسّسين ستّة . ولم يكن للحزب مكتب ولا موظفون حتى ولا قرطاسيّة ، وكانت اللجنة المؤسّسة تعقد اجتماعاتها تارة في حانة وطوراً في مقهى ، فرحت منذ اليوم الأوّل لانضمامي إلى الحركة أبحث عن قاعة تصلح لأن تكون مكاناً لعقد الاجتماعات . وكان عليّ أن آخذ بعين الاعتبار حالة الحزب الماليّة فلا أتوسّع في الإنفاق ، فوقعت في حانة سترنيكر بشارع « تال » على حجرة كانت ملتقى مستشاري « الأمبراطوريّة المقدسة » في بافاريا كلّما عنّ لهم أن يعقدوا اجتماعاً سرّيّاً .

كانت الحجرة مظلمة ، تطلّ نافذتها الوحيدة على زقاق ضيّق ، وكنّا في اجتماعاتنا النهاريّة نلقى بعض الصعوبة في تبين طريقنا إلى الباب . ولم يكن بالإمكان استئجار مكان أصلح لأن حالة صندوق الحزب لا تشجع على مثل

هذا . ومع هذا كان ما حققناه في هذا الحقل خطوة لا بأس بها ، ولم يمض طويل وقت حتى امتدت الأسلاك الكهربائية إلى الحجرة ومثلها أسلاك الهاتف وتبرع بعض الرفاق القادرين بثمن طاولة وبضعة عشر كرسياً وخزانة صغيرة. ولما لم يكن للحزب موظفون يصرفون الشؤون العادية ، فقد اقترحت تعيين أمين سر ، ووقع اختيارنا على شوسلر ، وهو جندي قديم ومن أصدقائي ، ليضطلع بأعباء هذه المهمة ، دون أن ينفك عن عمله . فبدأ بغشيان مكتب الحزب ساعتين في اليوم ، من السادسة إلى الثامنة صباحاً . ثم ازدادت مشاغله كأمين سر تبعاً لازدياد نشاط الحزب واتساع نطاق الحركة ، فانقطع عن عمله الخاص ليقف نشاطه على خدمة الحزب ، واستعان في مهمته بآلة ناسخة كان يملكها فاشتراها الحزب بأموال التبرعات واشترى في الوقت نفسه صندوقاً حديدياً لحفظ الإضبارات والوثائق ذات الأهمية .

وفي أواخر ١٩٢٠ استأجرنا مكتباً جديداً في شارع كورنبوس يتألف من ثلاث غرف وقاعة كبيرة . وفي كانون الأول من العام نفسه أخذ الحزب الوطني الاشتراكي على عهدته إصدار جريدة « فولكيشر بيوباختر » التي كانت تجهر بالعطف على النزعة العنصرية ، وقد بدأنا بإصدارها نصف أسبوعية ، وفي مطلع ١٩٢٣ أصدرناها يومية وبحجم كبير . ولكن « الفولكيشر بيوباختر » كانت الجريدة العنصرية الوحيدة في بلد تتلاعب بعقول سكانه الصحافة اليهودية المضللة . وقد شعرت منذ اللحظة الأولى لانتقال الجريدة إلى عهدة الحزب أنها أضعف من أن تواجه حملات الصحف المعادية وأن تجاريها في مضمار الرواج والانتشار ، ومرد هذا الضعف إلى ضؤولة إمكاناتنا وقصر نظر القائمين على إدارة الصحيفة . فقد توهم هؤلاء أن جريدة الحزب يجب أن تعيش بوسائلها الخاصة ، أي بما يدخل صندوقها من بدلات الاشتراك وأجور الإعلانات . أما أنا فقد اعتبرت الجريدة منذ اللحظة الأولى مشروعاً تجارياً ، وما زلت باللجنة المركزية حتى حملتها على تبني وجهة نظري ،وعملت

من ثمّ على اختيار مدير تجاري للفولكيشر بيوباختر . وشاءت العناية أن تضع في طريقي رئيسي في خط النار « ماكس أمان » وهو رجل ذو مواهب تنظيمية من الطراز الأوّل ، وكان الحزب يجتاز مرحلة دقيقة ويعاني أزمة ماليّة خانقة . فناشدته إدارة شؤون الحزب الماليّة والتجاريّة ، فوافق بعد تردّد طويل ، لأنّ مشروعاته الخاصّة المزدهرة كانت تستغرق أوقاته كلّها ،ولكنه اشترط للاضطلاع بالمهمّة أن تطلق يده في العمل ، فلا تتدخّل اللجنة فيما يعود إلى اختصاصه .

وقد تولى ماكس أمان في الوقت نفسه إدارة جريدة الحزب تجاريّاً ، وما هي إلاّ ثلاثة أشهر حتى كانت ماليّة الحزب قد انتظمت على أساس تغطية النفقات العاديّة بالعائدات العادية ، وإنفاق الدخل الاستثنائي في الوجوه الاستثنائيّة . ونظم ماكس العمل كما لو كان الحزب مشروعاً استثماريّاً فأقصى من الوظائف (في الحزب والجريدة) العناصر التي تعوزها الكفاءة والإخلاص ، واستعان في بعض حقول النشاط بكفاءات غريبة عن الحركة ولكنها منسجمة معها . وقد ثار بعض المسؤولين في اللجنة على هذا الاتجاه فما أبه ماكس لثورتهم ، وكانت حجته أن مجرّد الانتساب إلى الحركة لا يؤهل المنتسب لأداء مهام هو غير كفؤ لها . إلاّ أنّ هذا لم يمنعه من إخراج الغرباء حالما يتقدّم للحلول محلّهم وطنيّون اشتراكيّون تتوفّر فيهم الشروط المطلوبة .

وبفضل حزم المدير التجاري للحركة اجتاز الحزب الأزمة المالية بسلام وازدهرت « الفولكيشر بيوباختر » وقفزت إلى مصاف الجرائد الرئيسيّة في بافاريا ، وبعد انتخابي رئيساً للحركة تحرّر ماكس أمان نهائيّاً من ضغط اللجنة وتدخلاتها ، لأن النظام الجديد وزع الاختصاصات توزيعاً انتفى معه تشابك الصلاحيات ، وأضحى كلّ عضو مسؤولاً عن سير العمل في الحقل العائد إليه . وعندما حلّت السلطة الحزب في التاسع من أيلول ١٩٢٣ وصادرت أمواله وممتلكاته بما فيها جريدة فولكيشر بيوباختر بلغت قيمة هذه الممتلكات ١٧٠ ألف مارك ذهبي .

الفصل الحادي والعشرون

الحركة النقابية

ألجأنا نموّ الحركة في بحر العام ١٩٢٢ إلى تحديد موقفنا من مسألة لم تظفر إلى يومنا بالحلّ النهائي .

ففي بحثنا عن الأساليب القمينة بشقّ الطريق أمام حركتنا لتغزو قلوب السواد كنّا نصطدم باعتراض لا سبيل إلى إنكار وجاهته : لا يسع العامل أو أي كادح آخر ، أن ينذر نفسه للحركة ما دام تمثيل مصالحه في الحقـل الاقتصادي والمهني في عهدة أناس تختلف آراؤهم السياسيّة عن آرائنا .

ذلك بأن أي كادح أو ذي حرفة لا يمكنه أن يمارس عملاً خارج الإطار النقابي ، فضمن هذا الإطار يطمئن إلى توفّر الحماية له ولحرفته . وعند نشوء حركتنا كان ثمانون بالمئة من العمال وأرباب الحرف منتظمين في نقابات وجمعيات تعاونيّة ، ناضلت نضالاً مجيداً في سبيل رفع معدلات الأجور وخفض ساعات العمل .

وقد وقف البورجوازيون ، أحزاباً وأفراداً ، من الحركة النقابيّة في أوّل الأمر موقف المتفرّج الذي لا يعنيه من الأمر شيء ، فلمّا اشتد ساعد النقابات وتلاعبت بها أصابع الماركسيّين انبرى البورجوازيون لمحاربتها على الصعيد النظري البحت ، بدلاً من أن يعالجوا هذه الظاهرة بروح إيجابي ويحاولوا استمالة الحركة الجديدة إلى جانبهم ليستخدموها في محاربة الماركسية وتقليم أظافرها .

وقد دافعت في جزء سابق عن الحركة النقابيّة واعترفت بحقّ الطبقة الكادحة في التكتّل والدفاع عن مصالحها وحقوقها ما دام هناك أرباب عمل

أنانيون لا يقيمون وزناً لغير مصالحهم . ولم يتبدّل رأيي مذ ذاك لأن عقليّة أرباب العمل لم تتبدّل ، وقد كان على الحزب أن يحدّد موقفه من هذه المسألة قبل أن يبذل أولى محاولاته الجديّة لاستمالة العمال ، ولا سيما النقابيّين.

كان علينا أن نفصل في القضايا الآتية :

١ ـ أيكون قيام النقابات ضروريّاً ؟

٢ ـ أينبغي للحزب النازي أن يعتبر نفسه هيئة تعاونيّة أم يحسن به أن يعمل على إدخال أعضائه إطاراً نقابيّاً معيّناً ؟

٣ ـ إذا أنشأ الحزب نقابة محض نازية ، فما عساها تكون أهداف النقابة وواجباتها ؟

أعتقد أنّي بسطت رأيي في المسألة الأولى ، عندما اعترفت بأن الأوضاع الراهنة تجعل قيام النقابات ضروريّاً وأكثر من ضروري . فالمؤسّسات النقابيّة تأتي في طليعة المؤسسات ذات الأثر في حياة الأمّة اجتماعيّاً واقتصاديّاً ، لأن شعباً يؤمن لسواده حاجاته الحيويّة وقدراً من التربية في نطاق مؤسسة نقابية معترف بها ـ إن شعباً هذا شأنه يخوض غمار معركة البقاء بقوى روحيّة وماديّة تكفل له الغلبة .

ولا ننسى أن النقابات تشكل حجر الزاوية في صرح البرلمان الاقتصادي الذي يجب أن تؤلفه في الدولة العنصريّة الغرف التجاريّة والاقتصاديّة .

إنّ الاعتراف بضرورة قيام الحركة النقابيّة يجعل المسألة الثانية سهلة الحلّ . فالحركة النازية (وقد سميناها كذلك منذ ١٩٢٣) التي وضعت نصب عينيها إنشاء الدولة العنصريّة لن تسمح بقيام مؤسسات على هامش هذه الدولة ، بل ستحرص على انبثاقها جميعاً من صميم الدولة . بيد أن حركتنا لن تقع في الخطإ الذي وقع فيه سواها ؛ فتحاول إعادة تنظيم الأجهزة قبل أن تتوفّر لديها عناصر التنظيم ، فالقيام بخطوة حاسمة في هذا السبيل يجب أن تسبقه تنشئة احتياط من الرجال المتشبعين بالفكرة . نعم يمكن فرض مبادىء زعيم

أو دكتاتور على جهاز اجتماعي ما ، ولكن هذه المبادىء تظلّ مشلولة إذا لم يعتنقها عتاد بشري منخوب ومجرب وقادر على تحقيق فكرة الفوهرر .

لن ترتكب النازية الخطأ الذي ارتكبته أحزاب العهد الجديد – العهد الجمهوري – . فقد خيل لهذه الأحزاب أنّ مجرّد سنّها دستوراً جديداً للبلاد يوفر للدولة معالم الاستقرار والبقاء . وقد رأيناها ترتجل دستور « فيمار » ارتجالاً وتقدمه هدية إلى الشعب الألماني ، ثمّ رأيناها تهدم المؤسسات القائمة لتشيد على أنقاضها مؤسسات جديدة تتوكأ عليها الدولة كمرتكزات لسلطتها .

سيكون للدولة النازية مؤسساتها ولكنها لن ترتجل هذه المؤسّسات لأنّ الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة لن تبنى على الرمال ، فهي تنظم نفسها منذ الآن كما لو كانت دولة بمفهوم الكلمة الأصيل . وكلّ مؤسسة نازية تبصر النور بعد اليوم هي نواة لمؤسسة مدعوة ، فيما بعد ، لأن تكون إحدى الدعائم التي ترتكز عليها الدولة النازية ، وهكذا تستحيل حركتنا بمنظماتها ومبادئهـا ومفاهيمها المؤسسة الكبرى التي نعتبر تحقيقها المبرر الوحيد لقيام حزبنا .

من أجل هذا ينبغي للحركة النازية أن تنظم نفسها على أساس تعاوني ،أو أن تؤسّس تعاونيات نازية قلباً وقالباً ، وينبغي لها كذلك أن تربي العمال وأرباب العمل تربية نازية مزينة للفريقين التعاون المتبادل ضمن إطار المصلحة المشتركة ، فبدون هذا التقارب يظل السعي في سبيل بعث الجماعة الشعبيّة كتابة على ماء ...

بقيت المسألة الثالثة .

لن تكون التعاونيّة أو الحركة النقابية النازيّة جهاز نضال طبقي . ستكون جهازاً للتمثيل الحرفي . فالدولة النازية لا تعترف بأية طبقة ، ولكنها تعترف ،من الوجهة السياسيّة فقط ، بوجود بورجوازيّين متساوين في الحقوق والواجبات العامة وبوجود رعايا لا يتمتعون من الوجهة السياسيّة بالحقوق المعترف بها للمواطنين .

التعاونيّة بمفهومها الوطني الاشتراكي أو النازي ليست أداة نضال ، إنّها لكذلك في يد الماركسيّة التي استخدمتها في الصراع الطبقي أداة لتفكيك عرى

الرابطة الشعبيّة ، واستخدمتها اليهودية العالميّة في الوقت نفسه في تقويض أسس الاقتصاد القومي لكلّ دولة مستقلّة ليتسنّى لها استعباد الشعوب الحرّة .

لن يكون الإضراب ، بالنسبة إلى النقابات النازية ، وسيلة لتخريب الإنتاج القومي ونسف أسسه ، بل سيكون من بواعث ازدهاره ونموّه بفضل نضال النازية ضدّ العوامل المصطنعة التي تفوّت على الاقتصاد القومي فرصة الإفادة من نشاط السواد .

ينبغي لنا أن نرسخ في ذهن العامل النازي أن ازدهار الاقتصاد القومي يتيح له أن يرتع بالبحبوحة الماديّة .

ينبغي لنا أن ندخل في روع ربّ العمل النازي أنّ ازدهار مشروعاته يتوقّف ، إلى حد كبير ، على اطمئنان عماله إلى مستوى معيشتهم وارتياحهم إلى وضعهم .

في الدولة النازية يمثّل أرباب العمل والعمال الشعب الألماني في الحقل الذي يمارسون فيه نشاطهم ، ويستمتعون بقدر كافٍ من الحرية الشخصيّة ، لأنّ إنتاج الفرد يزداد إذا أُطلقت يده في العمل في الحدود التي ترسمها المصلحة العامة .

أمّا حقّ الإضراب فبديهي أن تنكره الدولة النازية على النقابات ما دامت توفر للعامل أسباب الرفاهية والطمأنينة ومناخ الحرية الذي يصبو إليه . ولكن الإضراب يصبح واجباً ، بل من أقدس واجبات التعاونيات النازية ، يوم تتجاهل الدولة – نازية كانت أو غير نازية – حقوق الكادحين وتنصب نفسها حامياً لمصالح أرباب العمل .

إن المنازعات التي تحمل اليوم ملايين البشر على التناحر والاقتتال يجب أن توجد لها التسويات العادلة غداً الهيئات الحرفيّة والبرلمان الاقتصادي المركزي الذي سيضم في الدولة النازية ممثلين عن أرباب الصناعة والتجارة وممثلين عن النقابات . وبقيام هذه المؤسسات يجب أن يزول التناحر بين

البروليتاريا وأرباب العمل ، ويكف العمال عن النضال في سبيل الأجور وخفض ساعات العمل ، ليتولى ممثلوهم المعترف لهم بهذه الصفة حلّ هذه المعضلة بالاشتراك مع ممثلي الفريق الآخر وذلك لمصلحة الفريقين التي لا يمكن أن تتعارض ومصلحة الدولة .

ولكن كيف السبيل إلى إنشاء تعاونيات تتوفر فيها الشروط التي أسلفنا ذكرها ؟

إن حفر الأساس في أرض طليقة أو بكر هو على العموم أيسر من حفره في أرض سبق استعمالها للغرض نفسه . وليس أسهل من فتح حانوت في محلة لا حوانيت فيها ، ولكن المشروع يصبح مغامرة إذا فتح الحانوت في محلّة تشكو التخمة ، وكانت الحوانيت أو بعضها تعرض أصنافاً واحدة ، ففي هذه الحالة يتعيّن على الجديد أن يثبت وجوده وأن يسعى لإزالة المزاحم من طريقه . وقيام نقابة نازية إلى جانب نقابات غير نازيّة لن يؤتي ثماره ، لأنّ هـذه النقابات لا تعرف معنى التسامح حتّى حيال المؤسسات الصديقة ، ولا تدخر وسعاً في سبيل القضاء عليها ليخلو لها الجو ، وقد وجدت حركتنا نفسها أمام طريقتين :

١ ـ إنشاء تعاونيّة نازيّة ومحاربة النقابات الماركسيّة القائمة .

٢ ـ التسلّل داخل النقابات الماركسيّة ونشر مبادىء حركتنا في صفوف النقابيّين بغية تجنيدهم حماة لمثلنا .

لم يكن حزبنا في وضع مالي يمكنه من اعتماد الطريقة الأولى . وكان تدهور النقد الألماني تدهوراً مطرداً من العوامل التي لا تشجع الحزب على التلويح بفوائد مادية للذين تمكن دعوتهم إلى الانتظام في تعاونيّة وطنيّة اشتراكيّة بحتة . يضاف إلى هذا العامل الرئيسي عامل آخر لا يقلّ عنه أهميّة ، عنيت افتقار الحركة إلى شخصيّة أو شخصيّات يمكن أن يوكل إليها أمر تنظيم الحركة النقابية الوطنيّة الاشتراكيّة . ولو وجدت هذه الشخصيّة وقيّض لها

القضاء على النقابات الماركسيّة القائمة ونشر الفكرة التعاونيّة النازية – لو وجدت هذه الشخصيّة لحقّ لنا علينا أن نرفعها إلى مصفّ عظماء ألمانيا وأن نقيم لها تمثالاً في كلّ مدينة وقرية .

إن الذين يهيمنون على مقدرات النقابات الماركسيّة ليسوا أفذاذاً ، وحتى الذين أنشأوا هذه النقابات وحددوا لها أهدافها لم يكونوا نوابغ ، ولكننا لا ننسى أن هذه النقابات يوم أنشئت ، لم يكن عليها أن تزيل المنافسين من الطريق ، فمهمة الذين أنشأوها كانت يسيرة هينة . أمّا اليوم فالحركة النازية تواجه عملاقاً راسخ القدم ، واثقاً من قدرته على الكفاح .

إن القلعة التعاونيّة الماركسيّة يمكن أن يدبر شؤونها اليوم أي رجل عادي ، ولكن لا يمكن اقتحام أسوارها بهجوم عادي ، ولا بدّ لبلوغ هذا الغرض من تسليم زمام القيادة إلى رجل عبقري ، متّصف بالحزم والإقدام . فإذا لم يوجد هذا الرجل فباطلاً نجهد أنفسنا وعبثاً نحاول قلب الوضع الراهن .

أليس العدول عن مشروع أفضل من تحقيقه ناقصاً لعدم توفر الإمكانات ؟

وكان وراء عدم اعتمادنا الطريقة الأولى اعتبارات أخرى أهمّها اقتناعنا جميعاً بأن إقحام الاقتصاد في دائرة نشاطنا النضالي من شأنه إضعاف هذا النشاط . إذ يكفي أن تدخل الدعاوة في روع الألماني أنّه يستطيع بشيء من التقتير على نفسه ، أن يبني بيتاً ، كي يقف اهتمامه على هذه الناحية وينصرف عن السياسة انصرافاً تامّاً ، ويرفض أن يمدّ يده إلى الذين يناضلون في سبيل تقليم أظافر من يسلب المواطنين الماركات التي اقتصدوها .

وكان رأيي في الاجتماعات الحزبيّة أن حركتنا الفتيّة لا تزال طريّة العود ولا يزال طريق الكفاح أمامها طويلاً ، فعليها ، قبل مجابهة الحركات النقابية القائمة ومنازلة الماركسيّة وحلفائها على الصعيد الاجتماعي – الاقتصادي ، أن تعمل على نشر مبادئها ودعوة الناس إلى اعتناق هذه المبادىء ، ولن يحالف التوفيق الوطنيّة الاشتراكيّة ما لم تجنّد لهذه المهمة قواها جميعاً ، أما إذا

وزعت هذه القوى ، وعنيت بالاقتصاد والسياسة معاً ، فإنّها تخسر المعركة في الميدانين .

بقيت الطريقة الثانية وهي ذات اتجاهين : فإمّا أن نوعز إلى الوطنيّين الاشتراكيّين بالانفكاك عن التعاونيات التي هم أعضاء فيها ، أو نأمرهم بالبقاء ليبذلوا حيث هم نشاطاً هدّاماً . وقد اخترت أنا الاتجاه الثاني . وكان رأيي دائماً أن انصرافنا إلى العناية بالحركة التعاونيّة سابق لأوانه ، وأن حلّ المسائل الاقتصاديّة والمعضلات الاجتماعيّة يجب أن يتولاّه حزبنا بعد وصوله إلى الحكم . وعندما أصرّ بعض الرفاق على ضرورة إنشاء تعاونيات نازيّة وجارت الأكثرية هذا الاتجاه حدث الانقلاب في الحزب وانتخبت أنا رئيساً فاستبعدت الفكرة نهائيّاً وأوضحت في نشرة دورية أن تعاونيّة نازيّة مهمتها الوحيدة منافسة التعاونيات الماركسيّة القائمة لن تفيد الحركة شيئاً ، وأن الحزب ، بوضعه المالي الراهن ، لا يستطيع إنشاء التعاونية المؤهلة للوقوف في وجه الحركة النقابية اليسارية ، لأنّه يفتقر إلى المغريات ، من جهة ، ولأن أنصاره من الكادحين لم يتشبعوا بعد بالفكرة الوطنيّة الاشتراكيّة التشبّع الكافي بحيث يفهمون رسالتهم ، كنقابيّين نازيّين ، أنّها كفاح مرير ، لا ضدّ النقابات الماركسيّة كمؤسسات فحسب ، بل كفكرة يجب القضاء عليها .

وفي نشرة دورية أخرى أوضحت أن خصوم حركتنا يرجفون أن الحزب النازي يناصب الحركة النقابية العداء لأنّه رأسمالي النزعة ، وقلت إن الحركة النازية ليست موجهة ضد النقابات من حيث هي مؤسسات تهدف إلى صيانة مصالح العمال ، ولكنها ضدّ الصراع الطبقي وتحارب كل تكتّل نقابي يقوم على هذا الأساس .

• • •

لم تفطن الأحزاب التي قامت بعد الحرب إلى الحقائق المتقدمة ، فحاولت مجاراة الماركسيّين في الحقل النقابي ، وأنشئت بين ١٩١٩ و ١٩٢٢ ستّ نقابات

يمينيّة ونقابتان مستقلّتان ، إحداها نقابة عمال الصناعات الخفيفة . ولكن هذه المؤسسات جميعاً لم تعمر طويلاً ، لأنّها كانت تفتقر إلى التنظيم والمثالية ، ولأن الذين أنشأوها ليستخدموها أداة لمحاربة الماركسيّة قد أساؤوا تقدير قوة الخصم ، فسحقهم سحقاً عندما تحرّشوا به ولم تقم لهم قائمة مذ ذاك .

الفصل الثاني والعشرون

سياسة المحالفات

لم يكن لحكومات الريخ نهج تعتمده في حقل السياسة الخارجيّة ، ولا مبادىء يمكن أن ترتكز عليها سياسة المحالفات التي تتّفق ومصلحة البلاد . وجاءت الثورة فتركت الأمر فوضى ، لأنّه لم يكن من أهداف الماركسيّين واليهود في وقت من الأوقات ، النهوض بالدولة الألمانيّة وتقويتها في الداخل والخارج بنهج سياسة بنّاءة مستوحاة من مصالح الشعب الألماني ، بل كان في طليعة أهداف مجرمي تشرين الثاني ١٩١٨ القضاء على القوى المتجة في ألمانيا وإخضاع البلاد لسيطرة الرساميل الدوليّة . ولم يفت رجال الثورة أن تحرّر الريخ من القيود التي فرضها عليه المتصرون معناه أفول نجمهم هم ، لأن تحرّر البلاد من كلّ سيطرة أجنبيّة يوفّر لها مناخ الحرية الداخلية الذي لا يمكنها بدونه أن تعيد الأمور إلى نصابها بطرد الخونة والمغامرين الدوليّين .

ذلك بأن شعباً ينهض لتحرير نفسه ينمو فيه الشعور الوطني نموّاً عجيباً ، وتتنبّه أفكاره إلى نشاط العناصر اللاقوميّة ، فيحاربها دون ما هوادة ، وتتنفض الشعوب الانتفاضة نفسها كلّما واجهت حرباً كانت فيها في موقف المدافع عن نفسه أو ضغطاً أجنبيّاً يؤدي إلى انفجار الأحقاد الداخليّة ، فيصبّ الرأي العام جام غضبه على العناصر التي تمالىء الأجنبي أو التي تقف حجر عثرة في طريق النهضة القوميّة .

وقد أدركت الطفيليّات التي استغلّت حوادث تشرين الثاني أن اعتماد سياسة محالفات رشيدة من شأنه تقوية الشعور الوطني وإعادة الثقة إلى نفوس الألمان ، فيعيدونها إلى القاع الذي خرجت منه ويخلصون البلاد من شرورها ،

وهذا ما يفسر لنا تعثر السياسة الخارجيّة بعد الحرب وسلوكها السبل الملتوية ، وسوء الإدارة الداخليّة وتجاهلها مصالح الأمّة الحيويّة .

ولم تكن الحكومات وحدها مسؤولة عن هذا الوضع الشاذّ ، فقد شجعها على المضي في تجاهل مصالح البلاد برلمان أكثريته لاقومية وشعب ضرب الرقم القياسي في الصبر وطول الأناة . ولا بدّ من الاعتراف بأن حزبنا ما أولى السياسة الخارجيّة العناية الّتي تستحقها وهو بعد حركة ناشئة تحاول أن تثبت وجودها . وكانت حجته أن تحطيم القيود الّتي فرضها الأجنبي لا يمكن أن يتم قبل القضاء على عوامل الضعف الداخلي وزحزحة الذين يستغلون هذا الضعف . من هنا كان اهتمام حزبنا بالإصلاح الداخلي وإحلاله الشؤون الخارجيّة المرتبة الثانية .

وعندما اشتدّ ساعد الحركة وتضاعف عدد أنصارها وجدت نفسها مسوقة إلى تحديد موقفها من المسائل الّتي كانت تثيرها معاهدات الصلح ، ولكنها لم تكتف بهذا القدر ، بل رسمت الخطوط الكبرى لما يجب أن تكون عليه سياسة ألمانيا الخارجيّة ، دون أن تبتعد عن المخطّط العام الذي ترتكز عليه مفاهيمنا كحركة ذات عقيدة .

كان على حركتنا أن تثقف الشعب وأن ترشد المسؤولين والسواد إلى السبل الّتي ينبغي لشعبنا أن يسلكها ليتسنى له استخلاص حقوقه واستقلاله . وقد وضعنا نصب أعيننا المبدأ الأساسي الآتي : السياسة الخارجيّة هي واسطة لبلوغ غاية سامية ، وهذه الغاية هي خدمة مصالح الشعب . فكل مسألة من مسائل السياسة الخارجيّة يجب أن ينظر إليها من هذه الزاوية : أيكون حلّ القضيّة الّتي نواجه بالشكل المقترح متفقاً ومصلحة شعبنا حاضراً ومستقبلاً ، أم يعود بالضرر على هذه المصلحة ؟

هذا هو الاعتبار الوحيد الذي يجب أن نقف عنده والذي تتضاءل أمامه الاعتبارات الدينيّة والإنسانيّة والعقائد والنزعات الخ . . .

• • •

قبل الحرب كان على سياسة ألمانيا الخارجيّة أن توفّر الغذاء لشعبنا بتمهيد السبل المؤدية إلى هذه الغاية ، وأن توفّر للربح قوة إضافية بنظام محالفات مستوحى من الاختبارات . وقد بقيت المهمّة هي أيّاها بعد الحرب مع الفارق الآتي : قبل ١٩١٤ كان على ألمانيا أن تحافظ على كيان الشعب وتوفّر له مقوّمات البقاء ، مرتكزة على دولة قويّة ومستقلّة ؛ أمّا اليوم فعلينا أن نعيد إلى شعبنا القدرة على بعث الدولة القويّة والحرة ، فبدون بعث هذه الدولة لا سبيل إلى ممارسة سياسة خارجيّة قمينة بأن تصون كيان الشعب وأن توفّر له الغذاء وأسباب النموّ .

وعلى الجملة يتعيّن على سياسة ألمانيا الخارجيّة في الوقت الحاضر أن تهيء للشعب الألماني السبل التي يجب أن يسلكها ليستخلص استقلاله ويستردّ اعتباره وحريته . ولا يعزبن عن بال الذين يثبطون الهمم بآرائهم السخيفة أن وحدة أراضي الدولة ليست شرطاً لنجاح الثورة التحريريّة ، فيكفي أن يتمتّع جزء صغير من الدولة بقدر كاف من الحرية ليتولى إعداد العدة للكفاح واسترداد الحقّ السليب بقوّة السلاح .

وعندي أن شعباً يؤثر العبودية على رؤية بلاده مجزأة ، هو شعب لا يستحق الحرية ، وأفضل منه ألف مرّة شعب ينهض بعضه المتحرر لتحطيم النير وقيادة معركة الخلاص التي ترفع الكابوس عن الشعب كلّه . وليس يكفي أن يعلن البعض الطليق أن الشعب متحد اتحاداً روحيّاً وثقافيّاً ، بل عليه أن يتخذ التدابير اللازمة لإعداد البعض الآخر الذي يئن تحت النير لمعركة الخلاص فيمدّه بالسلاح ويدربه على استعماله ويستحثّه على العمل المشترك في سبيل جمع شتات الأمّة .

وعندما يكون الأمر متعلّقاً بدولة فقدت جزءاً من أراضيها ، يتعيّن على الوطن الأم أن يبدأ باسترداد اعتباره واستعادة قدرته السياسيّة قبل أن يفكر باسترداد الجزء السليب ، أي أن مصالح الأراضي المضيعة يجب أن

يضحى بها في هذه الحالة لمصلحة ما هو أهم : تحرير الوطن الأم . ذلك بأن تمنيات الجزء المغتصب واحتجاجات إخوانهم في الأجزاء المتمتعة بحرية نسبية ، لا تفيد شيئاً ولا تؤدي ، بالتالي ، إلى تحرير المناطق التي تخضع لسيطرة الأجنبي ، فمهمة التحرير تقع على الأجزاء الحرة ، ولكي تستطيع هذه الاضطلاع بالعبء ينبغي لها أن تقوي نفسها وتزيد من إمكاناتها ليتسنى لها ذات يوم أن تشهر السيف في وجه العدو المنتصر وترغمه على الجلاء .

إن صنع السيف المنتقم والمحرر مهمة يجب أن تضطلع بها السياسة الداخليّة للحكومة . ويعود إلى السياسة الخارجيّة تمكين صانع السيف من العمل في جوّ تسوده الطمأنينة ، ومن تعبئة رفاق السلاح .

• • •

في الجزء الأوّل من هذا الكتاب تبسطت في شرح العوامل التي انحرفت قبل الحرب بسياسة ألمانيا الخارجيّة عن أهدافها . فقد كان هناك وسائل أربع يمكننا اعتمادها أو اعتماد إحداها في سعينا إلى الحفاظ على كيان شعبنا وتوفير الغذاء له . وقد اختار أولو الأمر فينا الوسيلة الرابعة أي أنّهم ، بدلاً من أن يتوسعوا في أوروبا نفسها ، نهجوا سياسة استعمارية وتجاريّة توهّماً منهم أن هذه السياسة لا تجرّ ألمانيا إلى المزالق الخطرة ، ولا تضطرها ، بالتالي ، إلى امتشاق الحسام . فكانت النتيجة نشوب الحرب العالميّة ورزوح الريخ تحت عبء الهزيمة وذيولها .

كان على الريخ أن يعتمد الوسيلة الثالثة : التوسع على حساب أوروبا ، ومن ثمّ التفكير بنهج سياسة استعمار . والتوسع في القارة خطوة يجب أن يسبقها تفاهم بين ألمانيا وإنكلترا أو وقف موارد الدولة كلّها على تعزيز الجيش بحيث تزداد طاقتها العسكريّة وتنمو على حساب نشاطها في الحقول الأخرى ، ولا سيما الحقل الفكري . ولكن الريخ أحجم عن القيام بهذه الخطوة ، وقد فات القابضين على الزمام أن النهضة الفكريّة هي بنت الاستقلال

السياسي ، وأنّ أمّة تلازمها الهواجس ويستبدّ بها القلق على مصيرها لا يمكنها أن تقدّم نتاجاً فكريّاً ذا قيمة . فالتضحيات ، مهما غلت ، تهون في سبيل تأمين الحرية للأمة ، ومتى توفّر لها سياج الاستقلال أي القوّة العسكريّة اللازمة ، وزايلها الخوف ، أمكنها أن تعوض ما فاتها في الحقل الثقافي . فالنهضة الفكرية في عصر بيركليس قد جاءت في أعقاب الحروب الطاحنة بين الإغريق والفرس . وقد رأينا الجمهوريّة الرومانيّة تنصرف إلى العلوم والفنون فور تحرّرها من الهواجس والهموم التي سبّبتها لها الحروب .

ولكن هل كان يرجى من أكثريّة جاهلة وبرلمانيّين ثرثارين وساسة انتهازيّين أن يقدّموا الأهم على المهمّ وأن يعدوا البلاد الإعداد العسكري الكافي ، مضحين في هذا السبيل بما يعده الشعب الجاهل مصالح جوهريّة وما يجب أن ينزله السياسي الحكيم منزلة الأمور الثانويّة ؟

كان يمكن أن يتحقّق هذا على يد رجل كفريدريك الكبير ، فتقوية الريخ عسكريّاً وسياسيّاً كانت شغله الشاغل ، أمّا الذين أقاموا ينتظرون هذه الخطوة من جانب النظام البرلماني الديموقراطي اليهودي فقد كانوا أغبياء حقّاً ، لأن تقوية الريخ سياسيّاً وعسكريّاً هي آخر ما كان يمكن أن يخطر ببال برلمانيّين باعوا نفوسهم من الشيطان .

دخلت ألمانيا الحرب العالميّة دون أن تكون مستعدّة لها ، وعندما لمس المسؤولون مواطن الضعف كان الأوان قد فات ، فاضطروا ، وشبح الحرب على الأبواب ، إلى البحث عن حلفاء يسدون النقص ، وبدلاً من أن يحالفوا الإنكليز ليتوسّعوا شرقاً أو يحالفوا الروس ليأمنوا شرّهم ويتفرّغوا لأعداء ألمانيا في الغرب ، أغضبوا الروس والإنكليز معاً ، ولم يجدوا حليفاً يتوكأون على ساعده سوى آل هابسبورغ .

• • •

تلك كانت سياسة الريخ الخارجيّة قبل الحرب العالميّة . أمّا سياستنا

الخارجيّة في هذا العهد فإنّها تخبط خبط عشواء ولا يكاد يستبين لها نهج ولا هدف . وإذا كان ساسة ما قبل الحرب قد اعتمدوا سياسة الاستعمار وغزو الأسواق ، فليس من السهل تحديد السياسة المتبعة في أيّامنا ، وبالتالي تبيّن اتجاهها ومعرفة مراميها .

وإذا درسنا بإمعان أوضاع الشعوب الأوروبيّة ، من حيث قوّة كلّ منها ، نستخرج الحقائق التالية :

إن أبرز ما يقدمه لنا تاريخ أوروبا منذ منتصف القرن السابع عشر إلى اليوم هو سياسة توازن القوى التي اعتمدتها انكلترا خطة لها ، فهي توقع بين دول القارة ، الفينة بعد الفينة ، ليتسنى لها أن تحقّق أغراضها الاستعمارية دون كبير عناء . ومنذ ولاية الملكة اليصابات تميّزت الدبلوماسيّة الانكليزيّة بنزعة تقليديّة ما تزال لاصقة بها : الحؤول ، بشتى الوسائل ، دون قيام دولة أوروبيّة عزيزة الجانب ، قادرة على إخضاع القارة لسيطرتها أو على احتلال مركز مرموق بين مجموعة الدول الأوروبيّة . ولتحقيق هذا الغرض اعتادت انكلترا اللجوء إلى وسائل شتى ، ولكن بعزم وقوّة إرادة ما خاناها قطّ . وقد رأيناها تنمو وتتوسّع بعد كلّ نزاع يدمي أوروبا ويستنفد منها القوى . وعندما انفصلت عنها مستعمراتها في أميركا الشماليّة حرصت على حماية ظهرها ، فبدأت بتصفية حساب هولندا واسبانيا كدولتين بحريتين ، ثمّ تفرّغت للوقوف في وجه فرنسا والحؤول بينها وبين إخضاع القارة لسيطرتها ، وقد تمّ لها ذلك بأفول نجم نابوليون .

أمّا موقف بريطانيا من تململات ألمانيا ومطامحها فقد كان تطوّره بطيئاً لأن الشعوب الألمانيّة لم تكن موحدة الكلمة ولا تشكل ، بالتالي ، خطراً داهماً أو عقبة تعترض مشروعات الدبلوماسيّة الإنكليزيّة وخططها ذات المرامي البعيدة . يضاف إلى هذا أن رجال الدولة البريطانيّين يحرصون دائماً على إعداد الأفكار للخطوة التي يعتزمون القيام بها ، بحيث لا يفاجأ الرأي العام بالاتّجاه

السياسي الجديد ولا يلقى الحكّام كبير عناء في تبريره ، وهذا الإعداد يستغرق بعض الوقت وتتولاّه دعاوة بارعة .

حدّدت إنكلترا موقفها من ألمانيا تحديداً صريحاً عقيب الحرب السبعينيّة مباشرة (١٨٧٠ — ١٨٧١) . وقد ضيع ساستنا في ذلك الحين فرصاً ثمينة للتفاهم مع زملائهم البريطانيّين الذين كانوا يبحثون عن حليف قوي يواجهون وإيّاه روسيا الآخذة بالنموّ ، وأميركا التي بدأ نشاطها الصناعي يقض مضاجع رجال الأعمال في العالم المتمدن . فلمّا سحقت قوّتنا الجيش الفرنسي في سيدان بعد أن خطت بلادنا في الميدان الصناعي خطى جعلت منها المنافس العتيد لإنكلترا ، رأينا لندن تنظر إلينا شزراً وتجعل لسياستها الأوروبيّة هدفاً جديداً هو وضع حدّ لنمو ألمانيا الاقتصادي ومنعها من « غزو العالم اقتصاديّاً » . وتحت ستار الحفاظ على السلم أنّبت إنكلترا ضدّنا دول القارة ذات القيمة العسكريّة . وقد حالفت هذه الدول اقتناعاً منها بأنّها أضعف من أن تنازل بمفردها الجبار الألماني . أمّا الذين عابوا عليها لجوءها إلى التضليل والخداع وقلبها الحقائق لحمل الدول الأوروبيّة على مجاراتها ، فقد فاتهم أن كلّ وسيلة تصبح مشروعة عندما يكون الأمر متعلّقاً بصون كيان شعب وضمان مستقبله ، وأن الترفّع عن التضليل والخداع في مثل هذه الحال هو إخلال خطير بالواجب إن لم يكن الخيانة بالذات .

لقد وضعت الثورة الألمانيّة حدّاً للقلق الذي ساور إنكلترا وهي تتبع خطانا في معارج النموّ والازدهار ، ولم يبقَ لها مصلحة في أن ترى بلادنا تعانق الحضيض بعد أن حطّمت الحرب أضلاعها وقصمت منها الظهر . وقد هالها ، منذ اللحظة الأولى للانهيار الألماني ، أن يؤدي هذا الانهيار الذي عملت له وناضلت في سبيله أربع سنوات وبضعة أشهر ، إلى اختلال التوازن الأوروبي اختلالاً يفسد عليها خططها ومشروعاتها البعيدة المدى . فهي قد استعدت الدول العظمى على ألمانيا لتزيل الشوكة التي تهدّد جنبها وتحول دون

خضوع القارة لسيطرة دولة برية قوية الشكيمة . وها هي ألمانيا قد انهارت ، ولكن شوكة جديدة قد برزت ، وهذه الشوكة هي فرنسا .

ولم يكن في وسع الدبلوماسيّة الإنكليزيّة أن تفتح صفحة جديدة فور اصطدامها بهذا الواقع . فالرأي العام الذي أعدته دعاوة طويلة النفس للوقوف من ألمانيا ذلك الموقف العدائي لا يمكن توجيهه وجهة معاكسة بين ليلة وضحاها . يضاف إلى هذا أن الإنكليز خرجوا من الحرب مثخنين بالجراح ، وليس من مصلحتهم أن يناصبوا الفرنسيين العداء في وقت كانت فرنسا قد احتلّت في أوروبا مركز الصدارة ، وراحت تفرض مشيئتها في مفاوضات الصلح والمؤتمرات الدوليّة ، تشدّ أزرها دول ودويلات اعتادت السير في ركاب القوي .

كانت ألمانيا الدولة الأوروبيّة الوحيدة التي يمكن إنكلترا أن تعتمد عليها في الحدّ من مطامع فرنسا وجبروتها ، ولكن بلادنا كانت في تلك اللحظات التاريخيّة فريسة الحرب الأهليّة ، وكان ساستها يتسابقون إلى خطب ودّ الفرنسيّين ، مسلّمين بكلّ ما يطلب من بلادهم . ولمّا لم تجد إنكلترا من تتوكّأ على ساعده اضطرّت — في سبيل إعادة توازن القوى — إلى العمل وفرنسا اليد في اليد لئلا يفوتها القطار ويستقلّ الفرنسيون في العمل .

عندما خيّل إلى إنكلترا أن ألمانيا تشكّل خطراً على سيطرتها وانبرت لمناصبتنا العداء ، كانت بلادنا ، من الناحية العسكريّة ، في وضع لا تحسد عليه : في أوروبا دولتان بريتان هما فرنسا وروسيا ، ويمكنهما سحق ألمانيا بتفوّقهما العسكري فكيف إذا تعاونتا وإنكلترا الدولة البحريّة الأولى ؟ إن مركز فرنسا اليوم ليختلف عن مركز ألمانيا قبل الحرب اختلافاً بيّناً : فهي الدولة العسكريّة الأولى في القارة ، وليس لها أيّ منافس جدّيّ في هذا المضمار ، ويحمي ظهرها من الجنوب حدود طبيعيّة تتحطّم عليها كلّ محاولة يمكن أن تقوم بها إسبانيا أو إيطاليا ، وقد أمنت فرنسا جانب ألمانيا بعد أن سقطت هذه

مهيضة الجناح ، فضلاً عن أنّها تشرف من سواحلها الغربيّة على المراكز الحيويّة في الجزر البريطانيّة التي تمسي في حالة الحرب تحت رحمة نيران المدفعية البعيدة المدى وفي متناول السلاح الجوي . ويمكن الغواصات الفرنسيّة أن تسدّد إلى المواصلات البحريّة البريطانيّة ضربات قاصمة من قواعدها على شواطىء المحيط الأطلسي والبحر المتوسط .

وهكذا جنت إنكلترا على نفسها . فهي بسعيها إلى القضاء على ألمانيا قد أتاحت لفرنسا أن تبسط سيطرتها على القارة ، وفي الوقت نفسه اضطرت إلى الذهاب بعيداً في مسايرة الولايات المتحدة الأميركيّة ، إذ اعتبرتها نداً لها كدولة بحريّة . وفي الحقل الاقتصادي تنازلت لحلفائها عن مناطق لها فيها مصالح جدّ حيويّة .

وجدير بالذكر أن أهداف الدبلوماسيّة الفرنسيّة تتعارض دائماً والمرامي الأساسيّة التي تهدف إليها الدبلوماسيّة الإنكليزيّة . فالإنكليز يراقبون توازن القوى في القارة حتّى إذا رجحت كفة إحدى الدول انبروا لها وعملوا على إضعافها لئلاّ تمثّل دوراً رئيسيّاً على مسرح السياسة العالميّة . أمّا الفرنسيون فإنّهم ينهجون المنهج نفسه ولكن على نطاق ضيق . فالمهم في نظرهم أن يمنعوا ألمانيا من الوقوف على قدميها ، وقد علّمتهم التجارب أن ألمانيا الموحّدة تشكّل قوّة ليس من اليسير التغلّب عليها ، فوضعت دبلوماسيتهم نصب عينيها إضعاف بلادنا ، متوسلة إلى ذلك بتشجيع النزعات الانفصاليّة وافتعال تيار يكون في مصلحة النظام الاتحادي على أساس اللامركزيّة ، وهكذا يقوم بين الدويلات الألمانيّة توازن شبيه بالتوازن الأوروبي الذي يلقى من إنكلترا أشدّ الاهتمام .

• • •

على ضوء الحقائق التي أوردت لست أرى سبيلاً يمكن ألمانيا أن تسلكه في بحثها عن أصدقاء أفضل من التودّد إلى إنكلترا وخطب ودّها . أنا لا

أنكر أن سياسة الحرب التي اعتمدها الإنكليز قد جرّت علينا الويلات ، ولكن ماذا يفيدنا اجترارنا الحقد على دولة لم يبقَ لها مصلحة ملحة في القضاء على ألمانيا القضاء المبرم ، بعد أن ألفت نفسها حيال خطر داهم هو خطر المطامع الاستعمارية الفرنسية التي تجاوزت كلّ حدّ ؟

إنّ مصالح الشعبين الإنكليزي والألماني يمكن أن نلتقي ما دام العدو



هتلر يفكر

مشتركاً . ولكني أحذر الساسة المسؤولين في بلادي من الجري وراء الأوهام ، فقد عوّدونا الاستسلام إلى الأحلام اللذيذة كلّما آنسوا من رجل دولة أجنبي عطفاً على القضيّة الألمانيّة . فليعلم الذين يتوهّمون أن إنصاف ألمانيا يمكن أن يتحقّق على يد رجل دولة أجنبي أن الانكليزي هو إنكليزي قبل أي شيء آخر ، ومثله الأميركي والإيطالي ، فمن السخف إذن التفكير باعتماد عطف رجال الدولة الأجانب أساساً للمحالفات ، فالشرط الأساسي لارتباط مصير شعبين ليس الاحترام والعطف المتبادلين ، بل هو الفوائد التي يمكن أن يجنيها كلاهما من هذا الارتباط . إن رجل الدولة الانكليزي ، مثلاً ، يمكنه أن ينهج سياسة محض إنكليزيّة تعود بالنفع على الشعبين الانكليزي والألماني معاً ، دون أن يكون مضطراً لنهج سياسة تكون في مصلحة ألمانيا وحدها .

إنّ في أوروبا دولاً يقلقها أن ترى ألمانيا مهيضة الجناح في وقت يشتدّ فيه ساعد فرنسا ، ويبرز تفوّقها عسكريّاً واقتصاديّاً . ونحن الألمان لا نعرف لنا عدوّاً لدوداً ، عدوّاً مميتاً لا يرحم ، سوى فرنسا ، وسواء حكم هذه الدولة البوربون أم اليعقوبيون ، آل بونابرت أم الديموقراطيون البورجوازيون ، الجمهوريون المعتدلون أم الماركسيون ، فهدف سياستهم الخارجيّة سيظلّ هو إيّاه : احتلال رينانيا وتجزئة ألمانيا بحيث لا تقوم لها قائمة .

تكره إنكلترا أن ترى ألمانيا آخذة بأسباب التقدّم والازدهار والنموّ . أمّا فرنسا فتريد أن تمحو ألمانيا من خريطة أوروبا والعالم . والفرق بين ما تكره الأولى وتريد الثانية شاسع جدّاً . ونحن اليوم لا نناضل في سبيل استرداد مركزنا كدولة عظمى ، بل علينا أن نعمل جاهدين في سبيل كيان الوطن ووحدة الأمّة وخبز أولادنا اليومي . وإذا استعرضنا الحلفاء الذين يمكن أن تقدمهم إلينا أوروبا فلا نجد أمامنا سوى دولتين هما إنكلترا وإيطاليا . فإنكلترا تكره أن يشتدّ ساعد فرنسا بحيث تقوى ذات يوم على تهديد مصالح الإنكليز وعرقلة مشروعاتهم وإفساد خططهم . ولا يعقل أن تقف إنكلترا موقف

المتفرّج من استيلاء فرنسا على مناجم الحديد والفحم في أوروبا الغربيّة ، لعلمها أن حليفتها بالأمس تستطيع بفضل هذه المناجم الغنيّة أن تمثل دوراً كبيراً في توجيه الاقتصاد العالمي . ولا يعقل كذلك أن تنظر لندن بعين الارتياح إلى تزايد نفوذ فرنسا في القارة ومحاولتها تسيير دفة السياسة العالميّة .

وتتبع إيطاليا بقلق متزايد النفوذ الفرنسي في أوروبا . ذلك بأن الإيطاليين يتطلّعون إلى حوض المتوسط ويطمحون إلى التوسّع على حساب البلدان المتاخمة لمتلكاتهم الافريقيّة . ومن تحصيل الحاصل القول إن إيطاليا لم تدخل الحرب لتساهم في إعلاء شأن فرنسا ، بل دخلتها وفي نيتها أن تسدّد ضربة قاصمة إلى جارتها النمسا دون أن تنسيها رفقة السلاح وقرابة الدم أن لها في فرنسا منافساً لا يقلّ خطراً عن الجارة الشرقيّة .

إن إنكلترا وإيطاليا هما ، والحالة ما ذكرت ، الدولتان اللتان لا يترتب على قيام أمّة ألمانيّة موحّدة وقويّة أي مساس بمصالحهما ، بل يمكن القول إن قيام هذه الأمة القويّة والموحّدة ينسجم مع مصالح الدولتين بعض الانسجام .

عند درسنا مسألة العلاقات التي يمكن أن تقوم بيننا وبين الإنكليز والإيطاليّين ، يجب ألاّ نسقط من حسابنا عوامل ثلاثة ، يتعلّق أوّلها بنا ، أمّا العاملان الثاني والثالث فإنّهما يتعلّقان بإنكلترا وإيطاليا .

أتقدم دولة على محالفة ألمانيا الحالية ؟ أيعقل أن تجازف دولة ذات خطط هجوميّة بمحالفة دولة يقبض على مقدراتها منذ سنوات حكام غير أكفاء وتعمي بصائر الكثرة الساحقة من أبنائها المبادىء الديموقراطيّة والتعاليم الماركسيّة فيخونون شعبهم ووطنهم ؟ وأي نفع ترجو دولة قويّة من إنشاء علاقات مع دولة خانعة لا تحرك ساكناً للدفاع عن كيانها ، ولا تفعل شيئاً للتحرّر من الالتزامات الثقيلة التي فرضت عليها ، لأن مقدراتها في قبضة حكام غير صالحين ، ولأن أصابع المغامرين الدوليّين تعبث بهذه المقدرات ؟

لا ، إن دولة تحترم نفسها وتفهم التحالف أنّه أكثر من صفقة تعقد مع

برلمانيين ينشدون الربح ، لا تقدم على مخالفة ألمانيا اليوم .

ولا ننسى أن الدعاوة في كلّ من إنكلترا وإيطاليا قد أعطت عنّا بالأمس صورة بشعة ، وليس في مسلكنا اليوم ما يسهّل مهمّة هذه الدعاوة إن هي حاولت تبديل لهجتها وإقناع الرأي العام بأن عدوّ البارحة يمكن أن يصبح حليفاً ثميناً .

ولا ننسى ، كذلك ، أنّه إذا كان لا يفيد إنكلترا شيئاً بقاء ألمانيا دولة مستضعفة فاليهوديّة العالميّة ترحّب بهذا الواقع وتعتبره متّفقاً ومصالحها ، منسجماً مع خططها . ولم يبقَ سرّاً أن سياسة إنكلترا التقليديّة تتعارض وأهداف البيوت الماليّة الكبيرة الخاضعة للنفوذ اليهودي ، فاليهود يريدون تقويض دعائم ألمانيا اقتصاديّاً وسياسيّاً ، وقد رأيناهم يعملون بكلّ ما أوتوا من دهاء على بلشفة الدولة الألمانيّة ليتسنى لهم أن يضعوا أيديهم على مفاتيح الاقتصاد القومي ، ولما لمسوا عجز الماركسيّة الألمانيّة عن دكّ أسس الدولة القوميّة في ألمانيا ، أشعلوا نيران الحرب العالميّة وبذروا في داخل الريخ بذور الثورة الحمراء واستغلوا الكارثة في الوقت المناسب استغلالاً بارعاً .

اختارت اليهوديّة العالميّة ألمانيا مجالاً لدسائسها وهدفاً لمؤامراتها ، لأن بلشفة بلادنا أي تخريب الوجدان القومي الألماني ، يخضع طاقة أمّتنا المنتجة لإشراف المؤسّسات المصرفيّة اليهوديّة ، ممّا يشكّل خطوة واسعة نحو إخضاع العالم كلّه للسيطرة اليهوديّة . ويستفاد من منطوق وثيقة « حكماء صهيون » — دستور الحركة اليهوديّة — أن ألمانيا يجب أن تكون محور النضال اليهودي في سبيل تحقيق هذا الحلم ، فإذا تمّ « للشعب المختار » إخضاع الشعب الألماني ، يكون قد أزال من طريقه العقبة الرئيسيّة التي تعترض سيره نحو الهدف الأسمى .

تلبس اليهوديّة العالميّة لكلّ حالة لبوسها ، فهي في سعيها المتواصل إلى تضليل الرأي العام العالمي وتسميم أفكار الأمم والشعوب ، تلجأ إلى وسائل وأساليب منوعة ، مخاطبة كلّ أمة باللهجة التي تترك صداها في أعماقها .

ففي ألمانيا حيث تكثر الاختلاطات الدمويّة ، ينشر اليهود مبادىء مستوحاة من المثالية السلميّة ويزعمون أنّهم أمميو النزعة . وفي فرنسا تستغلّ اليهوديّة النزعة الفردية والنفور من الأجانب ، وفي إنكلترا تضرب على وتر المصالح الاقتصادية واعتبارات السياسة العالميّة .

ولئن يكن التنافر ظاهراً للعيان بين مفاهيم السياسة القوميّة ومرامي اليهوديّة العالميّة في كلّ من إنكلترا وإيطاليا ، فالتفاهم تام في فرنسا بين القوميّين وملوك البورصة الذين يمثلهم اليهود . وهذا التفاهم يشكل خطراً جسيماً على ألمانيا ، ويجعل من فرنسا العدوّ المميت الذي ينبغي لنا ألاّ نسقطه من حسابنا لحظة واحدة . إن الشعب الفرنسي الذي يهبط شيئاً فشيئاً إلى مستوى الزنوج يعرض كيان الجنس الأبيض في أوروبا لخطر الزوال بمسايرته مشروعات اليهوديّة العالميّة الطامحة إلى السيطرة على العالم .

ولا يظلم أحدٌ الفرنسيّين إذ يقرّر أن لهم ضلعاً في تلويث الدم الألماني في رينانيا لأن هذا الشعب المتهتّك لا يقلُّ عن اليهود رغبة في القضاء على حيويّة شعبنا بتشجيع الأجناس المنحطة على تلقيح الألمان بدمها النجس .

إن الدور الذي تمثله فرنسا – يحفزها الحقد ويقود خطاها اليهود – يشكل إجراماً بحق الجنس الأبيض ، وسيأتي يوم تتألّب فيه الشعوب الأوروبيّة على هذا الشعب المجرم ، لتنزل به العقاب الذي يستحق .

فعلى ألمانيا إذن أن تنسى ما كان من أمر إنكلترا وإيطاليا معها في الماضي القريب : فتمد يدها إلى الدولتين اللتين تتبعان بقلق تزايد النفوذ الفرنسي وتضخّم المطامع الفرنسيّة .

• • •

من تتبّع الأطوار التي مرّت بها سياسة ألمانيا الخارجيّة منذ قيام الثورة وراقب « نشاط » رجال الدولة ، لا يتمالك من ضرب الجدار برأسه بدافع من اليأس . فمنذ تشرين الثاني ١٩١٨ إلى اليوم[1] لم يفعل ساستنا أكثر من

[1] فرغ هتلر من وضع كتابه « كفاحي » في أواخر ١٩٢٦

استرضاء فرنسا والانحناء أمام « الأمّة العظمى » والمبالغة في إكرام ممثليها استدراراً لعطفهم . وهذه السياسة القائمة على تقدير غير صائب كانت تلاقي تشجيعاً من جانب الممسكين بالخيوط من وراء الستار لعلمهم أن خنوع ألمانيا واستسلامها يماشيان الخطط اليهوديّة . وأنّ تقرّب الجمهوريّة من فرنسا مفضٍ حتماً إلى نسف كلّ سياسة تحالف تتّفق ومصلحة الشعب الألماني .

وفي الوقت نفسه تطوّعت الصحافة الألمانيّة الخاضعة لتوجيهات اليهود لتركيز حقد الشعب على إنكلترا ولبعث مخاوف هذه الدولة وتحريك هواجسها . وذلك بدعوتها السلطات إلى إعادة إنشاء الأسطول الألماني والعمل على استرداد المستعمرات الألمانيّة .

وقد بحّت أصوات المخلصين لفرط ما حذروا الرأي العام من الوقوع في الشرك ، ولم يذهب تحذيرهم صرخة في واد ، هذه المرّة . فقد قام في صفوف البرلمانيّين أنفسهم من يسفه الدعوة إلى بعث الأسطول والمطالبة بالمستعمرات قبل تحرير البلاد وتقوية مركزها في القارة .

لقد أتقن اليهود لعبتهم إتقاناً تامّاً : إنّهم يلهون شعبنا الطيّب القلب . السليم النيّة ، بمسائل جدّ ثانويّة ، ويدفعونه إلى الاحتجاج والتظاهر في وقت تمعن فرنسا في الجسم الألماني تقطيعاً وتبثّ الألغام تحت مرتكزات استقلالنا . ألم تقدم الصحافة اليهوديّة ملهاة للشعب الألماني عندما تطوّعت لإثارة مسألة « التيرول » الجنوبي داعية المواطنين إلى السير في تظاهرات صامتة وتطيير برقيات الاحتجاج إلى عصبة الأمم ؟

و « التيرول » الجنوبي الذي يتباكى عليه برلمانيو هذه الأيّام كنت أنا في عداد الذين قاتلوا في سبيله في الحرب العالميّة بينما كان المتباكون يلغمون الجبهة الداخليّة ويحرضون عمّال المصانع على الإضراب طاعنين الجيش في الظهر ملحقين بالقضيّة القوميّة في الريخ أشدّ صنوف الأذى .

عندما كان « التيرول » الجنوبي ميداناً لمعارك طاحنة ، لم يكن استرداده

ممكناً بغير حدّ السيف . وقد أبلت الأفواج الألمانيّة في هذا القطاع بلاء حسناً ، وظلّ هذا شأنها إلى أن فوجئت بانهيار الجبهة الداخليّة وانقطع عنها المدد . فالذين سبّبوا الانهيار الداخلي قد خانوا التيرول كما خانوا باقي الأراضي الألمانيّة . والذين يظنون اليوم أن مسألة التيرول الجنوبي يمكن حلّها بالاحتجاجات والتصريحات والمواكب السلميّة الخ . . . هم إمّا مصابون في عقولهم أو سذج يصدقون كل ما يقال لهم ، فمتى يفهم المواطنون كافة أن استرداد الأراضي المضيعة لا يمكن أن يتم لنا بالابتهالات نصعدها إلى العلي القدير ولا بالشكاوى نرفعها إلى عصبة الأمم . إن استرداد الأراضي المضيعة خطوة نستطيع أن نقوم بها نحن يوم نصبح قادرين على مجابهة أعدائنا .

وأدهى ما في الأمر أنّ الذين يتبجّحون اليوم بأن تضييع « التيرول » الجنوبي كان غلطة جسيمة ، بل خيانة وطنيّة ، لم يفعلوا ، من أجل الحفاظ عليه ، سوى شقشقة الألسنة وذرف دموع التماسيح ، ولو دعوناهم اليوم إلى حمل السلاح لتحرير الأراضي السليبة ، لقبعوا في زواياهم يرتعدون فرقاً .

إنّ المتباكين على مصير التيرول الجنوبي من أسياد المنابر وحملة الأقلام المطالبين بإعادته إلى الوطن الأم، هم الداعون في خطبهم ومقالاتهم إلى الكفّ عن إزعاج المنتصرين ، ولا سيما فرنسا ، بمطالب لا يمكن أن تستجاب ، وقد رأيناهم بالأمس القريب يدافعون عن معاهدة فرساي ويشجبون إقدام « كتائب التحرير » على نسف الجسور في الروهر.. ولكن لعبة هؤلاء المزدوجة بدأت تفضح نفسها بنفسها . فقد طلعوا بنغمة التيرول حالما شعر اليهود وأذنابهم بأن قيام تحالف ألماني — إيطالي أمر مرغوب فيه في الأوساط الألمانيّة التي تنظر إلى أبعد من أنفها . وبديهي أن ينبري اليهود وأنصار آل هابسبورغ لقطع الطريق على كلّ محاولة تهدف إلى تقوية مركز ألمانيا الدولي .

وبدافع من الحقد على كلّ ما هو ألماني لا غشّ فيه ، وتمشّياً مع سليقة « الشعب المختار » البارع في الكذب والتلفيق ، راح المتباكون على مصير

« التيرول » الجنوبي يتهمون القوميّين الأقحاح بالخيانة ويرجفون أن العسكريّين البروسيّين هم الذين سبّبوا ضياع هذا الحيز من الوطن الألماني ، فلهؤلاء المنافقين ، المتجنين على المخلصين ، أقول :

لقد خان التيرول كلّ ألماني قادر على حمل السلاح ، أمضى سنوات الحرب قابعاً وراء مكتبه ولم يُسدِ إلى وطنه خدمة ما . . .

وكلّ ألماني لم يساهم خلال سنوات الحرب في تقوية الطاقة على النضال والقدرة على الثبات في نفس الشعب الذي كان يواجه أعداء متفوّقين . . .

وكلّ ألماني ساهم في ثورة تشرين الثاني إن بأفعاله أم بسكوته ، محطّماً بذلك السلاح الذي يمكنه إنقاذ التيرول الجنوبي . . .

وخان التيرول الجنوبي بل الوطن الألماني الأحزاب وممثلو الأحزاب الذين ذيّلوا بتواقيعهم معاهدتي فرساي وسان جرمان .

وللشعب الألماني قلت وأعيد القول إن استرداد الأرض المضيعة لا يتمّ لنا بالخطب النارية يلفظها ألمانيون يتقنون صناعة الكلام ، فتحرير الوطن لا يتطلّب ألسنة حداداً بل يحتاج إلى أسلحة حادة . وليس معنى هذا أني أدعو إلى إشعال نيران الحرب في سبيل استرداد التيرول الجنوبي . فأنا لا أسلم بإراقة دماء الشعبين الألماني والإيطالي من أجل تحرير مئتي ألف مواطن ، في وقت يرزح سبعة ملايين من إخواننا تحت نير الاحتلال الأجنبي في ريتانيا .

فإذا كانت الأمّة الألمانيّة مصمّمة فعلاً على إزالة وضع من شأنه ، في حال استمراره ، أن يزيلها من خريطة أوروبا ، فعليها أن تتفادى الوقوع في الخطأ الذي وقعت فيه قبل الحرب عندما ناصبها العالم كلّه العداء لأنّها لم تعرف كيف تختار أصدقاءها . عليها أن تتبيّن عدوّها الألدّ وتتفرّغ له لتضربه بجماع يدها ، غاضة الطرف عن أعدائها الثانويّين ولو كلفها هذا التسامح بعض التضحيات .

ينبغي لنا نحن معشر الوطنيّين الاشتراكيّين أن ننشر الفكرة القائلة بوجوب

ستخلاص حرية الوطن واستقلاله قبل التفكير في استرداد الأراضي السليبة ، وأن ندعو ليل نهار إلى نهج سياسة محالفات مستوحاة من الواقع الألماني والواقع الأوروبي معاً . فقد حكّمنا العواطف يوم حالفنا آل هابسبورغ فجنينا الهزيمة والانهيار ، ولن تسمح حركتنا لمحترفي السياسة في العهد الحالي بأن ينهجوا في الحقل الخارجي نهجاً يتعارض ومصلحة الأمة الألمانيّة .

• • •

أنتقل إلى مناقشة الاعتراضات التي يمكن أن تنصب على المسائل الثلاث التي طرحتها في سياق هذا البحث أي :

١ – أتقدم الدول على محالفة ألمانيا بحالتها الراهنة ؟

٢ – أيكون أعداء الأمس في وضع يمكنهم من تبديل اتجاههم بحيث يحالفون اليوم الأمّة التي أعطوا عنها بالأمس أبشع الصور ؟

٣ – أتتغلّب النزعة القوميّة لدى بعض الدول التي تنسجم مصالحها ومصالح ألمانيا على النفوذ اليهودي الذي يقاوم قيام نظام محالفات من هذا النوع ؟

من تحصيل الحاصل القول إن ما من دولة تحترم نفسها وتغار على مصالحها تتدم على محالفة ألمانيا بحالتها الراهنة ، وما من دولة في العالم تجرؤ على ربط مصيرها بمصير دولة لا توحي حكوماتها ذرّة من الثقة .

يحلو لبعض السطحيّين من المواطنين أن يجد عذراً للحكومات وتفسيراً لمسلكها في تدهور الشعب خلقيّاً وتدني معنويّاته . لست أنكر أن معنويات شعبنا لممّا يفرح العدو ، وأنّه مستسلم منذ سنوات لمشيئة القدر ، لا يحرك ساكناً في الحقل الإيجابي ، ولكن لا ننسَ أنّ هذا الشعب نفسه كان منذ سنوات مضرب المثل في الشجاعة والنبل وعلوّ الهمّة . فقد أدهش العالم منذ صيف ١٩١٤ إلى اليوم الذي ألقى فيه السلاح بثباته وفضائله الإنسانيّة . ولا أخال رجلاً منصفاً يذهب في التجنّي علينا إلى حد الزعم بأن الدور المخجل الذي

يمثله الشعب الألماني في هذه الآونة ينسجم مع ما فطر عليه من ميوعة واستسلام .

إنّ ما يجري حولنا ، وما نعانيه في قرارة نفوسنا ، وما يحمل أعداءنا وأصدقاءنا على إساءة الظن بنا ، كلّ هذا ناجم عن جريمة التاسع من تشرين الثاني ١٩١٨ ، وقد صدق الشاعر عندما قال : « لا يتولد من الشرّ غير الشرّ » ، ومع هذا يمكن القول إن السجايا الأساسيّة التي يتحلّى بها شعبنا لم تضمحلّ ، إنها تهجع في أعماق وجدانه ، وتعلن عن نفسها الفينة بعد الفينة بالتماعات خاطفة تشقّ الفضاء المتشح بالسواد ، وستذكر ألمانيا يوماً أن هذه الالتماعات كانت بشيراً بدخولها في طور النقاهة . وإنّا لنجد آلافاً من الشبان مستعدين للبذل والتضحية في سبيل الوطن الحبيب إلى قلوبهم ، ونجد كذلك ملايين الألمان منصرفين إلى العمل المجدي كأنّه لم تكن ثورة ولم يكن دمار ، فالحدّاد أمام عدّته ، والفلاح وراء محراثه ، والعالم وراء مكتبه ، والجميع يؤدون واجبهم بإخلاص ونشاط . أمّا ما يعاب على الشعب الألماني من استكانة واستسلام ، فيجب أن يُسأل عنه الذين يحكمون بلادنا منذ ١٩١٨ . على الذين يرثون لحال أمّتنا أن يتساءلوا : هل جرّب الحكّام إنهاض معنويات الشعب ، وهل استنهضوا همّته فما لبّاهم ؟ وماذا فعلت الحكومات الألمانيّة منذ ١٩١٨ إلى اليوم من أجل إيقاد جذوة الشعور الوطني ، وهل أقدمت على خطوة من شأنها دغدغة كبرياء الألمان واستثارة وتفجير ما يخزنون من أحقاد ؟

عندما فرض المنتصرون معاهدة الصلح على شعبنا في العام ١٩١٩ ، أتاحوا للشعب الألماني الذي ضعضعته الهزيمة فرصة نادرة للخروج من ذهوله ، ذلك أن معاهدات الصلح التي تفرض على الشعوب قيوداً ثقيلة تفعل في نفوس المغلوبين على أمرهم فعل قرع الطبول في نفوس الجنود وهم يهمون بالانقضاض على مراكز العدو . ولكن الشعب كان في حاجة إلى من يفتح عينيه ، وكانت الحكومة الألمانيّة في شاغل عن هذا الواجب الوطني ، يصرفها عنه اهتمامها بتأميم المرافق الحيويّة واستحلاب الأمّة لتقدّم إلى المنتصرين ما يفرضونه

من إتاوات . . .

ولو أن دعاوة منظمة اتخذت من معاهدة الصلح الظالمة أداة لإثارة خواطر المواطنين ، بإبرازها تدابير أعدائنا الوحشيّة وأساليبهم البربريّة ، لأمكنها أن تحوّل اللامبالاة إلى استنكار ثائر ، ان هو غذي في الوقت المناسب فإنّه لا يعتّم أن ينقلب نقمة جارفة تضجّ في صدور ستّين مليوناً من الرجال والنساء فتستيقظ السلطات ذات صباح على تصايحهم : « سلحونا ، فنحن أمّة لا تنام على ضيم ! »

أجل ، كان يمكن أن تكون معاهدة الصلح النقطة التي تطفح بها الكأس ، ولكن هذا يتطلّب تسخير كلّ مطبوعة من الكتيّب الذي يوضع بين يدي التلميذ الصغير حتى أرقى جريدة ، وتسخير السينما والمسرح في تنوير الجمهور ورفع معنوياته فيكف عن الابتهال إلى الله صبحاً ومساء : « اللهم أعد إلينا حريتنا » ليصعد إليه الصلاة الحارة : « أيّها الرب القدير ، بارك أسلحتنا ، وشدّد من عزائمنا ، واجعل لنا الغلبة على مضطهدينا ! »

إن الشعب الألماني ملوم ، ما في ذلك شك ، ولكن معظم اللوم يجب أن يقع على الحكومات الألمانيّة التي تقدم عن الدولة إلى العالم الخارجي صورة بشعة بتصرفاتها المعيبة وباستسلامها الذي ينمّ عن ضعف إرادة . ولكي يصبح شعبنا مؤهلاً لمحالفة الشعوب التي تنسجم مصالحها مع مصالحه ، ينبغي له أن يستردّ اعتباره ، ولن يتمّ له ذلك ما لم تقم في ألمانيا سلطة حاكمة ، تعبّر عمّا يخالج الوجدان القومي وترتكز على الإرادة الشعبيّة المتعطشة إلى الحريّة .

أمّا القول بأن أعداء الأمس لا يمكنهم أن يستحيلوا أصدقاء بين ليلة وضحاها ، فلست أنكر أنّه قول وجيه . لقد أجهدت دعاوة الحرب نفسها في تسويد صحيفة الأمّة الألمانيّة وتلطيخ سمعتها وتشويه تاريخها . والشعور بالكراهية نحو كلّ ما هو ألماني الذي اصطنعته الدعاوة لن يتلاشى بسهولة ما لم يستردّ الريخ بفضل الوعي القومي معالم الدولة القادرة على تمثيل دورها

في أوروبا ، وعندئذ فقط تطمئن الدول إلى سلامة أوضاعنا وتمهّد للتعاقد وإيّانا بدعاوة من شأنها إعداد الأفكار للخطوة الجديدة . بيد أن هذا الإعداد قد يستغرق وقتاً طويلاً ، من هنا وجوب التريّث في العمل على خطب ودّ أعداء الأمس ، لئلاّ يترتّب على استعجالنا الأمور إفساد الخطط التي رسمتها الدعاوة في البلد الآخر للوصول إلى النتيجة نفسها .

قلت وأعيد القول إنّه لا يحق لألمانيا التطلّع إلى ما وراء الحدود قبل أن يدلّل الألمان ، حكومة وشعباً ، على أنّهم أمّة حيّة مستعدّة للبذل ، بل قادرة عليه ، في سبيل استرداد حريتها .

بيد أن ثمّة نقطة ينبغي لنا ألاّ نسقطها من حسابنا : فقد يمضي طويل وقت قبل أن يدرك الشعب المطلوب إعطاؤه فكرة جديدة عن عدوّ الأمس مرامي حكومته وأهدافها ، وذلك إمّا لأن الحكومة تؤثر كتمان هذه الأهداف وتلك المرامي ، أو لأن الرأي العام نفسه بطيء الفهم لنقص في تربيته الوطنيّة ، وفي هذه الحالة يغلب أن يقوم في أوساط المتنورين من يحارب الاتجاه الجديد ويحمل السواد على مجاراته ، ولما كان شعبنا ميّالاً إلى الثرثرة الفارغة ، وكان بعض أحزابنا ومنظماتنا يمارسون السياسة في المقاهي والأندية ، فإنّ كل غلطة ترتكب تضع في متناول خصوم التقارب في الجانب الآخر سلاحاً يستخدمونه في نسف المحاولات التي تبذل .

ولا ريب في أن العقلاء من المواطنين قد أدركوا سخف الدعوة إلى تحرير التيرول الجنوبي وبعث الأسطول الألماني والمطالبة بالمستعمرات ، وقد نبهت حركتنا الأفكار ولا تزال إلى الأثر السيء الذي تتركه هذه الدعوة في نفوس الإنكليز والإيطاليّين ، وإلى الحواجز التي تقيمها في طريق الداعين إلى دفن الماضي وإقامة العلاقات بين الشعب الألماني والشعبين الإنكليزي والإيطالي على أسس جديدة .

لقد استغلّت الدعاوة اليهوديّة دائماً هفواتنا في الحقل الخارجي ، وثرثراتنا

التي لا طائل تحتها ، واليوم يدفعنا اليهود إلى ترديد نغمة من شأنها إغضاب الذين ينبغي لنا خطب ودّهم ، فلنضع حدّاً لهوس المهووسين ودسائس الدساسين قبل أن يعود أعداء الأمس إلى التألّب ضدّنا ، ولا ننسَ أنّنا خسرنا الحرب لأنّنا أغضبنا الله والناس أجمعين ، وقد كان علينا أن نداري الأقربين والأبعدين ليتسنى لنا تركيز جهودنا كلّه في ناحية واحدة .

إذا جارينا القائلين بمناصبة إنكلترا العداء لأنّها سلبتنا مستعمراتنا ، والداعين إلى مقاطعة إيطاليا لأنّها تحتلّ التيرول الجنوبي ، والناقمين على بولونيا وتشيكوسلوفاكيا لأنّهما بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، فلا يبقى لنا من نحالفه في أوروبا إلاّ فرنسا ، التي ينسى غلاة « الوطنيّين » أنّها سلبتنا هي الأخرى الألزاس واللورين .

إنّ عدوّنا الحقيقي في أوروبا هو فرنسا . أمّا إنكلترا وسائر الدول الأوروبيّة فقد كان عداؤها لنا ظرفيّاً ، ويمكننا أن نجعل منها دولاً صديقة يوم نبهر شعوبها مجدّداً بنهضتنا وحيويتنا ونجعل من ألمانيا حليفاً ثميناً يتزاحم على بابه الباحثون عن حلفاء .

• • •

بقيت المسألة الثالثة وهي قدرة ممثلي المصالح القوميّة في الدول التي تنسجم مصالحها مع مصالح شعبنا على تحدي خطط اليهود والتحرّر من نفوذهم .

إنّ الحملة التي تشنّها إيطاليا الفاشستيّة للقضاء على الأسلحة الرئيسيّة الثلاثة لليهوديّة العالميّة ، لدليل كاف على ما تستطيعه الحركات القوميّة المنظمة في هذا الحقل . فحلّ الجمعيات السريّة ، كالمحافل الماسونيّة وغيرها ، وملاحقة الصحافة الماركسيّة بعد القضاء على الأحزاب اليساريّة من جهة ، وترسيخ المفهوم الفاشستي للدولة من جهة أخرى ، تدابير من شأنها تدعيم مركز الحكومة الإيطالية على الصعيد القومي وفي الميدان الدولي ، وإطلاق

يدها في حماية مصالح الشعب الإيطالي أحبّ اليهود أم كرهوا .

ولكن الحال في إنكلترا يختلف عنه في إيطاليا . ففي « موطن الديموقراطية » أي إنكلترا ، حيث يمارس اليهودي دكتاتوريّة مطلقة ، يقوم نزاعٌ متواصل بين ممثلي المصالح القوميّة ، مصالح الدولة الإنكليزيّة ، وبين دعاة الدكتاتورية العالميّة التي يمارسها اليهود . وقد رأينا هذا النزاع يشتدّ فور انتهاء الحرب العالميّة متجلّياً في تعارض وجهة نظر الحكومة مع وجهة نظر الصحافة الخاضعة للنفوذ اليهودي ، فيما يجب أن تكون عليه العلاقات بين إنكلترا واليابان .

ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى عاد إلى الظهور العداء التقليدي بين أميركا واليابان . وبديهي ألاّ تقف الدول الأوروبيّة موقف المتفرّج من هذه الظاهرة المهددة للسلام . وكان على إنكلترا أن تراعي الاعتبارات العرقيّة والصلات الأخرى التي تربطها بالولايات المتحدة الأميركيّة عند تحديد موقفها من الدولتين المتنازعتين ، ولكنها تردّدت في الانحياز إلى أميركا لأنّ نموّ هذه الدولة وتقدمها الهائل باتا مصدر قلق للإنكليز ، وكيف لا يقلقهم تطوّر المستعمرة السابقة تطوراً يؤهلها لأن تسود العالم في سنوات معدودات ؟

بحثت إنكلترا عن حليف تعتمد عليه في الملمات إن هي اضطرت ذات يوم للدفاع عن مركزها الدولي الممتاز وسيادتها البحريّة ، فما وجدت أصلح من اليابان لهذه المهمة ، لعلمها أن العداء المستحكم بين طوكيو وواشنطن قمين بأن يجعل من الدولة الصفراء حليفاً ثميناً ، يمكن الاعتماد عليه في تقوية مركز الأمبراطوريّة البريطانيّة حيال مطامع القارة الأميركيّة .

وفي الوقت الذي كانت الحكومة الإنكليزيّة تعمل جاهدة في سبيل الإبقاء على الأواصر التي تشدّها إلى الحليفة الآسيويّة كانت الصحافة اليهوديّة في إنكلترا وفرنسا تهاجم هذه السياسة . ذلك أن اليهود ، بعد أن صفّوا حساب ألمانيا – وهي تصفية تتفق ومصالحهم كشعب يناهض كلّ نزعة قوميّة في بلد متمدّن – وجدوا في اليابان ، الدولة الآسيويّة العظمى ، أمة

ناهضة لا يمكن إخضاعها لسيطرتهم ما لم يصفّ حسابها في ميدان القتال ، واليهود أعقل من أن يحلموا بإفساد الدم الياباني بمثل السهولة التي أفسدوا بها الدم الفرنسي والإنكليزي والأميركي . فإضعاف الأمّة الصفراء يجب أن يتمّ بطريقة أخرى هي الحرب ، لأن بقاء اليابان دولة قوميّة وسط مجموعة دول عظمى جرّدتها الدسائس اليهوديّة من معالم القوميّة ليسهل على الماركسيّة استعبادها يشكل خطراً على مشروعات الشعب المختار الذي يحلم بلشفة العالم ، وحلمه هذا لن يتحقّق ما دام في العالم دولة قادرة على سحق الطغيان بقوى الفكرة القوميّة .

إن الصحافة اليهوديّة في العالم عموماً وفي إنكلترا على الأخص تحاول أن تستعدي الدول على اليابان كما سبق لها واستعدتها على ألمانيا ، وقد بدأت مقاومة الحكومة الإنكليزيّة للتيّار المضاد للتحالف الإنكليزي الياباني تتراخى وتضعف ، وقد يأتي يوم تتزعّم فيه إنكلترا الحملة الصليبيّة ضد الدولة الصفراء اقتناعاً منها بأن النزعة القوميّة في بلاد الشمس الطالعة تشكل خطراً على السلام العالمي .

إن الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة لن تألو جهداً في سبيل تنبيه الشعوب الآرية – حتّى المعادية منها لشعبنا – إلى ما يبيته اليهود لنا ولها ، وسترسم للشعب الألماني طريق الخلاص بحيث يكون كفاحه في سبيل التحرّر من سيطرة اليهود المشعل الذي ينير أمام الشعوب الأخرى السبل المؤدية إلى الغاية نفسها .

الفصل الثالث والعشرون

الاتجاه نحو الشرق

يحدوني إلى خوض موضوع العلاقات الألمانيّة – الروسية الاعتباران الآتيـــان :

أوّلاً : إثارة هذا الموضوع في الصحافة اليساريّة في معرض المطالبة بعقد محالفات يشتدّ بها ساعد ألمانيا .

ثانياً : الخفة التي تعالج بها أوساط المثقفين القضايا الخارجيّة .

إن حركتنا لا تلقى كبير عناء في تبديد ما يعلق بأذهان اليساريين بفعل الدعاوة الماركسيّة ، لأن هذا الفريق من المواطنين ما تبنّى وجهة نظر الماركسيّة في ما يجب أن تكون عليه سياسة ألمانيا الخارجيّة إلاّ لأنّه لم يقع على من يأخذ بيده ويرشده إلى السبيل القويم . وقد وجد آلاف اليساريين في حركتنا ومبادئها المشعل الذي أنار أمامهم السبل ، وسهّل مهمتنا لديهم احتفاظهم ببقيّة من الوعي القومي وغريزة حبّ البقاء .

ولكن مهمتنا لم تكن يسيرة لدى ما يسمونه « طبقة المثقفين » . فقد كان علينا أن نحمل على الأخذ بمفاهيمنا السياسيّة الواضحة رجالاً خدرت وعيهم القومي مثاليات مشوشة ، فضحّوا على مذبح الموضوعيّة آخر ما تبقى لهم من العزّة القوميّة وغريزة حبّ البقاء .

ولما كان هذا الفريق من المواطنين قد بدأ ينحرف بسياسة ألمانيا الخارجيّة نحو المزالق الخطرة ، فقد رأيت من واجبي أن أشرح لأعضاء الحزب وأنصاره أهم مسألة تواجه الدولة العنصريّة في الحقل الخارجي : موقف الريخ من روسيا ، وقبل الدخول في صلب الموضوع أوضحت في أكثر من خطاب ومحاضرة

ومقال أن سياسة الدولة العنصريّة في الحقل الخارجي يجب أن تهدف إلى تأمين مقوّمات البقاء للشعب وذلك بإقامة نسبة عادلة ، مطابقة للشرائع الطبيعيّة ، بين عدد السكان وزيادته المطّردة من جهة ، وبين مساحة الأرض وقيمتها من جهة أخرى .

وقد سبق لي وأوضحت في فصل سابق أن أقوى ضامن لحرية الشعب وبقائه هو حصوله على المدى الحيوي الكافي ، على أن تتكفّل بسلامة هذا المدى دولة قادرة سياسيّاً وعسكريّاً ضمن إطار جغرافي ملائم ، على الدفاع عن كيانها وحماية مصالح شعبها الحيويّة .

على الشعب الألماني في تطلعه إلى المستقبل أن يعتبر بلاده دولة عظمى مدعوة إلى تمثيل دورها على المسرح العالمي . فقد مثلت ألمانيا هذا الدور طيلة قرون ، وكان نشاط شعبنا دائماً جزءاً من التاريخ العالمي لا يتجزّأ . والحرب الأخيرة التي خضنا غمراتها والتي كانت ، بالنسبة إلينا ، صراعاً من أجل البقاء ، قد أطلق عليها أعداؤنا اسم « الحرب العالميّة » معترفين بأهميّة الدور العالمي الذي يمثّله شعبنا .

لقد خاض شعبنا غمرات الحرب بصفة كونه قوة عالميّة مزعومة . أقول « مزعومة » لأن ألمانيا ١٩١٤ لم تكن قوّة عالميّة ، فقد حملت السلاح وهي غير متأهّبة للقاء أعدائها ، ولم يكن لديها مواد احتياطيّة تمكنها من إبداء مقاومة طويلة النفس ، لأن الأراضي الألمانيّة ضاقت بالسكان وبات جهد الشعب الألماني النشيط مقصوراً على تربة الوطن الخيّرة ، ولكن عطاءها قصر ، مع الأيّام ، عن سد حاجة السكّان الآخذ عددهم بالنموّ .

وألمانيا اليوم ليست قوّة عالميّة ، ولن تصبح كذلك حتى في حال بعث الجيش الألماني ، لأن المانع الذي كان قائماً قبل الحرب ما يزال حيث هو ، بل ازداد وضعنا دقّة بخسارتنا أجزاء من الوطن الألماني ، إذ بات على ستّين مليوناً من المواطنين والرعايا أن يتدبّروا كفافهم اليومي ضمن مساحة لا تزيد

على نصف مليون كيلومتر مربع .

وإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية واحدة هي الرقعة الأرضيّة ، تبدو لنا ألمانيا بمساحتها الحاضرة دولة متوسطة ، عاجزة عن بلوغ شأو الدول العظمى ، ولا يجوز الاستشهاد بصغر الحيز الأرضي الذي تشغله إنكلترا على بعد هذه النظرية عن الصواب ، فإنكلترا هي ، في الواقع ، العاصمة الكبرى للأمبراطورية الإنكليزيّة المترامية الأطراف .

ويمكننا أن نعتبر دولاً عظمى كالولايات المتحدة الأميركيّة وروسيا والصين . فمساحة كل منها هي عشرة أضعاف مساحة ألمانيا بوضعها الراهن . وفرنسا نفسها تدخل في عداد الدول العظمى لأنّها ، من جهة ، تملك أقوى جيش في العالم وتعزّزه باستمرار بفضل مواردها الخاصة وموارد أمبراطوريتها الواسعة ، ولأنّها ، من جهة أخرى ، تسدّ النقص الحاصل بالمواليد باختلاطات عرقيّة ودمويّة إن لم يوضع لها حدّ ترتّب على استمرارها قرناً آخر قيام دولة إفريقيّة — أوروبيّة مكان فرنسا الحالية .

لقد أدركت الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة هذه الحقائق وندبت نفسها للمّ شتات الشعب الألماني وصهر شتّى عناصره في بوتقة القوميّة الصافية ، ثمّ الخروج به من الدائرة الضيقة ليضرب في آفاق جديدة واسعة ، لأن بقاءه حيث هو معناه الانقراض أو الخضوع لنير الاستعباد .

إن الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة لن تسمح بأن يعيش ستون مليون ألماني على رقعة من الأرض لا تزيد مساحتها على نصف مليون كيلومتر مربع ، وترى أن من أقدس واجباتها إزالة هذا الواقع الأليم ، وسدّ الثغرة التي أحدثتها السياسة الخارجيّة في العهد الأخير بين ماضينا التاريخي المجيد وحاضرنا المحزن .

ستعلم حركتنا الشعب الألماني العناية بنفسه كعنصر متفوّق في الأصل ، وتهيب به إلى الرفق بدمه فلا يتركه عرضة للاختلاطات المميتة ، وتوجّهه

الوجهة التي تجعله جديراً بحمل المشعل الذي حمله أجدادنا .

• • •

لم تكن سياسة ألمانيا الخارجيّة خلال السنين العشر التي سبقت نشوب الحرب العالميّة أفضل من السياسة التي ننعى عليها اليوم عجزها وأخطاءها ، فقد كانت لنا أمبراطوريّة وكنّا أقوياء نسبيّاً ، ولكن قوّة الدولة يجب أن ينظر إليها بالقياس إلى قوّة باقي الدول ، وألمانيا ما قبل الحرب بقيت مقصرة عن بلوغ شأو الدول المنافسة لها . كنّا نخطو إلى الأمام ببطء شديد بينا كان الآخرون يسرعون الخطى . ولئن تكن تضحيات شعبنا قد ذهبت سدى فمردّ ذلك إلى إساءة الحاكمين استعمال الطاقة الشعبيّة التي وجدت في متناولهم .

وإذا عدنا إلى تاريخ ألمانيا واستعرضنا مآتيها العسكريّة ودرسنا نتائج هذه المآتي النهائيّة كما تبدو لنا اليوم ، نجدنا أمام واقع ناطق بمهارة الذين تولّوا مقدّرات شعبنا في ذلك العهد الذهبي . فبفضل سياستهم الحكيمة توصلوا إلى النتائج الآتية :

١ – استعمار المناطق التي تفتح أمام شعبنا الطريق المؤدي إلى الشرق .

٢ – احتلال المناطق التي تقع شرقي نهر الايلب .

٣ – نجاح آل هوهنزولرن في إنشاء نواة الأمبراطوريّة يوم تمّ لهم إنشاء الدولة البروسيّة .

لقد شدّد المؤرخون الألمان على أهميّة النتيجة الثالثة (إنشاء الدولة البروسية) ومروا مرور الكرام بالأولى والثانية ، مع أن التوسع شرقاً كان أعظم خطوة قام بها أجدادنا ، ولو أنّهم أحجموا لكنّا اليوم مقاطعة تدين بالطاعة والولاء لروسيا في الشرق ، أو لفرنسا في الغرب . فبفضل الزحف شرقاً ، الذي يشكل المحاولة الوحيدة الناجحة من هذا القبيل ، أمكن تحقيق الانسجام المطلوب بين عدد السكّان المتزايد والمدى الحيوي اللازم .

ولئن كنت أشدّد على أهميّة الزحف شرقاً كخطوة موفقة قام بها أجدادنا ،

فليس معنى هذا أني لا أقدر أهمية الخطوة الثالثة، أي إنشاء الدولة البروسية وما تبعها من قيام الجيش الألماني ، رمز وحدة الأمة . فبفضل هذا الحدث التاريخي العظيم أدرك كلّ ألماني أن الدفاع الفردي الذي كان شاغله الشاغل قد حلّ محلّه واجب الدفاع عن الأمّة كلّها في نطاق مؤسسة عسكريّة تمثّلت فيها عناصر الأمّة كافة .

وهكذا قيض للشعب الألماني نظام جديد يلمّ شعثه ويوحّد كلمته ويوفّر له مناخ التنظيم الذي كان يفتقر إليه .

ذلك بأن التضامن الفطري القائم بين الشعوب الأخرى ، والذي لا أثر له في مجتمعنا نحن ، قد ساد ، إلى حدّ ما ، صفوف أمّتنا بفضل التدريب العسكري . لهذا كان إلغاء الخدمة العسكريّة الإجباريّة وخيم العواقب في بلادنا التي لم تتخلّ بعد نهائيّاً عن النزعة الفرديّة ، والتي يساهم في تفريق كلمة أبنائها تنوّع العناصر وشيوع المفاهيم الفلسفيّة المتضاربة .

وجدير بالذكر أن أهميّة الانتصارات السياسيّة الحقيقيّة التي أحرزها شعبنا خلال ألف عام من النضال الشاق والكفاح المرير ، يفهمها أعداؤنا ويقدرونها أكثر منّا نحن . فمن أقدس واجبات حركتنا أن تعلم شعبنا تمييز الانتصارات السياسيّة الحقيقيّة من الحالات التي أريق فيها الدم الألماني على غير طائل . ويمكننا القول دون أن نكون متجنين على الحقائق ودون أن نغمط ساستنا حقوقهم : إنّ ألمانيا لم تجن شيئاً من الخطى التي خطتها منذ قرن إلى اليوم في ميدان السياسة الخارجيّة ؛ لأن المدى الحيوي لم يكن هدف هذه السياسة .

• • •

ما أكثر الذين يزعمون في أيّامنا أن سياسة ألمانيا الخارجيّة يجب أن تقصر نشاطها على محو عار ١٩١٨ ، وأن تقيم الدليل على زهدها في التوسع تطميناً للجيران . أما أنا فأقول إن التفكير بإعادة الريخ إلى الحدود التي كانت له

١٩١٤ هو جريمة بحقّ الوطن . لست أنكر أن حدود ما قبل الحرب لم تكن معقولة من الناحية الاستراتيجيّة ولا عادلة من الوجهة الإنسانيّة لأن الملايين من الألمان كانوا يعيشون خارج هذه الحدود . وأذهب أبعد من ذلك فأقول إنّ حدود الريخ لم تكن نتيجة عمل سياسي موزون . إنّها كانت موقوتة بانتظار انتهاء نزاع لا يزال قائماً . ولكن المطالبة بإعادة هذه الحدود من شأنها ، اليوم ، إعادة اللحمة إلى صفوف الحلفاء ، لأن أخشى ما يخشاه هؤلاء هو انبعاث ما يسمونه « الخطر الألماني » الماثل في وحدة الأمة وانضواء أبنائها كافّة تحت رايتها .

لقد تناسى أعداؤنا في العام ١٩١٤ ما بينهم من بواعث القطيعة والنزاع ليعقدوا الخناصر على محاربة ألمانيا القويّة ، ثمّ وجدوا في تقطيع أوصال بلادنا الضمانة الوحيدة لمنع الريخ من النهوض ، وعندما يعلن ساستنا البورجوازيون أن سياستنا الخارجيّة يجب أن تقصر همّها على إعادة حدود ١٩١٤ ، يقدمون إلى أعداء الأمس ذريعة للإبقاء على التضامن فيما بينهم ، لعلمهم أن ألمانيا القويّة تتهيّبهم مجتمعين ولكنها لن تحجم عن الانقضاض عليهم متفرّقين .

إن شعار عالمنا البورجوازي (إعادة حدود ١٩١٤) هو والحالة ما ذكرت في غير محلّه ، مع العلم أن وسائل تحقيقه غير متوفرة ، وأنّه في حال تحقيقه لا يستأهل منّا إراقة دماء أبنائنا في سبيله . ذلك بأن حدود ما قبل الحرب لا قيمة لها في حساب الذين ينظرون إلى أبعد من أنوفهم . فهي لم تكن غطاء صالحاً في الماضي ، ولا يمكن أن تشكّل قوّة في المستقبل ، إن هذه الحدود لم تحفظ لشعبنا وحدته الداخليّة ولم توفّر له قطّ أسباب معيشته . ومن الوجهة العسكريّة ليس لحدودنا قيمة دفاعيّة .

لا ، ليس بإعادة حدود ١٩١٤ يمكن ألمانيا أن تحتلّ مكانها تحت الشمس ، ونحن الوطنيّين الاشتراكيّين مقتنعون بعقم كلّ سياسة خارجيّة لا تجعل هدفها الأسمى إعطاء الشعب الألماني الأرض التي يجب أن تعود إليه في

هذا العالم . وبلوغ هذا الهدف هو المبرر الوحيد لإراقة الدم الألماني ، لأنّ أحفادنا الذين سيتكاثرون على الأرض الجديدة سيغتفرون لنا ولا ريب إرسالنا آباءهم إلى المجزرة ليؤمنوا لهم المدى الحيوي .

يعترض نفر من الكتّاب العنصريّين على هذا الضرب من ضروب التوسّع زاعماً أنّه يشكل « افتئاتاً على حقوق البشر المقدسة » . لست أدري من أين استقى هذا النفر نظريته السخيفة ، ولكني موقن بأن انتشار هذه النظرية يخدم أغراض أعدائنا في الداخل والخارج . ويتناسى أعداء التوسّع والفتح أن ما من شعب يملك في الدنيا متراً مربّعاً من الأرض بفضل احترامه حقوق الآخرين وتقيّده بالشرائع المنزلة أو الوضعيّة .

إن تخوم الدول هي من صنع البشر . وتبديلها إنّما يتمّ على أيدي البشر ، وحدود ألمانيا الحالية ليست سوى ثمرة نضال طويل لم ينته بعد ، ومثلها حدود فرنسا وبولونيا وإيطاليا الخ . . .

إن إحراز شعب من الشعوب أراضي مترامية الأطراف ، لا يعني بحال من الأحوال أن الشعوب المحرومة لا تملك حقّ منازعته ملكية هذه الأراضي . ولئن يكن شعبنا اليوم يقاسي شظف العيش ويكاد يختنق ضمن الإطار الأرضي الضيّق ، فليس مردّ ما نشكو منه إلى حكم القدر ، كما يزعم الاتكاليون ، وليس الكفاح في سبيل وضع حدّ لهذه الحالة تمرّداً على هذا القدر . إنّ أجدادنا لم يتلقوا الأرض التي نعيش عليها منحة من السماء ، فقد أحرزوها بحدّ السيف وسقوا تربتها بدمائهم الزكيّة . والمدى الحيوي الذي نفتقر إليه نحن أحفادهم لن نحصل عليه بنعمة « العنصريّة » ، فسبيلنا الوحيد إليه هو القوّة.

إن تصفية الحساب مع فرنسا خطوة لا يجادل ألماني مخلص في ضرورتها ، ولكنها تظلّ خطوة عقيمة إن نحن اكتفينا بهذا القدر . فإزالة الشوكة التي تهدّد ظهرنا في الغرب يجب أن تكون نقطة الانطلاق نحو توسيع الرقعة التي عليها نعيش . وقد أوضحت في جزء سابق أن توسعنا خارج أوروبا لا يحلّ

المشكلة ، فليس المطلوب إخضاع بعض الشعوب الملوّنة للسيطرة الألمانيّة ، إنّما المطلوب إحراز أراض أوروبيّة تتّسع معها رقعة الوطن الأم . ومثل هذا التوسّع سيكون طبعاً على حساب الشعوب الأخرى ، ونحن الألمان نجافي المنطق ونكذب التاريخ بمحاولتنا إقناع أنفسنا بأن التوسّع على حساب الآخرين عمل غير مشروع ، فحقّ الشعب بإحراز أرض جديدة يستحيل واجباً مقدّساً عندما يضيق الإطار الوطني بمن في داخله ، ويوشكون أن يهلكوا اختناقاً .

إمّا أن تكون ألمانيا قوّة عالميّة أو لا تكون . والشرط الأساسي لبلوغها شأو الدول العظمى هو إحرازها المدى الحيوي الذي يوفّر لشعبها مقوّمات البقــاء .

• • •

ينبغي لنا نحن الوطنيّين الاشتراكيّين أن نعمل على تبديل اتجاه سياسة ألمانيا الخارجيّة وأن نبدأ حيث انتهى أجدادنا منذ ستمئة سنة . ينبغي لنا أن نعمل على وقف الزحف الجرماني جنوباً وغرباً لنتجه بأبصارنا نحو الشرق .

أجل ستضع حركتنا حدّاً نهائيّاً للسياسة الاستعماريّة والتجاريّة لتؤمن لشعبنا مداه الحيوي في أوروبا نفسها ، ونحن إذ نضع هذا الهدف نصب أعيننا لا يفوتنا أن اتّساع الرقعة التي نعيش عليها لن يتمّ إلاّ على حساب روسيا والبلدان المتاخمة لها .

إن القدر نفسه يشير إلى روسيا بإصبعه ؛ فهو يوم ألقى بها في أحضان البلشفية قد انتزع من الشعب الروسي تلك الطبقة من المفكرين الذين أنشأوا الدولة وتولّوا مقدّراتها . ذلك بأن تنظيم الدولة الروسيّة لم يكن ثمرة جهود الصقالبة وقدرتهم على الخلق والإبداع ، بل كان ثمرة جهود العنصر الجرماني ذي العبقرية المنظمة حيثما وجد . ولكن روسيا لم تعرف كيف تحافظ على النواة الجرمانيّة خالقة الدولة ، فاضمحلّت النواة مع الأيّام ، وبرز اليهودي

في الوقت المناسب ليأخذ مكانها .

قد تحاول روسيا زحزحة الكابوس اليهودي ولكنها لن تقوى على زحزحته بوسائلها الخاصة . ولا ننسى أن اليهود أعجز من أن يخضعوا دولة كبيرة مدة طويلة لسيطرتهم ، لأنهم عنصر مخرّب يكره التنظيم والبناء . لهذا نعتقد نحن الوطنيّين الاشتراكيّين أن الدولة الجبارة في الشرق تقف على شفير الهاوية ، وأن نهاية السيطرة اليهودية في روسيا ستكون نهاية روسيا نفسها كدولة . وقد اختارنا القدر لنشهد كارثة هي أصدق برهان على صحة النظريات العنصرية في موضوع الأعراق البشريّة .

• • •

من تحصيل الحاصل القول إن اليهود يقاومون هذه السياسة بكلّ ما أوتوا من قوّة ، لأنّها تتعارض وما تهدف إليه خططهم ودسائسهم . ومجرّد وقوف اليهود في وجه هذه السياسة الرشيدة يكفي لإقناع الذين يتحسّسون بالقضايا القوميّة بفائدة الاتجاه الجديد الذي رسمته حركتنا . ولكن فكرة الزحف شرقاً لم تختمر ، بعد ، مع الأسف ، في رؤوس العديد من القوميّين الألمان وبعض « العنصريّين » النظريين . هؤلاء وأولئك يستشهدون ، كلّما أعوزتهم الحجّة وخانهم المنطق ، بالاتجاه الذي رسمه بسمرك . فقد حرص المستشار الحديدي دائماً على قيام علاقات وديّة بين ألمانيا وروسيا . وكان حرصه في محلّه. وينسى الذين يستشهدون ببسمرك أنّه كان يعلّق أهميّة خاصة على مداراة إيطاليا ليفرض مشيئته على النمسا وهي في شبه عزلة . فلمَ لا يطالب المعجبون بسياسة المستشار الحديدي باعتماد النهج نفسه حيال إيطاليا الحالية ؟ سيقولون لنا إن إيطاليا اليوم ليست إيطاليا القرن التاسع عشر . ونحن نقول لهم إن روسيا اليوم ليست روسيا التي حرص بسمرك على صداقتها . فالمسألة ليست إذن : « ماذا فعل بسمرك ؟ » بل هي : « ترى لو كان بسمرك حيّاً فما هي السياسة التي يتبعها ؟ » لا شكّ في أن هذا الرجل البعيد النظر ما كان ليمدّ يده إلى

روسيا البلشفية المشرفة على الهلاك .

ولا ننسى أن بسمرك تبنّى الرأي القائل بالاستعمار وغزو الأسواق العالمية ، وأن مسألة تنظيم البيت ، التنظيم الداخلي ، كانت شغله الشاغل . فبديهي والحالة هذه أن يعتبر وقوف روسيا على الحياد في نزاعه مع الغرب نجاحاً كبيراً لسياسته . ولكن ما كان وقتئذ مفيداً لألمانيا هو اليوم في غير مصلحتها .

في العام ١٩٢١ بذلت محاولات لإيجاد صلة بين حركتنا التحريرية وبين حركات التحرّر في البلدان الأخرى ، واقترح الوسطاء إنشاء « عصبة الأمم المضطهدة » وقد اجتمعت مرّتين أو ثلاثاً برجال ادّعوا تمثيل بعض الدول البلقانية والهند ومصر ، فأعربوا لي عن رغبتهم في إقامة تعاون وثيق بين الحركات الاستقلاليّة في بلادهم وبين الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة ، ولكني لم أعر أقوالهم كبير اهتمام ، لأنّهم تكشفوا لي عن ثرثارين أدعياء لا يعرفون ما يريدون .

إلاّ أن هؤلاء « الاستقلاليين » وجدوا من يهتمّ بأمرهم ويتحمّس لآرائهم في صفوف القوميّين الألمان الذين حسبوا محدثيهم من طلاب هنود ومصريين ، الممثلين الحقيقيين لمصر والهند . وقد فاتهم أن هؤلاء الطلاب لا يمثّلون إلاّ أنفسهم وأن الدخول معهم في مفاوضات هو مضيعة للوقت . وحتّى لو كان المفاوضون الشرقيون معتمدين رسميّين فالمشروع بحدّ ذاته عقيم ويعود على القوميّة الألمانيّة بأفدح الأضرار .

لقد جرّبت ألمانيا التعاون والدول التي لا قيمة عسكريّة لها يوم حالفت النمسا وتركيا لتواجه أقوى الدول عسكريّاً وصناعيّاً ، فكانت النتيجة الكارثة التي لا نزال نعاني ذيولها . ويبدو أن هذا الدرس القاسي لم يكن كافياً بدليل تحمس المهووسين من المواطنين لمشروع « عصبة الأمم المضطهدة » اقتناعاً منهم بأن هذه العصبة ستجرد المنتصرين الأقوياء من سلاحهم .

لقد قاومت الفكرة وسفهت المشروع لأنّهما يحوّلان شعبنا عن إمكاناته

الحقيقيّة ويحملانه على الاستسلام إلى الأوهام والأحلام .

ما أشبه الألماني في أيّامنا بإنسان أشرف على الغرق فراح يتكمّش بعود ثقاب تفادياً للنهاية الأليمة . وإننا لنجد في أوساط المثقفين أنفسهم مواطنين يتحمّسون لمشروعات خياليّة من نوع « عصبة الأمم المضطهدة » و « عصبة الأمم » وما شاكل .

وتحضرني للمناسبة حادثة شغلت أنديتنا « العنصريّة » بضعة أشهر . ففي العام ١٩٢١ هبط أوروبا استقلاليون هنود واستطاعوا أن يدخلوا في روع الناس أن الأمبراطوريّة البريطانيّة توشك أن تنهار لأن الهند ، حجر الزاوية في هذه الأمبراطوريّة ، تتمخّض بثورة هائلة . وقد أقام « العنصريون » في ألمانيا يرقبون انهيار الأمبراطوريّة كما يرقب الأولاد فجر عيد الميلاد، فدلّلوا بذلك على قصر نظرهم وعلى جهلهم تاريخ الفتح الإنكليزي .

إن الذين أملوا انهيار الأمبراطوريّة بمجرّد خروج الهند من أيدي الانكليز قد اعترفوا بأن بقاء الهند خاضعة لسيطرة إنكلترا أمر حيوي بالنسبة إلى هذه الدولة . فهل يعقل والحالة هذه أن يدع الاستعماريون الإنكليز « جوهرة التاج » تفلت من أيديهم ؟

لا . لن يكون هذا ما لم يدرك انكلترا الانحلال العنصري — وهذا بعيد الاحتمال — أو ما لم تخرّ صريعة بضربة سيف يسدّدها إليها عدوّ أقوى منها . أمّا القول إنّ الأمبراطوريّة ستنهار بمجرّد قيام الهنود بثورة ، فزعم إن جاز لأبناء أميركا الجنوبيّة مثلاً أن يأخذوا به ، فلا يجوز أن يأخذ به الألمان الذين تعلّموا على حسابهم أنّ الإنكليز أمّة شديدة المراس .

ولم يكن « العنصريّون » الذين أملوا خيراً من الحركة الاستقلاليّة في مصر ، أعقل من إخوانهم الذين أقاموا يرقبون انهيار الأمبراطوريّة البريطانيّة كنتيجة منطقية لجنوح الهنود إلى المقاومة . فالجهاد المقدس يمكن أن يزعج الإنكليز في وادي النيل ، ولكن المصريّين لن يفلحوا في زحزحة الكابوس البريطاني ،

ولن يذهبوا في التضحية إلى حدّ الجود بدمائهم في سبيل قضيّة « إخوانهم » الألمان كما يتوهم الخياليون من المواطنينّ .

إن الذين آمنوا بجدوى الكفاح المشترك – كفاح ألماني – مصري – هندي – لم يفطنوا إلى واقعهم الأليم ، أيقوى حلف من المقعدين على مهاجمة عملاق يقظ لا يدّخر وسعاً في سبيل الدفاع عن كيانه والحفاظ على مقتنياته ؟ وأنا كعنصري أتخذ من الأعراق مقياساً لقيمة العتاد البشري ، لا أبيح لنفسي ربط مصير شعبي بمصير شعوب تحتلّ ، في التسلسل العنصري ، مرتبة وضيعة .

وما قلته في « الشعوب المضطهدة » ينطبق اليوم على روسيا التي لا يمكننا الاعتماد عليها في نضالنا من أجل تحرير الأمّة الألمانيّة ، بعد أن آلت مقاليد الأمور فيها إلى جماعة من المغامرين الدوليّين . فمن الوجهة العسكرية المحض لن تفيد ألمانيا شيئاً من حلف يقوم بين الدولتين في وجه أوروبا الغربيّة ، لأنّ رحى القتال ستدور حتماً على الأرض الألمانيّة دون أن نتلقى من الحليفة الشرقيّة معونة مجدية ، ذلك بأن بولونيا التي تعترض سبيل الجيش الروسي في زحفه غرباً هي اليوم موالية لفرنسا ، وفي الحرب يتعيّن على روسيا أن تصفّي حساب الدولة البولونيّة ليتسنى لها إرسال قوّاتها إلى ميادين القتال الرئيسيّة .

ولا ننسى أن ألمانيا في حرب تنشب بينها وبين الغرب ستكون حاجتها إلى الوسائل التكنيكيّة أشدّ منها إلى الرجال . وقد تحملت وحدها في الحرب العالميّة عبء الحرب التكنيكيّة لأنّها لم تحسن اختيار حلفائها . وروسيا اليوم عنصر تكنيكي لا يعتدّ به ، فكيف نواجه وإيّاها الغرب ذا الوسائل الآلية المتفوّقة في حرب سيكون فيها القول الفصل للآليات ؟ وهل تستطيع ألمانيا المحدودة الإمكانات أن تؤمن الوسائل التكنيكيّة اللازمة لها ولحليفتها ؟ طبعاً لا ، وعلى هذا نكون بدخولنا الحرب اعتماداً على روسيا قد سقنا الشبيبة

الألمانيّة إلى مجزرة هائلة ، لنخرج من المعمعة خاسرين .

يقول الداعون إلى محالفة روسيا إن قيام حلف ألماني – روسي ليس معناه الحرب ، ففي وسعنا عقد الحلف اليوم والاستعداد ، في ظله ، لما قد يطلع به الغد . فإلى الذين يسوقون هذا الاعتراض أقول إن الحلف الذي يدعون إليه لا معنى له ولا قيمة . تتحالف دولتان أو عدة دول استعداداً للحرب ، وإذا سلمنا جدلاً بجواز قيام حلف ألماني – روسي منذ اليوم لمواجهة حرب قد تنشب بعد عشر سنين ، فالأعداء الذين يحصون علينا أنفاسنا لن يعطونا الوقت الكافي لاستكمال استعداداتنا التكنيكيّة ، وقد برهنوا في الماضي القريب أنّهم قادرون على استدراجنا إلى الحلبة ونحن غير مستعدين ، وتحميلنا من ثمّ مسؤوليّة النزاع .

يضاف إلى هذا كلّه الحقيقتان الآتيتان :

١ – إنّ حكّام روسيا الحاليّين ينظرون إلى المعاهدات والمواثيق نظرهم إلى قصاصات ورق لا قيمة لها .

ولا يعزبن عن بال أحد أن حكّام روسيا الحاليّين هم مجرمون غائصون في الدم حتى أعناقهم . إنّهم حثالة البشريّة انقضت في غفلة من القدر على دولة جبارة فصرعتها وفتكت بالملايين من أبناء الطبقات الموجهة لتقيم على أنقاض ذلك كلّه دكتاتوريتها المطلقة . وليس من يجهل أن حكام روسيا الحاليين ينتمون إلى شعب أتقن النفاق والتلفيق ، شعب يدّعي أنّه مدعو لإخضاع العالم لسيطرته . إن اليهودي الذي يقبض على عنق روسيا الآن لا ينظر إلى ألمانيا نظره إلى حليفة يمكن التعاون وإيّاها ، بل يعتبرها الفريسة المقبلة ، فكيف يريد البعض منّا أن نمد يدنا إلى شريك تقوم مصلحته على خراب شريكه ؟ كيف يريد هذا البعض أن نعقد مواثيق مع أناس شعارهم الكذب والخداع والسرقة والنهب ؟

٢ – إن الداء الذي صرع روسيا يتهدّد ألمانيا نفسها . فليعلم الذين

يدفنون رؤوسهم في الرمال أن بلشفة روسيا هي خطوة أولى نحو إخضاع العالم للسيطرة اليهوديّة . واليهودي ، كالأنكلوسكسوني ، قد يتحوّل عن هدفه لوقت محدود ، ولكنّه لا ينفك يتطلّع إليه متحيّناً الفرص لسلوك السبل المؤدية إليه ، وسبيل اليهودي هو الاختلاط بالشعوب واستنفاد حيويتها وإفساد دمها ، وهو سيتابع نهجه هذا إلى أن يصطدم بقوّة ترسل إلى الجحيم من يحاول غزو السماء .

إن ألمانيا هي الفريسة التالية الّتي يسيل لها لعاب البلشفية . ولن ينقذها من هذا المصير إلاّ فكرة جبّارة يلتفّ حولها المخلصون ويؤدي انتشارها إلى النهوض بشعبنا . أما القول إن الشعب الألماني بحاجة إلى ساعد يتوكّأ عليه في سعيه إلى تحرير نفسه ، وإن روسيا هي الحليف الأمثل ، فإنّه يشف عن قصر نظر أو سوء نيّة . فكيف نرجو استرداد اعتبارنا كأمّة باعتمادنا على دولة يتحكّم بمصيرها عدوّنا المميت ؟ كيف نوفق بين تحالفنا مع روسيا البلشفية وبين ما نقوله للعامل الألماني من أن البلشفيّة حركة هدّامة ؟ وبأيّ حقّ نعمد إلى اضطهاد الحمر من مواطنينا في وقت يتخذ حكّامنا من زعماء الحركة البلشفيّة حلفاء لهم ؟

إنّ مكافحة البلشفيّة تتعارض والتفاهم مع روسيا السوفياتيّة ، فإذا حالفنا السوفيات نكون كمن يستعين بإبليس لطرد الشيطان .

قلت في جزء سابق إنّه كان على رجال الدولة الألمان قبل ١٩١٤ أن يحالفوا إنكلترا ليتسنى لهم التوسّع شرقاً وهم مطمئنون ، أو أن يحالفوا روسيا لئلاّ يضطرّوا إلى القتال في ساحتين . أمّا اليوم فمحالفة روسيا لم تبقَ ذات موضوع ، وقد رسمت حركتنا لألمانيا سياسة خارجيّة مستوحاة من الواقع ومتفقة مع مصالح أمتنا ، وهي ترجو أن يأتي يوم تصان فيه هذه المصالح بفضل تقيّد الحكّام بالسياسة المرسومة والّتي يصحّ أن ننزلها منزلة الوصية السياسيّة .

أمّا الخطوط الرئيسيّة لهذه السياسة فهي الآتية :

لا تسمحوا أبداً بقيام دولتين بريتين كبيرتين في القارة الأوروبيّة ، وفي كلّ مرّة تقوم محاولة لإنشاء دولة عظمى على مقربة من الحدود الألمانيّة ينبغي لكم أن تعتبروا هذه المحاولة عملاً غير ودّي بل تهديداً موجهاً إلى بلادنا ، وعليكم أن تحولوا دون قيام هذه الدولة بكلّ ما تملكون من وسائل . واحرصوا على أن يكون مصدر قوّة ألمانيا في أوروبا ، في الأرض الألمانيّة ، ولا يجوز لكم أن تطمئنوا إلى وضع الريخ ومصيره قبل أن توفروا للشعب الألماني المدى الحيوي الذي يحتاج إليه .

• • •

أعود إلى موضوع التحالف بيننا وبين الإنكليز والإيطاليّين ، لأشدّد على أهميّة هذا الحدث من الناحية العسكريّة .

يترتّب على قيام هذا الحلف نتائج عسكريّة هي ، في جملتها وتفصيلها ، عكس النتائج التي تترتّب على قيام حلف ألماني — روسي . فتعاقدنا مع إنكلترا وإيطاليا لن يؤدي ، حتماً ، إلى قيام خطر الحرب ، لأن الدولة الوحيدة التي يمكن أن تتخذ من الحلف موقفاً عدائيّاً ، أي فرنسا ، لن تقدم على هذه الخطوة يقيناً منها بأنّها أعجز من أن تواجه الدول الثلاث . يضاف إلى هذا أن تقربنا من الانكليز والإيطاليين يتيح لنا الوقت الكافي للتأهّب والاستعداد ، في نطاق الحلف الثلاثي ، للحرب الثأرية التي يجب أن نخوض غمارها ضد فرنسا ، بعد أن يتمّ لدبلوماسيتنا عزل هذه الدولة وانتزاع المبادرة منها عسكريّاً وسياسيّاً .

وللحلف الثلاثي أهميته من الناحية التكنيكيّة ، فألمانيا لن تنوء هذه المرّة تحت عبء الحرب ومتطلباتها ، لأنّ حليفتيها قادرتان على تجهيز أنفسهما تكنيكيّاً بفضل اقتصاديهما المنظمين ومواردهما العظيمة .

ألمعت في جزء سابق إلى العقبات التي تعترض تحقيق هذا المشروع ،

ولكنها عقبات يمكن تذليلها ، ألم يقم التحالف الودي بين فرنسا وإنكلترا في عهد ادوار السابع ، على الرغم ممّا بين الدولتين من بواعث النفور والعداء ؟ ونحن نستطيع أن نخرج من الحلقة المفرغة التي ندور فيها منذ عشرات السنين ، يوم نتحرّر من أوهامنا وننهج في الحقل الخارجي سياسة رشيدة تطلق أيدينا في الشرق ، بعد أن تكون قد قلّمت أظافر فرنسا في الغرب .

وليعلم الذين يجترون أحقادهم أن الاستمرار في إغضاب أعداء الأمس



بسمة الثقة

كافة من شأنه أن يزيدهم تضافراً ، وأن القضيّة الألمانيّة تربح كثيراً من تفرّق كلمتهم ، وليعلم الذين يجترّون أحقادهم على إنكلترا وإيطاليا أنّ كلّ دولة لا تنظر بارتياح إلى تزايد نفوذ فرنسا في القارة هي حليفة طبيعيّة لألمانيا ، وأنّه لا يجوز لنا أن ندّخر وسعاً أو أن نحجم عن خطوة في سبيل استمالة هذه الدولة ، إذا كان تفاهمنا وإيّاها يدنينا من الهدف : سحق فرنسا التي تريد إبادتنا .

الفصل الرابع والعشرون

حق الدفاع المشروع

في التاريخ أكثر من شاهد على أن الشعوب التي تلقي السلاح وهي بعد قادرة على المقاومة ، تفضل من ثمّ تلقّي الصفعات والإهانات المذلّة على حمل السلاح مجدداً .

ويبدو لنا أن المسكين بالخيوط من وراء الستار في ألمانيا المغلوبة على أمرها يحاولون منذ تشرين الثاني ١٩١٨ التدرج بالشعب الألماني نحو المصير الذي ينتهي إليه كلّ شعب يتلقّى الصفعات وهو مطرق ، لا يبدي ولا يعيد .

وقد كان لما بثّه ويبثّه الخبثاء من دعوة إلى الخضوع التامّ للمنتصرين تأثيره السيء في تفكير الساسة وتصرفات السواد . ولما كان اليهودي هو الذي يوجّه سياسة ألمانيا الخارجيّة منذ ١٩١٨ ، فإن الأخطاء التي تقع فيها سياستنا الخارجيّة ليست دائماً وليدة قصر النظر والجهل والارتجال . . . إنّ الأصابع اليهوديّة التي تتلاعب بمقدرات شعبنا تحاول منذ سنوات أن تورد هذا الشعب موارد الهلاك ، ويمكن القول إنّ كلّ خطوة غير موفقة خطتها بلادنا منذ ١٩١٨ إلى اليوم لم تكن نتيجة الخطإ أو الإهمال ، بل كانت نتيجة خطة مرسومة تتّفق وأهداف اليهود .

عندما هزمت جيوش نابوليون بروسيا (١٨٠٦) خيل إلى الرأي العام العالمي أن الدولة المغلوبة على أمرها لن تقوم لها قائمة . . . ولكن بروسيا استردّت قواها الحيويّة في غضون سبع سنوات ، وامتشقت الحسام في وجه الفاتح .

وقد انقضت سبع سنوات على هدنة تشرين الثاني ١٩١٨ فازدادت ألمانيا خلال هذه المدة ضعفاً على ضعف ، ألم تقبل بالأمس أحكام معاهدة لوكارنو الظالمة ؟

لقد ألقت ألمانيا السلاح وهي بعد قادرة على المقاومة . ومنذ أن قبلنا شروط المنتصر خارت عزائمنا وبتنا عاجزين عن مقاومة التدابير التي لجأ إليها أعداؤنا إمعاناً منهم في إيذائنا وإذلالنا . وقد عرف هؤلاء الأعداء كيف يخدّرون عزّة نفس الشعب الألماني وكبرياءه ، فما اشتطّوا في فرض المطالب ولا هم فرضوها دفعة واحدة ، بل تدرجوا نحو إخضاعنا لسيطرتهم بخطى بطيئة لعلمهم أن التدرج أسلم عاقبة ، وهكذا استطاعوا ، تعاونهم حكومتنا المستسلمة ، أن يحقّقوا أغراضهم كلّها دون أن يستفزّوا شعورنا أو يستثيروا نقمتنا .

وهكذا استدرجنا المنتصرون إلى التوقيع على اتفاقات وقبول شروط وتسويات من شأنها تجريدنا من مقومات البقاء واستعبادنا . وقد بلغ بنا التخاذل والاستسلام حدّاً حمل البعض منّا على اعتبار مشروع دايفز حدثاً سعيداً ومعاهدة لوكارنو نصراً مبيناً .

• • •

كتمت فرنسا عن حلفائها نياتها الحقيقيّة في المؤتمرات التي سبقت الحرب والتي تلتها مباشرة . ولكن هذه النيات برزت بوضوح في شتاء ١٩٢٢ — ١٩٢٣ فأدرك الذين لا تخدعهم المظاهر أن فرنسا التي جازفت بمقدّراتها في حرب عالميّة ضروس طيلة أربع سنوات وبضعة أشهر ، لم تفعل طمعاً بالحصول على مليارات الماركات لتعويض ما أصابها من خراب ودمار ، بالإضافة إلى اقتطاع الألزاس واللورين وضمّهما إلى أراضيها . لقد قامت فرنسا بأخطر مجازفة في تاريخها لأن اليهوديّة العالميّة التي توجه سياسة باريس الخارجيّة جعلت في رأس أهداف هذه السياسة تقطيع أوصال ألمانيا وجعلها مقدونيا الثانية .

لقد أملت فرنسا بلوغ هذا الهدف والحرب مستعرة الأوار . وكانت ترجو أن تدور رحى المعارك الطاحنة على الأرض الألمانيّة ، وفي هذه الحالة يسهل على الحلفاء تقطيع أوصال الريخ وإنشاء دويلات متضاربة الاتجاهات متباينة الأهداف ، بحيث لا تقوم ، من ثمّ ، قائمة لألمانيا الموحدة .

ولو تمّ للفرنسيّين ما أملوا ودارت رحى المعركة في الروهر وعلى الرين والايلب ، أمام هانوفر ولايبزغ ونورمبرغ الخ . . . بدلاً من أن تستمر حرب الخنادق والحصون أربع سنوات في الفلاندر وأمام فرصوفيا وريغا وكوفنو ، لما لقي الحلفاء صعوبة كبيرة في تقطيع أوصال الريخ ، هذه الدولة الحديثة العهد بالنظام الفيدير الي . ويعود الفضل في نجاة بلادنا من ويلات الحرب إلى الجيش الألماني وحده ، لهذا يمكن القول إن دم إخواننا الذين سقطوا في ميادين الشرف لم يرق جزافاً .

نعم انهارت ألمانيا في تشرين الثاني ١٩١٨ ، ولكن عند وقوع الكارثة كانت جيوشنا تحتلّ رقعة كبيرة من أراضي الأعداء ، لهذا اهتمّ الفرنسيون أوّل ما اهتمّوا بإجلاء هذه الجيوش عن فرنسا وبلجيكا . ولما تمّ لهم ذلك تنفّسوا الصعداء وهمّوا بتحقيق الهدف الرئيسي : تقسيم الريخ إلى دويلات ، فاعترضت طريقهم إنكلترا التي اكتفت بما حصل . فقد كان همّها أن تزيح من طريقها ألمانيا الدولة الاستعماريّة والمنافسة لها تجاريّاً . ولكنها ما فكّرت قطّ في القضاء على ألمانيا قضاء مبرماً ، لأن هذه النتيجة لا تتّفق ومصالحها ، وتتعارض وسياستها التقليديّة : الحؤول دون قيام دولة أوروبيّة قادرة على إخضاع القارة لسيطرتها .

تراجعت فرنسا أمام معارضة حليفتها ، ولكن كليمنصو عبّر عمّا يجول في رؤوس مواطنيه عندما قال : « السلم بالنسبة إلينا هو استمرار الحرب . » وقد عمل الفرنسيون مذ ذاك على إضعاف بلادنا ، متوسلين إلى ذلك بالضغط الاقتصادي وتشجيع النزعة الانفصاليّة في بعض المناطق ، وهي سياسة تؤدي

في حالة استمرارها بضع سنوات ، إلى النتيجة التي توختها فرنسا من استدراجها ألمانيا إلى الحرب والتي حالت معارضة إنكلترا دون حصولها لأسباب خارجة عن إرادتنا نحن . . .

وفي شتاء ١٩٢٢ – ١٩٢٣ أدرك المخلصون أن فرنسا واصلة حتماً إلى ما تريد إذا لم تتحطّم إرادتها على صخرة المقاومة والعناد الألمانيّين ، وأدركوا في الوقت نفسه أن ركوب بلادنا هذا المركب يجب أن يسبقه نسف الحلف الذي مكن فرنسا من إحراز النصر ، وإلاّ كانت المقاومة ضرباً من الانتحار .

وقد شدّدت أنا في بياناتي وخطبي على هذه الناحية وقلت إن فرنسا لن تعدّل موقفها منّا من تلقائها لأنّ بقاءها كدولة رهن ببقائنا نحن أمّة ضعيفة ، مفكّكة الأوصال . ولو كنت أنا فرنسيّاً لنظرت إلى ألمانيا النظرة نفسها . فالاعتماد على قيام حكومة فرنسيّة معتدلة هو ، في نظري ، أفيون سياسي يصفه لأعصابنا المريضة أعداء ألمانيا الداخليون من يهود وديموقراطيّين لأنّ كلّ فرنسي هو كليمنصو أو بوانكاره ، ولن تفيدنا شيئاً السلبية التي يدعو إليها بعض « العنصريّين » القائلين باللاعنف ، لأنّ عدوّنا الذي يكشر لنا عن أنيابه لن يتراجع أمام ازورارنا ولن تزعجه احتجاجاتنا وشكاوينا .

لن ينصفنا من فرنسا غير ساعدنا القوي وتفكيرنا السليم ، ومتى استطعنا عزل هذه الدولة بتفاهمنا وحلفاءها بالأمس ، جاز لنا أن نُعدّ العدة لمناقشتها الحساب ، ملقين في الميزان بأهداف أمتنا ، ولكن القضاء على فرنسا لن يكون أكثر من وسيلة لبلوغ غاية لا حياة لأمّتنا بدونها : ينبغي لنا أن نتبع اقتلاعنا الشوكة التي تؤلم ظهرنا بحركة توسعيّة في الشرق تؤمن لنا المدى الحيوي الذي يجعل من ألمانيا دولة عظمى وقوّة عالميّة .

• • •

في كانون الأوّل ١٩٢٢ احتلّت فرنسا حوض الروهر إمعاناً منها في إذلالنا وفي تحطيم أضلاعنا معنويّاً واقتصاديّاً ، ولكن هذه البادرة التي قصمت

فعلاً ظهر ألمانيا، كانت عاملاً رئيسياً في إذكاء الشعور الوطني، يضاف إلى هذا أن احتلال الروهر قد أغضب إنكلترا، حكومة وشعباً، لأنّ هذه المنطقة غنيّة بمناجم الفحم والحديد، واستيلاء الفرنسيّين عليها يجعل من بلادهم الدولة الأولى في أوروبا، سياسيّاً وعسكريّاً واقتصاديّاً، ويتيح لها أن تنافس إنكلترا في كلّ مكان وفي كلّ ميدان. وقد كتبت صحيفة إنكليزيّة شبه رسميّة تقول إنّ فرنسا باحتلالها الروهر قد انتزعت من إنكلترا المغانم كلّها.

وكان للبادرة الفرنسيّة صدى غير مستحبّ في إيطاليا والولايات المتحدة الأميركيّة. وبدا على حلفاء الأمس أن ما كان يجمعهم ترك مكانه لما هو كفيل بتفريق شملهم. ولكن إذا كان حلفاء الأمس لم ينقلبوا أعداء الغد كما حدث بعد الحرب البلقانيّة الثانية، فمردّ ذلك إلى افتقار بلادنا إلى رجل كأنور باشا، يعرف كيف يستغل الخلاف الناشب بين أعداء بلاده.

عندما شرع الفرنسيون يتوغلون في منطقة الروهر اتجهت الأنظار إلى السلطات الألمانيّة، وأدرك المخلصون أن ألمانيا تعيش لحظة حاسمة من تاريخها، وأن كلّ شيء يتوقّف على قرار الحكومة ووقع هذا القرار داخل البلاد وخارجها. ولم يكن ثمّة مجال للتردّد، فالبادرة الفرنسيّة تشكل خرقاً لمعاهدة فرساي، وقد أغضبت الرأي العام في كلّ من إنكلترا وإيطاليا، وحملت حكومة لندن على التصريح في مجلس العموم بأن الحكومة الفرنسيّة لم تراع شعور حلفائها ولا مصالحهم باحتلالها منطقة المناجم في ألمانيا السفلى.

كان على حكومتنا أن تعمد إلى استغلال هذا الخلاف يذر قرنه بين حلفاء الأمس، وأن تسقط من حسابها قيام تعاون بين هؤلاء الحلفاء في وجه مقاومة ألمانية جدية للغزو الفرنسي. كان عليها أن تجعل من الروهر ما كانت موسكو بالنسبة إلى نابوليون، معتمدة على الشعور الوطني الذي أيقظه العدوان الفرنسي.

لم يكن بالإمكان منع الفرنسيّين من احتلال الروهر باللجوء إلى التدابير

العسكريّة . ولم تكن المفاوضات لتجدي نفعاً لأن المفاوض الألماني يمشي إلى لقاء الخصم أعزل من كلّ سلاح . لم يبقَ إذن إلاّ العمل على كسب الوقت وإلهاء قوات الاحتلال بمناوشات تقوم بها العصابات ريثما تنظف الجبهة الداخليّة من الخونة ، ونضمن في الخارج عطف الإنكليز والإيطاليّين وتأييدهم.

ولكن حكومة المستشار « كونو » اعتمدت منهجاً آخر .

لقد اكتشف المستشار « العبقري » أنّ فرنسا لم تحتلّ حوض الروهر إلاّ لأنّه غنيّ بالفحم الحجري . فهي تريد إذن الاستيلاء على هذا الفحم .

وقرر المستشار « العبقري » أن الوسيلة الوحيدة لإخراج المحتلّين من الروهر هي إعلان الإضراب العام في المنطقة ، لأنّ هذا الإضراب يشلّ حركة استخراج الفحم ، ويفوّت ، من ثمّ ، على الفرنسيّين الغرض من الاحتلال ، فيجلون عن المنطقة يجرّون أذيال الخيبة .

وأعجبت هذه الخطّة الأحزاب البورجوازيّة فتحمّست لها ، ولكنها وجدت أن الإضراب لا يمكن أن يؤتي ثماره بمعزل عن الماركسيين الذين يتقنون التحريض والتنظيم . . . ووافق البورجوازيون على ضم الحمر إلى « الجبهة الوطنيّة » ، ومدّ المستشار كونو يده إلى المغامرين الدوليّين أعداء الوطن ، فتلقّفوا يده بحرارة ولهفة ، لأن انضمامهم إلى « الجبهة الوطنيّة » يوازي اشتراكهم في الحكم في وقت تسلم البلاد قيادها لأركان الجبهة .

وهكذا حقّق كونو « الوحدة الوطنيّة » وواجه الفرنسيّين بحلف ضمّ القوميّين الثائرين والدوليّين المحتالين والذين أتاحت لهم الدولة نفسها ، وعلى نفقتها هذه المرّة ، فرصة ذهبيّة للعمل على إشاعة الفوضى وتخريب الاقتصاد القومي .

لقد أراد كونو تحرير الشعب الألماني بتشجيعه على التقاعس والكسل . ولو أنّه ، بدلاً من أن يدعو الناس إلى الإضراب العام ، دعاهم إلى العمل ساعتين إضافيتين في اليوم لتوفير العتاد اللازم للشبيبة الألمانيّة المتقدة غيرة

ووطنيّة ، لأعطى تدبيره أفضل النتائج في الداخل ، ولترك في الخارج أطيب أثر في نفوس الذين أقاموا يرقبون مدى الانتفاضة الألمانيّة .

ومن تحصيل الحاصل القول إنّ المقاومة السلبيّة المزعومة لم تعمر طويلاً ، وإنّ الإضراب — وما رافقه من شغب — لم يمنع الفرنسيّين من تثبيت أقدامهم في الروهر . وقد كان على كونو — لو كان مخلصاً حقّاً — أن يهتمّ بتنظيم المقاومة الفعليّة إلى جانب اهتمامه بتنظيم المقاومة السلبيّة ، ولو أنّه فعل ، لأحجم الفرنسيون عن البقاء في منطقة تغلي كالمرجل ، ليس لأن فحم الروهر لا يستأهل أية تضحية من جانبهم، بل لأن اندلاع نيران الحرب، ولو على نطاق ضيّق تفرضه حالة ألمانيا ، قد يجعل من حلفاء الأمس أعداء ألداء ، وعندها تدفع فرنسا غالياً ثمن غرورها وعنجهيتها ونهمها .

لقد كان موقفنا نحن الوطنيّين الاشتراكيّين صريحاً من المقاومة السلبيّة و « الجبهة الوطنيّة » المزعومة . فقد سفّهنا الأولى وحاربنا قيام الثانية وجاءت الحوادث مؤيدة لوجهة نظرنا .

ذلك أن العناصر القوميّة في البلاد قرّرت ، بعد أسابيع من إعلان الإضراب في حوض الروهر ، تنظيم المقاومة الفعليّة في وجه المحتلّين ، ودعت المضربين إلى التعاون وإيّاها . وقد كان لهذه الدعوة تأثيرها في نفوس العمال المخلصين فقرّروا الانضمام إلى فصائل الرماة الأحرار والمساهمة في حرب العصابات . أمّا الماركسيّون فقد ردّوا على دعوة العناصر القوميّة بالانسحاب من « الجبهة الوطنيّة » وما لبثوا أن تطوّعوا لخدمة أغراض المحتلّين بعد أن ملأوا صناديقهم من مال الدولة وخربوا الاقتصاد القومي تحت ستار المساهمة في المقاومة السلبيّة .

وقبل أن يثبت « الرماة الأحرار » وجودهم انهارت « الجبهة الوطنيّة » وعقبها تسليم السلطات بشروط الفرنسيّين ، وفتحت هذه الخيانة عيون الملايين من الألمان على أهميّة الحركة الوطنيّة الاشتراكيّة وأهدافها القوميّة

السامية وأدركوا أن خلاص ألمانيا رهن بنجاح هذه الحركة وبيناع المبادىء العنصريّة التي تنشرها .

ليس هذا مجال إيراد الحوادث التي سبقت ٨ تشرين الثاني ١٩٢٣ ، تلك الحوادث التي انتهت بحلّ الحزب الوطني الاشتراكي بعد اعتقال أركانه والعديد من أعضائه ومناصريه . ولكني أقرر هنا أن ما قمنا به لم يكن الدافع إليه شهوة الحكم ، كما يحلو لأعداء حركتنا أن يرجفوا ، فقد جاءت حوادث ٨ تشرين الثاني ١٩٢٣ تعبيراً صادقاً عمّا كان يجيش في صدور الملايين من المواطنين . وتحضرني للمناسبة الكلمة التي ختمت بها دفاعي في اليوم الأخير لمحاكمة حزبنا . فقد قلت مخاطباً القضاة :

« يستطيع قضاة هذه الدولة أن يدينونا من أجل ما فعلنا ، ولكن التاريخ الذي يجسد حقيقة أسمى سيمزّق ذات يوم هذا الحكم ، ويحلّنا جميعاً من خطيئة لم نرتكبها . »

وأمّا موقف الأحزاب والهيئات منّا في خريف ١٩٢٣ وفي أثناء محاكمتنا ، فإنّي أمرّ عليه بإسفنجة لأني لا أريد أن أنكأ الجراح ، ولأني مقتنع بأن الذين حاربونا بالأمس القريب ليسوا ، كلّهم ، أعداء الشعب الألماني ، وأنّ معظمهم سيذكر يوماً باحترام رجالاً سلكوا مختارين الطريق المؤدي إلى الموت لينقذوا وطنهم من الهلاك .

تمّ الكتاب

نهاية هتلر[1]

كان هتلر يقول وهو بعد رجل عقيدة ونضال : « الرجل الشجاع هو من تحمّل نتائج عمله . » وبقي هذا شعاره بعد أن انتهت إليه مقاليد الأمور وأضحى الآمر الناهي في الريخ الثالث . فهل تبدّل الفوهرر غير الفوهرر عندما أقدم على الانتحار في قصر المستشارية ببرلين بعد أن رزح تحت العبء وشهد بأم العين انهيار البنيان الشامخ الذي شيّده ساعداه القويّان ؟

إنّنا نترك الكلام لألبرت زوللر ، الرجل الذي عايش هتلر اثني عشر عاماً ووقف بحكم اتصاله الدائم به على نواح في شخصيّة الدكتاتور بقيت سرّاً مغلقاً بالنسبة إلى أقرب المقرّبين .

يقول ألبرت زوللر في نهاية هتلر :

« لا يخامرني شكّ في أن هتلر وإيفا برون قد انتحرا. وكان انتحارهما الخاتمة التي كرّست انهيار ما حقّقه رجل الريخ الثالث .

قبل الحرب كان هتلر يشجب الانتحار ، وطالما سمعته يقول إنّ أعظم الويلات لا تبرّر استسلام المرء لليأس . وبلغه ذات يوم أن أحد أصدقائه القدماء وضع حدّاً لمتاعبه بالانتحار شنقاً ، فقال لمن حوله : « عرفت صديقي هذا رجلاً شجاعاً ، ولا ريب عندي أنّه لو وقع على صديق يواسيه في محنته لاستردّ ثقته بنفسه وبمصيره . »

ولكن هتلر تخلّى عن هذه النظريّة بعد محاولة ٢٠ تموز سنة ١٩٤٤ (حاول بعض العسكريين اغتياله) ويغلب على الظنّ أن التحوّل الذي طرأ على تفكيره مردّه إلى عوامل شتّى منها انهيار صحته وجهازه العصبي ،

---

١ أضفنا هذا الفصل إلى كتاب كفاحي زيادة للفائدة .

ومنها شعوره بأن أنصاره بدأوا ينفضّون من حوله ، ومنها أخيراً اقتناعه بأنّه خسر الحرب .

رافقته إلى مقرّه العام في بروسيا الشرقيّة ، وسهرنا ذات ليلة حول المصطلى إلى ساعة متأخرة ، وكان الحديث يدور حول معنويات جنودنا ، فقال لي هتلر وهو ساهم : « عندما تتخلّى العناية عن الإنسان وتنهار معنوياته لا يبقى أمامه إلاّ أن يتوارى . »

وعندما اعتكف في أيلول ١٩٤٤ ، أرسل يدعوني إليه ، فلازمته ثلاثة أسابيع ، وكان كلّما شعر بالآلام (كان يشكو ألماً في المعدة) يناشد طبيبه أن يسعفه بعقار مخدر كالمورفين أو سواه ، واتّفق ذات ليلة أن تعذّر إيجاد المخدّر ، واشتدّت وطأة الألم على الفوهرر ، فقام إلى دولاب صغير مثبت بالجدار وأخرج منه مسدساً ، فأدركت ما يجول في رأسه واختطفت المسدس من يده ، فقال لي وهو يتهالك على سريره : « لم يبقَ للحياة معنى ! »

قالها لي بلهجة تنمّ عن اليأس الشديد ، ولكنه ندم على تخاذله بحضوري فما عتّم أن تكلّف ضحكة خافتة وقال : « لقد أسأت تفسير بادرتي يا زوللر . أخرجت المسدس من مخبئه لأدفع به إلى بورمان لأنّه بحاجة إلى زيت . وقد أفادتني الحركة بعض الشيء فخفّت وطأة الألم . »

لم يستردّ نشاطه مذ ذاك ، وقد نصح له الأطباء بالاستجمام وناشده كبار معاونيه أن يكل العبء إليهم بعض الوقت ، ولكنّه ضرب بالنصائح والمناشدات عرض الأفق ، وكان يقول لإيفا برون ، كلّما توسّلت إليه أن يرفق بنفسه : « دعك من هذا الحذر ، إنّ ألمانيا لتنهار دفعة واحدة يوم أبتعد أنا عن الدفّة . »

واقترحت عليه إيفا ذات يوم قضاء أسبوعين في جبال بافاريا ، وكانت الجيوش الحليفة أتمّت تحرير فرنسا وبلجيكا وراح الجيش الأحمر يدقّ أبواب بروسيا الشرقيّة ، فبدا عليه قبول الاقتراح ، وسارعت أيضاً إلى إعداد الحقائب ووقفت أنا أعرض على الفوهرر بعض الأوراق ، وفجأة أرسل

ضحكة عصبيّة أذهلتني وأذهلت إيفا برون ، ثمّ سمعنا الفوهرر يتمتم كمن يخاطب نفسه :

« لماذا يريدون مني أن أستجمّ في بافاريا ؟ إنّهم ضنينون بحياتي ، وقد فاتهم أني سئمت تكاليف الحياة . » وكرّر هذه العبارة ثلاث مرّات ، ثمّ أبلغ إيفا أنّه لن ينتقل إلى الجبال البافاريّة . »

• • •

في كانون الثاني ١٩٤٥ انتحر العديد من حكّام المناطق المحتلّة مؤثرين هذه النهاية على تسليم أنفسهم للأعداء ، وكان هتلر يتلقى أنباء الانتحارات وهو على فراش المرض ، فيعلّق على كلّ منها بكلمتين اثنتين : حسناً فعل ... ولكنه انفجر باكياً عندما أبلغه غورنغ أن غوليتر فيينا صرع امرأته وأولاده الأربعة قبل أن ينتحر ، ثمّ التفت إلى إيفا برون ، وقال لها همساً : إنّها لنهاية شعريّة .

وأثرت حالة هتلر الصحيّة في حالته النفسيّة ، فأضحى سويدائي المزاج ولكنه لم يفقد الأمل بإنقاذ ألمانيا حتّى عندما شرع الحمر في دقّ أبواب المدن الصغيرة القائمة إلى الشرق من برلين ، بيد أني سرعان ما اكتشفت أنّه كان يتكلّف التفاؤل بحضور القادة العسكريّين ، فقد فاجأته مساء ٣ كانون الثاني يقول لفون ريبنتروب : « إن الدبلوماسيّة الألمانيّة لم تنجح في بذر بذور الشقاق في صفوف الحلفاء ، وها هم الغربيون يتدفقون على ألمانيا محاولين بلوغ برلين قبل حلفائهم الروس ، وقد اقترح الجنرال زوللر هذا الصباح اللجوء إلى الغازات السامة وحرب الجراثيم ، ولكني رفضت لأنّ هذه الأسلحة الفتّاكة لن تؤخّر القضاء المحتوم . »

• • •

لم أكن في قصر المستشارية عندما اختار هتلر وإيفا برون تلك النهاية التي اختارها من قبل غوليتر فيينا . فقد أمرني الفوهرر بمغادرة برلين قبيل

سقوطها بثلاثة أيّام ، وقال بحضور إيفا : « سأنتقل بعد يومين إلى الجبال البافارية لأنظم حرب العصابات ، فوافني إلى هناك لأني سأكون بحاجة إلى مستشار . »

ومع أنّه كان يعلم أنّ الروس أتمّوا تطويق العاصمة ، فما نمّت لهجته وهو يخاطبني عن ذلك اليأس الذي يدفع فريسته إلى الانتحار . . .

وحاولت في اليوم التالي مغادرة برلين بطريق البر ، فما استطعت إلى ذلك سبيلاً لأن الدبابات الروسيّة كانت قد ضربت حولها نطاقاً من فولاذ ، فاتصلت بالفوهرر هاتفيّاً واستأذنته بالبقاء ، فانتهرني وأمرني بالسفر فوراً على متن إحدى الطائرات ، ثمّ عاد فتلطّف بالمقال معي وقال إنّه يرجو أن يراني قريباً جدّاً في الجبال البافاريّة ، وسمح لي بأن أقضي في برلين يوماً آخر ولكنه اعتذر عن عدم استطاعته مقابلتي لانهماكه بإعداد الدفاع عن العاصمة .

بتّ ليلتي تلك في أحد أقبية قصر المستشارية ، وكانت برلين شعلة من نار ، الحرائق تلتهم المباني الرئيسيّة ومستودعات الوقود ، وقد حاولت مقابلة ايفا برون لأقف منها على حقيقة ما يعتزمه الفوهرر ، فقالت لي وصيفتها إنّ سيدتها في حجرة الزينة منذ الساعة الخامسة مساء ، وإنّ الفوهرر وافاها إليها بعد انتهاء الاجتماع العسكري . . . ولم تكتمني الوصيفة أن ايفا بادية القلق والاضطراب ، وقد رفضت خدمات وصيفتها عندما دخلت عليها هذه في الصباح لتسرّح لها شعرها وتساعدها على ارتداء ملابسها .

لم أعلّق أهمية على ثرثرات الوصيفة ، وعند الفجر برحت القصر وفي نيّتي اللجوء إلى سرداب في حي الجامعات يملكه صهري ، زوج شقيقتي الصغرى . فألفيت الجنود يحتلون السرداب ، ولم أجد أثراً لشقيقتي وصهري ، فقضيت نهاري في ملجإ عمومي ، ولما أرخى الليل سدوله على العاصمة تسللت عائداً إلى قصر المستشارية لأقف من أصدقائي الضباط على التطورات الأخيرة ،

ولكني لم أقع على ضابط واحد من معارفي وأصدقائي ، بل التقيت وجوهاً لا أعرفها ، وقد علاها الوجوم ، ولم أجرؤ على دخول الجناح الأرضي الذي يحتلّه الفوهرر لأني خالفت أوامره ولم أبرح برلين . . . وهممت بالصعود من الطابق الأوّل ، فاعترض سبيلي جنديان من رجال الحرس الخاص وقال لي أحدهما إنّ القصر يحترق لأن القنابل الروسيّة الناسفة والحارقة قد أشعلت فيه النار .

عدت أدراجي وفي نيّتي هذه المرّة أن أقتحم جناح الفوهرر وليكن من أمره ما يكون . . .

وهبطت السلم الخشبيّة المؤدية إلى القبو رقم ٥ ، حيث اعتاد هتلر العمل محاطاً ببعض معاونيه من عسكريّين ومدنيّين ، فالتقيت عند أسفل السلم بكونراد أحد مرافقي الفوهرر وكميكي سائق سيارته ، وكانا ينتحبان ، فسألتهما ما الخبر ، فأكّدا لي أن الفوهرر وزوجته (كانا قد تزوّجا في أوّل نيسان) قد انتحرا ، وقال كونراد وهو ينشج إنّه ساهم في حرق جثتيهما تنفيذاً لوصيّة هتلر .

وسألت كونراد كيف انتحر هتلر ، فهزّ كتفيه ، وقال السائق إنّ الذين حملوا الجثتين إلى حفرة في فناء دار المستشارية لحرقهما أكدوا له أن الانتحار كان بالسم ، وأن أحد الأطباء حقنهما به نزولاً على رغبة الفوهرر .

لم أصدّق شيئاً ممّا رواه الرجلان ، ولكن شاهد عيان ، هو الضابط فرانز بوهلر ، انضمّ إلينا ، وكان شاحب اللون ، مشعث الشعر ، أحمر العينين ، وأكّد لي نبأ الانتحار ولكنه قال إنّه استدعاه في ساعة مبكرة من الصباح (أوّل أيار ١٩٤٥) وقال له إنّه قرّر الانتحار بعد أن أفلت من يده زمام النصر ، وأفهمه بحضور إيفا برون أنّه سيطلق عليها رصاصة واحدة ، ثمّ ينتحر بدوره .

وأوصى هتلر الضابط بوهلر بأن تنقل الجثتان ملفوفتين بالعلم الألماني

إلى فناء القصر وتحرقا في حفرة قليلة العمق ، ثمّ أمره بالخروج ، فخرج وفي نيته نقل ما سمع إلى معاوني الفوهرر ، علّهم يتداركون الأمر ، فما وقع إلاّ على الدكتور بوهارت الذي كان يعالج هتلر في أيّامه الأخيرة ، وقبل أن ينقل إليه النبأ الهام ، دوىّ طلق ناري ، فثان فثالث ، وعقب ذلك صمت !

وكان الضابط والطبيب على بضعة أمتار من حجرة الفوهرر ، فهرعا إليها فوجدا هتلر وإيفا جثتين هامدتين ، وقد امتزجت دماؤهما .

وقد طلبت إلى الضابط أن يمضي بي إلى الفناء لأرى آثار الحريق والدخان ، فتقدمني في الرواق ، وقد تقوّس ظهره ، وقبل أن نجتاز العتبة سمعنا قرقعة شديدة عقبها دوي انفجارات هائلة ، وأقبل أحد الجنود من الفناء وقد علت وجهه صفرة الأموات ، وقال لنا وهو يلهث : « لقد انهار الطابق الثاني كلّه ، وملأت الأنقاض الفناء الخارجي . »

وهكذا حيل بيني وبين مشاهدة الحفرة التي ضمت بقايا هتلر وإيفا برون .

° ° °

في أواخر العام ١٩٤٧ عثرت بين أوراقي على رسالة كان موسوليني قد بعث بها إلى هتلر قبيل تسليم إيطاليا بأيّام ، وقد جاء في هذه الرسالة ما يلي : « لن أتخلّى عنك يا عزيزي أدولف ، إنّ مصيري مرتبط بمصيرك فإمّا أن ننتصر معاً أو نتوارى معاً . »

وكان ما توقعه الدكتاتور الإيطالي . . .

ففي أوّل أيار ١٩٤٥ سقط موسوليني وخليلته كلارا ميتاتشي برصاص الأنصار الإيطاليّين .

وفي أوّل أيار ١٩٤٥ مات هتلر وإيفا برون منتحرين . . .

وشتّان بين الميتتين !

كفاحي

هتلر والنازية

هتلر والحركة النقابية

لم يكن أدولف هتلر رجلاً عادياً كي تلفّه عجلة الزّمن. وتنثُره وراءها غباراً تضيع آثاره في أرجاء الكون الفسيح. وليس أدولف هتلر مَلكاً للشعب الألماني وحده. إنّه واحد من العظماء القلائل الذين كادوا يوقفون سير التاريخ ويبدّلون اتجاهه ويغيرون شكل العالم. فهو إذنْ مُلك التاريخ.

والترجمة التي نضعها بين يدي القارئ لكتاب "كفاحي" لم يسبق أن قدمت إلى الناطقين بالضاد بأمانة. لأنّها مأخوذة من النسخة الأصليّة لمؤلّف أدولف هتلر. أي النسخة التي لم تمتدّ إليها يد الرقابة بالحذف والتعديل. وقد حرصنا على نقل آراء هتلر ونظريّاته في القوميّة وأنظمة الحكم والأعراق دون أدنى تصرّف لأنّ هذه القضايا لا تبلى جدّتها ولأنّنا في دنيا العرب لا نزال نخبط في الحقول الثلاثة خبط عشواء.

من المقدمة